

أساليب الخطابة في القرآن الكريم

ورأته تناول

تتبع أساليب الخطاب وأساليب الإنشاء اللغوي
في القرآن الكريم

الأمر والنهي والاستفهام والسؤال والثناء والعتاب
والترغيب والترهيب والوعظ والتهويل

تأليف
الدكتور عبد الوهاب محمد المصطفى

المجلد الأول

الإصدار

مائة وأحد عشر

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الاجتماعية

الوعي الإسلامي

Ministry of Islamic Affairs and Charitable Activities

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
موتة الكويت - في مطلع كل شهر عربي

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

الإصدار مائة وأحد عشر

١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥ م

العنوان

ص.ب ٢٣٦٦٧

الصفحة ١٣٠٩٧ - الكويت

هاتف: ٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤

فاكس: ٢٢٤٧٣٧٠٩

البريد الإلكتروني

info@ahwael.com

الموقع الإلكتروني

www.ahwael.gov.kw

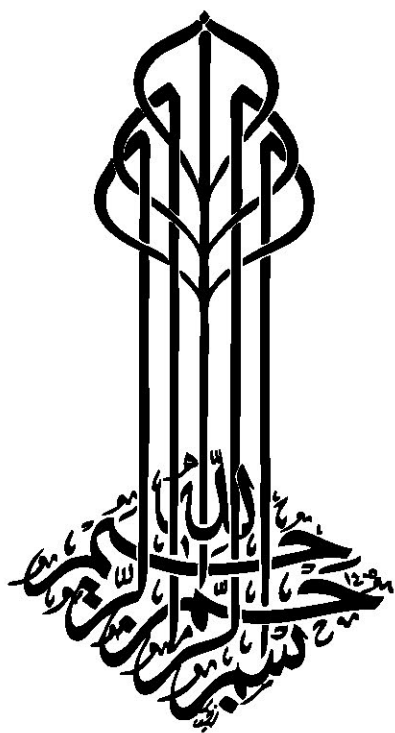
الإشراف العام:

رئيس التحرير

فصل يوسف أحمد العلي

أصل هذا الكتاب أطروحة جامعيّة قُدِّمت لنيل
شهادة الدكتوراه في علوم القرآن من جامعة
الجنان. (شعبان ١٤٣٢هـ - يوليو ٢٠١١ م)

أَسَالِيْبُ الْخَطَائِمِ
فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ



تصدير

بقلم رئيس تحرير مجلة الوعي الإسلامي

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب تبصرة لأولي الأبواب،
وأودعه من فنون العلوم والحكم العَجَب العُجَاب، وجعله أجَلّ
الكتب قدراً، وأغزرها علماً، وأعذبها نظماً، وأبلغها في
الخطاب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ربّ الأرباب،
الذي عنت لقيوميّته الوجوه وخضعت لعظمته الرقاب، وأشهد أن
سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث من أكرم الشعوب وأشرف
الشعاب إلى خير أمة بأفضل كتاب، صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم
المآب.

ثم أما بعد:

فإنّ العلم بحر زخّار لا يدرك له من قرار، وطود شامخ لا
يسلك إلى قمته ولا يصار، من أراد السبيل إلى استقصائه لم يبلغ
إلى ذلك وصولاً، ومن رام الوصول إلى إحصائه لم يجد إلى ذلك
سبيلاً.

وإنّ كتاب الله ﷻ هو مفجّر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها
ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل شيء، وأبان فيه كل

هدي وغني فترى كل ذي فنّ منه يستمد وعليه يعتمد، فالفقيه يستنبط منه الأحكام ويستخرج الحلال والحرام، والنحوي يبيّن منه قواعد إعرابه ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه، والبياني يهتدي به إلى حسن النظام ويعتبر مسالك البلاغة في صوغ الكلام، وفيه من القصص والأخبار ما يذكر أولي الأبصار، ومن المواعظ والأمثال ما يزدجر به أولو الفكر والاعتبار، إلى غير ذلك من علوم لا يقدر قدرها إلا من علم حصرها، هذا مع فصاحة لفظ وبلاغة أسلوب تبهر العقول، وتسلب القلوب، وإعجاز نظم لا يقدر عليه إلا علام الغيوب.

لذلك كله كان القرآن الكريم موضع العناية الكبرى من الرسول ﷺ وصحابته، ومن سلف الأمة وخلفها جميعاً إلى يومنا هذا. وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة، ومن هذه الأشكال ما قام به الباحث الدكتور/ عبد القادر دهمان - حفظه الله - حيث اهتم الباحث بجمع أساليب القرآن الكريم؛ في كتاب نفيس أسماه: «أساليب الخطاب في القرآن الكريم».

هذا، وقد دأبت مجلة الوعي الإسلامي - كعادتها - على انتقاء المواضيع والأبحاث العلمية القيّمة لتكون من ضمن إصداراتها الثقافية والعلمية الرائدة، فكان هذا البحث هو إصدارها الذي يحمل رقم (١١١) يُضاف إلى سلسلة إصداراتها العلمية.

ومرحلة الوعي الإسلامي، إذ تقدّم هذا الإصدار، فإنها تتوجه
 بخالص الشكر والتقدير للمؤلف على جهوده الواضحة في خدمة هذا
 الكتاب، ولجميع من ساهم وأعان على إصداره، سائلة الله ﷻ أن
 يجعل فيها النفع والفائدة للجميع.

والحمد لله رب العالمين

رئيس التحرير

فيصل يوسف أحمد العلي



مُقَدِّمَةٌ

الحمدُ لله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى، عالم الغيب والشهادة الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، ليس كمثله شيء وهو السَّمِيعُ البصير، غافر الذَّنْبِ وقابل التَّوبِ شديد العقاب ذي الطَّوْلِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ المصير. الحمدُ لله ذي العِظَمَةِ والجلال، المَتَّصِفُ بصفات الكمال، والمُنَزَّه عن الشُّرَكَاء والنُّظَرَاء والأمثال، والمولي على خلقه النِّعَمِ السَّابِغَةُ الجلال، وقد أمرهم بما فيه خيرٌ لهم وصلاحُ حال، نستعينه سبحانه ونستغفره من قبيح الأقوال، وسيئ الأفعال.

وأشهدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبده ورسوله، العارف بجلال ربِّه عز وجل، والمغفور له ما تقدَّم من ذنبه، الدَّاعي إلى أَصَحِّ الأقوال، وأسدِّ الأفعال، يحلُّ الطَّيِّبات ويحرِّمُ الخبائث، وعلى آله وصحبه، خير صحب وآل، صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

أما بعد:

فأقول: إِنَّ أَهَمِّيَّةَ الإحاطة بأساليب الخطاب في القرآن الكريم عموماً تكمن في أَنَّهُ يخاطبُ النَّفْسَ البشريَّةَ من كلِّ مداخلها، يخاطبُ الإنسانَ ويكرِّمُهُ، ففيه التَّنوعُ في توجيه الخطاب بما يتلاءم مع حالِ المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- أو مكانته، أو للدلالة على مكانة المخاطَب -بكسر الطاء المهملة-، كما أَنَّ فيه الأمرَ والنَّهي والاستفهامَ

والعرض والترجي والتّمني والنّفْي والدّعاء والنّداء... إلخ. وفيه: التّوجيه والتّعليم والتّشخيص والقِصّة والعبرة، والآية الكونيّة والحُجّة والدّلِيل والإقناع والإعجاز.. يدخل قلب المؤمن حتّى يتمكّن منه، ويزيده إيمانًا وطاعةً.

كما يتبيّن أنّ الأسلوب القرآني المباشر يتميّز بأنّه عميق التأثير، يلامس الأحاسيس الإنسانيّة، ويشير الأفكار العقليّة، فيؤسّس فيها القناعات.. كما أنّه يتلاءم مع الواقع، حيث يتنوّع الخطاب من حيث النزول، ويتدرّج في تشريع الأحكام للمكلّفين بما يتلاءم مع حالهم واستجابتهم، فإنّ وجوه المخاطبات فيها: التّوافق الثّام مع المقام ومقتضى الحال كما في الخطاب المكيّ والخطاب المدنيّ، وكما في خطاب أهل الكتاب... إلى غير ذلك..

ولا يحتاج المرء لكثير تدبّر ليلحظ ذلك التّنوع. وقد تبين من دراسة هذه النّصوص أنّ هذا التّنوع لا يجري عبثًا، بل إنّه يأتي دائمًا بحيث يعبر بأقصى درجات الدّقة، وبحساسيّة بالغة عن تغيّر المعنى المراد تبعًا للمواقف والموضوعات والمخاطبين، وبما يليق بجلال ربوبيّة الله عز وجل، وبما يناسب قدر المخاطب-بكسر الطاء المهملة- عز وجل أو المخاطبين المكلّفين، كما أنّ التّنوع يتلاءم مع مقتضيات المعاني والألفاظ، ومع طبيعة المخاطبين، ومكانة المخاطب. وفي التّعرف على أساليب الخطاب القرآني تذوّق لروعة أسلوبه، وتأدّب به، فهو التّأدّب بأسمى آداب الخطاب..، وفيه: الإحساس والشّعور بمدى

قربِ المخاطب - بكسر الطاء المهملة - عَلَيْكَ من المخاطبين، وما أشدَّ حاجة المخاطب إلى ذلك.. كما أنَّ فيه من المقاصد ما حرصت على بيانه عَقِبَ كلِّ صيغة أو مبحث..

وقد تناولتُ كذلك وجوهَ المخاطبات الأخرى التي تتنوع باختلاف المخاطب أو الخطابِ نفسه.

وحرصتُ منذُ البداية على الإحاطة بموضوعاتِ الرسالة، وإحكام المنهج، وبيانِ سلسلةِ حلقاته، من المخاطب - بكسر الطاء المهملة - عَلَيْكَ إلى المخاطبين، وذلك من خلالِ التَّعرفِ على أساليبِ الخطاب وتنوُّعه، ومقاصدِ التَّنوع والحِكم.

ثمَّ التزمتُ ترتيبَ الموضوعاتِ، والانتقالَ من الأعمِّ منها إلى الأخصِّ، فالأخصُّ.

كما أنني التزمتُ ترتيبَ الآياتِ القرآنيَّة، وسردَ النماذج والأمثلة على حسب التَّرتيبِ المصحفي، وكذلك التزمتُ ترتيبَ مادَّةِ الألفاظ على حَسَبِ التَّرتيبِ المصحفي.

أمَّا ما خَرَجَ من صِيغِ الخطابِ عن معناها الأصليِّ فقد التزمت ترتيبَ ذلك أبجديًّا.

ونداءاتُ الرُّسل - مثلاً - من مبحث (النداء) التزمت في ذلك الترتيبَ الزَّمَنِي.. والموضوعات من الأعمِّ إلى الأخص.

أمَّا التَّرتيبُ بين موضوعاتِ الفصل، فقد التزمتُ ما أمكن إظهارَ المناسبة بين السَّابِق واللاحقِ من الموضوعات، وعلى سبيلِ المثالِ فقد بيَّنتُ في

مقدمة الفصل الأول المنهجية في تقسيم (وجوه المخاطبات).
وقد اعتمدتُ على استقصاء (أساليب الخطاب) في القرآن كله
وحصرها وترتيبها ما أمكن، وبذلتُ في سبيل ذلك جهداً لم يكن
الغرضُ منه زيادةَ حجمِ المصنّف، وإنما إحكامَ المنهج، ولم أكن بدعا
في ذلك، بل هو سبيل قد سلكه كثيرٌ من المتقدّمين، وبعض المحقّقين
من المتأخّرين..

كما أنّني في كثيرٍ من الأحيان أقرّر قاعدةً أو مصطلحاً ثمّ أبحثُ له
عن توثيق، ومع ذلك فلا تخلو تلك الأقوال من الترتيب أو المناقشة أو
الترجيح إن كنتُ أرى في ذلك ترجيحاً.
فليس الأمر مجرد جمع وحشدٍ لأقوال، وإنما هو منهجٌ ومناقشةٌ
وتوثيقٌ وتقرير.

وقد أغفلتُ الدّراسات السابقة الكثير من صيغ الخطاب، والتي فيها
الخطابُ المباشر بإحدى صيغه، أو التي فيها مواجهةٌ بين المخاطب
والمخاطب كمبحث: (الإنشاء الطّلبي في القرآن)، وهو من صيغ الخطاب
القرآني المباشر، وكذلك تنوعُ أساليب الخطاب لم تأتِ بتمامها مبيّنةً ومرتبّةً
في أيّ مصنّفٍ فيما ذكروه من وجوه المخاطبات، وإنما ذكر بعضها متفرّقاً،
وفي مباحث مختلفة، كما أنّه جاء مُجمّلاً ومقتضباً، وعلى منهج واحد، مع ما
فيها من معنى المواجهة، والتنوع والحكم ما يجعل ذلك حريّاً بأن يكونَ ضمنَ
ما يتعلّق بأساليب الخطاب القرآني.

وكذلك فإنّ صيغ الإنشاء الطّلبي، والتي هي أظهرُ صيغ الخطابِ

المباشر، لم يكن لها من حظ أن تذكر في كتب علوم القرآن مندرجةً تحت (تنوع أساليب وجوه المخاطبات) عند المتقدمين، وكذلك من تبعهم من المتأخرين، وأن تجمع تحت مظلة تجمع صيغ الخطاب القرآني المباشر، أو أساليب الخطاب القرآني، وإنما أتى بها الباحثون في علوم القرآن متفرقةً. وهو أيضاً من أسباب اختيار العنوان (أساليب الخطاب في القرآن بين المخاطب والمكلف) كمظلة وعنوان لكل ما ذكر. وسيجد الباحث طرْحاً جديداً وفريداً وعميقاً في موضوعات الرسالة، كالأمر والنهي والدُّعاء - من حيث كونه من الإنشاء الطَّلبي - وكذلك التَّمني والترجي... إلخ.

وقد كانت عنايةً خاصَّةً بمبحث النداء في القرآن الكريم، في ترتيبه وتناسقه وموضوعاته من حيث ذكر أداة النداء المستخدمة في القرآن الكريم، والمنادى، وما ولي المناذى. والمنهجية وتقسيم الموضوعات. وقد حرصت أن أضع في كلِّ فصلٍ ومبحثٍ ومطلبٍ خلاصةً إجماليةً. ولا يخفى أثر التنوع بالنسبة للمخاطب الذي يتدبَّر الخطاب القرآني ويتأمَّلُه، حيث يدرك طبيعة الخطاب وأهميَّة تنوعه. فإنَّ مطلق الخطاب لا يخلو: إمَّا أن يكون بين الخالق والمخلوق، وقد يكون المخاطب - بكسر الطاء المهملة - هو الله ﷻ، وقد يكون المخاطب هو المخلوق، وقد يكون من المخلوق إلى المخلوق. فإذا كان المخاطب هو الله ﷻ، فإنَّه يدلُّ على الرِّفعة والعظمة، وعلى البون الشَّاسع بينه وبين المخاطب - بفتح الطاء المهملة - من حيث الصِّفات... وإذا كان من المخلوق إلى الخالق ﷻ كيف

ينبغي أن يكون؟ وإذا كان من المخلوق إلى المخلوق كيف ينبغي أن يكون؟ وكفى بالخطابِ القرآني منهجًا يتعلَّم منه المخاطب -بفتح الطاء المهملة- أدبَ الخطاب مع الخالق ﷻ، وطريقة مخاطبة المخلوق للمخلوق بما يتلاءم مع مكانة المخاطب.

ومن ذلك على سبيل المثال: (الأدب في مخاطبة الله ﷻ) حيث يصفه بما يليق به من صفات العظمة، ويصف المخاطب حاله من الضعف والانكسار بما يتلاءم مع حاجته إلى المخاطب تعالى، وبما يتلاءم مع ما منَّ المخاطب -بكسر الطاء المهملة- عليه وأسبغ من النعم، حيث يكون الطلب من المخاطب (المخلوق) إلى المخاطب (الخالق) مقرونًا بالشكر والرضا. وإذا كان من المخاطب كان محفّزًا للمخاطب على الامتثال.

وهي دراسة تحليلية شاملة من نزول الخطاب إلى بيان أساليبه وأثره في المخاطبين.

وأضفت إضافات سمعتها من العلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم عبدالرحمن خليفة -أستاذ ورئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر في القاهرة-.

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

الباحث في إدارة مساجد محافظة الفروانية

الكويت المحروسة

كلمة شكر وتقدير

يقول النبي ﷺ: «لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ» ومن هنا لا يفوتني أن أشكر كلاً من فضيلة الشيخ فيصل العلي الذي أسهم في إخراج هذه الرسالة إلى النور، كما أشكر فضيلة الأخ الشيخ ضياء الدين الطش (أبو حيان) حفظهما الله تعالى، سائلاً المولى ﷻ أن يحفظهما وأن يجري الخير على أيديهما، وأن ينفع بهما، وأن يجعل ذلك في صحيفة عملهما.



وأما ما تتضمنه مقدّمة الرّسالة فبيانه على النّحو التّالي :

أولاً : مقدّمة التّعريف بالموضوع

ثانياً : أهميّة الموضوع

ثالثاً : مشكلة الدراسة

رابعاً : أسباب اختيار الموضوع

خامساً : الدراسات السابقة

سادساً : توطئة للتّعريف بمخطط البحث

سابعاً : منهج البحث

ثامناً : الرّجاءات التي واجهتني

أولاً: مقدمة التعريف بالموضوع

لا بدّ في البداية من التّفريق بين مفهومين للخطاب القرآني:

الأوّل: الخطاب القرآني بمعنى كلّ القرآن الكريم، وهو المعنى الأعمّ.

الثّاني: الخطاب بمعنى ما فيه من مواجهةٍ بين المخاطب، وهو الله ﷻ، والمكلّف أو المخاطب، وهو الخطابُ بالمعنى الأخصّ.

وقد ذكر الزّمخشرّي الخطاب بهذا المعنى حيث قال: «خاطبه أحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام»^(١).

وإنّ جوهر الموضوع الّذي أتناوله هو ما يتعلّق بالخطاب من حيث معناه الأخصّ الّذي هو المواجهة بالكلام بين المخاطب والمخاطب، وما يتّصل به.

وإنّ إدراك مفهوم الخطاب القرآني من حيث معناه الأخص لا بدّ من التّمهيد له، وذلك من خلال التّعرف على الخطاب القرآني من حيث معناه الأعم، وذلك للاعتبارات التّالية:

أ- إنّ الموضوع يتناولُ الخطابَ من المخاطب ﷻ إلى المخاطب.

ب- عدم صلاحية انفكاك الأخصّ عن الأعمّ في الموضوعات التّمهيدية الأولى.

(١) أساس البلاغة، مادة: (خطب) (ص: ١١٤).

ج- لأنَّ الأخصَّ يندرج ضمن الأعمَّ في المباحث التمهيدية الأولى. فكان التمهيد طريقًا موصلًا إلى المقصود أو إلى جوهر الموضوع، ويتخلَّله محطَّاتٌ هي من الخطاب بمعناه الأخص، فلذلك كلُّه كان التمهيد أمرًا يزيد البحث تكاملًا.. كما أنَّه يزِيل ما قد يخفى من المصطلحات المستخدمة في هذا المجال.

يبدأ التمهيد بالتَّعرف على مصطلحات البحث، والرُّجوع بالخطاب إلى المخاطب، ثمَّ الانتقال إلى نزول الخطاب، وما يتعلَّق به من بيان، وتعريف للمخاطب المنزَّل، وبيان معنى النُّزول، وكيفيته، وسببه، والمنزَّل عليه أو مُبلِّغ الخطاب، وصيغ مخاطبة الرَّسول ﷺ، وكذلك أثرُ بشريَّة الرَّسول ﷺ في قضيَّة الأسوة وتفعيل الخطاب، وذلك في سلسلة من الحلقات المترابطة والمتدرِّجة.

وهي دراسةٌ تحليليَّةٌ شاملة من نزول الخطاب وما يتعلَّق به إلى أساليب الخطاب القرآني وتنوُّعه، مع سرد النِّماذج من علاقة الخطاب القرآني بالمخاطبين، إلى أثره فيهم.

أمَّا توضيح (المعنى الاصطلاحي) لهذا المفهوم فتجدُر الإشارةُ إلى أنَّ ما أنزلَ إلى المخاطبين من آيات الذكر الحكيم أعمُّ من أن يكون فيه مواجهةٌ بالكلام بين المخاطب والمخاطبين، وهو الخطاب العامُّ، أو هو القرآن من أوَّله إلى آخره، وما فيه مواجهة بين المخاطب والمكلَّف أخصُّ، وهي جوهر هذا البحث.

ولا أُغْفَلُ الخطاب القرآني من حيث معناه الأعم؛ لأنه يخدم جوهر الموضوع، ويُمهّد للمقصود، كما يندرج ما هو من الأخص ضمن مباحثه...

ولكنَّ التَّركيز والاهتمام إنما هو على الخطاب القرآني من حيث معناه الأخصُّ الَّذي فيه مواجهة، وهو الفلك الَّذي تدور حوله سائر الموضوعات، وسرد النماذج التَّطبيقية لعلاقة الخطاب بالمخاطبين من توجيه الخطاب، وبيان صيغ الخطاب القرآني من حيث تنوعها، ودارسة وتحليل صيغ الطَّلَب في الخطاب القرآني مع بيان أقوال المفسِّرين في ذلك، وتناول آراء الباحثين في علوم القرآن مع الزَّيادة أو التَّعقيب بما يخدم الموضوع، وبيان المقاصد والفوائد والنتائج.

والإشارة في أوَّل الأمر إلى ما يتعلَّق بالمصطلحات، والجديد في هذه الدِّراسة، فإنَّ أوَّل ما يلاحظ أنَّ من الخطاب الأعمُّ ما يتَّفَق مع الأخصُّ من وجه - غير كونه قرآنًا منزَّلًا - فقد ذكر الزَّرَكاشي في (البرهان)^(١)، والسُّيوطي في (الإتقان)^(٢)، ومن تبعهما من الباحثين - على سبيل المثال - ما يندرج تحت أوجه الخطاب: (خطاب التَّهكُّم)، وهو الاستهزاء بالمخاطب، واستدلُّوا له بقول الله عز وجل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

ولا خلاف أنه يندرج تحت مفهوم الخطاب بمعناه الأخص الَّذي

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢١٧) فما بعد..

(٢) انظر: الإتقان (٢/٨٨) فما بعد.

فيه مواجهة بين المخاطب والمخاطب، وذكروا أيضًا عقب ذلك مباشرة قول الله عز وجل: ﴿وِظِلٍّ مِّنْ يَحْتُمِرِ ۚ﴾ (٤٣) لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ [الواقعة: ٤٣-٤٤]، وهو من الخطاب بمعناه الأعم، وهو كونه قرآنًا منزَّلًا للمخاطبين، فهو هنا خبرٌ وليس إنشاءً، ولكنَّ معنى التَّهَكُّم واضحٌ في الخبر، وهو ما يجعله يتَّفَق مع الخطاب الأخصَّ من هذا الوجه؛ لأنَّ الظِّل إنما يُسْتَظَلُّ به اتِّقاءً حرَّ الشَّمْس، ولكنَّ المعنى المراد هنا: أنَّه ليس باردًا كسائر الظُّلال، ولا دافعًا أذى الحرِّ عمن يأوي إليه.



ثانياً: أهمية الموضوع

يمكنُ تحديدُ بعضِ النقاطِ التي تدلُّ على أهمية الموضوع، وذلك من محاورين:

الأول: أهمية موضوع البحث بالنسبة للعلم - أعني التفسير وعلوم القرآن - فذلك لأنه يجمع المتفرقات تحت مظلة واحدة، وفيه تحقيقٌ لكثير من المسائل، ومن ذلك:

١- بيانُ كيفية وصول الخطاب إلى المخاطبين ضمن سلسلة من الحلقات المترابطة.

٢- التعرفُ على أساليب الخطاب وتنوعه، ومقاصد التنوع والحكم. وسيأتي بيان الطرح الجديد في هذا الموضوع، وما يدلُّ على تميزه عن بعض ما كتب في جزئياته.

الثاني: أهميته بالنسبة للمكلف: وبيان ذلك أنَّ الخطاب إنما أُزِلَ للمخاطبين لحاجتهم إليه، وليكونَ له أثرٌ في فكرهم ينعكسُ على أعمالهم وسلوكهم، وأيضاً لما فيه من التكليف الذي يتحدَّد على ضوء إمكانيات المكلف ووسعه، وفيه شكرُ المنعم على نعمه بالطريقة الصحيحة التي شرعها العالمُ بأحوال المكلفين، وقيامُ المكلف بحق الخالق على النحو الذي يرتضيه الخالق، وفيه تحديد لمفهوم الحُسن

والقُبْح، وفيه أيضًا إزالة للمنكر، وإقامة للحدود، وذلك بتشريع العقوبات الشرعية على من اقترف الجرائم الموجبة لها، وفي ذلك حياة للإنسان، ولولا ذلك لاختلف المكلّفون باختلاف تفكيرهم، واختلاف البلدان والأعراف والتقاليد.

هذا كلّهُ بالنّظر إلى عموم الخطاب.. أمّا النّظر إلى ما كان فيه معنى المواجهة فهو بالإضافة إلى ما سبق وسيلة من وسائل الاتّصال التي لا يستغني المخاطب عنها.

كما أنّ التّعرف على أساليب الخطاب القرآني فيه تذوّق لروعة أسلوبه، وتأدّب به، فهو التّأدّب بأسمى آداب الخطاب.. وفيه الإحساس والشّعور بمدى قرب المخاطب من المخاطبين.. وما أشدّ حاجة المخاطب إلى ذلك.. كما أنّ فيه من المقاصد ما فيه ممّا سيأتي بيانه عَقِب كلّ صيغة أو مبحث.



ثالثاً : مشكلة الدراسة

وأهدف من خلال هذه الدراسة إلى الإجابة عن السؤال الآتي : ما هو الخطاب الذي فيه مواجهة بين المخاطب والمكلف أو المخاطب؟ ومن هو المخاطب؟ وكيف وصل إلى المخاطبين؟ وما هي أساليب الخطاب القرآني المباشر؟ وما فائدة العلم بذلك؟ ويتفرع عن ذلك الأسئلة الآتية:

- ١ - هل لهذه الدراسة مصطلحات خاصّة؟ وهل استخدمت هذه المصطلحات في الدراسات السابقة؟ وما الذي تميّز به من حيث الطرح والمنهجية والترتيب؟
- ٢ - ويتفرع عن بيان (مصطلحات البحث) السؤال التالي : ما الفرق بين الخطاب بمعناه الأعم، والخطاب بمعناه الأخص أو (الخطاب الذي فيه مواجهة)؟
- ٣ - ما الفرق بين الخطاب بمعناه الأخص المستخدم هنا، والخطاب عند الأصوليين أو الفقهاء؟
- ٤ - ما محور البحث الذي تدور حوله سائر موضوعات الرسالة؟ ما الذي أغنى هنا بتحليله والاهتمام به؟
- ٥ - ما فائدة التمهيد لذلك من حيث ذكر الخطاب بمعناه الأعم؟

- ٦ - ما أهمية التعرف على صفات المخاطب بالنسبة للمخاطبين؟ وكيف نزل الخطاب القرآني؟ وهل لذلك من صلة بمحور البحث؟
- ٧ - كيف بُلِّغ الخطاب إلى المخاطبين؟ وما أهمية التعرف على صفات المبلِّغ بالنسبة إلى المخاطبين، وما هي صيغ المخاطبة بين المخاطب والمبلِّغ؟ وما أثر بشرية المبلِّغ في تفعيل الخطاب وقبوله؟
- ٨ - هل لمعرفة زمن النزول من أثر في تنوع أساليب الخطاب؟ وكيف ينعكس على المخاطبين؟
- ٩ - هل من الممكن أن يجد الباحث في (التفسير وعلوم القرآن) ما يرجوه من البيان الذي يُعرفه على تنوع أساليب الخطاب؟ وما مدى العناية باستخلاص ذلك من النظر في آيات القرآن الكريم؟ وهل وثقت أوجه الدلالة من كتب (التفسير وعلوم القرآن)؟ وما مدى استخدام العلوم المساعدة في خدمة موضوعات البحث؟ وما الجديد في ذلك؟
- ١٠ - كيف رُتبت هذه الأساليب مع ما يُعلم من تنوعها وكثرتها؟ وما الجديد الذي قد اعتمد في ترتيب هذه الأساليب؟ وكيف رُتبت النماذج والأمثلة فيها..
- ١١ - ما هو سبب الاهتمام بمبحث الأمر والنهي والاستفهام والدعاء والسؤال والتَّمني؟ وبعبارة أخرى: ما سبب الاهتمام بموضوعات الإنشاء الطَّلبي في القرآن؟ وما صلة ذلك بموضوع البحث؟ وما هي

صَيْغُ كُلِّ مِنْهَا؟ وهل تخرج هذه الصَّيغ عن معناها؟ وما السَّبب في ذلك؟ وما علاقة ذلك بالمكَلَّفِين؟ وما الَّذِي يستفاد من كلِّ صيغة؟

١٢ - ما هو سبب الاهتمام بمبحث النداء في القرآن؟ وما الَّذِي قد استخدم من حروف النداء؟ وما هو السَّبب في هذا الاستخدام؟ وما فائدة ذلك؟ وما الَّذِي ولي المنادى في الخطاب؟ وما هي المقاصد العامة من ذلك؟

١٣ - ما هي المقاصد من تنوع صيغ وأساليب الخطاب؟ وما أثر الخطاب في المخاطبين؟

١٤ - بيان وجه الترابط والصلة بين هذه الموضوعات، وكيف تندرج تحت العنوان العام لهذه الدراسة؟



رابعًا: أسباب اختيار الموضوع

بالإضافة إلى ما سبق في الأهمية فإن من أسباب اختيار هذه الموضوع ما يأتي:

- ١ - أنه جاء متفرقًا ضمن مباحث مختلفة في علوم القرآن الكريم، والعلوم الأخرى المساعدة.
- ٢ - أن المصطلحات في ذلك ليست واضحة على النحو الذي بيّنته.
- ٣ - أن الترتيب والمنهجية لم يختلف من كاتبٍ لآخر إلا من حيث التحليل. مثال ذلك: ما جاء من بيان وجوه المخاطبات في (البرهان في علوم القرآن)^(١)، وفي (الإتقان)^(٢)، من المتقدمين. وفي (مقدمة لدراسة القرآن)^(٣)، وكذلك كتاب (دراسات في القرآن الكريم)^(٤) من المتأخرين، حيث سار المتأخرون على ما سار عليه سلفهم حذو القُذَّة بالقُذَّة^(٥).

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢١٧).

(٢) انظر: الإتقان (٢/٨٨).

(٣) (مقدمة لدراسة القرآن الكريم)، للأستاذ الدكتور: منيع عبد الحليم محمود، أستاذ التفسير وعلوم القرآن، بكلية أصول الدين، في (جامعة الأزهر) بالقاهرة، وعميد الكلية حاليًا.

(٤) (دراسات في القرآن الكريم)، للدكتور محمد إبراهيم الحفناوي، مدرس أصول الفقه بكلية الشريعة والقانون، في (جامعة الأزهر) بالقاهرة.

(٥) بالذال معجمة: ريش السهم، وجمعها: قُدْدٌ، أي: مثلاً بمثل: يضرب في التسوية بين الشيتين، ومثله: (حذو النعل بالنعل).

٤ - على الرغم من عناية الباحثين بعرض وجوه الخطاب إلا أنَّ المناسبة بين هذه الوجوه غير واضحة من حيث سردها كاملة تحت عنوان واحد.

٥ - الحاجة الملحة إلى وجود دراسة تأصيلية في هذا الموضوع، وذلك أنَّ جوهره يتصل بالمباحث اللفظية الخاصة، وهي من أسلوب القرآن الكريم التي لها ما لها من الفوائد والمقاصد من حيث تنوعها ودلالاتها، والتي لولاها لخفي الكثير من المعاني .

٦ - أغفلت الدراسات السابقة الكثير من صيغ الخطاب، والتي فيها الخطاب المباشر بإحدى صيغه، أو التي فيها مواجهة بين المخاطب والمخاطب كمبحث النداء، وهو من صيغ الخطاب القرآني المباشر، وكذلك صيغ الطلب الأخرى، فلم يأتِ لذلك ذكرٌ فيما ذكروه من وجوه المخاطبات، وإنما ذكر متفرقاً، وفي مباحث مختلفة، كما جاء مُجملاً ومقتضباً، وعلى منهج واحد، مع ما فيها من معنى المواجهة، والتنوع والحكم ما يجعل ذلك حرياً بأن يكون ضمن ما يتعلق بأساليب الخطاب القرآني.

وكذلك صيغ الخطاب الأخرى كصيغ الأمر والنهي...، والتي فيها أيضاً مواجهة بين المخاطب - بكسر الطاء المهملة - والمخاطب - بفتح الطاء المهملة - لم يكن لها من حظٍّ أن تذكر في كتب علوم القرآن مندرجة تحت (تنوع أساليب وجوه المخاطبات) عند المتقدمين،

وكذلك من تبعهم من المتأخرين، أو قُلْ: تحت مظلة تجمع صيغ الخطاب القرآني المباشر، أو أساليب الخطاب القرآني، وإنما أتى بها الباحثون في علوم القرآن متفرقة.. وهو أيضًا من أسباب اختيار (أساليب الخطاب في القرآن) كمظلة وعنوان لكل ما ذكر .
وذلك كله دفعني إلى التصدي لدراسة هذا الموضوع ونظمه في دراسة متناسقة ومتكاملة.



خامسًا: الدراسات السابقة والطرح الجديد في الموضوع

الجديد في هذا الطرح أنه طرُح متكاملٌ يرجع بالخطاب إلى أصوله، وإلى كيفية اتّصاله مع المخاطبين، وإلى بيان الخطاب نفسه، ولعلّ ما كُتِبَ في هذا المجال يقتصر على بيان أحد جوانب الموضوع، أو أكثر من جانب، ولكنني لم أجِد صياغةً متكاملةً -حتى تاريخ إعداد هذه الدراسة- على الترتيب المتّبع في هذا البحث.

وإن كان هناك من الدراسات المتفرقة لبعض موضوعات الرسالة حيث ذكر الزركشي مثلًا في كتابه (البرهان في علوم القرآن)^(١): (وجوه المخاطبات في القرآن الكريم) لكنّها أتت متفرقة، وضمن مباحث متنوعة في علوم القرآن -كما أسلفت-، وكذلك الشيوطي في (الإتقان)^(٢) ذكر وجوه المخاطبات مختصرةً ومتفرقةً، وهي أيضًا ضمن مباحث متنوعة في علوم القرآن، وكذلك من كُتِبَ في علوم القرآن من المتأخريّن كالّدكتور منيع عبد الحلّيم محمود في كتابه: (مقدمة لدراسة القرآن)، وقد سارَ فيما كتبه على النّحو الَّذي سار عليه المتقدّمون -كما سبق-.

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٢١٧) .

(٢) الإتقان (٢/٨٨).

وقد خالفتُ طريقةَ المتقدمين ومن تبعهم من حيثُ التَّرتيب والمنهجية، وإضافة موضوعاتٍ جديدة تزيد الموضوعَ تكاملاً وتناسقاً. ولا أُبرِّئُ نفسي من التَّقصير والخلل والنقص.

(وَتَخْلُلُ الْفَتَرَاتِ لِلْعَزَمَاتِ أَمْ رُلَازِمٍ لَطَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ)
(وَتَوْلَدُ النُّقْصَانِ مِنْ فِتْرَاتِهِ أَوْلَيْسَ سَائِرُنَا بَنِي النُّقْصَانِ)^(١).



(وَضُنُّ بِهِ خَيْرًا وَسَامِيحٌ نَسِيحُهُ بِالْأَغْضَاءِ وَالْحُسْنَى وَإِنْ كَانَ هَلْهَلًا)
(وَإِنْ كَانَ خَرَقٌ فَأَدْرِكُهُ بِفَضْلَةٍ مِنْ الْحِلْمِ وَلِيُضْلِحَهُ مَنْ جَادَ مَقُولًا)^(٢).



(١) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، البيت رقم [٤٢٠٨ - ٤٢٠٩]، (ص: ٣٠٣)، توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن عيسى (٣٨٠/٢).

(٢) حرز الأمانى ووجه التَّهاني في القراءات السَّبع (ص: ١٥).

سادسًا: توطئةٌ للتعريف بمخطط البحث

إنَّ موضوعات البحث تستدعي أوَّل ما تستدعي التَّعرف على المخاطب عز وجل، وذلك من خلال توضيح (مفهوم الألوهية). ومن هنا فإنَّ التمهيد لما يتعلَّق بالخطاب في القرآن الكريم يرجع إلى الإله، فإنَّ الفرق بين صفات الخالق، وبين صفات الإنسان المخلوق عظيم، ولا يملك الإنسان من تلك الصِّفات إلا ظلالاً وأوهامًا إنَّ دَلَّتْ فإنَّما تدلُّ على عجزه وضعفه.

ومع أنَّ الإنسان لا يملك من هذه الصِّفات إلا ما ذُكر، فإنَّ هذه الصِّفات من شأنها إذا وجدت في الإنسان أن تنسيه حقيقة نفسه في كثير من الأحيان، فيتوهَّم أنَّه القويُّ أو صاحبُ الملكِ الموروث الَّذي لا يصلحُ له غيره.

ومع أنَّ الفرق شاسعٌ بين صفاتِ الخالق والمخلوق فقد مدَّ الخالق -جلَّ وعلا - جسورَ الصِّلة مع هذا المخلوق الضَّعيف، فأَنزَلَ له كتابًا فيه الخطاب الَّذي يتضمَّن التَّوجيه والإرشاد والآداب والأمر والنَّهي وغير ذلك، فكان في ذلك الخطاب الخيرُ والصَّلاح لهذا المخلوق. وجعل المسافة بينه وبين هذا المخلوق لا تتقطَّع دونها الأعناق، فكان قريبًا من المخلوق إذا دعاه المخلوق أجابه. قال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي

وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦].

وإن كنتُ أتعرّض للتّعريف بالمخاطب بإيجاز وإجمال، لا بتفصيل وإطنابٍ يُخرِجُ البحثَ عن المقصود منه، كما أنّني أتجنّب الاختلافات في هذا المجال ما أمكن، لكونه مقدّمة وتأسيساً لغيره... وبعد التّعرف على المخاطب أتعرّض لبيان الوسطة بين المخاطب ومبلّغ الخطاب، ثمّ لبيان نزول القرآن الكريم لما له من الصّلة الوثيقة بالموضوع.

فإذا ما تجاوزتُ مبحثَ النزول اشتاقتُ النَّفسُ إلى معرفة الشّخص المؤهّل لحمل هذه الرّسالة، وهذا الخطاب إلى البشر، فلا بدّ من الدّليل والهادي الذي يدلّ على الإله ويعرّف به، ويبيّن للنّاس ما نُزل إليهم من الخطاب، ويبيّن فائدة الرّسالة التي يحملها.

ويلاحظ أنّ ما جاء في التّمهيد من الخطاب بمعناه الأعم في غالبه، وذلك للتّفريق بينه وبين الخطاب من حيث معناه الأخص - كما قد اصطلح على ذلك هنا-، وللتأسيس لما سيأتي في صلب الموضوع. وما جاء في صلب الموضوع يلاحظ أنّه من الخطاب بمعناه الأخص في غالبه، من بيان أساليب الخطاب، وصيغ المخاطبة، والعلاقة بين الخطاب والمخاطبين، وأثره فيهم. وإن أتى للخطاب من حيث معناه الأعم ذكرٌ فهو بما يخدم الموضوع، وذلك من حيث التّحليل واستيفاء ما له به صلة، أو للتّمهيد له، ولم يأت غالباً إلا مندرجاً تحت مظلة الأخص.

ففي التمهيد يصدق على غالبه ما يتضمنه مصطلح الخطاب القرآني بمعناه الأعم، وهو لفظ القرآن بعمومه، وذلك لكونه تأسيساً لما بعده، كما أنه يتضمن محاور للخطاب بمعناه الأخص لا يمكن انفكاكها عنه، ثم أنتقل بعد ذلك إلى الخطاب من حيث معناه الأخص حتى يصل بنا تدرج الموضوعات إلى التعرف على الخطاب، وتنوعه ومقاصده.. ويندرج تحت مفهوم الخطاب القرآني من المخاطب إلى المخاطب حلقات متتابعة من منزهة إلى نزوله وما يتعلق به.

وذلك التدرج يبدأ من التعرف على المخاطب إلى التعرف على الخطاب نفسه من حيث ما يتعلق بنزوله وصفته وتناسق ألفاظه وأسلوبه، وطرقه وأدواته، ووجوه مخاطباته، وتنوع أساليب الخطاب. وهي حلقات تتشابه كل واحدة في رباط وثيق مع الأخرى، فكلما قطع الإنسان شوطاً من المعرفة في تجاوز حلقة من هذه الحلقات اشتاق نفسه إلى الأخرى، حتى تتكامل جوانب البحث فيه، وكأن هذه الحلقات في ترابطها وحدة متكاملة لا يستغني الباحث في هذا المجال بحلقة عن الأخرى، فإذا ما تجاوزت أصل الخطاب فلا بد من معرفة كيفية الاتصال مع هذا الإله الخالق المنعم، وفهم كلامه وخطابه عز وجل، وذلك من خلال التعرف على صيغ توجيه الخطاب من المخاطب إلى المخاطبين...

ولأن الملكات الإنسانية من العقل والتجربة نسيئة، وما لا يستقل العقل بمعرفته وإدراكه لا بد أن نلتمسه في وحي الله عز وجل؛ فلذلك

يتبيّن لكلّ متأمّلٍ مدى أهميّة هذا اللون من ألوان الخطاب المباشر، ومدى حاجة المخاطبين إليه.

فإذا تمهّد ذلك احتجنا إلى معرفة العلاقة بين الخطاب والمخاطبين، وتذوّق المخاطبين روعة ما في أساليبه من التّنوّع، وبيان أنّها تتلاءم مع العقول المتفاوتة من حيث البعد عن الغموض والتّعقيد، وتشرق في النفس مهما كان مستوى المخاطب وثقافته.

كما أنّ الخطاب يجعل الصّلة مع المخاطب محدّدة المعالم، وهو ممّا يدعم الاتّصال مع المخاطب. فإذا تمهّد ذلك فإنّ المخاطب يتطلّع إلى التّعرف على أساليب الخطاب القرآني من حيث تنوّعه ومقاصده؛ ليتذوّق ما فيه الإحكام والمعاني والبلاغة، وليتأدّب بأدابه.



سابعًا: منهج البحث

أ- المصطلحات:

تفسيرُ الغامضِ من مصطلحاتِ البحث، والمصطلحات ذاتِ الصِّلة.

ب- المسائل والموضوعات:

١- تقسيم الموضوع إلى فصولٍ ومباحث. وتقسيم المباحث إلى مطالب فضلًا عن مقدِّمةٍ تتضمَّن أهميَّة الموضوع، وأسباب اختياره، والدِّراسات السَّابقة، ومخطَّط الدِّراسة، وطريقة البحث، وتمهيدًا مطوَّلًا للتَّأسيس لموضوعاتِ البحث والدِّراسة، وخاتمة تتضمَّن المقاصد، ونتائج البحث.

٢- عرضُ الفكرة وتحليلها تحليلًا علميًّا موضوعيًّا.

٣- بيانُ وعرضُ أساليبِ الخطاب القرآني، وتوثيقُ ما يذكر من دلالات ألفاظ الخطاب.

٤- بيانُ مناهج المفسِّرين عند أهل السُّنة والجماعة في توضيح الآيات، والاعتماد في ذلك على أمَّهاتِ كتب التفسير المعتمدة.

٥- ذكرُ ما يترجَّح من الأقوال المختلف فيها إن كنتُ أرى في ذلك ترجيحًا يعتمد على قوَّة الاستدلال والحجَّة.

٦- ذكرُ أوضح الأدلَّة من مختلف المصادر الشرعيَّة والعلميَّة والتَّاريخيَّة التي تؤيِّد ما يندرج من الموضوعات تحت العنوان العام، وأن تكون

المصادر أصليّة في الموضوع ما أمكن ذلك، وتوفّرت المراجع.

ج- المنهجية والترتيب:

١- أمّا بالنسبة للترتيب والمنهجية بالنسبة للآيات القرآنية، فقد التزمت ترتيبها على حسب الترتيب المصحفي إلا ما كان من الأشباه والنظائر فإني أذكره مع نظيره، أو كان نقلًا لقول من الأقوال من غير تصرفٍ فإني أنقله كما هو..

٢- أمّا ترتيب الموضوعات فقد التزمت في ذلك الترابط بين الفصول، والانتقال من الأعمّ منها إلى الأخصّ، فالأخصّ.

فإنّ الفصل الأوّل (تنوّع وجوه المخاطبات في القرآن الكريم) هو أكثر عمومًا من الفصل الثّاني (أساليب الطّلب في الخطاب القرآني)، والفصل الثّاني أكثر عمومًا من الفصل الثّالث (النّداء في القرآن)، ويجمع بين الفصول الثلاثة كونها من الخطاب من حيث معناه الأخصّ الذي قد اصطلح عليه في هذه الدّراسة، ولا يمنع ذلك من اندراج الأعمّ في مظلة الأخصّ.

٣- أمّا التّرتيب بين موضوعات الفصل، فقد التزمت ما أمكن إظهار المناسبة بين السّابق واللاحق من الموضوعات، وعلى سبيل المثال فقد بيّنتُ في مقدّمة الفصل الأوّل المنهجية في تقسيم (وجوه المخاطبات).

٤- أمّا ترتيب ما خرج من الصّيغ عن معناه الأصليّ إلى معانٍ أخرى

فإنني ألزمت ترتيبها ترتيباً أبجدياً، وأن تكون النماذج على حسب الترتيب المصحفي.

٥- وحيث إن الأصل في موضوع البحث: استقصاء مواضع الصيغ - أعني صيغ الخطاب المباشر، أو ما فيه مواجهة - وترتيبها منهجياً فإن ما خرج عن الاستقصاء فقد يكون لأغراض ظاهرة ككثرة هذه الصيغ مع وضوح النظائر. وعلى سبيل المثال: الخطاب بضمير المخاطب (أنت)، أو بضمير المخاطب (التاء)... فإنه يُكتفى بذكر نماذج من أوائل السور يقاس عليها غيرها.

كما تجدر الإشارة إلى أن المنهجية في الترتيب بين السابق واللاحق، أو المتقدم والمتأخر قد تختلف في جزئيات فصلٍ عن فصلٍ آخر أو مبحثٍ عن مبحثٍ آخر، بما يكون أكثر ملائمة له، ولذلك فإن مثل هذه المنهجية الخاصة يأتي بيانها في مقدمة ذلك الفصل أو المبحث....

د- العزو والإحالة والتخريج:

- ١ - إذا كنت بصدد تفسير آية، وتكررت الآية ولو في أكثر من صفحة فإنني أكتفي بذكر السورة ورقم الآية في الموضع الأول.
- ٢ - ألزمت ذكر كتب التفسير بما قد اشتهر من اسم كتاب التفسير، أو اسم المفسر، أو واحدٍ منهما إن كانت الشهرة لهما معاً.
- ٣ - ألزمت ذكر مادة كل لفظٍ من المعاجم المعتمدة في الحاشية، مع ذكر

الجزء ورقم الصفحة.

٤ - وأما تخريج الأحاديث النبوية فيكون تخريجها على النحو التالي :
إذا كان الحديث في الصحيحين ، فإنني أقتصر عليهما في التّخريج ،
وإن كان في أحدهما دون الآخر ، فإنني أخرجه منه وأكتفي . وأما إذا لم
يكن الحديث موجوداً في الصحيحين أو أحدهما فإنني أسعى جاهداً إلى
تخريجه من كتب السنن الأخرى على التّرتيب . أبو داود فالترمذي
فالنسائي فابن ماجة .. فإن لم أجده في الكتب السابقة أرجع إلى
المصنّفات والمسانيد والسنن .

أما الحكم على الحديث فإنني أذكر درجة الحديث إن لم يكن في
الصحيحين .

٥ - إذا تكرّر ذكر الحديث الشريف في مواطن لاحقة ، فإنني أكتفي
بالإشارة لتقدمه ، وكذلك إذا تكرّر ذكر الأثر أو القول ، فإنني أكتفي
بالإشارة إلى تقدمه .

وإذا تعذّر تخريج الحديث الشريف - بعد استفراغ الجهد في البحث
عنه - أقول : لم أقف عليه ، وكذلك الأثر ، أو الذي وقفت عليه كذا
وكذا ..

٦ - توثيق الأشعار والأمثال من مصادرها .

٧ - ألتمز أن يختم الاقتباس بذكر المرجع الذي قد اقتبس منه في
الحاشية .

هـ- الترجمة والتعريفات بأنواعها:

١- ألتزم الترجمة لكل مفسرٍ لم يشتهر من (طبقات المفسرين) للسيوطي، ولأحمد بن محمد الأذنوري، ولشمس الدين محمد بن علي بن أحمد الداودي، وكتب التراجم المشهورة.

٢- إن كان المترجم له من رواة الحديث ذكرْتُ رأي علماء الجرح والتعديل فيه، وغالبًا كان هذا من (تقريب التهذيب) لابن حجر رحمته الله وغيره من الكتب المعروفة في هذا المجال، هذا إن لم يكن مشهورًا بالتوثيق والرواية كالزُّهري والسُّفْيَانِين وغيرهم.

٣- التعريفات بأنواعها: (الأعلام - الأماكن - الوقائع .. إلخ)، وأترجم للأعلام الوارد ذكرهم مستثنياً من ذلك مشاهير الأعلام، وأترجم لهم في أول موضع يرد فيه ذكرهم. وتتضمن ترجمة العلم - غالبًا - ذكر اسمه وكنيته، وما اشتهر به وسنة ولادته ووفاته، وإذا تعذر عليّ - بعد البحث والجهد - قلتُ: لم أقف عليه، أو الذي وقفت عليه كذا وكذا ..

والتعريف بالأماكن الغربية من كتب معاجم البلدان إن أمكن ذلك، والتعريف بالوقائع والحروب من المراجع المعتمدة.

٤- التعريف بالكتب الغربية، وذلك بذكر اسم الكتاب كاملاً، أو بما اشتهر به، مع ذكر اسم صاحبه، وأذكر إن كان مخطوطاً أو مطبوعاً، وأترجم لصاحب هذا الكتاب.

ز- المراجع والمصادر:

١ - أمّا بالنسبة للمراجع والمصادر فإنني أذكر ما توفر لديّ - بعد البحث - من ذكر دار النشر، ومدينة النشر، وسنة النشر، على أن ما أذكره من تفصيلات - غير ذكر اسم الكتاب والجزء والصفحة - يكون في آخر الكتاب فقط.

٢- ترتيبُ المراجع ترتيباً أبجدياً في الفهارس.

وأخيراً: إذا ذكر النبي ﷺ فإنني ألتزم الصلّة والسلام عليه ﷺ كتابة حيثما ورد، وكلّما تكرر - ولا أختصرها كما يفعل البعض - فإنّ ذكرها وكتابتها فيه ما فيه من الفوائد التي يتعجلها طلبة العلم، ومن أغفل ذلك فقد حرّم حظاً عظيماً، وما يكتبه الباحث فهو دعاءٌ يثبته لا كلام يرويه، فلهذا لا يتقيد فيه بالرواية، ولا يقتصر على ما في الأصل إن كان ناقصاً، وهكذا الأمر في الثناء على الله كعزّ وجلّ، وتبارك وتعالى، وما أشبه هذا.

وكذا التّرحم على الصّحابة والعلماء وسائر الأختار. فإذا وجد شيءٌ من ذلك قد جاءت به الرواية كانت العناية بإثباته أكثر - كما حقق ذلك الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ فِي (الإرشاد) (١).

(١) انظر: إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق ﷺ، للإمام النووي (ص: ١٤٤ -

ثامناً: الصُّعوبات الَّتِي واجهتني

إنَّ صعوبة هذا البحث كامنَةٌ في كون مسائله متفرقة ومتناثرة، الأمر الذي جعل الموضوع يحتاجُ إلى مراجعٍ كثيرةٍ، وقد حصلت عليها من بلاد مختلفة، وكذلك فإنَّ تشابه الصَّيغ وكثرتها وتنوعها يقتضي الدِّقة في النَّظر، والإمعان في البحث، ومع اختلافها في العدد وتنوعها وكثرتها فإنَّها تحتاجُ إلى منهجٍ في التَّرتيب، وقد يختلف من مبحث لآخر، أو من مطلبٍ لآخر بما يكون أوفق وأكثر ملائمةً، فترتيب ذلك وإيضاح ما له صلة مباشرة بمحور البحث بما يتناسب مع عدد الصَّيغ يقتضي أيضاً: الدِّقة في النَّظر، وفيه ما فيه من بذلِ الوسع والجهد، حيث إنَّ كلَّ طرحٍ جديدٍ يحتاج إلى إحكام المنهج.

أمَّا تفسير تلك الصَّيغ، والنَّظر فيما يترجَّح من بين أقوال المفسِّرين فإنَّه يقتضي النَّظر في معظم أقوال المفسِّرين، واختلافاتهم، وهو ما يحتاج إلى مزيد من الدِّقة والتَّمحيص، ويحتاج إلى مزيد وقتٍ للإلمام بأقوالهم وترجيح ما يترجَّح... وإلى التَّأكُّد من دقَّة التَّوثيق والعزو والإحالة.



التَّمهيد

- ١ - المخاطب - بكسر الراء المهملة -
- ٢ - الوحي (الواسطة بين المخاطب - بكسر الراء المهملة - ومبلغ الخطاب)
- ٣ - التعريف بالنزول
- ٤ - مبلغ الخطاب
- ٥ - التعريف بالخطاب
- ٦ - التعريف بالقرآن الكريم
- ٧ - التعريف بالمخاطب - بفتح الراء المهملة - المكلف
- ٨ - بيان معنى تعلق الخطاب بفعل المكلف
- ٩ - التعريف بالأسلوب
- ١٠ - المعنى الاصطلاحي لمفهوم الخطاب في هذه الدراسة
- ١١ - نتائج البحث التي توصلت إليها من التمهيد



بسم الله الرحمن الرحيم

● توطئة:

إنَّ الإيجاز في التعريف مقصود في التمهيد فيما كان مقدِّمة للوصول إلى المراد وليس من صلب الموضوع، ولذلك جاء معنى المخاطب مجملًا، وكذلك النزول؛ وكذلك التعريف بمبلغ الخطاب، بينما جاء بيان معنى الخطاب مفصَّلًا؛ لأنَّه المقصود.

على أنَّ هناك من الاعتبارات ما يقتضي زيادة في التفصيل؛ لصلتها بمحور البحث وذلك لتكامل حلقات البحث.

وقد جعلت التمهيد مرتَّبًا من الأعلى نزولًا، وتحت مظلة العنوان، وقد جاء على النحو التالي:

١- المخاطب - بكسر الطاء المهملة -:

والغرض منه ينحصر في:

أ. بيان أهميَّة الإشارة إلى المخاطب - بكسر الطاء المهملة -:

إنَّ التعرف على المخاطب له من الأهميَّة ما لا يخفى، وأهميَّة ذلك أجملها في الأمور التالية:

أولاً: أهميَّتها بالنسبة للمخاطب - بفتح الطاء المهملة -:

- ١ - إنَّ التعرف على المخاطب يفيدُ في معرفة مَصْدَرِ الخطاب.
- ٢ - إنَّ التعرف على المخاطب يعطي التَّصَوُّرَ الصَّحِيحَ عن المخاطب.

- ٣ - إنَّ التَّعَرُّفَ عَلَى الْمُخَاطَبِ لَهُ مِنَ الْأَثْرِ مَا يَدْفَعُ الْمُخَاطَبَ -بِفَتْحِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ- إِلَى النَّظَرِ فِي الْخُطَابِ، الْأَمْرُ الَّذِي يَزِيدُهُ إِيمَانًا بِالْخُطَابِ وَفَهْمًا لَهُ، وَيُبَصِّرُهُ بِكَيْفِيَّةِ التَّعَامُلِ مَعَ الْخُطَابِ بِطَرِيقَةٍ صَحِيحَةٍ تُرْضِي الْمُخَاطَبَ -بِكَسْرِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ-.
- ٤ - إنَّ لَهَا صِلَةً بِالْمُخَاطَبِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُ الْخُطَابِ بَيْنَ مُخَاطَبٍ وَمُخَاطَبٍ.

ثانيًا: أھمیتھا بالنسبة للموضوع:

- أَمَّا أھمیتھا بالنسبة للموضوع فيمكن إيجاز ذلك فيما يلي:
- ١ - كونها مقدمةً وتمهيدًا وأساسًا لأبد منه.
 - ٢ - إنَّ لَهَا ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِعَنْوَانِ هَذَا الْبَحْثِ.
 - ٣ - الإِشَارَةُ إِلَى أَنَّ الْمُخَاطَبَ -بِكَسْرِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ- هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حَيْثُ تَنَاوَلَ أَلْفَاظَ الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ.
 - ٤ - التَّدْرِجُ فِي التَّعْرِيفَاتِ.

ثالثًا: أثر هذه المعرفة في المخاطب -بِفَتْحِ الطَّاءِ الْمَهْمَلَةِ-:

- ١ - تَحْمِلُ الْمُخَاطَبَ عَلَى النَّظَرِ فِي الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ عَنْ حُبٍّ وَشَغَفٍ.
- ٢ - تَزِيدُ الْمُخَاطَبَ فَهْمًا لِلْخُطَابِ.
- ٣ - تَزِيدُ الْمُخَاطَبَ إِيمَانًا بِالْخُطَابِ، وَتَصْدِيقًا لَهُ، وَعَمَلًا بِهِ.
- ٤ - تَوْضِيحُ لِلْمُخَاطَبِ الطَّرِيقَةَ الَّتِي يَتَّصِلُ فِيهَا مَعَ الْمُخَاطَبِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرْضَى بِهِ عَنْهُ، وَهُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي شَرَعَهُ.

رابعاً: أهمية هذه المعرفة بالنسبة للعلوم الأخرى:

ذكر غير واحد من أهل العلم أنَّ أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان: تفسير القرآن. وبيان ذلك أنَّ شرف الصنعة إمَّا بشرف موضوعها، مثل الصياغة، فإنَّها أشرف من الدباغة؛ لأنَّ موضوع الصياغة الذهب والفضة، وهما أشرف من موضوع الدباغة الذي هو: جلد الميتة. وإمَّا بشرف غرضها، مثل: صناعة الطب، فإنَّها أشرف من صناعة الكناسة؛ لأنَّ غرض الطب: إفادة الصَّحة، وغرض الكناسة: تنظيف المستراح. وإمَّا لشدة الحاجة إليها كالفقه؛ فإنَّ الحاجة إليه أشدُّ من الحاجة إلى الطب؛ إذ ما من واقعة من الكون في أحدٍ من الخلق إلا وهي مفتقرة إلى الفقه؛ لأنَّ به انتظام صلاح أحوال الدنيا والدِّين، بخلاف الطب؛ فإنَّه يحتاج إليه بعض النَّاس في بعض الأوقات.

وإذا عرف ذلك فصناعة التفسير قد حازت الشرف من الجهات الثلاث. أمَّا من جهة الموضوع؛ فلأنَّ موضوعه كلامُ الله عز وجل الذي هو ينبوعُ كلِّ حكمة، ومعدنُ كلِّ فضيلة. فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم. لا يَخْلُقُ على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه. وأمَّا من جهة الغرض؛ فلأنَّ الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السَّعادة الحقيقية التي لا تَفْنَى. وأمَّا من جهة شدة الحاجة؛ فلأنَّ كلَّ كمال ديني أو دنيوي عاجلي أو آجلي مفتقر إلى العلوم الشرعية، والمعارف الدِّينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب

الله ﷻ^(١).

وإنَّ أشرفَ الموضوعاتِ التي يتناولها التفسيرُ ما يتعلَّقُ بالعلمِ بالله ﷻ وصفاته، وتنزيهه عن النقائص، وعن المشابهة للمخلوقات.

وإنَّ العلمَ بالله ﷻ وأسمائه وصفاته هو أشرفُ العلومِ على الإطلاق، وهو مطلوبٌ لنفسه، مرادٌ لذاته، قال الله ﷻ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، فقد أخبر ﷻ أنه خلق السموات والأرض، ونزل الأمر بينهنَّ ليعلم عباده أنه بكلِّ شيءٍ عليم، وعلى كلِّ شيءٍ قدير، فهذا العلم هو غاية الخلق المطلوبة. وقال ﷻ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فالعلم بوحديته ﷻ، وأنه لا إله إلا هو مطلوبٌ لذاته، وإن كان لا يُكتفى به وحده، بل لا بدَّ معه من عبادته وحده لا شريك له، فهما أمران مطلوبان لأنفسهما، أن يعرف الربَّ ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه، وأن يعبد بموجبها^(٢).

فإنَّ القلب إذا كان خاليا من معرفة الحقِّ، واعتقاده والتَّصديق به؛

(١) الإتيان (٢/ ٤٦٥ - ٤٦٦)، أبجد العلوم (١/ ٩٠)، وقد بينا ذلك مفصلاً في حاشيتنا على إتمام الدراية شرح نقاية العلوم، للسيوطي.

(٢) انظر: مفتاح السعادة (٢/ ١٧٨)، الصواعق المرسلة (٣/ ١١٣٢)، ودرء التُّعارض (١/ ٢٤)، وقاعدة في المحبة (ص: ١٣).

كان معرّضاً لأن يعتقد نقيضه^(١)، ويصدّق به، ولاسيّما في الأمور الإلهيّة التي هي غاية مطالب البريّة، وهي أفضل العلوم وأعلاها وأشرفها وأسمّاها، والنّاس الأكابر لهم إليه غاية الشّوف والاشتياق، وإلى جهته تمتدّ الأعناق، فالمهتدون فيه أئمة الهدى كإبراهيم الخليل -عليه السلام- وأهل بيته، وأهل الكذب فيه أئمة الضّلال كفرعون وقومه. قال الله ﷻ في أولئك: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]، وقال ﷻ في الآخرين: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْذِبُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْفَيْكَةِ لَا يُصْرُونَ﴾ [القصص: ٤١] (٢).



(١) وذلك لأنّ العقل البشري لا يخلو من الشّيء ونقيضه، فإذا خلا من الإيمان بالله ﷻ اشتغل تلقائياً بالإيمان بسواه. وقد جاء ذلك واضحاً في قول الله ﷻ: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [يونس: من الآية: ٣٢]. يعني أنّه لا فراغ، ولا يمكن أن يرتفع التّقيضان.. وقد قال النبي ﷺ: «كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتَقُهَا أَوْ مُؤَبِّقُهَا». صحيح مسلم [٥٥٦]، يقول ابن القيم -رحمه الله تعالى- في (النونية):
 (هربوا من الرّق الذي خلقوا له فبلو برق النّفس والشّيطان).

(٢) درء التعارض (٥/ ٣٧٧).

● خاتمة في إبراز أهم النتائج:

- ١ - إنَّ هذا البابَ يعتبرُ الحلقةَ الأولى من حلقاتِ هذا البحثِ والتي تعتبرُ تأسيسًا لما سيأتي بعدها.
- ٢ - يبيِّنُ حاجةَ المخاطَبِ للتعرُّفِ على المخاطِبِ.
- ٣ - إنَّ هذا البابَ يعطي التَّصوَرَ الصَّحِيحَ عن المخاطِبِ - بكسر الطاء المهملة -، الَّذي يدلُّ على مكانته وعظمته.
- ٤ - لا شكَّ أنَّ ذلك يدفع المخاطِبَ - بفتح الطاء المهملة - إلى النَّظر في الخطاب حتَّى يكون على بصيرةٍ وبيَّنةٍ، ويفهم من خلال ذلك ألفاظَ الخطاب، فيكون أدعى إلى الامتثال والعمل بمقتضى ما فيه من الأمر والنَّهي والتَّوجيه والإرشاد على النَّحو الَّذي يرضى عنه المخاطِبُ ﷺ.



٢ - الوحي (الواسطة بين المخاطب - بكسر الطاء المهملة - ومبلغ الخطاب)

أ- توطئة تبين أهمية هذا البحث :

إنَّ الوحي هو الَّذي يفيد العقل ما لا يستقلُّ بمعرفته، ولا عبرة للتحسين والتَّقييح بالعقل وحده؛ لأنَّ العقول متفاوتة، وإنما العبرة بالشَّرع؛ ولأنَّ ملكات الإنسان من العقل والتَّجربة محدودة ونسبيَّة، فمن هنا كانت الحاجة إلى الوحي؛ لأنَّ ما لا ندركه بعقولنا لا بدَّ أن نلتمسه في وحي الله ﷻ. فبالوحي يتَّصل عالم الغيب بعالم الشَّهادة، ويصبح الوحي مصدر المعرفة الإنسانيَّة عن عالم الغيب.

كما أنَّ الوحي فيه التَّجدد الَّذي يتناسب مع تطوُّر العصور والواقع. وقد كانت الشَّرائع قبل الإسلام محلِّيَّة ومرحليَّة، فعندما يتطوَّر الواقع فتُنسخُ شريعةٌ يأتي رسولٌ جديدٌ بشريعةٍ جديدة، لكنَّ أمَّا وقد بلغت الإنسانيَّة سنَّ الرُّشد، وشاء الله ﷻ ختمَ رسالاتِ السَّماء جاءت الشَّريعة المحمَّديَّة لتقف عند الثَّوابت والأطر، وتترك التَّجديد ومواكبة العصور للفقهِ الإسلاميِّ الَّذي هو علم الفروع، وللإعجاز بألوانه المختلفة والمتجدِّدة.. ولكن ينبغي التَّنبيه إلى أنَّ ما يقابل العقل عندنا ليس النَّقل، وإنما الجنون.. فالإسلام لا يعرف قضية التَّنقض بين العقل والنَّقل، وإنما يقرأ النَّقل بالعقل.

ب- الصِّلة بين (الوحي) وموضوع البحث :

إنَّ الحديث عن (الوحي) من حيث الجملة يعتبر بمثابة المقدِّمة

والتمهيد للخطاب بمعناه الأخص -والَّذي هو محور الموضوع- وإن كان من موضوعات الوحي ما هو من الخطاب بمعناه الأخص -كما سيأتي- كما أنَّ الوحي هو الواسطة بين منزل الخطاب ﷺ، وبين مبلغه صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين، وله طرق ومعانٍ هي صلة بين المخاطب والمخاطبين؛ ولأنَّ الوحي كلمةٌ يندرج تحتها ألوانٌ من الخطاب من المخاطب -بكسر الطاء المهملة- إلى المكلم أو المخاطب من قبله.

ج- الوحي والإلهام:

وأشير هنا إلى ما قيل في أصل كلمة (الوحي) لغة، ثمَّ بيان معنى الوحي اصطلاحاً.

وقد جاء في بيان معنى (الوحي) أنَّه الإشارة، والكتابة، والرِّسالة، والإلهام، والكلام الخفيُّ، وكلُّ ما ألقِيته إلى غيرك، يقال: (وحيث إليه الكلام)، و(أوحيت)، و(وحي وحيًا)، و(وأوحى) أيضًا، أي: كتب. و(الوحي): المكتوب والكتاب أيضًا، وعلى ذلك جمعوا فقالوا: (وُحِيٌّ) مثل: حَلِيٍّ وَحُلِيٍّ. و(أوحى إليه): ألهمه. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. وفيه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٥]، أي: إليها، فمعنى هذا أمرها، و(وحي) في هذا المعنى، و(وحي) في البيت بمعنى كتب، و(وحي إليه) و(أوحى): كلَّمه بكلام يُخفيه من غيره. و(وحي إليه) و(أوحى): أوماً. قال الله ﷻ: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

وقيل في قوله ﷺ: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾^(١) أي: أشار إليهم^(٢). و(أوحى) و(وحى) و(أومى) و(ومى) بمعنى واحد، ووحى يحيى، وومى يمي. وحيثُ إليه بالكلام أحي به، و(أوحيتُ إليه)، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه من غيره. (أوحت إليه) أي: كلمته، و(أوحى الله ﷻ إلى أنبيائه) - عليهم الصلاة والسلام-. و(أوحى الرجل) إذا بعث برسول ثقة إلى عبد من عبيده ثقة، و(أوحى) أيضًا إذا كلم عبده بلا رسول.. و(الوحي): ما يُوحى الله ﷻ إلى أنبيائه - عليهم الصلاة والسلام-. وقيل: سمي وحيًا؛ لأنَّ الملك أسرَّه على الخلق، وخصَّ به النَّبيَّ ﷺ المبعوث إليه، قال الله ﷻ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، معناه: يُسرُّ بعضهم إلى بعض، فهذا أصل الحرف. ثمَّ قصر الوحي للإلهام، ويكون للأمر، ويكون للإشارة.

وقيل في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ [المائدة: ١١١]: أَلْهَمْتُهُمْ^(٢)، كما قال ﷻ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ

(١) انظر: تفسير الطُّبري (٥٣/١٦)، الدر المنثور (٤٨٣/٥)، تفسير مجاهد (٣٨٤/١)، تفسير الواحدي (٢/٦٧٧)، أضواء البيان (٤٠٩/٢)، (٣/٣٧٧)، البحر المحيط (١٦٧/٦)، السُّراج المنير (٢/٢٥٧)، الزَّازي (١١/٢٦٥)، تفسير الماوردي (٣/٣٥٩)، النَّسفي (٣/٥٠).
(٢) انظر: تفسير الطُّبري (٧/١٢٨)، تفسير القرطبي (٦/٣٦٣)، تفسير الواحدي (١/٣٤١)، البحر المنيد (٢/٢٢٦)، الكشف والبيان (٤/١٢٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٤/١٢٤٢)، الخازن (٢/١٠٩)، تفسير السَّمْعاني (٢/٧٨)، تفسير الماوردي (٢/٨١).

أَلْتَحِلَّ ﴿[النحل: ٦٨]. وقيل: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْهَوَارِيِّينَ﴾ : أَمَرْتَهُمْ^(١).
 وقيل في قوله ﷺ: ﴿أَوْحَيْتُ إِلَى الْهَوَارِيِّينَ﴾ أَتَيْتُهُمْ فِي الْوَحْيِ إِلَيْكَ
 بِالْبَرَاهِينِ وَالآيَاتِ. وقيل في قوله ﷺ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ
 أَرْضِعِيَّهُ﴾ [القصص: ٧]: (الْوَحْيُ) ههنا: إلقاء الله ﷻ في قلبها،
 قال: وما بعد هذا يدلُّ -والله أعلم- على أَنَّهُ وَحْيٌ مِنْ اللَّهِ ﷻ عَلَى
 جَهَةِ الْإِعْلَامِ، لِلضَّمَانِ لَهَا: ﴿إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىكَ وَجَاطُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾
 [القصص: ٧]. وقيل: إِنَّ مَعْنَى (الْوَحْيِ) ههنا: الإلهام^(٢). وجائز أن
 يُلْقِيَ اللَّهُ ﷻ فِي قَلْبِهَا أَنَّهُ مُرْدُودٌ إِلَيْهَا، وَأَنَّهُ يَكُونُ مَرْسَلًا، وَلَكِنْ
 الْإِعْلَامُ أَبِينُ فِي مَعْنَى الْوَحْيِ ههنا.

وأصل (الوحي) في اللغة كُلُّهَا: إِعْلَامٌ فِي خَفَاءٍ، وَلِذَلِكَ صَارَ
 (الإلهام) يَسْمَى وَحْيًا، وَكَذَلِكَ (الإشارة) و(الإيماء) يَسْمَى وَحْيًا،
 و(الكتابة) تَسْمَى: وَحْيًا.

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ
 حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، معناه: إِلَّا أَنْ يُوْحِيَ إِلَيْهِ وَحْيًا فَيُعَلِّمَهُ بِمَا

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨٥/٤)، الكشاف (٦٥٣/١)، فتح القدير (٥٠٨/٤)، تفسير
 البياضوي (٣٧٩/٢)، الجلالين (ص: ١٦٠)، روح المعاني (٥٨/٧).

(٢) انظر: تفسير البياضوي (٢٨٣/٤)، القرطبي (٢٥٠/١٣)، ابن كثير (١١٦/٢)، الطبري
 (٢٩/٢٠)، الدر المنثور (٣٩٣/٦)، الصنعاني (٨٧/٣)، معاني القرآن، للنحاس (١٥٨-١٥٩)،
 تفسير أبي السعود (٣/٧)، الواحدي (٨١٣/٢)، البغوي (٤٣٤/٣)، الشوكاني (١٥٩/٤)،
 ابن الجوزي (٢٠١/٦)، ابن عادل (٣٧/١١)، (١١١/١٢)، السراج المنير (١٠٦/٢)،
 (٢٧٣/٢)، السلمي (١٠٠/٢)، السمعاني (١٤/٣). وسيأتي التّعقيب على هذا القول
 وتوضيحه.

يَعْلَمُ الْبَشَرُ أَنَّهُ أَعْلَمَهُ، إِمَّا إِلَهَامًا أَوْ رُؤْيَا، وَإِمَّا أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا
 كَمَا أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَوْ قَرَأْنَا يَتْلَى عَلَيْهِ كَمَا أُنْزِلَ عَلَى
 مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكُلُّ هَذَا إِعْلَامٌ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ أَسْبَابُ الْإِعْلَامِ فِيهَا.
 وَ(وَحَى اللَّهُ ﷻ لِلْأَرْضِ بِأَنْ تَقِرَّ قَرَارًا وَلَا تَمِيدَ بِأَهْلِهَا) أَيُّ: أَشَارَ
 إِلَيْهَا بِذَلِكَ، وَيَكُونُ (وَحَى لَهَا الْقَرَارَ) أَيُّ: كَتَبَ لَهَا الْقَرَارَ، يُقَالُ:
 (وَحَيْتُ الْكِتَابَ أَحْيَاهُ وَحْيًا) أَيُّ: كَتَبْتَهُ فَهُوَ: مَوْحِيٌّ^(١). وَذَكَرَ الْحَافِظُ
 فِي (الْفَتْحِ) أَنَّ (الْوَحْيَ) لُغَةٌ: «الْإِعْلَامُ فِي خَفَاءٍ، وَ(الْوَحْيُ) أَيْضًا:
 الْكِتَابَةُ وَالْمَكْتُوبُ وَالْبَعْثُ وَالْإِلْهَامُ وَالْأَمْرُ وَالْإِيمَاءُ وَالْإِشَارَةُ
 وَالتَّصْوِيتُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ. وَقِيلَ: أَصْلُهُ التَّنْهِيمُ، وَكُلُّ مَا دَلَّتْ بِهِ
 مِنْ كَلَامٍ أَوْ كِتَابَةٍ أَوْ إِشَارَةٍ فَهُوَ وَحْيٌ»^(٢).

د- تعريف الوحي في الاصطلاح الشرعي:

الوحي شرعًا: «الْإِعْلَامُ بِالشَّرْعِ، وَقَدْ يُطْلَقُ الْوَحْيُ وَيُرَادُ بِهِ اسْمُ
 الْمَفْعُولِ مِنْهُ، أَيُّ: الْمَوْحَى، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ ﷻ الْمُنْزَلُ عَلَى النَّبِيِّ
 ﷺ»^(٣).

وَفِي (الْمَفْرَدَاتِ): «أَصْلُ الْوَحْيِ: الْإِشَارَةُ السَّرِيعَةُ، وَلِتَضْمُنَ
 السَّرْعَةَ قِيلَ: أَمْرٌ وَحْيٌ. وَذَلِكَ يَكُونُ بِالْكَلَامِ عَلَى سَبِيلِ الرَّمْزِ
 وَالتَّعْرِيزِ، وَقَدْ يَكُونُ بِصَوْتٍ مُجَرَّدٍ عَنِ التَّرْكِيبِ، وَبِإِشَارَةٍ بِيَعُضِّ

(١) بِتَصْرِيفٍ عَنِ (لِسَانِ الْعَرَبِ)، مَادَّةُ: (وَحَى) (٣٧٩/١٥).

(٢) فَتْحُ الْبَارِي، لِابْنِ حَجَرٍ (٩/١).

(٣) الْمَصْدَرُ نَفْسَهُ (٩/١).

الجوارح، وبالكتاب. وقد حمل على ذلك قوله ﷺ عن زكريا - عليه السلام -: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]. فقد قيل: (رَمَزَ). وقيل: (اعتبارًا). وقيل: (كَتَبَ). وعلى هذه الوجوه قوله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقوله ﷺ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فذلك بالوسواس المشار إليه بقوله: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ [الناس: ٤]، وبقوله ﷺ: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً»^(١).

ويقال للكلمة الإلهية التي تلقى إلى أنبيائه: (وحي). وذلك أَضْرُبٌ حسبما دلَّ عليه قوله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ إلى قوله ﷺ: ﴿يَاذْنِيهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١]، وذلك إمَّا برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه، كتبليغ جبريل للنبي ﷺ في صورة معينة، وإمَّا بسماع كلام من غير معاينة كسماع موسى عليه السلام كلام الله ﷻ، وإمَّا بإلقاء في الرُّوع كما ذكر ﷺ: «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي»^(٢)، وإمَّا بإلهام نحو:

(١) أخرجه الترمذي [٢٩٨٨]، وقال: حسن غريب. والنسائي في (الكبرى) [١١٠٥١]، وابن أبي الدنيا في (مكايد الشيطان) [٤١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٥٠٦]، وابن حبان [٩٩٧]. وأبو يعلى [٤٩٩٩]، والطبري في (التفسير) (٨٨/٣)، وابن أبي حاتم في (تفسيره) [٢٨٥٥]، رواه أبو بكر بن مردويه في (تفسيره).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة [٣٤٣٣٢]، مسند البزار [٢٩١٤]، مسند الشهاب القضاعي [١١٥٠]، شعب الإيمان [١١٨٥]، [١٠٣٧٦]، نوادر الأصول [١٨٢]، علل الدارقطني =

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]، وإِذَا بِتَسْخِيرِ
 نحو قوله ﷺ: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، أو بمنام كما
 قال عليه ﷺ: «انْقَطَعَ الْوَحْيُ وَبَقِيَتِ الْمُبَشِّرَاتُ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ»^(١)،

= [٨٧٥]، مسند الشافعي (١/٢٣٣). وفي (الكشف): «إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي لَنْ
 تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْلُوا فِي الطَّلَبِ». رواه في (مسند
 الفردوس) عن جابر في (حرف الهمزة) ورواه في (حرف الثون) عنه بلفظ: «نَفَثَ فِي
 رُوعِي رُوحُ الْقُدُسِ أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى تَسْتَكْمَلَ رِزْقَهَا» الحديث. ورواه أبو
 نعيم والطبراني عن أبي أمامة والبخاري عن حذيفة ﷺ، وأخرجه أيضًا ابن أبي الدنيا،
 وصححه الحاكم [بألفاظ مختلفة، ووافقه الذهبي] عن ابن مسعود ﷺ كذا في (فتح الباري)
 اهـ. كشف الخفاء (١/٢٦٨)، فتح الباري (١/٢٠)، المستدرک [٢١٣٤، ٢١٣٥،
 ٢١٣٦، ٧٩٢٤].

(١) أخرجه ابن ماجه بلفظ: «ذهبت الثبوة وبقيت المبشرات»، [٣٨٨٦]. وفي (مجمع الزوائد)
 (١٧٣/٧): إسناده صحيح ورجاله ثقات. وأخرجه أحمد [٢٥٨٩٠]. وفي (الأحوذى)
 (٤٥٥/٦)، باب «ذهبت الثبوة وبقيت المبشرات» - بكسر الشين المعجمة -، جمع مبشرة،
 وهي البشرى. وقد ورد في قوله ﷺ: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] هي
 الرؤيا الصالحة. ونحوه الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره، وأذكر رواية البخاري عن
 أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ
 جُزْءًا مِنَ الثَّبُوءِ». البخاري [٦٤٧٢، ٦٤٧٣]. ورواية البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ
 قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكُذِّبْ رُؤْيَا الْمُؤْمِنِ، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ
 مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ الثَّبُوءِ، وَمَا كَانَ مِنَ الثَّبُوءِ فَإِنَّهُ لَا يَكْذِبُ». قَالَ مُحَمَّدٌ [وهو محمد
 بن سيرين أبو بكر مولى أنس بن مالك من الطبقة الوسطى من التابعين الأنصاري المتوفى
 (١١٧هـ)]: وأنا أقول هذه، قال: وكان يقال: الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتُخَوِّفُ
 الشَّيْطَانَ، وتُبَشِّرُ مِنَ اللَّهِ، فَمَنْ رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلَا يَقْضِهِ عَلَى أَحَدٍ، وَلَيَقُمْ فَلْيُصَلِّ،
 قال: وكان يُكْرَهُ الْعُلُوفُ فِي النَّوْمِ، وكان يُعْجِبُهُمُ الْقَيْدُ، ويقال: الْقَيْدُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ. وروى
 قَتَادَةُ، وَيُونُسُ [وهو بن عبيد بن دينار العبدي الصغرى من التابعين المتوفى (١٣٩هـ)]

فالإلهام والتسخير والمنام «دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ ، وسماع الكلام معاينة دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، وتبليغ جبريل عليه السلام في صورة معينة دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ﴾ [الشورى: ٥١]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، فذلك لمن يدَّعي شيئاً من أنواع ما ذكرناه من الوحي، أي: نوع ادَّعاه من غير أنْ حَصَلَ لَهُ. وقوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ [الأنبياء: ٢٥] الآية، فهذا الوحي هو عامٌّ في جميع أنواعه، وذلك أن معرفة وحدانيَّة الله ﷻ، ومعرفة وجوب عبادته ليست مقصورة على الوحي المختصَّ بأولي العزم من الرُّسل، بل يعرف ذلك بالعقل والإلهام كما يعرف بالسمع. والقصد من الآية تنبيه أنه من المحال أن يكون رسولاً لا يعرف وحدانيَّة الله ﷻ، ووجوب عبادته، وقوله ﷺ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّنَ﴾ [المائدة: ١١١]، فذلك وحي بوساطة عيسى عليه السلام، وقوله ﷺ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾

= وَهَشَامٌ [وهو بن حسان الأزدي القردوسي لم يلق الصحابة أبو عبد الله المتوفى (١٤٨هـ)] وأبو هلال [وهو محمد بن سليم الراسبي لم يلق الصحابة المتوفى (١٦٧هـ)] عن ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ. وأدرج بعضهم كله في الحديث، وحديث عوف [بن أبي جميلة العبدي الهجري أبو سهل لم يلق الصحابة المتوفى (١٤٦هـ)] أَيْبُنْ، وقال يونس: لا أحسبه إلا عن النبي ﷺ في القيد، قال أبو عبد الله: لا تكون الأغلال إلا في الأعناق. البخاري [٦٤٩٩]. تقريب التهذيب، لابن حجر العسقلاني (ص: ٤٨٣)، (٤٥٣)، (٦١٣)، (٥٧٢)، (٤٨١)، (٤٣٣).

[الأنبياء: ٧٣]، فذلك وحي إلى الأمم بوساطة الأنبياء -عليهم الصّلاة والسلام-.

ومن الوحي المختصّ بالنبي ﷺ: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقوله ﷺ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ﴾ فوحى إلى موسى عليه السلام بوساطة جبريل، ووحى ﷺ إلى هارون بوساطة جبريل وموسى، وقوله ﷺ: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، فذلك وحي إليهم بوساطة اللوح والقلم فيما قيل.

وقوله ﷺ: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢]، فإن كان الوحي إلى أهل السّماء فقط فالموحي إليهم محذوف ذكره، كأنه قال: أوحى إلى الملائكة؛ لأنّ أهل السّماء هم الملائكة، ويكون كقوله ﷺ: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [الأنفال: ١٢]، وإن كان الموحي إليه هي السّموات فذلك تسخير عند من يجعل السّماء غير حي، ونطق عند من جعله حيًا، وأمّا قوله: ﴿يَا أَيُّهَا رَبِّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۖ﴾ [الزلزلة: ٥]، فقريب من الأوّل، وقوله ﷺ: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ [طه: ١١٤]، فحثّ على الثّبت في السّماع، وعلى ترك الاستعجال في تلقيه وتلقّنه^(١).

(١) بتصرف عن (المفردات في غريب القرآن الكريم)، مادّة: (وحي) (ص: ٥١٦).

هـ- بيان معنى الإلهام والفرق بينه وبين الوحي:

و(الإلهام): «ما يُلقى في الرُّوع. فـ (الإلهام) أن يُلقى الله ﷻ في النفس أمرًا يبعثه على الفعل أو التَّرك، وهو نوع من الوحي، يَخُصُّ الله ﷻ به من يشاء من عباده..»^(١).

و- تعريف الشَّيخ مُحَمَّد عبده للوحي والإلهام في الاصطلاح الشرعي:

قال: «وقد عرَّفوه شرعًا أنَّه كلام الله ﷻ المنزَّل على نبيٍّ من أنبيائه، أمَّا نحن فنعرِّفه على شرطنا بأنَّه: عرفانٌ يجده الشَّخص من نفسه مع اليقين بأنَّه من قبل الله ﷻ بواسطة أو بغير واسطة، والأوَّل بصوت يتمثَّل لسمعه أو بغير صوت، ويفرَّق بينه وبين الإلهام بأنَّ الإلهام: وجدانٌ تستيقنه النَّفس، وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والشُّرور»^(٢).

ز- تعقيب لرئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر إبراهيم عبد الرَّحمن خليفة:

يقول: «لا نوافق الشَّيخ محمد عبده في قصر الموحى إليه على الأنبياء والأولياء، بل نقول بمزيد من التَّعميم بحيث يشمل غير الأولياء

(١) بتصرفٍ عن (لسان العرب)، مادة: (لهم) (٥٤٧/١٢)، وانظر: مادة: (لهم) في (مقاييس اللغة) (٢١٧/٥)، مختار الصُّحاح (ص: ٦١٢).

(٢) رسالة التَّوحيد، محمد عبده (ص: ١٠٨).

كذلك من أهل سخطه ﷺ، كإبليس المكلّم من قبل الله ﷻ، وكالأقرع والأبرص المحدثين من قبل المَلَك^(١). نعم كثر إطلاق الوحي بمعناه المصدري على ما يكون إلى الأنبياء خاصّة، وبمعناه الحاصل بالمصدر، والذي هو إطلاق المصدر وإرادة المفعول (الموحى) -بفتح الحاء- على ما يلقي إلى الأنبياء خاصّة كذلك. ولكنّ هذا لا يمنع من أنّ كلا من المعنيين المصدري والحاصل بالمصدر هو أرحب دائرة وأوسع أفقًا من هذا الإطلاق، وأنّ كلا منهما في دائرته الرحبة وأفقه الواسع هو أيضًا معنى شرعي من قبل أنّه إعلام بشرع. وسواء علينا في ذلك أقلنا: إنّ هذا المعنى الشرعي هو جزء من جزئيات الحقيقة اللّغويّة الموضوعيّة للقدر المشترك بينه وبين سائر ما يندرج تحت الحقيقة من الجزئيات الأخرى، وأنّ استعمال تلك الحقيقة اللّغويّة في هذا المعنى ليس من باب قصر الحقيقة على بعض أفرادها حتّى يكون مجازًا من إطلاق العامّ وإرادة الخاصّ، بل هو من تحقيق القدر المشترك في الجزئيّ فيكون الإطلاق حقيقة. سواء علينا أقلنا ذلك، وهو ما نفهمه بالفعل من تصرّف الرّاغب الأصفهاني حيث لم يفرّق [في نقله السّابق] بين قولٍ وآخر، ولا أعطى أيّا من المعاني التي ذكرها بخصوصه وصف الشّرعيّة، أم قلنا: إنّ الإطلاق الشرعي هنا كظائره العديدة من قصر الحقيقة على بعض أفرادها فيكون إطلاق الوحي هو من باب الحقيقة العرفيّة والتي هي في الأصل مجاز من إطلاق العامّ

(١) حديث الأقرع والأبرص أخرجه البخاريّ [٣٤٦٤]، ومسلم [٢٩٦٤].

وإرادة الخاص كما ذكرنا، بأي الاعتبارين قلت فلا ضير عليك^(١).
ومن هنا يعلم الفرق بين عمومية الإطلاق اللغوي، وخصوصية
الإطلاق الشرعي من حيث إنَّ الإطلاق الشرعي إنما هو إعلام بالشرع
سواء أردنا الوحي بمعناه المصدري أو الحاصل بالمصدر فهو إعلام
بشرع - كما سبق-، وأنَّ الصلة وثيقة بينهما، فمن أدرج المصطلح
الشرعي في المصطلح اللغوي كالرَّاغِب فله من التَّأويل ما ذكر .

ح- حقيقة الوحي إلى أم موسى عليه السلام:

يقول أستاذنا العلامة الدكتور عبد الرحمن خليفة: «مرَّ بك في كلام
الرَّاغِب أنَّ وحي الله ﷻ إلى أم موسى عليه السلام كان بالإنشاء، وقد
نحا نحوه هذا عديد من المفسرين منهم: البيضاوي، وابن كثير على
سبيل المثال، ثمَّ قلَّد هؤلاء كثير غيرهم... غير أن هذا الرَّأي غير
متَّجه، وإلا فمن أين لفطرة كائن من كان اعتقاد جازم بأنَّ فلاناً من
النَّاس سيكون من المرسلين، حتَّى يتصوَّر ارتكاز مثل هذا الاعتقاد في
فطرة أم موسى عليه السلام بالنسبة لولدها عليه السلام حسبما نطقت
الآية الكريمة؟ ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمَهُ
فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾
هكذا وعلى النحو المؤكَّد ب: (إنَّ، وإسمية الجملة)^(٢) ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ
وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهذه واحدة، وثانية لا تدنو عن أختها دلالة،

(١) مئة المنان في علوم القرآن (٢/ ١٥٠-١٥١).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٠/ ٤٥) .

وهي تعبيره ﷺ عن هاتين البشارتين بالوعد في قوله ﷺ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]، فمن أين يصلح لمجرد الإلهام أو حتى لرؤيا منام رآها غير نبيٍّ مهما تكن درجته من الصَّلاح والورع؟ من أين يصلح أن يقال لشيء من هذا أو ذاك وعد؟ فمن ثمَّ استظهر كلُّ من أبي حيَّان^(١) والآلوسي^(٢) أن يكون الوحي إلى أمِّ موسى عليه السلام من طريق ملك أرسله الله ﷻ، إليها فاطناً أوَّلَ الرَّجَلين إلى ثانية هاتين الحجَّتين، وثانيهما إلى أولاهما، وكذلك يظهرُ هذا الاختيار من صنيع القرطبي^(٣).

ط- تعقيب على ما ذكر من أقوال المفسِّرين:

قال في (منَّة المنان): «وما يحمل هؤلاء وأولئك من قدامى القائلين بدعوى الإلهام ومحدثيهم في حسابنا إلا خشية أن يُظنَّ بأمِّ موسى -عليه السلام- النبوة، مع إجماع المسلمين وغيرهم^(٤) على عدم نبوتها، بل مع إجماع المسلمين على أنَّ من شرط النبوة: الذُّكورة انطلاقاً من نحو: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(١) البحر المحيط (٧/١٠٠).

(٢) روح المعاني (٢٠/٤٥ - ٤٩).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٣/٢٥٠).

(٤) إجماع غير المسلمين غير معتبر ولا يحتج به، فلا أعلم سبب إقحامه إيَّاه، وهو في معرض الاستدلال.

ولكن من أين يقتضي إرسال الملك إلى أحد نبوته؟ أفلا يرون إلى إرساله ﷺ جبريل عليه السلام إلى مريم -عليها السلام- حيث تمثل لها بشراً سوياً، وكلمها بما ذكر الله ﷻ من قصتها في كتابه الكريم، ألا يرون إلى إرسال الله ﷻ الملك إلى كل من الأقرع والأبرص والأعمى، على ما في حديث الشيخين وغيرهما المنبّه إليه غير مرّة، فبنحو هذا نظر كل من أبي حيان والقرطبي أيضاً في استظهارهما ما استظهراه في هذا الوحي من كونه كان عن طريق ملك أرسله الله ﷻ إلى أم موسى عليه السلام، على أنه لا يستبعد أيضاً أن يكون هذا الوحي عن طريق نبي في زمانها لم يقص القرآن علينا قصته، وأي ذلك كان ممّا الله ﷻ أعلم به فليس لما قاله أهل دعوى الإلهام، ومثلهم أهل دعوى رؤيا المنام وجه البتّة" (١).

أقول: وما ذكره الدكتور إبراهيم خليفة من دعوى الإجماع يوافق ما ذكره البيضاوي في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢] قال: كلّموها شفاهاً كرامة لها، ومن أنكر الكرامة زعم أن ذلك كانت معجزةً لذكرياً عليه السلام، أو إرهاباً لنبوة عيسى عليه السلام، فإن الإجماع على أنه ﷻ لم يستنبئ امرأة لقوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [النحل: ٤٣] (٢).

(١) مئة المنان في علوم القرآن (٢/١٥٣).

(٢) تفسير البيضاوي (٢/٣٨)، وانظر: أحكام القرآن، للجصاص (٢/٢٩٣).

ويوافق أيضًا ما ذكره الحافظ ابن كثير في (تفسيره)، قال: «يخبرُ ﷺ أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دلَّ عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله ﷻ لم يوح إلى امرأة من بنات آدم عليه السلام وحي تشريع. وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل -عليه السلام- وأم موسى عليه السلام ومريم بنت عمران أم عيسى عليه السلام نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت (سارة) بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ويقول ﷻ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَرْسُلَ مُوسَى أَنْ أَزْجِيَهُ﴾ [القصص: ٧] الآية، وبأن الملك جاء مريم -عليها السلام- فبشرها بعيسى عليه السلام.

ويقوله ﷻ: ﴿... إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكِ طَهْرَكَ وَاصْطَفَىٰ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَمْزِيغُ أَمْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِى مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣]. وهذا القدر حاصل لهنّ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنّ نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهنّ هذا القدر من التشريف فهذا لا شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرد أم لا؟ الذي عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عنهم أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهنّ صديقات كما قال ﷻ مخبرًا عن أشرفهنّ مريم بنت عمران -عليها السلام- حيث قال ﷻ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّلْعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقة، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام،

فهي صِدِّيقَةٌ بَنَصَّ الْقُرْآنَ إِلَى آخِرِ مَا ذَكَرَهُ^(١).
وأرى أَنَّ ما ذكر من دعوى الإجماع غير مسلم، فقد ذكر الرَّجَاجُ^(٢)
والقرطبي^(٣) أَنَّ معنى قوله ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكَ وَطَهَّرَكَ﴾ أي:
اختارك، ﴿وَطَهَّرَكَ﴾ أي: من الكفر عن مجاهد، والحسن،
والرَّجَاجُ^(٤): من سائر الأنداس من الحيض والنَّفاس وغيرهما.
﴿وَأَصْطَفَاكَ﴾ لولادة عيسى عليه السلام، ﴿عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني:
عالمي زمانها. عن الحسن وابن جريج وغيرها. قيل: على نساء
العالمين أجمع إلى يوم الصُّور. وهو الصَّحِيح على ما نبينه، وهو قول
الرَّجَاج وغيره^(٥). وكرَّر الاصطفاء؛ لأنَّ معنى الأوَّل: الاصطفاء
لعبادته، ومعنى الثَّاني: لولادة عيسى عليه السلام. وقد قال رسول الله
ﷺ: «كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا آسِيَةُ امْرَأَةٍ
فِرْعَوْنَ وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ
عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»^(٦). والكمال هو التَّنَاضُح والتَّمام، ويقال في ماضيه:

-
- (١) انظر: تفسير ابن كثير (٢/٤٩٧)، وانظر: لوامع الأنوار البهية (٢/٢٦٦)، فتح الباري،
للحافظ ابن حجر (٦/٤٤٧-٤٧٣)، عمدة القاري (٧/١٢)، (٢٣/٣٤٩)، غمز عيون
البصائر (٣/٣٩٣)، البداية والنهاية (٢/٧١).
(٢) معاني القرآن وإعرابه، للرَّجَاج (١/٤١٠).
(٣) تفسير القرطبي (٤/٨٢-٨٤).
(٤) معاني القرآن وإعرابه، للرَّجَاج (١/٤١٠).
(٥) انظر: تفسير ابن كثير (١/٤١٠).
(٦) أخرجه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه [٣١٥٩، ٣١٧٩، ٣٤٨٥، ٤٩٩٨]،
ومسلم [٤٤٥٩].

(كَمُلْ) - بفتح الميم وضمها-، و(يَكْمُلْ) في مضارعه -بالضَّم- .
وكمال كل شيء بحسبه، والكمال المطلق إنما هو لله ﷻ خاصّة، ولا
شكّ أنّ أكمل نوع الإنسان الأنبياء، ثم يليهم الأولياء من الصديقين
والشهداء والصّالحين..^(١).

ورأي الألوسي فيه زيادة في التّفصيل والتّحقيق، وهنا أختصر ما قاله مع
التّعقيب: قال: «واستدلّ بهذه الآية من ذهب إلى نبوة مريم
-عليها السّلام-؛ لأنّ تكليم الملائكة يقتضيها، ومنعه اللّقاني^(٢)... إلخ.
وادّعى أنّ من توهم أنّ النبوة مجرّد الوحي ومكالمة الملك فقد حاد عن
الصّواب. ومن النّاس من استدلّ على عدم استنباء النّساء بالإجماع، وبقوله
ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [النحل: ٤٣]^(٣)، ولا يخفى ما فيه.

(١) بتصرفٍ واختصارٍ عن (تفسير القرطبي) (٨٢/٤ - ٨٤). وانظر أيضًا: تفسير القرطبي لكل
من قول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾
[يوسف: ١٠٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾
[مريم: ١٦].

(٢) هو الشّيخ إبراهيم بن إبراهيم بن حسن بن علي اللّقاني المالكيّ، المصريّ، برهان الدّين، أبو
الأمداد، من علماء الحديث، وأصوله، والكلام، والفقه. و(اللّقاني) نسبةً إلى (لقانة) من
(البحيرة) بمصر. توفي وهو راجع من الحجّ، ودفن بالقرب من عقبة (إيلة)، من مؤلفاته:
بهجة المحافل وأجل الوسائل بالتّعريف برواة الشّمائيل، قضاء الوطر من نزهة النظر في
توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، جوهره التّوحيد، حاشية على مختصر خليل،
وتوضيح ألفاظ الأجروميّة [١٠٤١هـ]. كشف الظّنون (١/٦٢٠)، الأعلام (١/٢٨)،
معجم المؤلّفين (١/٢). وابنه: عبد السّلام بن إبراهيم بن إبراهيم اللّقاني المصريّ، شيخ
المالكيّة في وقته بالقاهرة. الأعلام (٣/٣٥٥).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٢/٣٨)، أحكام القرآن، للجصاص (٢/٢٩٣).

أَمَّا أَوَّلًا: فلأنَّ حكاية الإجماع في غاية الغرابة، فإنَّ الخلاف في نبوة نسوة كحواء وآسية وأم موسى وسارة وهاجر ومريم موجود خصوصًا مريم، فإنَّ القول بنبوتها شهير، بل مال الشيخ تقي الدين السبكي، وابن السِّد^(١) إلى ترجيحه، وذكر أنَّ ذكرها مع الأنبياء في سورتهم قرينة قويّة لذلك.

وأما الثانية: فلأنَّ الاستدلال بالآية لا يصحُّ؛ لأنَّ المذكور فيها الإرسال، وهو أخصُّ من الاستنباء على الصَّحيح المشهور، ولا يلزم من نفي الأخصِّ نفي الأعم^(٢).

أقول: وبيان ذلك أنَّه يلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعم، ولا يلزم من ثبوت الأعم ثبوت الأخصِّ، وشرط موضوع الدَّليل إمَّا أن يكون مساويا لموضوع المدَّعى أو أعمَّ منه.

وشرط محمول الدَّليل إمَّا أن يكون مساويا لمحمول المدَّعى أو أخصَّ منه، ويلزم من ثبوت الأخصِّ ثبوت الأعم.

ومن حيث الإجمال أقول: المحمول الثَّابت لموضوع أخص، أعمُّ من المحمول الثَّابت لموضوع أعم، فمثلا عندما يقال: (حضر محمَّد)، فإنَّ المحمول الثَّابت للأخصِّ أعمُّ من أن يكون مع هذا

(١) انظر: الدُّرر الكامنة (١/١٤٦)، البدر الطَّالع (١/٣٥)، والأعلام (١/١١٩). ولعلَّه يقصد بابن السِّد: السِّد علي الشَّريف ابن السِّد محمد الشَّهير بابن الجرجي المصري، قد صنَّف الحاشية وعلَّقها على تفسير البيضاوي، وكانت وفاته في سنة (عشر وتسعمائة). انظر: طبقات المفسِّرين، لأحمد بن محمد الأدنوي (١/٣٦٤).

(٢) روح المعاني (٣/١٥٤-١٥٥).

الحضور طالب آخر أو لا، فقولنا: (حضر محمد) يصدق عليه عدة احتمالات، نقول مثلاً: (حضر محمد وحده)، (حضر محمد مع خالد)، (حضر محمد مع خالد وعليّ) ... وهكذا. فهو أعم من قولنا: (حضر المحمّدان) أو (حضر المحمّدون) أو (حضر جميع الطلبة). وبناءً على ذلك لا يلزم من نفي كونه رسولاً نفي كونه نبياً. أقول: وبناءً على ما سبق فلا يوجد دليل على نبوتها، كما أنّه لا يستطيع أحد أن يقول: إنها ليست نبية؛ لانتفاء الدليل كما سبق.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، والعطف يقتضي المغايرة. وما استدّلوا به من قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيْ اِلَيْهِمْ﴾^(١) غير منتج؛ لأنّه أعم من المدعى، ومن القواعد والأسس أنّه يلزم من ثبوت الأخصّ ثبوت الأعم، ولا يلزم من ثبوت الأعم ثبوت الأخصّ، وقد تقرّر أنّ كلّ رسولٍ نبِيٍّ، وليس كلّ نبِيٍّ رسولاً، فبينهما عموم وخصوص مطلق^(٢). والحاصل أنّ الخلاف إنما جرى ذكره هنا لبيان أنّها ليست واسطة في تبليغ الخطاب على معنى أنّها مرسلة، وهذا لا خلاف فيه.

(١) انظر: تفسير البضاوي (٣٨/٢)، وانظر: أحكام القرآن، للجصاص (٢٩٣/٢).

(٢) العموم والخصوص المطلق بمعنى: أن يصدق على شيء، وينفرد الأعم منهما، مثل النسبة بين الحيوان والإنسان، أمّا العموم والخصوص الوجهي فهو أن يجتمعا في شيء وينفرد كلّ منهما في شيء، مثل النسبة بين الحيوان والأبيض.

ي- المقاصد من الوحي، وتمثّل في مراتب الهداية الخاصة والعامة:
وهي عشر مراتب:

المرتبة الأولى: مرتبة تكليم الله ﷻ لعبده يقظة بلا واسطة، بل منه إليه:
وهذه أعلى مراتبها كما كلم موسى -عليه السلام-، قال الله ﷻ:
﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، فذكر في أول الآية وحيه إلى نوح -عليه
السلام- والتبيين من بعده^(١)، ثم خصّ موسى -عليه السلام- من بينهم
بالإخبار بأنّه كلمه، وهذا يدلّ على أن التكليم الذي حصل له أخصّ
من مطلق الوحي الذي ذكر في أول الآية^(٢).

الثانية: مرتبة الوحي المختصّ بالأنبياء:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾
[النساء: ١٦٣]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ
حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]. الآية. فجعل الوحي في هذه الآية قسما من
أقسام التكليم وجعله في آية النساء قسيما للتكليم وذلك باعتبارين، فإنه
قسيم التكليم الخاص الذي هو بلا واسطة وقسم من التكليم العام

(١) وقام الآيتين: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِبَرزخ
وَأَسْمِعِلْ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ دَاوُدَ زَكَرِيَّا
﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا
[النساء: ١٦٣-١٦٤].

(٢) بتصرف واختصار عن (مدارج السالكين) (٣٧/١)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٢/١٢٩-
٥٥٨)، وانظر: الصفدية (١/٢٤٩)، بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية
(ص: ٣٨١)، بدائع الفوائد (٢/٣١٢).

الذي هو إيصال المعنى بطرق متعددة.

الثالثة: إرسال الرسول الملكي إلى الرسول البشري:

فيوحي إليه عن الله ﷻ ما أمره أن يوصله إليه، فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- لا تكون لغيرهم^(١).

الرابعة: مرتبة التحديث وهذه دون مرتبة الوحي الخاص:

«وتكون دون مرتبة الصديقين كما كانت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه كما قال النبي ﷺ: «إن في أمتي لمحدثين وإن عمر منهم»^(٢).

وقد جزم ابن تيمية رحمه الله «بأنهم كائنون في الأمم قبلنا وعلق وجودهم في هذه الأمة بـ: (إن) الشرطية مع أنها أفضل الأمم لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبينا ﷺ ورسالته، فلم يحوج الله ﷻ الأمة بعده إلى محدث، ولا ملهم، ولا صاحب كشف، ولا منام، فهذا التعليق؛ لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها..و(المحدث) هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء فيكون كما يحدث به..»^(٣).

(١) انظر: مدارج السالكين (١/٣٨-٣٩)، الرد على المنطقيين (ص: ٥٣٩)، وانظر: مجموع الفتاوى (٤/٣٩٧-٣٨٩).

(٢) أخرجه البخاري [٣٤١٣، ٣٥٧٧]. ونص الحديث عند البخاري: «عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب». ومسلم [٤٤١١]، وقد جاء هذا المعنى مفصلاً في (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسر) (ص ٢٥-٢٧).

(٣) المستدرک على مجموع فتاوى شيخ الإسلام (١/١١١)، مدارج السالكين (١/٣٩).

الخامسة: مرتبة الإفهام:

قال الله ﷻ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩].

السادسة: مرتبة البيان العام:

«وهو تبين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهد وأعلامه بحيث يصير مشهودًا للقلب كشهود العين للمرئيات، وهذه المرتبة هي حجة الله ﷻ على خلقه التي لا يعذب أحدًا ولا يضلُّه إلا بعد وصوله إليها. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهذا الإضلال عقوبة منه لهم حين بيَّن لهم فلم يقبلوا ما بيَّنه لهم، ولم يعملوا به، فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضلَّ الله ﷻ أحدًا قط إلا بعد هذا البيان...».

السابعة: البيان الخاص:

«وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب، فلا تتخلَّف عنه الهداية البتَّة. قال ﷻ في هذه المرتبة: ﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدًىٰ هَدَيْتَهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]، وقال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]، فالبيان الأوَّل شرط، وهذا موجب».

الثامنة: مرتبة الإسماع:

«قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣]. وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجّة والتبليغ، فإنّ ذلك حاصل لهم، وبه قامت الحجّة عليهم، لكن ذاك إسماع الآذان، وهذا إسماع القلوب».

المرتبة التاسعة: مرتبة الإلهام:

قال ﷻ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ﴾ [الشمس: ٧-٨].

«والتّحديث أخص من الإلهام، فإنّ الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم، فكل مؤمن فقد ألهمه الله ﷻ رشده الذي حصل له به الإيمان، فأما التّحديث فالنبي ﷺ قال فيه: «إِنَّ فِي أُمِّي لِمُحَدِّثِينَ، وَإِنَّ عَمْرَ مِنْهُمْ»، يعني من المحدّثين، فالتّحديث إلهام خاص، وهو الوحي إلى غير الأنبياء»^(١).

المرتبة العاشرة: الرؤيا الصّادقة:

وهي من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبي ﷺ أنّه قال: «الرؤيا الصّالحة من الرّجل الصّالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٢).

(١) مدارج السّالكين (١/٤١ - ٤٤)، وانظر: مجموع الفتاوى (١٦/١١).

(٢) أخرجه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، [٦٤٦٨]. وقد سبق بيان روايات الحديث.

ك- النتائج:

- ١ - الوحي هو الواسطة بين منزل الخطاب ﷺ، وبين مبلغه ﷺ إلى المخاطبين، وله طرق ومعانٍ هي صلة بين المخاطب ﷺ - بكسر الطاء المهملة - ومبلغ الخطاب ﷺ ...
- ٢ - الموحى إليه أعم من أن يكون إلى الأنبياء والأولياء، بل يشمل غير الأولياء كذلك من أهل سخطه ﷺ كإبليس المكلّم من قبل الله ﷻ، وكالأقرع والأبرص المحدثين من قبل المَلَك ...، ويكون أيضًا بالإشارة والإلهام ...، وإلى البشر وإلى غيرهم من المخلوقات الأخرى ..
- ٣ - ما يأتي به الوحي له من الأهمية ما لا يخفى، وهو يفيد العقل ما لا يستقل بمعرفته؛ لأنّ ملكات الإنسان محدودة ...
- ٤ - أمّا بيان موقعه من موضوع البحث هنا فهو من المكملات حتى لا تفقد حلقة من حلقاته، وهي كونه واسطة - كما أسلفت -، كما أنّ فيه التصريح ببعض صور الخطاب، كأن يكون المخاطب رسولاً أو غير رسول، نبياً أو غير نبى، من أولياء الله ﷻ أم من أهل سخطه - كما أسلفت -.

٣ - التعريف بالنزول

أ- تَقَدَّمَ مَبْحَثُ النُّزُولِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ مَبَاحِثِ عُلُومِ الْقُرْآنِ :
لَمَّا كَانَ الْعِلْمُ بِنَزُولِ الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ سَابِقًا سَبَقَ أَصَالَةٍ وَوُجُودِ
عَلَى تَبْلِيغِ النَّازِلِ فَضْلًا عَنْ امْتِثَالِ مَا فِيهِ، وَالْعَمَلُ بِهِ، وَعَنِ الْعِلْمِ بِمَا
يَتَعَلَّقُ بِالْخُطَابِ نَفْسَهُ نَاسِبٌ أَنْ يَتَقَدَّمَ هَذَا الْمَبْحَثُ ذِكْرًا، وَلَمَّا هُوَ
مُتَقَرَّرٌ مِنْ أَنَّ حَقَّ مَا هُوَ مُقَدَّمٌ طَبْعًا أَنْ يَتَقَدَّمَ وَضْعًا.

يَقُولُ الشَّيْخُ الزُّرْقَانِيُّ : «هَذَا مَبْحَثٌ مُهِمٌّ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، بَلْ هُوَ
أَهْمُّ مَبَاحِثِهِ جَمِيعًا؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ بِنَزُولِ الْقُرْآنِ أَسَاسٌ لِلْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ،
وَأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ ﷻ، وَأَسَاسٌ لِلتَّصَدِيقِ بِنُبُوَّةِ الرَّسُولِ ﷺ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ
حَقٌّ، ثُمَّ هُوَ أَصْلٌ لِسَائِرِ الْمَبَاحِثِ الْآتِيَةِ بَعْدَ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، فَلَا جَرَمَ
أَنْ يَتَصَدَّرَهَا جَمْعَاءُ؛ لِيَكُونَ مِنْ تَقْرِيرِهِ وَتَحْقِيقِهِ سَبِيلٌ إِلَى تَقْرِيرِهَا
وَتَحْقِيقِهَا، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَقُومُ الْبِنَاءُ عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ وَدَعَامٍ؟»^(١).

ب- مَعْنَى (النُّزُولِ) لُغَةً: الْهَبُوطُ مِنْ عَلَوٍ إِلَى سَفَلٍ. يَنْزِلُ نَزُولًا،
وَيَتَعَدَّى بِالْحَرْفِ وَالْهَمْزَةِ وَالتَّضْعِيفِ فَيُقَالُ: نَزَلْتُ بِهِ، وَأَنْزَلْتُهُ، وَنَزَلْتُهُ،
وَاسْتَنْزَلْتُهُ، بِمَعْنَى: أَنْزَلْتُهُ. وَ(الْمَنْزِلُ): مَوْضِعُ النُّزُولِ، وَ(الْمَنْزِلَةُ) مِثْلُهُ،
وَهِيَ أَيْضًا: الْمَكَانَةُ، وَ(نَزَلْتُ هَذَا مَكَانَ هَذَا): أَقَمْتُهُ مُقَامَهُ. وَ(نَزَلْتُ
عَنِ الْحَقِّ): تَرَكْتُهُ، وَ(أَنْزَلْتُ الضَّيْفَ) - بِالْأَلْفِ - فَهُوَ (نَزِيلٌ) فَعِيلٌ
بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَ(النُّزْلُ) بضمين طعَامِ النَّزِيلِ الَّذِي يَهَيَّأُ لَهُ. وَ(النُّزُولُ):

(١) مناهل العرفان (١/ ٣٠).

الحلول، و(قد نَزَّلَهُمْ)، و(نَزَلَ بِهِم)، و(نَزَلَ عَلَيْهِمْ يَنْزِلُ نَزُولًا وَمَنْزِلًا): حَلَّ. و(نَزَّلَهُ تَنْزِيلًا)، و(أَنْزَلَهُ إِنْزَالًا)، و(مَنْزِلًا) كَمُجْمَلٍ. و(تَنْزَلَ): نَزَلَ فِي مُهْلَةٍ. الْمَكَانَةُ... (١).

ومما سبق يتبين أنَّ (النَّزُول) في اللغة يطلق على معنيين:
أحدهما: الانحدارُ من علوٍ إلى سفلى:

انحدارُ الشيء من علوٍ إلى سفلى نحو: (نَزَلَ فُلَانٌ مِنَ الْجَبَلِ)، والمتعدِّي منه يكون معناه: تحريك الشيء من علوٍ إلى سفلى، ومنه قوله ﷺ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ثانيهما: الحلول بالمكان:

والمراد: الحلول في مكان والأوي به، ومنه قولهم: (نَزَلَ الْأَمِيرُ الْمَدِينَةَ)، والمتعدِّي منه وهو (الإنزال) يكون معناه: إحلال الغير في مكان وإيواءه به، ومنه قوله ﷺ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

«لكن الظاهر أنَّ المعنى الأول، وهو الانحدار من علوٍ إلى سفلى هو الأصل في المادة، وإن كثر استعمالها في المعنى الثاني حتَّى صارت فيه حقيقة لغوية أيضًا، وشعور النفس بأنَّ المعنى الأول هو الأصل في

(١) انظر: مادة: (نَزَلَ) في كلٍّ من (المصباح المنير) (٢/٦٠٠-٦٠١)، لسان العرب (١١/٦٥٦)، تاج العروس (٣٠/٤٨١)، المحكم والمحيط الأعظم (٩/٤٦)، المغرب (٢/٢٩٧)، الصَّحاح، للجوهري (٥/١٨٢٩)، التَّعَارِيف (ص: ٢٩٣).

استعمال المادّة يكاد يكون فطريًّا»^(١).

ج- معنى (النُّزول) اصطلاحًا:

جاء التعبير بمادّة نزول القرآن الكريم وما تصرّف منها في القرآن الكريم، ومن أمثلته: قوله ﷺ: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

أقول: إنّ المراد من معنى النُّزول هنا: ما يدلُّ على نزول الخطاب القرآني من حيث معناه الأعم، وقد قيّد بكونه قرآنيًّا.

وينبغي أن نلاحظ أهميّة هذا المبحث بالنسبة لموضوع البحث:

- ١- يبيّن أهميّة تقدّمه على غيره من مباحث علوم القرآن.
 - ٢- ويبيّن أنّه أساس لا بدّ منه لغيره من المباحث.
- وينبغي أن نلاحظ أنّ للقرآن الكريم وجودات ثلاثة:
- ١- وجود في اللّوح المحفوظ.
 - ٢- وجود في السّماء الدُّنيا [على قول من قال بذلك، وهو أمرٌ مختلفٌ فيه بين علماء علوم القرآن].
 - ٣- وجود في الأرض بنزوله على النّبي ﷺ.
- ولم يقترن لفظ: (النُّزول) إلا بالوجود الثّاني والثّالث، أمّا الوجود الأوّل فلم يرد لفظ: (النُّزول) مقترنًا به قطّ، وعلى هذا فلا ينبغي أن نسميه نزولًا أو تنزُّلاً»^(٢).

(١) مئة المنان في علوم القرآن (١/٦-٨)، الثّبيان في علوم القرآن، للشيخ الصّابوني (ص: ٤٥).

(٢) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم، لأبي شهبه (ص: ٤٨).

أقول: يلاحظ على ما حكاه الشيخ الدكتور أبو شهبة في (المدخل) ما يلي:
١- فيه ردٌّ على من قال من علماء علوم القرآن بالتَّنْزِل إلى (اللُّوح المحفوظ) كالشيخ الزُّرقاني في (مناهل العرفان)^(١).

٢- إنَّ الشيخ هو ممَّن رجَّح نزول القرآن الكريم إلى السَّماء الدُّنيا. وقد ذكر ذلك كثيرٌ من علماء التفسير وعلوم القرآن^(٢)، وهو ممَّا قد اختلف فيه المفسِّرون وعلماء علوم القرآن، وقد بسط الخلاف في ذلك وحقَّقه الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة في (منَّة المنان)^(٣)، وردَّ ما جاء من نزوله إلى السَّماء الدُّنيا في كلام مطوَّل.

ولا يختلف أحدٌ أنَّ القرآن الكريم كان في (اللُّوح المحفوظ) قبل التَّزْوِل لقوله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

(١) ذكر الشيخ الزُّرقاني أنَّ للقرآن ثلاثة تنزُّلات: «التَّنْزِل الأوَّل: إلى اللُّوح المحفوظ، ودليله قوله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢﴾﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. المناهل (١/٣٢)، ثم ذكر التَّنْزِل الثَّاني إلى (بيت العزة) في السَّماء الدُّنيا، ثم ذكر التَّنْزِل الثَّالث بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام يهبط به على قلب النبي ﷺ، واستدلَّ على ذلك. انظر: المناهل (١/٣٢-٣٥).

(٢) انظر: على سبيل المثال: الطُّبري (٢/١٤٤)، القرطبي (٢/٦٢، ٢٩٧)، (١٢٦/١٦)، (١٣٠/٢٠)، المناهل (١/٣٥-٣٢)، ابن كثير (١/٢١٧)، (٣/٦٩، ٣١٩)، (٤/٢٤٠)، (٥٣٠)، الدر المنثور (١/٤٥٧)، (٥/٣٤٦)، (٨/٥٦٧)، تفسير الواحدي (١/١٥٠)، البغوي (١/١٥١)، فتح القدير (١/١٨٤، ٥٧٠)، (٥/٤٧٣)، زاد المسير (١/٥)، (١٨٧)، (٩/١٨١)، روح المعاني (١/٣٤)، (٣/٧٦)، (١١/٥٩)، (١٥/١٨٨)، (١٩/١٢١)، (١٩/١٣٣)، (٣٠/١٨٩)، كتب ورسائل ابن تيمية في التفسير (١٢/١٢٦)، (١٥/٢٢٣)، (١٦/٣٠٧)، البرهان في علوم القرآن (١/٣٧، ٢٢٩)، الإتيقان (١/١١٨)، (١٢٦)، فضل القرآن (١/٧٠).

(٣) انظر: منَّة المنان في علوم القرآن من (ص: ٢٩) إلى (٨٥).

٤ - مبلغ الخطاب

توطئة:

لا بدّ من الإشارة أولاً إلى أنّ مبلغ الخطاب القرآني هو الرّسول محمد ﷺ .

وإنّ التعريف بمبلغ الخطاب القرآني له من الأهمية ما لا يخفى، فهو يدلّ على أهلية المبلغ لتبليغ الخطاب القرآني، وذلك من خلال التعرف على صفات المبلغ ﷺ، وبيان أنّه لا ينطق عن الهوى، وأنّ كونه بشراً مع يضاف إلى ذلك من صفاته وخصائصه ﷺ له أثر في تفعيل الخطاب القرآني، ويجعله في مقام الأسوة والقدوة، وأيضاً يبيّن للنّاس ما نزل إليهم من الخطاب، وكذلك يتبيّن للمخاطب المكلف: الغاية والهدف من إرسال الرّسل -عليهم الصّلاة والسّلام-.

كما أنّ التعرف على صيغ الخطاب القرآني الخاصّة بخطاب مبلغ الخطاب القرآني ﷺ ممّا له صلة بمحور البحث، وكذلك كان الاهتمام ببيان ما يستفاد من الأهداف والمقاصد.

وأخيراً فإنّ التعريف بمبلغ الخطاب القرآني لا بدّ أن يسبق التعريف بالخطاب وضعاً، وذلك مما يقتضيه التّدرج في التعريفات.

• أولاً: التعريف بمبلغ الخطاب القرآني (الرّسول ﷺ):

لا بدّ من الإشارة هنا إلى الاهتمام بإبراز صيغ الخطاب والتمهيد

لذلك بإيجاز؛ إذ إنَّ التعريف بالمبلِّغ يحتاجُ إلى مجلداتٍ كثيرة، وقد كفانا مؤونة ذلك ما كتبه الأئمة الأعلام قديماً وحديثاً^(١)؛ ولذلك فإنَّ الاهتمام هنا بما له صلة بمحور البحث من إبراز للصِّغ من حيث كونها خطاباً.

وأول ما ينبغي أن يعلم أنَّ الرِّسولَ مُحَمَّدٌ ﷺ هو مبلِّغ الخطاب القرآني لقول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

كما أنَّه ﷺ يبيِّن للنَّاس ما نزل إليهم كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

كما أنَّه لا ينطق عن الهوى قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۚ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝﴾ [النجم: ٣-٥]. وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۚ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا نُوْلا

(١) ولعلَّ من خير ما كتب حديثاً في ذلك: (موسوعة نضرة التَّعْييم في مكارم أخلاق الرِّسول ﷺ)، وهو من إعداد مجموعة من المتخصِّصين، طبع دار الوسيلة، في جدَّة، المملكة العربيَّة السُّعُودِيَّة. ولذلك فإنَّ المنهج المتَّبَع في هذه الدِّراسة عموماً، وفي هذا البحث خصوصاً -على ما فيه من إيجاز- يتناسق مع محور البحث، ويتمُّ لبناته..

أَجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أُنِيعَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٦﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. وقال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا تُنْذِرَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتُنَبِّئُونَ بَشِيرًا إِنِ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أُنِيعَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٢٥﴾ [يونس: ١٥]. وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩١﴾ [الأحقاف: ٩].

ومن هنا كان لا بدَّ من ذكر صفات المبلِّغ ﷺ، وأهميَّة معرفة المكلف ذلك..

١- إنَّ أهميَّة ذكر صفات مبلِّغ الخطاب تدلُّ على أنَّ به من الصِّفات ما يجعله أهلاً لذلك التبليغ، وقد وصف الرسول ﷺ بأنَّه أسوة: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ولا شكَّ أنَّه لا يكون أسوة إلا إذا كان له من الصِّفات ما يؤهِّله للاصطفاء، قال ﷻ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ولتلك الصِّفات أثرٌ بالنسبة للمخاطب -بفتح الطاء المهملة- يدفعه إلى قبول الخطاب عن محبة منه. وإذا كان التَّغريب والتَّرهيب يؤثر في نفس المخاطب ويحمله على امتثال ما يتضمَّنه الخطاب من الأوامر، والانتهاز عن النَّواهي، فإنَّ أساس الاتباع يكون محبة من المكلف للمخاطب ﷻ -بكسر الطاء المهملة- والمبلِّغ ﷺ، قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقد جاء في

الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ»^(١). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(٢). وممَّا جاء في شرح النووي رحمه الله: «أنه لم يرد به حُبَّ الطَّبع، بل أراد به حُبَّ الاختيار؛ لأنَّ حُبَّ الإنسان نفسه طبع، ولا سبيل إلى قلبه. قال: فمعناه لا تصدُق في حُبِّي حتى تُفني في طاعتي نفسك، وتؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك. وممَّا قاله القاضي عياض وغيره^(٣): المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر النَّاس، فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته. والمعنى: أنَّ من استكمل الإيمان علم أنَّ حقَّه ﷺ أكَّد عليه من حقِّ أبيه وابنه والنَّاس أجمعين؛ لأنَّ به ﷺ استغنى عن النَّار، وهدينا من الضَّلال. قال القاضي عياض رحمه الله: ومن محبته ﷺ: نصرته سنَّته، والذبُّ عن شريعته، وتمني حضور حياته، فيبذل ماله ونفسه دونه، قال [أي: القاضي عياض في (إكمال المعلم)]: وإذا تبين ما ذكرناه تبين أنَّ حقيقة الإيمان لا يتمُّ إلا بذلك، ولا يصحُّ الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النَّبي

(١) أخرجه البخاري [١٣].

(٢) أخرجه مسلم [٦٢].

(٣) انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (١/ ٢٨٠-٢٨١).

ﷺ ومنزلته على كل والد وولد ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن^(١).

ثانياً: موافقة بعض أسماء أو صفات النبي ﷺ بعض أسماء الله ﷻ الحسنى:

أ- الرؤوف الرحيم: قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. وفي الآية ما يدل على حرص النبي ﷺ على أمته، وهذا الحرص له أوجه متعددة، والذي له صلة بموضوع البحث هنا حرصه ﷺ على تبليغ الخطاب القرآني على أكمل وجه قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، بالإضافة إلى كونه الأسوة في العمل والتطبيق، وذلك له أثره في تفعيل الخطاب.

ب- المبين: قال الله ﷻ: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩]. ويلاحظ أن كونه ﷺ منذراً ممّا يحمل المخاطب على التنبه لمضمون الخطاب، والعمل به.

ج- الحق: قال ﷻ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٥]. وقد قيل: الحق هو محمد ﷺ^(٢).

(١) بتصرف عن (شرح الثوري على صحيح مسلم) (١٦/٢)، وإكمال المعلم (١/٢٨٠-٢٨١). وانظر: فتح الباري (١٠/٤٦٣)، والبخاري بشرح الكرمانى (١/٩٧-٩٩)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٦٦)، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١/١٣٨)، الذبيح على مسلم (١/٦٠).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٧/١٤٩)، القرطبي (٤/١٧)، البغوي (٢/٨٥)، ابن عادل

وقيل: القرآن الكريم^(١). وسواء كان المراد بالحق مبلغ الخطاب (محمد ﷺ)، أو كان المراد به الخطاب القرآني نفسه بمعناه الأعم، فإنَّ التَّكْذِيبَ لواحد منهما تكذيب للآخر، وهو تكذيبٌ للحقِّ الواضح المبين.

د- الشَّهيد: قال الله ﷻ: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا﴾ [الحج: ٧٨]. وفي ذلك ما يثبت أنَّ المبلِّغ يشهد على من بلَّغه الخطاب القرآني بعد أن بُلِّغَ وبُيِّنَ له .

هـ- الخبير: ﴿فَسَتَلْبِثُ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]. ومن أخبر من المبلِّغ المبيِّن للنَّاس ما نَزَّلَ إليهم؟! والذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيُّ يوحى.

و- الثَّور: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. قيل: المراد بالثَّور: محمد ﷺ^(٢). وقد قال الله ﷻ:

(٢٧/٨)، المحرَّر الوجيز (٢/٢٦٨)، البحر المحيط (٤/٧٩)، الخازن (٢/١١٩)، السَّراج المنير (١/٤٧٣).

(١) انظر: روح المعاني (٧/٦٢)، أبو السُّعود (٣/١٠٩)، زاد المسير (٣/٤)، البيضاوي (٢/٣٩٢)، البغوي (٢/٨٥)، الجلالين (ص: ١٦٢).

(٢) انظر: الطَّبري (٦/١٦١)، وهو قول الزَّجاج. انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزَّجاج (٢/١٦١)، القرطبي (٦/١١٨)، البيضاوي (٢/٣٠٧)، النَّسفي (١/٣٩٨)، وهو قول قتادة كما في (زاد المسير) (٢/٣١٦)، البحر المديد (٢/١٥٦)، الدُّر المنثور (٣/٤٣)، الكشف والبيان (٤/٣٩)، تفسير ابن عادل (٧/٢٥٩)، الثَّعالبي (١/٤٥٣)، الخازن

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. «وقد سَمَّى الله ﷻ كتابه نوراً فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وسمى نبيه ﷺ نوراً فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾، وهذا لأنَّ الكتاب يهدي ويبين، وكذلك الرسول ﷺ»^(١).

وإذا علم المكلف أو المخاطب ذلك تبين له ما للمبلغ ﷺ من مكانة ومنزلة وتأهل للتبليغ، وتفعل للخطاب القرآني، ومن ثمَّ كيفية التعامل مع المبلغ ﷺ من حيث التقدير والتوقير، يستفاد ذلك من الخطاب القرآني نفسه، فإنه يدلُّ على أنَّ الله ﷻ أعلى من ذكر محمد ﷺ حيث قال: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وذلك مما يحمل المخاطبين على التقدير والتوقير والاتباع والنصرة، وقال ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ونهى الله ﷻ عن نداء النبي ﷺ باسمه مجرداً، قال ﷻ: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وقال ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن

(٢٨/٢)، السراج المنير (١/٤٢٠)، الرازي (٢/٢٥٨)، روح المعاني (٦/٩٧)، تفسير

النيسابوري (٢/٥٧٠)، (٤/٥٣٠)، تفسير الماوردي (٢/٢٢).

(١) القرطبي (١٢/٢٥٧).

تَحَبَّطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ قُلُوبُهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

[الحجرات: ٢-٣]، وتعلم هذه المكانة أيضًا من اقتران اسمه ﷺ باسم الله ﷻ في شهادة التوحيد التي هي إحدى أركان الإسلام، وفي الخطب والأذان، وفي الآيات القرآنية التي توجب طاعة الرسول ﷺ كقوله ﷻ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وكذلك ينبغي الاقتداء بأسلوب القرآن الكريم في مخاطبة النبي ﷺ، ووصفه بما يليق به من الصفات حيث لم يقع الخطاب في القرآن الكريم بـ: (يا محمد) بل بـ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، وبـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤] تعظيمًا له ﷺ وتشريفًا.

ثالثًا: أسماء أو صفات أخرى في القرآن الكريم:

أقتصر على ما ورد في القرآن الكريم، ومنها:

- ١ - (محمد ﷺ): وهو أشهرها^(١)، قال ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]. وقد ورد اسم محمد ﷺ في أربعة مواضع وهي: [آل عمران: ١٤٤]، [الأحزاب: ٤٠]، [محمد ﷺ: ٢]، [الفتح: ٢٩].
- ٢ - (المنذر): قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]. وقد ورد في أربعة مواضع وهي: [الرعد: ٧]، [ص: ٤]، [ق: ٢]، [النّازعات: ٤٥].

٣ - ٤ - ٥ - (الشّاهد - المبشّر - النّذير). قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) انظر: زاد المعاد (١/٨٧).

النَّبِيِّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥]. وقد وردت في موضعين: [الأحزاب: ٤٥]، [الفتح: ٨]، والشَّاهد له ذكر في موضع آخر: [المزمل: ١٥].

٦ - (الدَّاعِي إِلَى اللَّهِ ﷻ): ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]. وقد ورد في موضع واحد، وورد أَنَّهُ يدعو على بصيرة: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

٧ - (السَّراج المنير): قال الله ﷻ: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٦]، في موضع واحد أيضًا.

٨ - (خاتَمُ النَّبِيِّينَ): ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، في موضع واحد أيضًا.

٩ - ومنها: (أحمد): وقد ورد في موضع واحد. قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِيَّ إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] ^(١).

١٠ - (عبد الله): ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، في موضع واحد أيضًا.

١١ - (المُذَكَّرُ): ﴿فَلَذِكْرٍ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، في موضع واحد أيضًا.

(١) وينظر في بيان معنى الاسمين مفصلاً ومبيّناً: (زاد المعاد) (١/٨٩)، (١/٩٣)، وجلاء الأفهام (١/١٩٣)، (١/٢٠١).

١٢ - (الْمُرْمَلُ): ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُرْمَلُ﴾ [المزمل: ١]، في موضع واحد أيضًا.

١٣ - (الْمُدَثِّرُ): ﴿يَتَأْتِيهَا الْمُدَثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، في موضع واحد أيضًا.
 ١٤ - ١٥ - ١٦ - (الرَّسُولُ - النَّبِيُّ - الْأُمِّيُّ). وقد اجتمعت هذه الأوصاف الثلاثة في قول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقد جاء الوصف بالأمي أيضا في قوله ﷻ: ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال الله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢].

١٧ - (الرَّحْمَةُ الْمَهْدَاةُ): ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣].

* وقد اختلف في: (طه) و(يس)، هل هي من أسماء النبي ﷺ؟
 والخلاف مبسوط في كتب التفسير. وقد فصل ذلك على سبيل المثال:
 القرطبي في (تفسيره)^(١)، وكذلك الشوكاني.

رابعاً: صيغ مخاطبة الرسول ﷺ:

أ- ما كان الخطاب في وصفه بأنه مرسل. وهو وصف مدح وتشريف. وقد ورد في موضعين: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

(١) تفسير القرطبي (١١/١٦٦).

ب. ما كان في وصفه بأنه نبيٌّ. وهو أيضًا وصفٌ مدحٍ وتشريفٍ. وقد ورد في ثلاثة عشر موضعًا، وهي النحو التالي:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنِ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ [الأنفال: ٧٠].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ أَنَّ اللَّهَ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾

[الأحزاب: ٤٥].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَائِنَتِ أَجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ

يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ

جَلْبَابٍ عَلَيْهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعْنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١].

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

وفي المغايرة بين الوصفين يقول الله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ [الحج: ٥٢].

وسياتي في المقاصد بيان ما يتعلق بهذه الصيغة من المقاصد..
ج. ما كان وصفاً لحاله: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَدْيَنَ﴾ في موضع واحد:
[المذثر: ١].

وما كان وصفاً لحاله أيضاً: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَرْمِلَ﴾ في موضع واحد:
[المزمل: ١].

ويلاحظ في صيغ الخطاب القرآني السابقة أنها مسبقة بياء النداء،
والتي هي من صيغ الخطاب القرآني، والتي لها ما لها من الأهمية،
وسياتي ما يتعلق بالنداء بهذه الصيغة في الخطاب القرآني في (النداء).
ولكن ينبغي الإشارة هنا إلى أن النداء أعم من أن يعقبه الطلب، وأنه
قد ينفك عن الأمر والنهي - كما سياتي -.

أمّا ما ولي خطاب الله ﷻ لنبيه ﷺ فهو إمّا تكليف أو توجيه،
فالتكليف بقوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾ ، ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ ؛ لأنّ ما
بعدهما تكليف وتوجيه وإرشاد؛ ولذلك ألحقهما بعبارات تدلّ على
ذلك مثل قوله ﷻ: ﴿لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ ، ﴿يَلْغِ مَا
أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ ، ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ أَتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ،
﴿حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ ، ﴿قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ ،
﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ ، ﴿أَتَى اللَّهَ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ
وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الخ.

أمّا قوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ الْمَرْمِلَ﴾ ، و﴿يَتَأْتِيَ الْمَدْيَنَ﴾ ، فما

بعدها، توجيه لترك الاذثار والتزمل لأمر أهم، وهو قيام الليل
والإنذار، وإن كان ما بعد الخطابين تكليف، فيقول: ﴿يَأْتِيهَا الْمَزْمَلُ﴾^(١)
﴿أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٢) [المزمل: ١-٢]، ﴿يَأْتِيهَا الْمَدِيرُ﴾^(٣) ﴿قُرْ فَأَنْذِرْ﴾^(٤)
وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ^(٥) وَبِابِكَ فَطَهِّرْ^(٦) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ^(٧) [المدثر: ١-٥].

خامسًا: صيغ أخرى لخطاب الله ﷻ لنبية ﷺ:

أ. الخطاب القرآني بصيغة الأمر ﴿قُلْ﴾ . أمّا عدد الآيات فهي:
[٢٧٠]، وأمّا عدد التكرار فهو: [٢٩٤]. وهي: [البقرة: ٨٠، ٩١،
٩٣، ٩٤، ٩٧، ١١١، ١٢٠، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢، ١٨٩،
٢١٥، ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢]، و[آل عمران: ١٢، ١٥، ٢٦،
٢٩، ٣١، ٣٢، ٦٤، ٧٣، ٨٤، ٩٣، ٩٥، ٩٨، ٩٩، ١١٩، ١٥٤،
١٦٥، ١٦٨، ١٨٣]، و[النساء: ٧، ٧٧، ٧٨، ١٢٧، ١٧٦]،
و[المائدة: ٤، ١٧، ١٨، ٥٩، ٦٠، ٦٨، ٧٦، ٧٧، ١٠٠]،
و[الأنعام: ١١، ١٢، ١٤، ١٥، ١٩، ٣٧، ٤٠، ٤٦، ٤٧، ٥٠،
٥٦، ٥٧، ٥٨، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٧١، ٩٠، ٩١، ١٠٩، ١٣٥،
١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٨، ١٦١]،
و[الأعراف: ٢٨، ٢٩، ٣٢، ٣٣، ١٥٨، ١٨٧]،
و[الأنفال: ١، ٣٨، ٧٠]، و[التوبة: ٢٤،
٥١، ٥٢، ٥٣، ٦١، ٦٤، ٦٥، ٨١، ٩٤]، و[يونس: ١٥، ١٦،
١٨، ٢١، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٣٨، ٤٩، ٥٠، ٥٣، ٥٨، ٥٩، ٦٩،
١٠١، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٨]، و[هود: ١٣، ٣٥]، و[يوسف: ١٠٨]،

و[الرعد: ١٦، ٢٧، ٣٠، ٣٣، ٣٦، ٤٣]، و[إبراهيم: ٣٠، ٣١]،
و[النحل: ١٠٢]، و[الإسراء: ٤٢، ٥٠، ٥١، ٥٦، ٨٤، ٨٥، ٨٨،
٩٣، ٩٥، ٩٦، ١٠٠، ١٠٧، ١١٠]، و[الكهف: ٢٢، ٢٦، ١٠٣،
١٠٩، ١١٠]، و[مريم: ٧٥]، و[طه: ١٣٥]، و[الأنبياء: ٢٤، ٤٢،
٤٥، ١٠٨]، و[الحج: ٤٩، ٧٢]، و[المؤمنون: ٨٤، ٨٥، ٨٦،
٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٣]، و[التور: ٣٠، ٥٣، ٥٤]، و[الفرقان: ٦،
١٥، ٥٧، ٧٧]، و[النمل: ٥٩، ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٧٢]، و[القصص:
٤٩، ٧١، ٧٢، ٨٥]، و[العنكبوت: ٢٠، ٥٠، ٥٢، ٦٣]، و[الرؤم:
٤٢]، و[لقمان: ٢٥]، و[السجدة: ١١، ٢٩]، و[الأحزاب: ١٦،
١٧، ٢٨، ٥٩، ٦٣]، و[سبأ: ٣، ٢٢، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٠،
٣٦، ٣٩، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠]، و[فاطر: ٤٠]، و[يس:
٧٩]، و[الصافات: ١٨]، و[ص: ٦٥، ٦٧، ٨٦]، و[الزمر: ٨، ٩،
١٠، ١١، ١٣، ١٤، ١٥، ٣٨، ٣٩، ٤٣، ٤٤، ٤٦، ٥٣، ٦٤]،
و[غافر: ٦٦]، و[فصلت: ٦، ٩، ٤٤، ٥٢]، و[الشورى: ٢٣]،
و[الزخرف: ٨١]، و[الجاثية: ١٤، ٢٦]، و[الأحقاف: ٤، ٨، ٩،
١٠]، و[الفتح: ١١، ١٥، ١٦]، و[الحجرات: ١٤، ١٦، ١٧]،
و[الطور: ٣١]، و[الواقعة: ٤٩]، و[الجمعة: ٦، ٨، ١١]،
و[التغابن: ٧]، و[الملك: ٢٣، ٢٤، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠]،
و[الجن: ١، ٢٠، ٢١، ٢٢، ٢٥]، و[الكافرون: ١]، و[الإخلاص:
١]، و[الفلق: ١]، و[الناس: ١].

ب- ما كان تخويلاً من الله ﷻ لرسوله ﷺ:

أما ما يُعدُّ تخويلاً من الله ﷻ لرسوله ﷺ بمخاطبة الناس، وإيذاناً بأنه رسول الله إليهم فنحو قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا آعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ آعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، ﴿قُلْ يَتَّيِّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]^(١). فرسالة الرسول ﷺ عامة لكل الناس، والدعوة فيها متوجهة إلى عبادة الله ﷻ وحده، والرسول ﷺ هو واسطة بين الله ﷻ وعباده كلهم، فيجب عليهم أن يسمعوا لرسول الله ﷺ، ويستجيبوا لرسالته.

سادساً: الخطاب المباشر بصيغة النداء:

﴿يَتَّيِّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١].

﴿يَتَّيِّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقد سبق بيان مواضع هذه الصيغ..

ومما يلاحظ أنه لم يقع في القرآن الكريم النداء بـ: (يا محمد) بل بـ: ﴿يَتَّيِّهَا النَّبِيُّ﴾، و﴿يَتَّيِّهَا الرَّسُولُ﴾ تعظيماً له وتبجيلاً وتخصيصاً بذلك عن سواه. وسيأتي بيان ذلك في (تنوع أساليب الخطاب القرآني)، كما سيأتي أنه خطابٌ مدحٍ وتشريفٍ وتكريمٍ.

(١) وانظر: [العنكبوت: ٥٠]، [ص: ٧٠]، [الأحقاف: ٩]، [الذاريات: ٥٠ - ٥١]، [الملك: ٢٦].

سابعاً: الخطاب بضمير المخاطب^(١):

ولكن يبقى النظر هنا هل الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته؟ أو هو من خطاب العام الذي لم يرد مخاطب معين؟ أو هو من خطاب العام ويدخل النبي ﷺ فيه؟ سيأتي تحقيق ذلك في موضعه.

أ. الخطاب بضمير المخاطب: ﴿أَنْتَ﴾ :

﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِيلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَلِيلُهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

﴿...وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١] (٢).

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١].

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ [الروم: ٥٣].

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾

[الزمر: ٤١].

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦].

(١) ملاحظة: حيث لا يتضح الشاهد إلا بذكر الآية، فإني أذكر الآية؛ لينظر إلى موضع الشاهد فيها...

(٢) ونحوه الخطاب ليوسف عليه السلام من إخوته: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]، ولشعيب عليه السلام من قومه: ﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الشعراء: ١٨٦].

- ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].
 ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢].
 ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ﴾ [هود: ٤٩].
 ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧].
 ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزَلُّ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [التحل: ١٠١].
 ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٣].
 ﴿فَنُوحِلْ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ [الذاريات: ٥٤].
 ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].
 ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢].
 ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ [النازعات: ٤٣].
 ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ [النازعات: ٤٥].
 ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١].
 ب. الخطاب بضمير المخاطب: (التاء):

وهو أنواع:

الأول: تاء الفعل المضارع:

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦].
 ﴿وَلَنَجْذِبَهُمْ أَكْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوةٍ﴾ [البقرة: ٩٦].
 ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٠٧] ^(١).
 ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩].

﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ بِلْتَمُهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].
 ﴿قَدْ رَأَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] ^(٢).
 ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

والأمثلة كثيرة، وقد ذكرت في المتن نماذج من (سورة البقرة) فقس ما لم أذكره على ما ذكرته.

-
- (١) ونحوه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٤٠]،
 ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠].
- (٢) ونحوه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَكِبِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا يَتَائِدُ اللَّهُ فَتَكُونُ مِنَ الْخَسِيرِينَ﴾ [يونس: ٩٥]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧].

الثاني: تاء الفعل الماضي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة: ٦].
 ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠] ^(١).

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣] ^(٢).

﴿وَلَيْنِ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا

(١) ونحوه: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَئِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

(٢) ونحوه: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَسْتُمْ أَفْهُمْ يَكْفُلُ مَرَمٌ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَعَلًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا نَقُصُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢]، ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا﴾ [هود: ٤٩]، ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْتَلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ﴾ [الشورى: ٥٢].

جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ [البقرة: ١٤٥].
 ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾
 [البقرة: ١٤٩] ^(١).

الثالث: الخطاب بضمير المخاطب (الكاف):

١ - للمفعول به ^(٢):

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة: ١١٩] ^(٣).
 ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعَتِ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠] ^(٤).

- (١) ونحوه: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٥٠].
 (٢) ولكثرة الأمثلة فإنَّ الظَّاهِر تذكُّر في الحاشية، وذلك بغرض الاختصار...، وحيث تكثر التماذج فإنني أكتفي بالتمثيل الذي يقاس عليه غيره، واختلاف ذلك إنما يرجع إلى كثرة الصِّغ، ووضوحها في بعض المواطن، والحاجة إلى الاستقصاء في مواطن أخرى.
 (٣) ونحوه: ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ [الرعد: ٣٠]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٧]، [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦]، ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [١٥]، [الأحزاب: ٤٥]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤]، ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ [الشورى: ٤٨]، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [٨]، [الفتح: ٨].
 (٤) ونحوه: ﴿وَلَكِنْ اتَّبَعَتِ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا﴾ [آل عمران: ٦١]، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿...وَلَكِنْ اتَّبَعَتِ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]، ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا جَاءَكَ =

﴿قَدْ رَأَى تَغَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦].
 ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩] ^(١).
 ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة: ٢٠٤].
 والأمثلة كثيرة، وقد ذكرت في المتن نماذج من (سورة البقرة) ففسر ما لم أذكره على ما ذكرته.

٢- للمجرور:

وأذكر نماذج من هذه الصيغ، حيث إن الأمثلة كثيرة، وهي تأتي على النحو التالي:
 ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٤].

الْمُؤْمِنَاتُ يَبَيعَنَّكَ [المتحنة: ١٢]، ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَى﴾ [عبس: ٨].

(١) ونحوه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٤]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٤٢]، أمّا ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ ففي المواضع التالية: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ أَعْتَوْهُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة: ٢٢٠]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقُرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ [طه: ١٠٥].

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: ٩٩]^(١).
 ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].
 ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].
 ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].
 والأمثلة كثيرة، وقد ذكرت في المتن نماذج من (سورة البقرة) ففسر ما لم أذكره على ما ذكرته.

٣ - للمضاف إليه :

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤].
 ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ [البقرة: ٩٧].
 ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلُوبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤].
 ﴿وَلَيْنَ أَتَيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥].
 ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧].
 والأمثلة كثيرة، وقد ذكرت في المتن نماذج من (سورة البقرة) ففسر ما لم أذكره على ما ذكرته.

(١) ونحوه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿إِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢].

ثامناً: أقسام الخطاب الموجّه إلى الرّسول ﷺ:

إنّ الخطاب الموجّه للرّسول في القرآن الكريم على ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: أن يقوم الدليل على أنّه خاصّ به فيختصّ به.

القسم الثّاني: أن يقوم الدليل على أنّه عامّ فيعم.

القسم الثّالث: أن لا يدلّ دليل على هذا ولا على هذا، فيكون

خاصّاً به لفظاً، عامّاً له وللأمة حكماً.

مثال الأوّل: قوله ﷺ: ﴿أَمَرَ نَشْرَحَ لَكَ صَدْرَكَ ۖ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ

﴿٢﴾ [الشرح: ١-٢]. ومثاله أيضاً قوله ﷺ: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۖ

[النساء: ٧٩].

ومثال الثّاني الموجّه للرّسول ﷺ، وفيه قرينة تدلّ على العموم قوله

ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ ۖ﴾ [الطلاق: ١]،

فوجّه الخطاب أوّلاً للرّسول ﷺ، ولم يقل: (يا أيّها الذين آمنوا إذا

طلقتهم)، ولم يقل: (يا أيّها النبي إذا طلّقت)، فدلّ هذا على أنّ

الخطاب الموجّه للرّسول ﷺ موجّه له وللأمة.

وأما أمثلة الثّالث: فهي كثيرة جدّاً يوجّه الله ﷻ الخطاب للرّسول

ﷺ، والمراد الخطاب له لفظاً، وللعموم حكماً.

وقد تقرّر في الأصول أنّ الخطاب الخاصّ به ﷺ يعمّ حكمه جميع

الأمة إلا بدليل على الخصوص كما عقده في (مراقي السّعود) بقوله:

(وما به قد خوطب النّبي تعميمه في المذهب السّني)^(١).

(١) مراقي السّعود، رقم [٣٧٢] (ص: ٥٠)، وسيأتي بيان ذلك كلّ مفصّلاً.. [انظر: =

أمَّا الخطاب القرآني بصيغة الأمر فسيأتي في الأمر، والذي بصيغة النهي سيأتي في النهي، وكذلك الاستفهام والتعجب..
تاسعًا: واجب المكلف نحو المبلِّغ (الرسول ﷺ):

١- أن تؤمن به ونصده في كل ما يقول، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، وأن شريعته عامّة وشاملة لكل زمان ومكان. قال الله ﷻ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [١٧]، ﴿الأنبياء: ١٠٧﴾، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]...، وأنها نسخت الشرائع السابقة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْأَسْلَمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]، وختمت الرِّسالات السَّمَاوِيَّة، قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وأنَّ القرآن الكريم شاهدٌ على الكتبِ كلّها وحاكمٌ عليها، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِّنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وأنَّ حكمه هو الحكم

= ص: ١٠٨. والخطاب الخاصُّ بالنبي ﷺ فيه تفصيل مبسوط في كتب الأصول. انظر: نشر البنود على مراقبي السُّعُود (٢٢٢/١-٢٢٣)، نشر الورود على المراقبي (٢٦٠/١). انظر الخطاب الخاصُّ بالنبي ﷺ في (أضواء البيان) (١٥١/١)، أحكام القرآن، للجصاص (٩٨/٤)، البرهان في علوم القرآن (٢١٨/٢)، الكليات (ص: ٤٢٠).

المتَّبِع، والصَّالِح لكلِّ زمانٍ ومكان، وهو الأصلح للعباد، وهو الَّذي فيه الخيرُ والحياة لهم، والَّذي يتناسب مع كلِّ العصور والأزمنة، وهو الَّذي يتناسب مع شتَّى فئات النَّاس، وعلى اختلافهم، قال الله ﷻ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠]، ﴿فَلَا تَخْشَوْا الْنَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيمَانِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولَى الْآلِئِبِ لِمَلَكُم تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٩]. كما أنَّ الأعمال الصَّالحة الَّتِي شرعها الله ﷻ في خطابه، وبين الرَّسول ﷺ ما يحتاج إلى البيان، وبلغ رسالة ربِّه ﷻ هي السَّيْل إلى الحياة الطَّيبة في الدُّنيا، وإلى الجزاء الحسن في الآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

٢- أن نتمسَّك بسنَّته فإنَّها الأساسُ في بيان ما يتعلَّق بالخطاب، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

٣- أن نحبه ونوقره، وأن تكون المحبة ليست مجرد الاتِّباع، وإنما هي أساس الاتِّباع وباعثه، فلولا المحبة لما وجد وازع قويٌّ من إلقاء أو إكراه أو ترغيب أو ترهيب يحمل الإنسان على الاتِّباع في العمل؛ ولذلك جعل الرَّسول ﷺ مقياس الإيمان بالله ﷻ: امتلاء القلب بمحبَّته ﷻ بحيث تغدو محبَّته ﷻ متغلِّبة على محبة الولد والوالد والنَّاس

أجمعين - كما سبق -.

ومقتضى ذلك أن نتبعه ونعمل بما جاء به ﷺ، وأن ننصره ونذب عنه. قال ﷺ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]. وقال ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ قَالُوا بَشِيرْهُ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾ [الفتح: ٩].

٤- أن طاعته ﷺ هي طاعة لله ﷻ: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾

[النساء: ٨٠].

وقد جاءت طاعة الرسول ﷺ مقرونة بطاعة الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ [النساء: ١٣]، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ٦٩]، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥٢]، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ١٧].

عاشراً: المقاصد العامة من إرسال الرُّسل:

أمّا ما يستفاد من نداء الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- فهو على قسمين:

الأوّل: نداء الله ﷻ للأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام-.

والثاني: نداء الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- إلى أقوامهم.

أمّا نداء الله ﷻ للأنبياء فهو لتبليغ الخطاب، وليبان مكانتهم...
وأمّا نداء الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- إلى أقوامهم فهو لتبليغهم الخطاب، وبيانه لهم، وإفادتهم ما لا يستقلّون بمعرفته، وقطع أعدارهم...

وأمّا الآيات التي تبين المقاصد العامة من إرسال الرُّسل -عليهم الصّلاة والسّلام-:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤].

والآية تدلّ على وجوب طاعة الرُّسل -عليهم الصّلاة والسّلام-.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ

يَضُرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَلَمْ يَسِيرُوا فِي

الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنِيقُهُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَسْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ

لَا تَقَامُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [٧: الأنبياء].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنْفَرْنَا لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٢٥: الأنبياء].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة: ١١٩].

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الذِّكْرَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٠].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٤].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ ﴿٧٤﴾ [فاطر: ٢٤].

﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَأَمَّا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ [الفتح: ٨].

الحادي عشر: خطاب العتاب:

الخطاب الذي يتضمَّن عتاب المبلِّغ فيه دلالة على أنَّ الخطاب ليس من صنيع المبلِّغ له، وإنما هو من عند الله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

وهاك الآيات التي تتضمَّن العتاب الشَّدِيد والقاسي، وفيها: النَّقْدُ حتَّى في أقلِّ الأشياء خطرًا....

﴿مَا كَان لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَتُخَضَّ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ [الأنفال: ٦٧-٦٨].

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ [التوبة: ٤٣].

﴿مَا كَان لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١١٣﴾ [التوبة: ١١٣].

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧].
 ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ لِرَ شُحْرُمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحریم: ١].

﴿وَلَوْ قَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ﴾ [٤٤] ﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ [٤٥] ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ [٤٦] ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [٤٧] ﴿[الحاقة: ٤٤-٤٧].
 ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ [١] ﴿أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى﴾ [٢] ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكِّي﴾ [٣] ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِكْرَى﴾ [٤] ﴿أَمَّا مِنْ أَسْتَفْتَى﴾ [٥] ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى﴾ [٦] ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكِّي﴾ [٧] ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى﴾ [٨] ﴿وَهُوَ يَخْشَى﴾ [٩] ﴿فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ [١٠] ﴿[عبس: ١-١٠].

الثاني عشر: أثر بشرية الرسول ﷺ في تفعيل الخطاب:

أما الآيات التي تبين الحكمة من كون الرسول بشراً فهي على النحو التالي:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [٩] ﴿[الأنعام: ٩].

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [١٢٨] ﴿[التوبة: ١٢٨].
 ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، و[فصلت: ٦].

﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠].

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧].
 ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ
 فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتَصِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا
 ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال الله ﷻ عن المسيح عليه السلام:
 ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ
 صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].
 وهو ما ينفي عن الرسول الألوهية، وليعلم الفارق والبون الشاسع
 بين (مقام الألوهية) و(مقام النبوة).
 وإذا كان هناك اعتراض على بشرية الرسول ﷺ فقد كان الرسل
 كلهم بشرًا:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].
 وإذا كان الاعتراض بأنه لم يأت بخارقة مادية، فذلك ليس من شأنه
 إنما هو شأن الله ﷻ. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِلرَّسُولِ أَنْ يَأْتِيَ بِتَايَةٍ إِلَّا
 بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣٨]، وفق ما تقتضيه حكمته، وعندما يشاء^(١).
 وجاء في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ
 الْأَكْحَرِ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ
 وَشَرِبَ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [٣٣] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

(١) انظر: الظلال (١٣/٢٠٦٥).

[المؤمنون: ٣٣-٣٤] «أَنَّ الاعتراض على بشريّة الرّسول هو الاعتراض النَّاشئ من انقطاع الصّلة بين قلوب هؤلاء الكبراء المترفين، وبين النَّفخة العلويّة التي تصل الإنسان بخالقه الكريم ﷺ. والتّرف يفسد الفطرة، ويغلظ المشاعر، ويسدّ المنافذ، ويفقد القلوب تلك الحساسية المرفهة التي تتلقّى وتتأثّر وتستجيب. ومن هنا يحارب الإسلام التّرف، ويقيم نظمه الاجتماعيّة على أساس لا يسمح للمترفين بالوجود في الجماعة المسلمة؛ لأنّهم كالعفن يفسد ما حوله، حتّى لينخر فيه الشّوس...»^(١).

وقد قال الله ﷻ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّكَ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ [يونس: ٢].

وفي هذه الآيات الكريمة يبين الله ﷻ أن الكفار يتخذون من بشريّة الرّسول ﷺ حُجَّةً بأنّ هذا الكتاب ليس من عند الله ﷻ، فإنّ الردّ عليهم هو: أن كلّ الرّسل السّابقين كانوا بشرًا، فما هو العجب في أن يكون محمّدٌ ﷺ بشرًا؟!!

والاعتراض على بشريّة الرّسول أمرٌ قديم توارثه أهل الكفر والعناد من أيام نوح عليه السلام، ألم يقل له قومه: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]؟!!

(١) انظر: الظلال (١٨/٢٤٦٧).

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يس: ١٣-١٥].

وقالوا: ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثَّنَا وَحِدًا قُلُوبُهُمْ إِنَّا لَكُنَّا لَكُنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: ٢٤]؛ لذلك يدعوننا الحق ﷺ إلى النظر في السنة المتبعة في الرُّسل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ١٠٩].

أي: ليسوا ملائكة، لا بُدَّ أَنْ يكونوا رجالاً لِيَتِمَّ اللقاء بينكم، وإلا فلو جاء الرُّسول مَلَكًا كما تقولون، فهل سترون هذا المَلَك؟ قالوا: لا، هو مُسْتَر عَنَّا، لكنَّه يرانا. والجواب أَنَّ تبليغ الرِّسالة لا يقوم على مجرد الرؤية، فتبليغ الرِّسالة يحتاج إلى مخالطة ومخاطبة. وهنا لا بُدَّ أَنْ يتصوَّر لكم المَلَك في صورة رجل؛ ليؤدي مهمَّة البلاغ عن الله ﷻ، وهكذا نعود من حيث بدأنا؛ لأنَّها الطَّبيعة الَّتِي لا يمكن لأحد الخروج عنها. لذلك يقول ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩]. إذن: لا داعي للعناد، ومصادمة الفطرة الَّتِي خلقها الله ﷻ، والطَّبيعة الَّتِي ارتضاها لخلقها.

ثم يقول الحق ﷻ: ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَكُةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ٩٥]. فقلوه ﷻ:

﴿قُلْ﴾ أي: ردَّا عليهم: لو أَنَّ الملائكة يمشون في الأرض مطمئنين لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مَلَكًا رَسُولًا لكي يكون من طبيعتهم، فلا بُدَّ أَنْ يكون المبلِّغ من جنس المبلَّغ، وهذا واضح في حديث جبريل عليه السلام

الطَّوِيل حينما جاء إلى رسول الله ﷺ يسأله عن بعض أمور الدين لِيُعَلِّمَ الصَّحَابَةَ: ما الإحسان؟ ما الإيمان؟ ما الإسلام؟ فيأتي جبريل عليه السلام مجلس رسول الله ﷺ في صورة رجلٍ من أهل البادية، وبعد أن أدَّى مهمَّته انصرف دون أن يشعر به أحد، فلمَّا سألوا عنه قال لهم رسول الله ﷺ: «إنَّه جبريل، أتاكم لِيُعَلِّمَكُم أمور دينكم»^(١). وشيء آخر يقتضي بشريَّة الرِّسُول ﷺ، وهو أنَّ الرِّسُول ﷺ أسوة سلوك لقومه، كما قال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فالرِّسُول عندما يُبلِّغ منهج الله ﷻ فهو إمام المخاطبين في القول والعمل.

وقوله ﷺ: ﴿فَارْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٢٢]، وقوله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. وغيرُ هذا كثيرٌ ممَّا أكَّده القرآن، وهو المنطق والحكمة التي اقتضتها مشيئته (الله) ﷻ لما هو من خصائص الرِّسالات التي توجب أن يكون المرسل إلى النَّاس من جنسهم حتَّى يحسن إبلاغهم بما كلَّفه الله ﷻ بإبلاغه إليهم، وحتَّى يستأنسوا به، ويفهموا عنه. ومن هنا تكون (بشريَّة الرِّسُول ﷺ) بمعنى أن يجري عليه ما يجري على النَّاس من البلاء والموت، ومن الصِّحَّة والمرض، وغيرها من الصِّفات البشريَّة فيكون ذلك أدعى لنجاح البلاغ عن الله ﷻ.

(١) أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه [٩].

والآيات القرآنية تثبت (بشرية الرسول ﷺ) في مواقف كثيرة. وتوضح أنه بشر لم يخرج عن نطاق البشرية، وأن ما أتى به من وحي، وما جرى على يديه من آيات فإنما هو بقدرة الله ﷻ وحده، وأن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً إلا أن يشاء الله ﷻ. قال ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْرَهْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وكما أن الرسول ﷺ لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً فهو من باب أولى لا يملك لغيره الضر أو النفع أو الهداية، بل كل ذلك بيد الله ﷻ وحده...

قال ﷻ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [٢١] ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [٢٢] [الجن: ٢١-٢٢]، ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [٥٦] [القصص: ٥٦].

ولما طالب كفار قريش الرسول ﷺ بمطالب كثيرة بقصد التعجيز ذريعة لهم للتكذيب والكفر كان ردُّ الله ﷻ عليهم هو التأكيد على بشرية الرسول ﷺ. قال ﷻ: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ

الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُشَقَّطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالِلًا وَالْمَلَكُوتُ
فَيْلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّى
تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ
النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ
كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَكُوتٌ يَّمْشُوكَ مَطْمِئِينَ لَإَزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا
رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٥].

وفي قوله ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٣﴾ تأكيد
على أن الرسول ﷺ بشر يقف عند حدود بشريته، ولا يأتي بشيء من عنده.
ولكننا نجد نصوص الشرع تؤكد على بشريّة الرسول ﷺ. قال ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا
بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقد جاء في الحديث: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل
بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما
أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة
من النار»^(١).

والحاصل أن التأكيد على بشريّة الرسول ﷺ جاء مرّة بلسانه هو
-عليه الصّلاة والسّلام- وجاء أيضًا: تقريرًا من الله ﷻ. وأن لهذا
التأكيد المتكرّر أهداف ومقاصد، منها ما سبق بيانه.

(١) أخرجه البخاريّ [٢٤٨٣]، ومسلم [٣٢٣١]. والحديث مرويّ في البخاريّ ومسلم عن أم
سلمة رضي الله عنها.

ومنها: ترسيخُ الفكرة في عقول الأتباع ونفوسهم حتّى لا يلتبس في تصوّره، أو يتميّع الفارق بين مقام الألوهيّة، ومقام النّبوة، وأيضًا: حتّى لا ينقلب حبّهم لنبيّهم ﷺ إلى المغالاة؛ فإنّ الرّسول ﷺ مع أنّه أفضل خلق الله ﷻ لم يخرج عن أن يكون عبدًا من عبيد الله ﷻ، يصيبه من أعراض العبوديّة ما يصيبُ العباد، وبذلك لا يضلّ المسلمون في إطرائه، ولا يغفلون في إجلاله كما ضلّ النّصارى في عيسى ابن مريم عليه السلام.

ومنها: أن يدرك الأتباع أنّ بشريّة الرّسول ﷺ مقصودةٌ من الله ﷻ العليم الخبير. ومن فائدة ذلك أن يخلق لهم نموذجًا ومثالا كاملا وقدوة لهم، فإذا كان قريبًا منهم يسهل الاقتداء به؛ ولأنّ أيّ نموذج غير بشريّ سيكون عصيًا على مداركهم تحجزهم المسافة الخارقة بينهم وبينه، وذلك باعتباره مثالا خارقا يصعب عليهم اللحاق به. وممّا سبق يعلم أنّ منهج الرّسالة، وصفات الرّسول ﷺ كفيلا بأن يقنعا العقول، وأن يكون لذلك أثرٌ في القلوب ما يجمع حوله الأتباع، وينشأ له في النّفس قيمة وهبة.

ومن التّأكيد على بشريّة الرّسول ﷺ يبرز لنا الفارق بين مقاماتٍ

ثلاث:

١ - مقام الألوهيّة.

٢ - مقام النّبوة.

٣ - مقام العباد.

وكذلك تبين الفارق بين مقام الألوهية ومقام النبوة، فلا يجوز أن ننسى الفارق بين مقام النبوة، ومقام من دونه من البشر مهما كان لهم من دورٍ بارز، أو بصماتٍ في الحياة.

وكذلك ممَّا له أثرٌ في تفعيل الخطاب الكمالات والخصائص التي انفرد بها الرسول المبلِّغ ﷺ مما جاء ذكرها مبسوطًا في كتب السير^(١).



(١) انظر على سبيل المثال: أعلام النبوة (١/٢٨٢-٢٨٣)، وانظر: موسوعة نضرة النعيم (١/٤٣٩) فما بعد.

٥ - التعريف بالخطاب

أ. التعريف اللُّغوي:

وأذكر هنا مادة: (الخطاب) في المعاجم، وفي النُّصوص القرآنيّة، وما قاله المفسِّرون من معنى للآيات التي لها صلة، والتي يفيد فهم معناها توضيح المراد من الخطاب؛ لأنها المادّة الأهم في هذا البحث، وقد أتى ذكرها متأخراً لما ذكرت من قبل من الترتيب الذي يأتي متدرّجاً، ومتناسقاً.

أقول: إنّ التعريف بالخطاب لا بُدَّ منه لتحديد المصطلحات سواء الخاص منها بالبحث، أو ما له صلة، ومن خلال هذا العرض من المعاجم وكتب التفسير لما يتّصل بالخطاب من معنى تستخلص تلك المصطلحات، وأذكر أوّل ما أذكر تعريفاً للزُّمخشريّ فإنّ فيه من الوضوح والبيان ما يدلُّ على المقصود، وهو الذي يحدّد المعنى الأخص الذي هو محور الموضوع كما سيأتي. يقول في (أساس البلاغة): "يقال: (خاطبه أحسن الخطاب)، وهو: المواجهة بالكلام. و(خطب الخطيب خطبة حسنة)، و(خطب الخطيب خطبة جميلة)، و(كثر خطّابها)، و(هذا خطبها)، و(هذه خطبه وخطبته)، وكان يقوم الرّجل في النّادي في الجاهلية فيقول: (خطب)، فمن أراد إنكاحه قال: (نكح). و(اختطب القوم فلاناً): دعوه إلى أن يخطب إليهم،

يقال: (اختطبه فما خطب إليهم)... ومن المجاز: (فلان يخطب عمل كذا): يطلبه. و(قد أخطبك الصيد فارمه)، أي: أكتبك وأمكنك، و(أخطبك الأمر)، وهو (أمر مخطب)، ومعناه: أطلبك من طلبت إليه حاجة فأطلبني. و(ما خطبك)؟ ما شأنك الذي تخطبه؟ ومنه (هذا خطب يسير)، و(خطب جليل). وهو يقاسي خطوب الدهر^(١).

أقول: ومما سبق يتبين أن الخطاب في اللغة توجيه الكلام بين مخاطب ومخاطب، وله صيغ محدّدة، وأن الغاية منه إفهام المخاطب، والخطاب أخص من الكلام، وهناك من المصطلحات الخاصة بالخطاب ما سيأتي بيانه.

ب. مادة (الخطاب) في النصوص القرآنية:

إن بيان مادة (الخطاب) في النصوص القرآنية هو من صلب الدراسات القرآنية المتعلقة بالخطاب؛ إذ إنه يُميّز هذه المادة من حيث ورودها في القرآن الكريم، وما له صلة بموضوع هذا البحث، وما ليس له صلة، والنظر هنا إلى مادة (الخطاب) في النصوص القرآنية من محورين:

الأول: استقصاء مادة (الخطاب) في النصوص القرآنية.

الثاني: تفسير الآيات ذات الصلة.

وأذكر أولاً مادة (الخطاب) في النصوص القرآنية مرتبة على حسب ترتيب السور الترتيب المصحفي^(٢):

(١) أساس البلاغة، مادة: (خطب) (ص: ١١٤-١١٥)، بقليل من التصريف.

(٢) وهنا فائدة أذكرها استطراداً: إذا ذكر (الترتيب المصحفي) فذلك للاحتراز عما يسميه البعض =

الآية الأولى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

الآية الثانية: ﴿وَأَصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧].

الآية الثالثة: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاودْتَنِي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥١].

الآية الرابعة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧].

الآية الخامسة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِئُ﴾ [طه: ٩٥].

الآية السادسة: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

الآية السابعة: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

الآية الثامنة: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا شَيْءَ حَقَّ يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣].

= بالترتيب النزولي للسور، فلا يوجد ترتيب نزولي للسور، وإنما ترتيب لآيات معينة. انظر ما حققه الدكتور إبراهيم خليفة في مبحث (ترتيب النزول) في تفسيره لسورة النساء من (ص: ٤٧) إلى (٩٥).

الآية التاسعة: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَٰتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: ٢٠].

الآية العاشرة: ﴿إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَمْ يَسْعَ وَيَسْعُونَ نَجَّةً وَلِيَ نَجَّةً وَاحِدَةً فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ۝٢٣﴾ [ص: ٢٣].

الآية الحادية عشرة: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝٣١﴾ [الذاريات: ٣١].

الآية الثانية عشرة: ﴿رَبِّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧﴾ [النبا: ٣٧].

أما بيان معنى الآيات ذات الصلة فهي مما يزيد مفهوم الخطاب وضوحًا. فقد قال الله ﷻ في حق داود عليه السلام: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَٰتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ ۝٢٠﴾ ، والمراد (بفصل الخطاب) في قول الله ﷻ: ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ : هو الحكم بالبيّنة أو اليمين. وقيل: معناه: أن يفصل بين الحق والباطل ويميز بين الحكم وضده، أو هو الفقه في القضاء، أو هو النطق بـ: (أما بعد). وداود عليه السلام أول من قال: (أما بعد) يعني: ما مضى من الكلام فهو كذا وكذا..^(١).

(١) انظر: روح المعاني (١٧٧/٢٣)، الطبري (١٤٠/٢٣)، القرطبي (١٦٢/١٥)، الثكت والعيون (٨٤/٥)، ابن كثير (٣١/٤)، الدر المنثور (١٥٤/٧)، معاني القرآن، للنحاس (٩٣/٦)، زاد المسير (١١١-١١٢/٧)، النسفي (٥٢/٤)، أحكام القرآن، للجصاص (٢٥٦/٥)، تفسير ابن أبي حاتم (٣٢٣٧-٣٢٣٨)، تفسير الرازي (٣٨٩/٢٦)، التحرير والتنوير (٢٢٩/٢٣)، الكشف والبيان (٣٠٨/٩)، ...، الكليات (ص: ٦٨٧).. إلخ.

و(الْخِطَابُ وَالْمُخَاطَبَةُ): مراجعة الكلام، و(قد خاطبه بالكلام مُخَاطَبَةً وَخِطَابًا)، و(هما يتخاطبان). قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [هود: ٣٧] ^(١). «أي: لا تكلمني فيهم بشفاعَةٍ وإنجاء لهم من الغرق ونحوه» ^(٢). و(الْحُطْبَةُ) و(الْمُخَاطَبَةُ) مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْخِطَابِ وَالْمُشَاوَرَةِ ^(٣).

فقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ ، أي: لا تراجعني فيهم ولا تدعني باستدفاع العذاب عنهم. وفيه من المبالغة ما ليس فيما لو قيل: ولا تدعني فيهم. وحيث كان فيه ما يلوح بما يستتبعه أَكْثَرُ التَّعْلِيلِ فقليل: إنهم مغرقون ^(٤).

وجاء في معنى قول الله ﷻ: ﴿وَفَصَّلَ الْخِطَابَ﴾ . قال الزَّركشي: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَسَمَ الْحَقَّ بَيْنَ عِبَادِهِ فَأُولَٰئِهِمْ بِالصَّوَابِ مِنْ عِبَرٍ بِخِطَابِهِ عَنْ حَقِيقَةِ الْمَرَادِ قَالَ ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ [النحل: ٤٤]، ثُمَّ قَالَ ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ ﴿١٩﴾ [القيامة: ١٩]، أي: على لسانك وألسنة العلماء من أَمَّتِكَ وكلام السَّلف راجع إلى المشتبه بوجه لا إلى المقصود المعبر عنه بالمتشابه في خطابه؛ لأنَّ المعاني إذا دَقَّتْ تداخلت وتشابهت على من

(١) انظر مَادَّة: (خطب) في كلِّ من: (لسان العرب) (٣٦٠/١)، وتاج العروس (٣٧٦/٢) .

(٢) روح المعاني (٢٧/١٨) .

(٣) انظر: لسان العرب، مَادَّة: (خطب) (٣٦٠/١)، وكذلك في (تاج العروس) (٣٧٦/٢) .

(٤) انظر: روح المعاني (٥٠/١٢)، تفسير البضاوي (٢٣٣/٣)، تفسير أبي السعود (٢٠٦/٤) .

لا علم له بها كالأشجار إذا تقارب بعضها من بعض تداخلت أمثالها واشتبهت. أي: على من لم يمعن النظر في البحث عن منبعث كل فن منها. قال ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَكِّبًا وَغَيْرَ مُتَشَكِّبٍ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وهو على اشتباكه غير متشابه، وكذلك سياق معاني القرآن العزيز قد تتقارب المعاني، ويتقدم الخطاب بعضه على بعض، ويتأخر بعضه عن بعض لحكمة الله ﷻ في ترتيب الخطاب والوجود، فتشتبك المعاني، وتشكل إلا على أولي الألباب، فيقال في هذا الفن: متشابه^(١).

وفي (نظم الدرر) للبقاعي: ﴿وَقَصَلَ الْخَطَابُ﴾ أي: ومعرفة الفرق بين ما يلتبس في كلام المخاطبين له من غير كبير روية في ذلك، بل يفرق بديهية بين المتشابهات بحيث لا يدع لبساً يمكن أن يكون معه نزاعٌ لغير معاند، وكسونه عزاً وهيبة ووقاراً يمنع أن يجترئ أحد على العناد في شيء من أمره بعد ذلك البيان الذي فصل بين المتشابهات، وميِّز بين المشكلات الغامضات، وإذا تكلم وقف على المفاصل، فيبين من سرده للحديث معانيه، ويضع الشيء في أحكم مبانيه. ولما كان السياق للتدريب على الصبر والتثبت الشافي، والتدبر التام، والابتلاء لأهل القرب، وكان المظنون بمن أوتي فصل الخطاب أن لا يقع له لبس في حكم ولا عجلة في أمر، وكان التقدير: هل أنتك هذه

(١) البرهان (٧٠/٢).

الأنباء؟ عطف عليه مبينا عواقب العجلة معلِّمًا أنَّ على من أعطى المعارف أن لا يزال ناظرًا إلى من أعطاه ذلك سائلًا له التفهيم، استعجازًا لنفسه متصورًا لمقام العبودية التي كرَّر التَّنبيه عليها في هذه السُّورة بنحو قوله ﷻ: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠]»^(١).

قال الألوسي في قوله ﷻ: ﴿وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾: «أي: فصل الخصام بتمييز الحق عن الباطل، فالفصل بمعناه المصدري، و(الخطاب): الخصام؛ لاشتماله عليه أو لأنَّه أحد أنواعه، خصَّ به؛ لأنَّه المحتاج للفصل أو الكلام الَّذي يفصل بين الصَّحيح والفساد، والحق والباطل، والصَّواب والخطأ، وهو كلامه - عليه السَّلام - في القضايا والحكومات، وتدابير الملك والمشورات، فالخطاب الكلام المخاطب به.

و(الفصل): مصدر بمعنى اسم الفاعل أو الكلام الَّذي ينبه المخاطب على المقصود من غير التباس، يراعي فيه مظانَّ الفصل والوصل، والعطف والاستئناف، والإضمار والحذف، والتكرار، ونحوها، فالخطاب بمعنى: (الكلام المخاطب به) أيضًا، و(الفصل): مصدر إمَّا بمعنى اسم الفاعل، أي: الفاصل المميِّز للمقصود عن غيره، أو بمعنى اسم المفعول، أي: المقصود، أي: الَّذي فصل من بين أفراد الكلام بتلخيصه ومراعاة ما سمعت فيه، أو الَّذي فصل بعضه عن بعض ولم يجعل ملبسًا مختلطًا. وجوز أن يراد ب: (فصل

(١) نظم الدرر (٦/٣٧٢)، وانظر: السَّراج المنير (٣/٤٨٩).

(الخطاب): الخطاب القصد الذي ليس فيه اختصار مُخِلٌّ، ولا إشباع مُمِلٌّ، كما جاء في وصف كلام نبيِّنا ﷺ: لا نَزْرٌ ولا هَذْرٌ..»^(١).
وأما تحقيق العلامة محمد الطاهر بن عاشور لتفسير (فصل الخطاب) بأنَّه قول داود عليه السلام في خطبه: (أَمَّا بعد)، وداود عليه السلام أوَّل من قال ذلك فقد قال: «ولا أحسب هذا صحيحًا؛ لأنَّها كلمة عربيَّة، ولا يعرف في كتاب داود عليه السلام أنَّه قال ما هو بمعناها في اللُّغة العبريَّة، وسمَّيت تلك الكلمة: (فصل الخطاب) عند العرب؛ لأنَّها تقع بين مقدِّمة المقصود وبين المقصود. فالفصل فيه على المعنى الحقيقي، وهو من الوصف بالمصدر، والإضافة حقيقية»^(٢).

(١) روح المعاني (١٧٨/٢٣). وقد جاء في وصف كلام النبي ﷺ: إنَّ تكلم سماء وعلاه البهاء، أجمل النَّاس وأباه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصل لا نزر ولا هذر، كأنَّ منطقة خرزات نظم يتحدَّرن. انظر: الخصائص الكبرى (١/٣١٠-٣١١)، الاكتفاء بما تضمَّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (١/٣٤٢)، السيرة الحلبية (٢/٢٢٨)، الثَّقَات، لمحمد بن حَبَّان (١/١٢٦)، الطَّبَقَات الكبرى (١/٢٣١)، الفائق (١/٩٥)، الاستيعاب (٤/١٩٦٠)، صفة الصَّفوة (١/١٤٠-١٤٣)، البداية والنهاية (٣/١٩٢)، (٦/٢٩)، (٦/٣١).

(٢) وقد اختلف في أوَّل من قال: (أَمَّا بعد) فقليل: هو داود عليه السلام. وقيل: سحبان وائل. وقيل: قس بن ساعدة. وقيل: كعب بن لؤي. وقيل غير ذلك. انظر: تهذيب الأسماء (٣/٢٧)، تاريخ الطُّبري (٣/٥٣٣)، الزَّاهر في معاني كلمات النَّاس (٢/٢٩٣)، صبح الأعشى (١/٤٩٢)، (٦/٢٢٢)، المِزهر (١/١١٦)، فيض القدير (١/٤٨)، وانظر: تفسير القرطبي (١٨/٩٧)، تفسير ابن كثير (٤/٣١)، الدُّر المنثور (٧/١٥٥)، فتح القدير، للشَّوكاني (٤/٤٢٨)، وما سبقت الإشارة إليه من كتب التفسير. وقد حقَّق ذلك الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٢/٤٠٤) فما بعد.

وفي (تفسير الرازي): ﴿وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾ : «اعلم أنَّ أجسام هذا العالم على ثلاثة أقسام: أحدها: ما تكون خالية عن الإدراك والشُّعور، وهي الجمادات والنباتات.

وثانيها: التي يحصل لها إدراكٌ وشعور، ولكنها لا تقدر على تعريف غيرها الأحوال التي عرفوها في الأكثر، وهذا القسم هو جملة الحيوانات سوى الإنسان.

وثالثها: الذي يحصل له إدراكٌ وشعور، ويحصل عنده قدرة على تعريف غيره الأحوال المعلومة له، وذلك هو الإنسان. وقدرته على تعريف الغير الأحوال المعلومة عنده بالنطق والخطاب. ثمَّ إنَّ النَّاسَ مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير، فمنهم من يتعذَّر عليه إيراد الكلام المرتَّب المنتظم، بل يكون مختلط الكلام مضطرب القول، ومنهم من يتعذَّر عليه الترتيب من بعض الوجوه، ومنهم من يكون قادرًا على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات، وكلُّ من كانت هذه القدرة في حقِّه أكمل كانت الآثار الصَّادرة عن النَّفس النُّطْقِيَّة في حقِّه أكمل، وكلُّ من كانت تلك القدرة في حقِّه أقلَّ كانت تلك الآثار أضعف. ولما بيَّن الله ﷻ كمال حال جوهر النَّفس النُّطْقِيَّة التي لداود عليه السلام بقوله ﷻ: ﴿وَأَيَّنَتْهُ الْحِكْمَةُ﴾ [ص: ٢٠]. أردفه ببيان كمال حاله في النطق واللفظ والعبارة فقال: ﴿وَفَصَلَ الْخُطَابِ﴾. وهذا الترتيب في غاية الجلالة. ومن المفسرين من فسَّر ذلك بأنَّ داود عليه السلام أوَّل من قال في كلامه: (أمَّا بعد)،

وأقول: حقا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أمثالَ هذه الكلمات فقد حرموا الوقوف على معاني كلام الله ﷻ حرمانا عظيما - والله أعلم - . وقول من قال: المراد معرفة الأمور التي بها يفصل بين الخصوم، وهو طلب البيّنة واليمين فبعيد أيضًا؛ لأنَّ (فصل الخطاب): عبارة عن كونه قادرًا على التعبير عن كلِّ ما يخطر بالبال، ويحضر في الخيال، بحيث لا يختلط شيءٌ بشيءٍ، وبحيث يفصل كلُّ مقام عن مقام، وهذا معنى عام يتناول جميع الأقسام - والله أعلم -...»^(١).

وجاء النَّهي عن الخطاب في قوله: ﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [هود: ٣٧].

«ودلَّ النَّهي على أَنَّ كَفَّار قوم نوح عليه السلام سينزل بهم عقاب عظيم، لأنَّ المراد بالمخاطبة المنهي عنها: المخاطبة التي ترفع عقابهم فتكون لنفعهم كالشفاعة، وطلب تخفيف العقاب لا مطلق المخاطبة. ولعلَّ هذا توطئة لنهي عن مخاطبته في شأن ابنه الكافر قبل أن يخطر ببال نوح عليه السلام سؤال نجاته حتى يكون الرد عليه حين السؤال ألطف.

وجملة: ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ إخبار بما سيقع، وبيان لسبب الأمر بصنع الفلك. وتأکید الخبر بحرف التَّوكِيد في هذه الآية مثال لتخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، بتنزيل غير السَّائل المتردد منزلة السَّائل إذا قدم إليه من الكلام ما يلوِّح إلى جنس الخبر، فيستشرفه لتعيينه استشرافًا يشبه استشراف السَّائل عن عين الخبر»^(٢).

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) (١٣/١٧٢).

(٢) التَّحْرِير والتَّنْوِير (١٢/٦٧).

أقول: والحاصل أنَّ الخطاب هو الكلام المخاطب به، وله درجات من الرقي يتسامى فيها فيكون فصلاً يميّز الحقَّ عن الباطل، والصَّحيح عن الفاسد بالبيان الواضح الَّذي لا لبس فيه، وله من الضوابط والمقاصد والأهداف ما ينبغي أن يُراعى في فهم تلك النصوص الفهم الصَّحيح الَّذي يدلُّ على عمق المعنى. يدركُ ذلك العلماء الَّذين لا يقفون على تلك الأقوال الضَّعيفة الَّتِي تدلُّ على قصور المعنى إلَّا للتنبيه على ضعفها وقصورها. وقد جاءت الألفاظ في الخطاب القرآني مثلاً يحتذى به للفصاحة والبيان، فلا ينبغي أن نتمسك بتلك الأقوال، وكما قال الإمام الرَّازي -في قوله الآنف الذكر- إنَّ الَّذين يتَّبِعون أمثال هذه الكلمات، أو قل: التَّأويلات، فقد حرموا الوقوف على معاني كلام الله ﷻ حرماناً عظيماً.

ج. تعريف (الخطاب) عند الأصوليين والفقهاء:

إنَّ أهميَّة التعريف عند الفقهاء والأصوليين بالنسبة لموضوع البحث:

- ١ - أنه يوضِّح المصطلحات، ويميِّز بعضها عن البعض الآخر.
- ٢ - إنَّ تعلق الخطاب القرآني بأفعال المكلفين له صلةٌ ببعض موضوعات البحث، وهو جانبٌ من جوانب الخطاب القرآني لا ينبغي إغفاله.

- ٣ - إنَّ أثر خطاب الله ﷻ المتعلِّق بأفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييراً أو وضعاً أيضاً له صلةٌ ببعض الموضوعات لاسيَّما المتعلِّق منها بالمقاصد.

٤ - إنَّ التَّعرض لتعريف الخطاب عند الفقهاء والأصوليين يحقق التَّكامل في الموضوعات.

و(الخطاب) عند جمهور الأصوليين هو الَّذي يتعلَّق بأفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعاً^(١). «يقال: (خاطب زيدٌ عمراً يخاطبه خطاباً ومخاطبة)، أي: وجَّه اللَّفظ المفيد إليه، وهو بحيث يسمعه، فالخطاب هو التَّوجيه، وخطاب الله ﷻ توجيه ما أفاد إلى المستمع أو من في حكمه...»^(٢).

«أمَّا عند الفقهاء فهو يتعلَّق بأثر خطاب الله المتعلَّق بأفعال المكلَّفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعاً، فالحكم عندهم هو الأثر، أي: الوجوب ونحوه، وليس الخطاب نفسه.

وبيان ذلك يرجع إلى تعريف (الحكم)، وبيان أنواعه وأقسامه: «(الحكم) لغة: القضاء. وأصل معناه: المنع. يقال: (حكمت عليه بكذا) إذا منعته من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك، ويقال: حكم الله، أي: قضاؤه بأمر، والمنع من مخالفته»^(٣).

(١) انظر: المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن بدران (ص: ٦٦)، شرح مختصر الرُّوضة (١/ ٢٥٥)، مسلم الثبوت (١/ ٥٤)، تيسير التَّحرير (١/ ١٠-١٣).

(٢) شرح البدخشي (مناهج العقول)، ومعه شرح الإسنوي (نهاية السُّؤل) (١/ ٤١)، وانظر: البحر المحيط (٢/ ٣٤٠).

(٣) انظر مادة: (حكم) في كلٍّ من (المصباح المنير) (٢/ ٤٣٤)، المعجم الوسيط (١/ ١٩٠)، مقاييس اللُّغة (٥/ ٩٩)، مختار الصُّحاح (ص: ١٦٧)، والموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة، مادة: (حكم)، (١٨/ ٦٥-٦٦). وانظر: التَّعريفات (ص: ٢٢٥)، وانظر: مادة: (قضى) في

ولتعريف الحكم اصطلاحاً يقيّد بالشرعيّ، تفريقاً له عن العقليّ والعاديّ وغيرهما، فالحكم الشرعيّ عند جمهور الأصوليين هو: خطابُ الشارعِ المتعلّقُ بأفعالِ المكلفين اقتضاءً أو تخييراً أو وضعاً. أمّا عند الفقهاء فهو: أثرُ خطابِ الله ﷻ المتعلّقُ بأفعالِ المكلفين اقتضاءً أو تخييراً أو وضعاً، فالحكم عندهم هو الأثر، أي: الوجوب ونحوه، وليس الخطاب نفسه^(١).

وأما أنواع الحكم: فينقسم الحكم -الذي هو هنا خطاب الله ﷻ المتعلّقُ بأفعالِ المكلفين اقتضاءً أو تخييراً أو وضعاً كما هو عند الأصوليين، أو أثر خطاب الله المتعلّقُ بأفعالِ المكلفين اقتضاءً أو تخييراً أو وضعاً كما هو عند الفقهاء- إلى التّكليفيّ والوضعيّ، وبعضهم زاد التّخييريّ، ويدلّ تعريف الحكم على هذه الأنواع، فالمراد بالاقضاء في تعريف الحكم هو الطّلب، ويسمّى هذا النوع من أنواع الحكم: (الحكم التّكليفيّ) لما فيه من إلزام كلفة. ويتناول كلّاً من طلب الفعل جازماً، وهو الوجوب، أو غير جازم، وهو النّدب، كما يتناول طلب التّرك جازماً، وهو التّحريم، أو غير جازم، وهو الكراهة.

(الصّحاح)، للجوهري، (٢٤٦٣/٦)، وكذلك في (لسان العرب) (١٨٦/١٥). الكليات

(ص: ٧٠٥)، وانظر الفرق بين القضاء والحكم في (الفروق) (٤٣١/١).

(١) مسلم الثبوت (٥٤/١)، جمع الجوامع (٣٥/١)، إرشاد الفحول (ص: ٦)، التّوضيح

(١٤/١).

والمراد بالتَّخْيِير -في التَّعْرِيف-: الإباحة، وهي أن لا يكون الشَّيء مطلوب الفعل أو التَّرك. وبأحكام الاقتضاء والتَّخْيِير تستكمل أقسام الأحكام التَّكْلِفِيَّة الخمسة أو السَّبعة -على ما سيأتي- وقصرها بعض الأصوليين -كالآمدي- على ما يتعلَّق بطريق الاقتضاء، وأفرد الإباحة باسم: (الحكم التَّخْيِيرِي) في حين أنَّ بعض الأصوليين يخرجون المندوب من الحكم التَّكْلِفِي؛ لأنَّه ليس فيه إلزام بمشقة. قال الآمدي: «وهو أولى من المباح بالخروج من الحكم التَّكْلِفِي»^(١).

والمراد بالوضع -في تعريف الحكم- خطاب الله ﷻ المتعلَّق بجعل الشَّيء سبباً، أو شرطاً، أو مانعاً، أو صحيحاً، أو فاسداً، أو باطلاً -على ما ذهب إليه الحنفيَّة من التَّفرقة بين الفاسد والباطل-^(٢). وأمَّا أقسام الحكم التَّكْلِفِي: فهو ينقسم عند الجمهور إلى خمسة أقسام هي: الفرض، والنَّدب، والإباحة، والحرمة، والكراهة، وتزيد الأقسام عند الحنفيَّة قسمين آخرين هما الوجوب: وهو بين الفرض والنَّدب. والكراهة التَّحْرِيْمِيَّة: وهي بين الحرمة والكراهة التَّنْزِيْهِيَّة، فالفرض غير الواجب عند الحنفيَّة^(٣)، أمَّا الجمهور فيسوّون بين

(١) الإحكام، للآمدي (١/ ١٧٠). وينظر مصطلح: (إباحة) من الموسوعة الفقهيَّة الكويتيَّة (١٢٦/١) فما بعد.

(٢) نهاية السُّؤل (١/ ٧١)، التَّقرير والتَّخْيِير (٢/ ١١). وتفصيله في مصطلحي: (باطل) و(بطلان) في الموسوعة الفقهيَّة (٨/ ١٠٦ - ١٢٤).

(٣) انظر: تحفة الفقهاء (١/ ٢٠١)، وانظر: رد المحتار على الدر المختار، باب قضاء الفوائت (١/ ٤٨٥) فما بعد، التَّقرير والتَّحْرِير في علم الأصول (٢/ ١٦٦).

الفرض والواجب^(١).

هذا ولبعض أقسام الحكم التَّكْلِيفِيِّ كالواجب تقسيماتٌ كثيرةٌ باعتباراتٍ مختلفة، أهمُّها: تقسيمه بحسب وقت أدائه إلى مؤقَّت ومطلق، وبحسب المطالب بأدائه إلى عينيٍّ وكفائيٍّ، وبحسب المقدار المطلوب منه إلى محدَّد وغير محدَّد، وبحسب تعيين المطلوب إلى معيَّن ومخيَّر^(٢).

أمَّا أقسام الحكم الوضعيِّ: فينقسم الحكم الوضعيُّ إلى أقسامٍ كثيرةٍ أهمُّها: السَّبب، والشَّرْط، والمانع، والرُّخصة، أو العزيمة، والصَّحَّة، أو البطلان^(٣).

د. مسألة في بيان المراد من الخطاب عموماً:

المراد من الخطاب خطاب الله ﷻ مطلقاً سواء أكان منسوباً إليه مباشرة كالقرآن، أم بالواسطة كالسُّنة والإجماع والقياس وغيرها من الأدلَّة الشرعيَّة؛ لأنَّ هذه الأدلَّة في الواقع راجعة إلى الله ﷻ، وهي كُلُّها في الحقيقة معرَّفات لخطاب الله ﷻ وليست مثبتات، فالسُّنة وإن كانت من الرِّسول ﷺ فهي ثابتةٌ بطريق الوحي الَّذي لا يقره الله ﷻ

(١) انظر: الإحكام، للأمدى (١/١٣٩)، الذَّخيرة، للقرافي (١/٢٤٧).

(٢) انظر: تفصيل ذلك كُلِّه في مصطلح: (حكم)، من الموسوعة الفقهيَّة (١٨/٦٥-٦٦).

وانظر: مصطلح: (حق) (١٨/٧-٤٨). وانظر: إرشاد الفحول (ص: ٦-٧)، والمستصفي

(١/٥٦).

(٣) المستصفي (١/٩٣) فما بعدها.

على باطل، والإجماع لا بدّ أن يكون له مستند من الكتاب والسنة أو غيرها من الأدلة الشرعية، والقياس ليس مثبتاً للحكم، وإنما هو كاشفٌ أو مظهر له، والمثبت في الحقيقة هو دليل حكم الأصل من الكتاب أو السنة أو الإجماع^(١).

ويتبيّن مما سبق: أنّ خطاب الله ﷻ يدلّ عليه القرآن الكريم، والسنة، والإجماع، والقياس، وغيرها من الأدلة الشرعية؛ ولذلك قيّد الخطاب هنا بكونه قرآنياً عاماً، ثمّ قيّد الأعمّ منه بالأخصّ، هو الذي فيه صيغة خطاب مباشرة، أو مواجهة بالخطاب؛ ولذلك جاء العنوان مقيداً، وناسب التعريف بالقرآن الكريم أن يكون عقب التعريف بالخطاب، وسيأتي بيان المعنى الاصطلاحي لمفهوم الخطاب في هذه الدراسة موضعاً.



(١) انظر: التلويح على التّوضيح (٢٧/١)، أصول الفقه الإسلامي، للدكتور وهبة الزّحيلي (٣٨/١-٣٩)، البحر المحيط، للزّركشي (١٢/١)، الإحكام، للآمدي (٣/٢٩٢).

٦ - التعريف بالقرآن الكريم

توطئة لبيان سبب الاهتمام بهذا التعريف:

إنَّ الاهتمام هنا بالخطاب القرآني المنزل من قِبَل الوحي دون غيره من أنواع الخطاب المنزل الأخرى كالأحاديث القدسيَّة، والأحاديث النبويَّة؛ لأنَّه المعنيُّ هنا بالبحث.

وإن كان الاعتناء منصباً على ما كان منه خطاباً مباشراً بصيغةٍ من صيغ الخطاب.

ومن هنا كانت الحاجةُ إلى بيان معنى القرآن الكريم، وذلك لاعتبارين:

الأول: لأنَّه الأصلُ في بيان مصطلحات البحث هنا.

الثاني: لأنَّه جزءٌ من العنوان.

ويأتي في التعريف المعنى اللُّغوي، والمعنى المراد منه اصطلاحاً على النحو التالي:

أ- **التعريف اللُّغوي:** «هو مصدرٌ مرادفٌ للقراءة، ومنه قوله ﷺ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧) فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (١٨) [القيامة: ١٧-١٨].

ثم نقل من هذا المعنى المصدري، وجعل اسماً للكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله»^(١).

(١) مناهل العرفان (١/١٤-١٥).

يقال: «(قرأ الكتاب قراءةً وقُرءاناً) -بالضمّ-. و(قرأ الشيء قُرءاناً) -بالضمّ- أيضاً: جَمَعَهُ وَضَمَّهُ. ومنه سُمِّيَ القرآن؛ لأنه يَجْمَعُ السُّورَ وَيَضُمُّهَا. وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (١٧)، أي: قراءته. و(فلانٌ قرأ عليك السلام)، و(أقرأك السلام) بمعنى. وجمعُ (القارئ): قَرَأَةٌ، مثل: كافر وكفرة. والقراء -بالضمّ والمدّ-: المتنسك. وقد يكون جَمْعُ قارئٍ^(١).

ب- تعريف القرآن شرعاً: «أمّا القرآن باعتباره ألفاظاً منطوقة، فيعرفُ شرعاً بأنه: (القول المنزّل على محمّد ﷺ المعجز بسورةٍ منه، المتعبّد بتلاوته، المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلاً متواتراً)، فقولنا في هذا التعريف: (القول) يعني اللفظ المفيد، فهو جنسٌ في التعريف يشملُ سائرَ الأقوال يخرج عنه اللفظ غير المفيد بأن يكون مهملاً لا معنى له في لغة العرب أصلاً. وقولنا: (المنزّل) قيد أوّل خرج به الأقوال غير المنزّلة سواء أكانت من كلام الله ﷻ أو من كلام غيره، وكان الغير ملكاً أو جنيّاً أو بشراً، أو ما شاء الله ﷻ من خلقه، فيخرج بهذا القيد جميع أحاديثه ﷺ؛ لكونها ألفاظاً من قبله هو، غير منزّلة عليه، وإن كانت معاني بعض تلك الأحاديث منزّلة؛ فإنّ العبرة هنا بالألفاظ لا بالمعاني. كما يخرج بهذا القيد أيضاً الأحاديث القدسيّة

(١) مختار الصحاح، مادة: (قرأ) (ص: ٥٦٠)، وانظر: مادة: (قرأ) في كل من: (تاج العروس) (٣٦٤/١)، ولسان العرب (١٢٨/١)، والصحاح، للجوهري (٦٥/١). وانظر التعريف في كتاب (التيسير في قواعد علم التفسير)، للكافجي (ص ٣٣-٣٤)، وانظر: معاني القرآن، للقراء (٢١١/٣)، وانظر: الموسوعة الفقهيّة الكويتيّة (٣٠/٣٣).

على القول بأن ألفاظها ليست منزلة من عند الله ﷻ، بل هي من عند محمد ﷺ، وإنما المنزّل معانيها فحسب .
وهو ما اختاره الدكتور محمد عبد الله دراز^(١) في كتابه: (النَّبأ العظيم)^(٢).

وأما القول بأن ألفاظها منزلة من عند الله ﷻ كمعانيها فإنها لا تخرج بهذا القيد، بل بقيد آخر في هذا التعريف -مما سيأتي التنبيه عليه-.

وقولنا في هذا التعريف: (المنزّل على محمد ﷺ) قيد ثانٍ خرج به أقوال الله ﷻ المنزلة على غير نبينا ﷺ كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام والزبور والإنجيل.

وقولنا: (المعجز بسورة منه)^(٣) قيد ثالثٌ خرج به ما هو منزّل على

(١) هو محمد بن عبد الله دراز، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر، عالم، أديب ولد في قرية (محلة دياي) بمصر، وانتسب إلى معهد (الإسكندرية) الديني، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية، وعلى شهادة العالمية، ثم تعلّم اللغة الفرنسية، واختير للتدريس بالقسم العالي بالأزهر، ثم أرسل في بعثة علمية إلى (فرنسا)، وحصل على شهادة الدكتوراه من (السوربون)، وعاد فاشتغل بالتدريس في (جامعة القاهرة) في (دار العلوم)، وفي كلية اللغة العربية (بالجامعة الأزهرية)، ونال عضوية جماعة كبار العلماء، وكان عضواً في اللجنة العليا لسياسة التعليم، وفي مجلس الإذاعة، وفي اللجنة الاستشارية الثقافية في الأزهر، واشترك في المؤتمر العلمي الإسلامي بمدينة (لاهور) بالباكستان، وتوفي بها فجأة في (١٦) جمادى الآخرة [١٣٧٧هـ]. انظر: الأعلام (٦/٢٤٦)، معجم المؤلفين (١٠/٢١٢-٢١٣).

(٢) انظر: النبأ العظيم نظرة جديدة في القرآن الكريم، الدكتور محمد عبد الله دراز (ص: ١٤-١٥). وانظر: علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف (ص: ٢٣).

(٣) قال (مراقي السعود) رقم [١٢٤]، (ص: ٢١):

محمد ﷺ غير معجز بسورة منه كالأحاديث القدسية، على القول بأن ألفاظها منزلة على النبي ﷺ كمعانيها^(١). وكالذي نسخت تلاوته من

= «لفظ منزل على محمد لأجل الإعجاز وللتعبد».

انظر: نثر الورود على مراقي السعود (٩٠/١).

(١) انظر: إجابة السائل (ص: ٦٣)، إرشاد الفحول (١/٨٦)، التقرير والتحير (٢/٢٨٤)، تيسير التحرير (٣/٣)، معالم أصول الفقه (ص: ١٠٣). وقد حقق هذه المسألة الشيخ محمد بن صالح العثيمين في (مجموع الفتاوى) حيث قال: «(الحديث القدسي) ما رواه النبي ﷺ عن ربه ﷻ. وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية؛ لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تبليغاً، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله ﷻ. وقد اختلف العلماء -رحمهم الله- في لفظ: (الحديث القدسي) هل هو كلام الله ﷻ، أو أن الله ﷻ أوحى إلى رسوله ﷺ معناه، واللفظ لفظ رسول الله ﷺ؟ على قولين: القول الأول: أن الحديث القدسي من عند الله ﷻ لفظه ومعناه؛ لأن النبي ﷺ أضافه إلى الله ﷻ. ومن المعلوم أن الأصل في القول المضاف أن يكون بلفظ قائله لا ناقله، ولا سيما والنبي ﷺ أقوى الناس أمانة، وأوثقهم رواية. القول الثاني: أن الحديث القدسي معناه من عند الله ﷻ ولفظه من النبي ﷺ، وذلك لوجهين: الوجه الأول: لو كان الحديث القدسي من عند الله ﷻ لفظاً ومعنى لكان أعلى سنداً من القرآن؛ لأن النبي ﷺ يرويه عن ربه ﷻ بدون واسطة، كما هو ظاهر السياق، أما القرآن فنزل على النبي ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام كما قال ﷻ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقال: ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرِيفٍ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥]. الوجه الثاني: أنه لو كان لفظ الحديث القدسي من عند الله ﷻ لم يكن بينه وبين القرآن فرق؛ لأن كليهما على هذا التقدير كلام الله ﷻ، والحكمة تقتضي تساويهما في الحكم حين اتفاقا في الأصل، ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروق كثيرة: منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله ﷻ بمجرد قراءته، فلا يثاب على كل حرف منه عشر حسنة، والقرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنة. ومنها: أن الله ﷻ تحدى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية. ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ =

القرآن إن قلنا بوجود هذا النوع في الواقع،.. وهو قول الجمهور أيضاً^(١)؛ وذلك لأنه لا يوجد من هذا المنسوخ سورة بتمامها حتى

= نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١﴾ [الحجر: ٩]، والأحاديث القدسيّة بخلاف ذلك، ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفاً أو موضوعاً، وهذا وإن لم يكن نسب إليها، وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص. ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين. وأما الأحاديث القدسيّة، فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى، والأكثرون على جوازه. ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة، ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسيّة. ومنها: القرآن لا يمسه إلا الطاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسيّة. ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل على القول الزاجح، بخلاف الأحاديث القدسيّة. ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفاً أجمع القراء عليه لكان كافراً، بخلاف الأحاديث القدسيّة فإنه لو أنكر شيئاً منها مدّعياً أنه لم يثبت لم يكفر، أمّا لو أنكر مع علمه أن النبي ﷺ قاله لكان كافراً لتكذيبه النبي ﷺ. وأجاب هؤلاء عن كون النبي ﷺ أضافه إلى الله ﷻ، والأصل في القول المضاف أن يكون لفظ قائله. وبالتسليم أن هذا هو الأصل، لكن قد يضاف إلى قائله معنى لا لفظاً، كما في القرآن، فإن الله ﷻ يضيف أقوالاً إلى قائلها، ونحن نعلم أنها أضيفت معنى لا لفظاً، كما في (قصص الأنبياء) وغيرهم، وكلام الهدهد والتملة، فإنه بغير هذا اللفظ قطعاً. فتاوى ابن عثيمين (٦٩/٩-٧١). وقال في الترجيح: وبهذا يتبين رجحان هذا القول.. وقال: ثم لو قيل في مسألتنا الكلام في الحديث القدسي: إن الأولى ترك الخوض في هذا خوفاً من أن يكون من التطنع الهالك فاعله، والاختصار على القول بأن الحديث القدسي ما رواه النبي ﷺ عن ربه ﷻ وكفى، لكان ذلك كافياً، ولعله أسلم -والله أعلم-. فتاوى ابن عثيمين (٧١/٩-٧٢). وأميل هنا إلى ترجيح قول الشيخ في هذه المسألة فلا أبين منه .

- (١) وينظر في ذلك من كتب التفسير على سبيل المثال: تفسير القرطبي (٦٦/٢)، تفسير الثعالبي (٩٦/١)، روح المعاني (٢٥/١)، ومن كتب علوم القرآن: البرهان في علوم القرآن (٣٢/٢)، الإيتقان (٧١/٢)، الثبيان، للتووي (ص: ٧٤)، مناهل العرفان (١٥٤-١٧٠)، وقد جاء ذلك مفصلاً في كتب الأصول. انظر على سبيل المثال: الإبهاج (٢٤٩/٢)، الإحكام، للأمدى =

تكون معجزة، كما لا يعرف منه ما هو كلام تام قدر سورة، ولو كأقصر سورة (كسورة الكوثر) مثلاً على القول بتوقف التمام المقصود على ثلاث آيات متوالية على الأقل (كسورة الكوثر) مثلاً.

وأما عند من لا يشترط عدد ثلاث آيات متوالات في التمام فلا يخرج منسوخ التلاوة بهذا القيد، وإنما يخرج بغيره -مما سيأتي- على أن هذا كله إنما يستقيم إذا أردنا بقولنا في هذا القيد (منه) من جنسه

= (٣/١٥٧)، البحر المحيط، للزركشي (١/٣٥٦)، (١/٣٨٤)، المحصول (٣/٥٠٩)، حاشية العطار (١/٢٩٥)، رفع الحجاب (٤/٧٠)، شرح الكوكب المنير (٣/٥٥٤)، كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي (١/٣٧)، نهاية السؤل (١/٤٣٧). أما الضرب الذي نسخت تلاوته دون حكمه فشاهده المشهور ما قيل من أنه كان في (سورة النور): (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجهما البتة نكالا من الله). انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٣٥)، مباحث في علوم القرآن، للدكتور صبحي الصالح (ص: ٢٦٥). وقد رواه البخاري في (صحيحه) معلقاً. انظر: صحيح البخاري، بتحقيق البغا (٦/٢٦٢٢). وانظر: الثواسخ، لابن الجوزي (ص: ١١٥) وجزء فيه قراءات النبي ﷺ (ص: ١٣٢). ومما يدل على اضطراب الرواية أن في (صحيح ابن حبان) ما يفيد أن هذه الآية التي زعموا نسخ تلاوتها كانت في (سورة الأحزاب) لا في (سورة النور). صحيح ابن حبان [٤٤٢٨]، وكذلك في (المستدرک) [٣٥٥٤]، [٨٠٦٨]، مسند الإمام أحمد [٢٠٢٦١]، تفسير ابن كثير (٣/٤٦٦)، الدر المنثور (٦/٥٥٨-٥٥٩)، تفسير السمعاني (٣/٤٩٩)، نواسخ القرآن، لابن الجوزي (ص: ٣٥-٣٦)، مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح (ص: ٢٦٥). وأما الضرب الذي نسخت تلاوته وحكمه مع فشاهده المشهور في كتب الناسخ والمنسوخ: ما ورد عن عائشة -رضي الله عنها- أنها قالت: «كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن بخمس معلومات، وتوفي رسول الله ﷺ وهي فيما يقرأ من القرآن». والحديث أخرجه مسلم في (صحيحه) [٢٦٣٤]. وانظر في ذلك: تفسير القرطبي (٥/١٠٩)، تفسير ابن كثير (١/٤٧٠)، وانظر: قواطع الأدلة (١/٤٢٧).

الصَّادِق بما دون المجموع الكامل للقرآن.

وأما عند قصدنا بهذا القول (منه) من شخصه القاصر على إرادة المجموع الكامل للقرآن، والذي يعتبر لفظ القرآن له علم شخص لا اسم جنس، فإنَّ قيد الإعجاز بسورة منه على هذا يخرج به منسوخ التلاوة بكلِّ اعتبار قطعاً، بل يخرج به كذلك ما دون ما فوق السُّورة بكمالها من القرآن نفسه حيث لا يقال لما دون هذا القدر: (إنَّه معجز بسورة منه) لكونه سورة أو دونها مثلاً، فليس ينقسم إلى سور حتى يصلح أن يقال: سورة منه وإن كان ذلك قرآناً قطعاً بالمعنى الجنسي. وقولنا في التعريف: (المنقول إلينا بين دفتي المصحف نقلاً متواتراً) قيدٌ رابعٌ خرج به منسوخ التلاوة عند من يقول بوجوده في الواقع. ويقصد بقولنا: (منه) في القيد السابق من جنسه كما عرفنا، لكن منسوخ التلاوة لم ينقل في المصحف فضلاً عن أن يكون متواتراً. أما عند من لا يقول بوجود منسوخ التلاوة في الواقع، أو بوجوده ولكن يشترط عدد ثلاث آيات متواليات في تمام الكلام، أو يقصد من قولنا: (منه) في القيد السابق من جنسه، فإنَّ هذا القيد الرَّابع أعني المنقول إلينا... إلخ لا يكون للإخراج، بل لبيان واقع أمر القرآن فحسب؛ لكون واقع أمر القرآن أنَّه مكتوب في المصاحف، منقول بالتواتر الشَّامل كليَّاته وجزئياته.

وقولنا في التعريف: (المتعبَّد بتلاوته) هو في الحقيقة حكم من أحكام القرآن لا قيد في تعريفه يذكرونه لتمام الإيضاح فحسب يعنون به

أنَّ هذا الكتاب العظيم قد تعبَّدنا الله ﷻ بتلاوته، أي: جعل تلاوته عبادة يثاب عليها في الصَّلاة وغيرها.

وبعد: فهذا هو تعريف القرآن بالمعنى الشرعي باعتباره لفظًا منطوقًا، أمَّا باعتباره نقشًا مرسومًا فهو أظهر ما يكون لا يحتاج منا إلى أدنى شرح، حيث هو ذلك المكتوب في المصحف من أوَّل (سورة الحمد) إلى آخر (سورة النَّاس) ^(١).

وينبغي التَّنبيه على أنَّ للخطاب القرآني خصائص، وهذه الخصائص تنسحب على مجموعه، ومن هذه الخصائص:

- ١ - أنه كلام الله ﷻ المنزَّل على رسوله محمَّد ﷺ.
- ٢ - أنَّ القرآن الكريم أو الخطاب القرآني هو مجموع اللفظ والمعنى، وأنَّ لفظه نزل باللسان العربي، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].
- ٣ - أنه نقل بالتواتر المفيد للقطع واليقين.
- ٤ - أنه محفوظ من الزيادة والنقصان: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].
- ٥ - أنه معجز عجز البشر عن الإتيان بمثله. قال الله ﷻ: ﴿قُلْ لِّينْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ

(١) بتصرف واختصار عن الجزء الثاني من (مئة المنان في علوم القرآن) (٢/الصفحات: د، هـ،

و، ز، ح، ص ٤-٩) من (التمهيد).

كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨]، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ﴾
 إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾ [الطور: ٣٤]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا
 بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ [هود: ١٣]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
 فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ
 ﴿٢٣﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ
 اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ [يونس: ٣٨] .

وتتنوع وجوه الإعجاز فيه، كالإعجاز البلاغي، والإخبار بوقائع
 تحدث في المستقبل، وإخباره بوقائع الأمم المجهولة، وكل ذلك
 مبسوط في مظانه من الكتب التي تتحدث عن الإعجاز أو عن جانب
 من جوانبه، وما أكثرها، وكذلك الإعجاز العلمي حيث أشار إلى كثير
 من الحقائق الكونية، التي أثبتها العلم الحديث، ولم تكن معروفة.

قال الله ﷻ: ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ
 أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]. وإنَّ هذا العصر ليشهد تحقق وعد الله ﷻ،
 وكلما تقدمت الكشوف العلمية كشفت للناس عن آيات الخلق الباهرة
 التي تزيد الإنسان قوة واقتناعاً، وكشفت عن كثير من المعاني التي
 تحدّث عنها القرآن الكريم صراحة أو أشار إليها فكان ذلك نوعاً من
 الإعجاز يظهر في عصر العلم ليشهد بأنَّ القرآن الكريم ليس من عند
 رجل أمِّي، أو من عند جيلٍ من الأجيال التي كانت تجهل تلك
 الحقائق، وليس المجال مجال تفصيل أو بسط:

قال ﷺ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] ^(١) . الخ.

٦ - أنه كتاب أحكمه الله ﷻ فأتقن إحكامه، وفصّله فأحسن تفصيله.
قال الله ﷻ: ﴿كَتَبَ أَهْكَمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ﴾ [هود: ١].

أما أحكامه فمنها: الأحكام المتعلقة بالعقيدة، كالإيمان بالله ﷻ وملائكته وكتبه ورسله.

ومنها: الأحكام المتعلقة بتهذيب النفس وتقويمها، وهي الأحكام الأخلاقية.

ومنها: الأحكام العملية المتعلقة بأفعال وأقوال المكلفين، وهي المقصودة بـ: (الفقه). وهي نوعان: عبادات ومعاملات.

(١) وقد جاء بيان ذلك مفصلاً في (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسر)، من (ص: ٥٠٨) إلى (٥٢٧).

٧ - التعريف بالمخاطب المكلف

المكلف هو البالغ العاقل الذي لم يمتنع تكليفه، والمراد: جنس المكلف سواء أكان واحداً أو أكثر، فيخرج بهذا القيد: الخطابات المتعلقة بفعل الصبي من عبادات ومعاملات ووجوب الزكاة في ماله، فالخطاب الوارد في ذلك موجه إلى الولي، وثواب الصبي على الصلاة وإن لم يؤمر بها لحكمة هي أن يعتادها، وهو يثاب عليها فضلا من الله ﷻ ونعمة^(١).

وقد ظنَّ بعض الأصوليين أنَّ الصبي مخاطبٌ بالتكليف فعرفَ الحكم بقوله: هو خطاب الله ﷻ المتعلق بأفعال العباد^(٢). ويرد عليه بأنَّه لا داعي لهذا؛ لأنَّ الخطاب ليس موجَّهاً إلى الصبي نفسه، وإنما لوليّه - كما سبق -^(٣).

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ المكلف هو البالغ العاقل الذي بلغته الدَّعوى، وتأهَّلَ للخطاب، فلا يتعلَّق الخطاب بالصبي والمجنون والسَّاهي والنائم. وسيأتي بيان ما يتعلَّق بخطاب المكلف.

-
- (١) انظر: أصول الفقه الإسلامي، للزُّحيلي (٣٩/١)، وانظر: حاشية البناي على شرح جمع الجوامع (٣٩/١)، التقرير والتحجير (٧٨/٢)، التلويح على التوضيح (٢٧/١)، محاضرات في أصول الفقه، لمحمد البنا (ص: ١٩)، غاية الوصول شرح لبِّ الأصول (٥/١).
- (٢) أصول الفقه الإسلامي (٣٩/١)، التقرير والتحجير (٧٨/٢)، روضة الناظر (١٣٧/١).
- (٣) الإحكام، للآمدي (١٣٥/١)، الإيهاج (٤٤/١).
- (٣) المراجع السابقة.

٨ - بيان معنى تعلق الخطاب بفعل المكلف

معناه : ارتباطه به على وجه يبين صفته من كونه مطلوباً أو غير مطلوب ، والمراد بالفعل : ما يعده العرف فعلاً سواء كان من أفعال القلوب كالاعتقادات والنيات ، أم من أفعال الجوارح واللسان كأداء الركاة ، وتكبيره الإحرام ، وجميع التصرفات القولية ، ويدخل فيه الكف كترك الزنى .

وقد احترز بقيد : (المتعلق بأفعال المكلفين) عن المتعلق بذاته الكريمة كقوله ﷻ : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] ، وعن المتعلق بالجمادات كقوله ﷻ : ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧] ، فإنه خطاب من الله ﷻ ، ومع ذلك فهو ليس بحكم ؛ لعدم تعلقه بأفعال المكلفين ، وكذلك يخرج المتعلق بذوات المكلفين [إيجاداً وإعداماً] مثل : ﴿مِنهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥] . والتعلق إمّا معنوي ، وهو الصّلوحى القديم قبل وجود المكلف على معنى أنه إذا وجد مستجمعاً لشروط التكليف كان متعلقاً به ، وإمّا تنجيزي ، وهو بعد وجود المكلف بعد البعثة ؛ إذ لا حكم قبلها ، وهو تعلق حادث^(١) .

وفي (شرح التلويح) : «معنى تعلقه بأفعال المكلفين : تعلقه بفعل من أفعالهم وإلا لم يوجد حكم أصلاً ؛ إذ لا خطاب يتعلق بجميع

(١) انظر : أصول الفقه الإسلامي ، للزحيلي (١ / ٣٩) ، الوجيز في أصول الفقه (ص : ٣٩ - ٤٠) .

الأفعال، فدخل في الحدّ: خواصُّ النَّبِيِّ ﷺ كإباحة ما فوق الأربع من النساء. وخرج: خطابُ الله ﷻ المتعلّق بأحوال ذاته وصفاته وتنزيهاته، وغير ذلك ممّا ليس بفعل المكلف. لا يقال إضافة الخطاب إلى الله ﷻ تدلُّ على أنّه لا حكم إلا خطابه ﷻ، وقد وجب طاعةُ النَّبِيِّ ﷺ، وأولي الأمر، والسّيد، فخطابهم أيضًا: حكم؛ لأنّا نقول: إنّما وجبت طاعتهم بإيجاب الله ﷻ إيّاها فلا حكم إلا حكمه ﷻ.

ثمّ اعترض على هذا التعريف بأنّه غير مانع؛ لأنّه يدخل فيه القصص المبيّنة لأحوال المكلفين وأفعالهم والأخبار المتعلّقة بأعمالهم كقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، مع أنّها ليست أحكامًا، فزيد على التعريف قيد يخصّصه ويخرج ما دخل فيه من غير أفراد المحدود، وهو قولهم: بالاقتضاء أو التّخيير، فإنّ تعلّق الخطاب بالأفعال في القصص والأخبار عن الأعمال ليس تعلّق الاقتضاء أو التّخيير، إذ معنى التّخيير: إباحة الفعل والتّرك للمكلف، ومعنى الاقتضاء: طلبُ الفعل منه مع المنع عن التّرك، وهو الإيجاب أو بدونه، وهو النّدب أو طلب التّرك مع المنع عن الفعل، وهو التّحريم أو بدونه، وهو الكراهة^(١).

وممّا سبق يتبيّن للمخاطب أنّ من ألفاظ الخطاب ما يتعلّق بالمطلوب منه سواء كان فعلًا من أفعال الجوارح أو نيّة أو اعتقادًا على اعتبار ذلك من أفعال القلوب.. وبذلك يتحدّد للمخاطب ما يطلب منه فيكون على بينة وبصيرة من التّعامل مع ألفاظ الخطاب.

(١) شرح التلويح على التّوضيح (١/٢٤).

٩ - التعريف بالأسلوب

أما بيان موقع ذلك من هذا البحث فإنَّ بيانه على النحو التالي :
 إنَّ المخاطب إذا تعرَّف على صفاتِ المخاطب ﷺ، وكيفية وصول
 الخطاب القرآني إلى المخاطبين، وصفات مبلِّغ الخطاب القرآني، وإذا
 علم أنَّه مكلف، وأنَّ الخطاب القرآني يتعلَّق بفعل المكلف وقوله،
 اشتاقت نفسه إلى التعرّف على أسلوب الخطاب القرآني وطريقته،
 وسبر أغواره.

أما التعريف بـ: (الأسلوب) فقد جاء في (تاج العروس) أنَّه «السَّطْرُ
 من التَّخِيل. والطَّرِيقُ يَأْخُذُ فِيهِ، وَكُلُّ طَرِيقٍ مُمْتَدٌّ فَهُوَ أُسْلُوبٌ.
 و(الأسلوبُ): الْوَجْهُ وَالْمَذْهَبُ. يقال: (هُم في أُسْلُوبٍ سَوْءٍ). ويجمع
 على (أَسَالِيبَ). و(قد سَلَكَ أُسْلُوبَهُ): طَرِيقَتَهُ. وكلامُهُ عَلَى أَسَالِيبَ
 حَسَنَةٍ. و(الأسلوبُ) -بِالضَّم-: الْفَنُّ. يقال: (أَخَذَ فُلَانٌ فِي أَسَالِيبَ
 مِنَ الْقَوْلِ) أي: أَفَانِينَ مِنْهُ»^(١). و«(الأسلوبُ) -بِضَمِّ الهمزة-: الطَّرِيقُ
 وَالْفَنُّ، وَهُوَ عَلَى (أُسْلُوبٍ) مِنْ (أَسَالِيبِ) الْقَوْمِ، أي: عَلَى طَرِيقٍ مِنْ طَرِيقِهِمْ.
 (سَلَبَ الشَّيْءَ) مِنْ بَابِ نَصَرَ، و(الاستِلابُ): الاختلاس، و(السَّلَبُ) -بِفَتْحِ
 اللَّامِ-: الْمَسْلُوبُ وَكَذَا (السَّلِيبُ)، و(الأسلوبُ): الْفَنُّ..»^(٢).

(١) تاج العروس، مادة: (سلب) (٣/ ٧١).

(٢) وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف، فصل اللام، (ص: ٤١١)، والمصباح المنير، مادة:

(سلب) (١/ ٢٤٨)، وكذلك في (غتار الصحاح) (ص: ٣٢٦).

وعلى ذلك فإنَّ الأسلوب هو الطَّرِيق المستوي، ومنه أخذ في أساليب من القول، أي: ضروبٌ منه..

ولقد ضمن القرآن لهذه اللُّغة الخلود، وقد ساعدت تلاوة القرآن الكريم على ثبات تلك اللُّغة ولا سيمًا في جانبها الصَّوتي، وهو أكثر جوانب اللُّغة تعرضًا للتَّغيير والانحراف والتَّشويه، فضلًا على أنَّ الأسلوب القرآني ظلَّ المقياس الأمثل لرقِّي أساليب الكُتَّاب والشُّعراء، حتَّى إنَّ مكانة أيِّ كاتبٍ أو شاعر تقاس دائمًا بمقدار ما يقترب من مثاليَّة الأسلوب القرآني، أو يبتعد عنه. فأسلوب القرآن الكريم يجري على نسق واحد بديع ورفيع خارج عن المألوف، وعلى المستوى نفسه من البراعة والبلاغة والإعجاز على الرغم من تنوُّع المعاني والموضوعات، ويصلح لمخاطبة النَّاس كافَّة على اختلاف ثقافتهم وعصورهم. وعلى ذلك فأساليب القرآن فيها: الفنون والتَّنوُّع البديع الَّذي يأتي بأسمى طرق التَّعبير وأبلغها وأدقُّها دلالة...



١٠ - المعنى الاصطلاحي لمفهوم الخطاب في هذه الدراسة

أقول: يتبين مما سبق أن للخطاب مصطلحات مختلفة أذكرها مرتبة من الأعم إلى الأخص، ومن هذه المصطلحات^(١):

الاصطلاح الأول: مصطلح الخطاب بالمعنى الأعم:

وهو كونه قرآنًا منزلاً، كما أنه يشمل بهذا المعنى ما هو أعم من كونه قرآنًا، أو وحياً منزلاً إلى مبلغ الخطاب. والمقصود هنا: خطاب الله ﷻ مطلقاً سواء أكان منسوباً إليه مباشرة كالقرآن، أم بالواسطة كالسنة والإجماع والقياس وغيرها من الأدلة الشرعية - كما سبق -. ولا أتناول في هذا البحث الخطاب من حيث كونه خطاباً منزلاً من قبل الوحي على عموميه وإطلاقه، كذلك لا أتناول الإجماع والقياس والأدلة الشرعية الأخرى؛ ولذلك قيد الخطاب الأعم هنا بكونه قرآنًا، وذلك للاحتراز عن الخطاب بالواسطة. كما قيد أيضاً بكونه مباشراً أو فيه مواجهة للاحتراز عن الخطاب العام الذي يعم ألفاظ القرآن كلها كما سيأتي.

الاصطلاح الثاني: مصطلح الخطاب بالمعنى الأخص:

والمعنى الأخص الذي قد استخدم في الغالب فيما يندرج تحت

(١) إنما عبرت هنا بالجمع؛ لأن الخطاب بالمعنى الأخص له مصطلحات ثلاثة.

مفهوم الخطاب من قِبَل العلماء المتقدمين في علوم القرآن الكريم فيما يخصُّ مبحث الخطاب الَّذِي فيه مواجهة بين المخاطب والمخاطب بصيغة من صيغ الخطاب أعم من أن يكون له تعلق بأفعال المكلفين أو لا يكون له ذلك .

وذلك كقوله ﷺ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، فَإِنَّهُ خطاب بصيغة أمرٍ، وهي من الصَّيغ الَّتِي فيها مواجهةٌ بين المخاطب ﷺ والمخاطب .

وكقول مالك عليه السلام (خازن النار) مخاطبًا أهل النار: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ مَكْنُوتُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]، فَإِنَّهُ خطاب بصيغة مباشرة من صيغ الخطاب بين مخاطبٍ ومخاطبٍ، وليس له تعلقٌ بأفعال المكلفين، كما أَنَّ التَّكْلِيفَ إنما هو في الدُّنْيَا .

وما له تعلقٌ بأفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا هو مصطلح الخطاب عند الأصوليين، وهو أكثر تخصيصًا من الَّذِي قبله، وما له أثرٌ في أفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا هو مصطلح الخطاب عند الفقهاء.

أقول: ما أنزل إلى المخاطبين أعم من أن يكون فيه مواجهة بالكلام بين المخاطب والمخاطبين، وما فيه مواجهةٌ أخص، وكذلك فَإِنَّ تعريف الخطاب عند الأصوليين والفقهاء من المصطلحات الخاصة، وهي ممَّا يندرج تحت معناه الأعم. وقد اعتبر هنا: المعنى الأخصُّ الَّذِي فيه المواجهة؛ لأنَّ الفلك الَّذِي تدور حوله سائر الموضوعات،

والتي لها به صلة فإنني أعرضها لما لها من الارتباط بالمعنى الأخص من وجه، وعلى ذلك يكون التركيز على المعنى الأخص لمفهوم الخطاب؛ لكونه أسس الموضوعات الأخرى...

ولا أغفل ما يخدم محور البحث من الخطاب الأعم، وقد استخدم كلا المفهومين - أعني: مفهوم الخطاب بمعناه الأعم وبمعناه الأخص - كثير من الباحثين في علوم القرآن كالزركشي في (البرهان)، والشيوطي في (الإتقان) - كما سبق -.

وبناء على ذلك فإن ما أطلق على مفهوم الخطاب من العموم ألتزم به من حيث جعله مقدمة وتمهيدا للدخول في المعنى المقصود، أو موصلا إليه، معينا على إدراكه وفهمه من المحاور المحددة. ويكون ما أطلق من عموم المفهوم ليس جاريا على الحقيقة اللغوية، وإنما على (المجاز المرسل) بمرتين:

الأولى: الانتقال من التقييد بمعنى من المعاني، أو بمفهوم من المفاهيم إلى ما يشملها ويعمها بعلاقة التقييد على اعتبار المعنى المنتقل عنه.

الثانية: الانتقال من الإطلاق إلى التقييد بكونه مخصوصا بمعنى من المعاني، وهو مواجهة بالكلام بين المخاطب والمخاطب بعلاقة الإطلاق هذه المرة، وذلك باعتبار المعنى المنتقل عنه - كما أسفلت -.

ومما سبق يتبين وجه الارتباط بين مفهوم الخطاب القرآني العام، ومفهومه الخاص... من حيث قصر العام هنا على بعض أفراد،

فيكون من العامّ الَّذي أريد به الخصوص.. وإن كان ذلك الخصوصُ الَّذي قد اصطلح عليه هنا أعمُّ ممّا قد اصطلح عليه في أصول الفقه، وكذلك هو أعمُّ ممّا قد اصطلح عليه في الفقه - كما سبق -. ولكن ينبغي التّنبه إلى أمرٍ مهمٍّ، وهو أنّني لا أغفل الخطاب القرآني من حيثُ معناه الأعمُّ، بما يخدم محورَ البحث - كما سبق -، وحيثُ يكونُ مندرجًا تحت عنوانها الأخص..



١١ - نتائج البحث التي توصلت إليها من التمهيد

- ١ - تحديد مصطلحات البحث.
- ٢ - بيان أن ما أنزل إلى المخاطبين أعم من أن يكون فيه مواجهة بالكلام بين المخاطب والمخاطبين، وما فيه مواجهة أخص.
- ٣ - التفريق بين الخطاب بمعناه الأخص، والخطاب بمعناه الأعم.
- ٤ - بيان أن الخطاب بالمعنى الأخص هو الذي فيه مواجهة بين المخاطب والمخاطب.
- ٥ - تحديد مصطلح الخطاب العام بأنه الخطاب بالمعنى الأعم أو هو القرآن.
- ٦ - مخاطبة مفاعلة من الخطاب والمشاورة.
- ٧ - أقرب الناس إلى فهم الخطاب من عبّر بخطابه عن حقيقة المراد.
- ٨ - بيان المراد من قوله ﷺ: ﴿وَفَصَلَ الْخُطَابَ﴾ [ص: ٢٠].
- ٩ - إن من ألوان الخطاب ما هو منهجي عنه، وتوضيح السبب لهذا النهي..
- ١٠ - تحديد مصطلح الخطاب في أصول الفقه وفي الفقه، وبيان أنه من المصطلحات الخاصة التي تندرج تحت مفهوم الخطاب القرآني العام. وتبين أن اللغة الكلام بين متكلم وسامع، وفي

(اصطلاح الفقهاء) هو: الكلام المقصود منه إفهام من هو متهمٌ للفهم، والخطاب أخصُّ من الكلام.

١١ - بيان السَّبب في تحديد هذا المصطلح -الخطاب في أصول الفقه وفي الفقه- لما له من الصُّلة بالمكَلَّف.

١٢ - بيان أنَّ السَّبب في تحديد هذا المصطلح -الخطاب في أصول الفقه وفي الفقه- أنَّه لون من ألوان الخطاب، والنَّظر إليه من هذا الجانب.

١٣ - بيان أنَّ ذلك التَّحديد لهذه المصطلحات إنَّما هو بغرض تميُّز بعضها عن البعض الآخر، وأنَّ العناية إنَّما تنصبُّ على ما كان منها خاصًّا بمحور الموضوع.

١٤ - بيان الحاجة إلى المخاطب ﷺ، وأن معرفة صفاته الحلقة الأولى من حلقات البحث.

١٥ - بيان الوساطة بين المخاطب ومبلِّغ الخطاب.. الحلقة الثَّانية..

١٦ - التَّعريف بالنُّزول الحلقة الثَّالثة.

١٧ - الحاجة إلى المبلِّغ، وأن معرفة صفاته الحلقة الرَّابعة من حلقات البحث.

١٨ - التَّعرف على أساليب الخطاب القرآني، وبيان أهميَّة ذلك.. (محور البحث).

الفصل الأول
تنوع وجوه
المخاطبات في القرآن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١. المنهجية في تقسيم وجوه المخاطبات

أما وجوه المخاطبات فإنَّ الخطاب في القرآن يأتي على أوجه كثيرة جدًا أذكرها مرتبة ترتيبيًا منهجيًا مع ذكر نماذج تطبيقية لكل وجه، وقد جعلت عنوانًا لكل مطلب يندرج تحته أوجه متنوعة من الخطاب، وذلك ليسهل الرجوع إليها حيث جاء الكثير منها متناثرًا في كتب التفسير وعلوم القرآن، كما أنني أذكر المناسبة بين المطالب من حيث المعنى، والترتيب لفقرات المطالب، وبيان أنه لا يأتي جزأًا مع وضوح ما يجمعها من تنوع الأساليب، ولا شك أنَّ هذا الشروع هو العنوان العام لهذا الفصل.

وقد قُسمتها على النحو الآتي:

المبحث الأول: توجيه الخطاب في القرآن الكريم:

وهو الأولى بالتصدير في هذا المقام، وذلك أنَّ التوجيه هو أول ما ينبغي أن يتأمله المخاطب من حيث صومه.

المبحث الثاني: تنوع أساليب الخطاب من حيث النزول:

وقد جاء هذا المبحث عقب توجيه الخطاب؛ لأنَّ النزول هو من حلقات البحث الأولى في الموضوع، وذلك بعد أن تعرّف المخاطب

المكلف على صفات المخاطب ﷺ، ومدى حاجة المخاطب إليه، والطريق الموصول إلى رضوانه، وبعد أن عرف أسلوب توجيه الخطاب من المخاطب ﷺ إلى المخاطب كانت الإشارة إلى تنوع أساليب الخطاب من حيث النزول من المباحث التي تستحق أن تأتي عقب توجيه الخطاب.

المبحث الثالث: العام والخاص:

وينظر إليه هنا من جانبين:

أما الجانب الأول: فقد أردفت ما يتعلق بتوجيه الخطاب، وتنوعه من حيث صلة ذلك التنوع بالنزول ما يتعلق بتنوعه من حيث العموم والخصوص، ولا أتناول في هذا المطلب إلا ما له صلة بتنوع أوجه الخطاب من هذه الحيثية.

وقد أتى ذكره بعد توجيه الخطاب؛ لما ذكرت من وجه تصدير الخطاب؛ ولكونه أشمل أوصاف الخطاب، وأكثرها تنوعاً، وناسب ذكر الجمع والإفراد والتثنية بعده.

أما الجانب الثاني فينظر إليه من حيث ما فيه من العدول إلى غير الظاهر من الجمع والإفراد والتثنية. أو (التجوز في الإفراد والتثنية والجمع).

وقد جعلته بعد الجانب الأول؛ لأن فيه من المخصصات ما يجعله أقل شمولاً من سابقه، وله من الصلة مع سابقه ما لا يخفى من تعلقه بتنوع الخطاب القرآني من حيث عمومته وخصوصه.

المبحث الرابع: العدول إلى غير الظاهر أو (التجوز في الأفراد والتشبيه والجمع):
وهو ما له صلة بالمخاطب، والعدول فيه هو لون من ألوان الخطاب لا ينفك عن كونه موجَّهاً إلى المخاطب، والنَّظر إليه من هذا الجانب المجرَّد إلا عن صفة العدول، وبيان أنَّ هذه الصِّفة فيها من التَّنوع ما يدلُّ على بلاغة الخطاب، وقد أتى بعد تلك المذكرات لكون الصِّفة المذكورة لها صلة بتوجيه الخطاب، وفيه تخصيص بالصِّفة المذكورة، وإن كان فيها من التَّنوع ما تتعدَّد ألوانه، ففيها أيضاً تجرُّد عن غير تلك الصِّفة..

المبحث الخامس: ما يتعلَّق بحالِ الإنسان ومشاعره وأحاسيسه:
وإذا عرف المخاطب ما يتعلَّق بتنوع الخطاب من الحيثيات المذكورة اشتاقت نفسه إلى التَّعرف على ما يتعلَّق منه بحالِ الإنسان ومشاعره وأحاسيسه، والحكم على أفعاله، وأنَّ من أوجه التَّنوع ما له أثرٌ قبول الخطاب أو العمل بمقتضاه، كالتَّهيج والإغصاب والتَّشجيع.. إلخ.

وكذلك (خطاب الاعتبار)، وهو ممَّا له تأثيرٌ في نفس المخاطب حيث يجعله أقرب إلى تأمُّل الخطاب، والعمل بمقتضاه.

المبحث السادس: خطاب المدح والذَّم:

وهو ممَّا له صلة بالحكم، وأثرٌ في القبول، وهو أخصُّ من سابقه، وخطاب المدح والذَّم وإن كان له من الصِّلة بمشاعر الإنسان ما لا يخفى، ولكن المدح والذَّم كما يتعلَّق بمدح المخاطب، يكون أيضاً في

الأمر المعقولة كما في قوله ﷺ: ﴿نَعَمْ أَثَوَابُ﴾ [الكهف: ٣١]،
فبينهما عموم وخصوص.

المبحث السابع: ما يتعلق ببيان عجز المخاطب عن الإتيان بمثل ما
خوِّط به، ودحض تكذبه:

وهو المبحث الذي يعزُّز ثقة المخاطب بالخطاب، حيث إنَّه من
المباحث المتعلقة بالإعجاز؛ لما فيه من التحدي، وتعجيز المخاطبين
عن الإتيان بمثل ألفاظ الخطاب. وذلك بعد أن تعرَّف المخاطب على
جملة مترابطة من ألوان الخطاب التي تدلُّ على عظمة المخاطب ﷺ،
فلا بدَّ من بيان أنَّ من صيغ الخطاب المباشرة والصَّريحة ما هو من
صيغ التحدي والتعجيز..

ثمَّ ما كان الغرض منه تكذيب المخاطب المعاند، فلأجل إقامة
الحجَّة عليه، وبيان عجزه. وبيان أنَّ تكذبه للخطاب لم يكن بسبب
الشكِّ في صدق مبلغ الخطاب ﷺ، وإنَّما لاعتباراتٍ أخرى.. وذلك
مع إقرار المخاطب بالعجز عن الإتيان بمثل ألفاظ الخطاب، وخاتمة
مناسبة في بيان عاقبة المكذِّبين.

المبحث الثامن: خطاب التَّكليف:

وقد جاء متأخراً عن سابقه؛ لأنَّ فيه من المقاصد والنتائج والأثر ما
يجعله حريّاً بأن يكون متأخراً؛ ولأنَّ التَّكليف فرع الاعتقاد..

المبحث التاسع: خطاب المَعدوم:

وإذا كانت المباحثُ السَّابقةُ ينظرُ إليها من حيثُ كون الخطاب فيها

موجَّهاً لغير المعدوم، فما شأن (خطاب المعدوم)؟ وما المقصود من (المعدوم) هنا؟

المبحثُ العاشر: خطابُ الجمادات:

وإذا عرفَ المخاطب أنَّ للمعدوم خطاباً، اشتاقت نفسه إلى التَّعرف على شأن الجمادات، هل يتناولها الخطاب؟ وما أوجه التَّنوع في خطاب الجمادات؟

وبيان ذلك على النحو التَّالي:

ب. قوسنة في بيان أنواع الخطاب

وينبغي أن يلاحظ أن من الباحثين من حَصَرَ أنواعَ الخطاب القرآني في (خمسَ عشر) وجهاً كابن الجوزي في (المنهاش)^(١)، حيث ذكر أن الخطاب في القرآن الكريم على (خمسَ عشر وجهاً)، وكان الأولى به أن لا يذكر ما يدل على حصرها بهذا العدد؛ لأن من الباحثين في علوم القرآن من ذكر من أنواع الخطاب القرآني أكثر من العدد المذكور بكثير، كالزركشي في (البرهان)، والسيوطي في (الإتقان) من المتقنمين.. قال السيوطي: قال ابن الجوزي^(٢): «الخطاب في القرآن على (خمسَ عشر وجهاً)، وقال غيره على أكثر من (ثلاثين وجهاً)»^(٣). وأوصلها ابن النقيب^(٤) في (مقدمة تفسيره) إلى (مائة وخمسَ عشر

(١) المنهاش، لابن الجوزي (١٥/١-١٦).

(٢) يقصد ما سبق ذكره من كلام ابن الجوزي في (المنهاش) (١٥/١-١٦).

(٣) الإتقان (٨٨/٢) لما يعدد.. البرهان في علوم القرآن (٢/٢١٧) لما يعدد..

(٤) هو محمد بن سليمان بن الحسن البخاري، المقدسي، أبو عبد الله، جمال الدين ابن النقيب، مشهور من فقهاء الحنفية. أصله من (بلخ)، ومولده في (القدس). انتقل إلى (القاهرة) وأقرأ في بعض مدارسها. وعاد إلى (القدس)، فتوفي بها. له (تفسير) كبير حافل، سماه (التحرير والتحرير لأقوال أئمة التفسير). [انظر: كشف الظنون (١/٣٥٨)]. ذكره الشيرازي، وقال: ما طالعت أوسع منه. [٦٩٨هـ]. انظر: الأعلام (٦/١٥٠)، طبقات المفسرين، للأندلسي (ص: ٢٥٨-٢٥٩)، طبقات المفسرين، للسيوطي (ص: ١٠٧)، الجواهر المضية (٢/٢١٠)، فوات الوفيات، للكتبي (٣/٣٨٢). وقد طبعت (مقدمة تفسير ابن النقيب) في مكتبة الخانجي، =

قسمًا)، وإذا حرّرت بتفاصيلها جاوزت (المائة وعشرين نوعًا)، بل وأكثر من ذلك.. وسيأتي ذكر ما له من ذلك صلة بموضوع البحث مفصّلًا، وأذكر كثيرًا ممّا لم يذكر... مع التفسير والترتيب والتّحقيق. ولا بدّ من الإشارة أوّلاً إلى الأنواع التي ذكرها ابنُ الجوزي، وذلك لأمرين:

الأوّل: ليعلم ما قد استدرك عليه.

الثاني: لأنّها تعطي فكرة موجزة عن هذه الأنواع.

قال: «الباب الأوّل في علوم القرآن، فصل في ذكر الخطاب بالقرآن، الخطاب في القرآن على (خمسة عشر وجهًا):

- ١ - خطابٌ عام: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].
- ٢ - وخطابٌ خاص: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].
- ٣ - وخطابٌ الجنس: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١].
- ٤ - وخطابٌ النوع: ﴿يَبْنِيْ عَادَ﴾ [الأعراف: ٢٦].
- ٥ - وخطابٌ العين: ﴿يَنَادِمُ﴾ [البقرة: ٣٣].
- ٦ - وخطابٌ المدح: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤].
- ٧ - وخطابٌ الذّم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التحریم: ٧].
- ٨ - وخطابٌ الكرامة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤].

= (القاهرة)، سنة [١٤١٥هـ]، تحقيق: د. زكريّا سعيد علي. انظر: مقدّمة المحقّق في دراسة حول الكتاب ومؤلفه من (ص: ٥) فما بعد.. انظر: المراجع .

٩ - وخطابُ التَّوَدُّدِ: ﴿قَالَ ابْنَ أُمِّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

١٠ - وخطابُ الجمع بلفظ الواحد: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ﴾ [الانفطار: ٦].

١١ - وخطابُ الواحد بلفظ الجمع: ﴿وَلِنْ عَاقِبَتَهُ﴾ [النحل: ١٢٦].

١٢ - وخطابُ الواحد بلفظ الاثنين: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤].

١٣ - وخطابُ الاثنين بلفظ الواحد: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْوِسِي﴾ [طه: ٤٩].

١٤ - وخطابُ العين والمراد به الغير: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤].

١٥ - وخطابُ التلويين، وهو ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يخاطب ثم يخبر:

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٢]، ﴿وَمَا ءَانَيْتُمْ مِّنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، ﴿وَكُرْهُ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والثاني: أن يخبر ثم يخاطب:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ...
وَسَقَمَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٦٦﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُم جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢١-٢٢].

والثالث: أن يخاطب عينا ثم يصرف الخطاب إلى الغير:

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٨) ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ [الفتح: ٨-٩].

وهذا على قراءة ابن كثير، وأبي عمرو فإنهما قرءا بالياء^{(١)(٢)}.

وسياأتي الحديث عن (الالتفات) في موضعه.

أمّا بيان ما سبق إجماله فيبانه وتفصيله على النحو الآتي:

(١) تفسير ابن عادل (٤٨٦/١٧)، زاد المسير (٣٨٤/٥)، التيسير في القراءات السبع (ص: ١٢٩)، كتاب السبعة في القراءات (ص: ٦٠٣)، تحبير التيسير (ص: ٥٦٠)، حجة القراءات (ص: ٦٧١).

(٢) المدهش، لابن الجوزي (١٦-١٥/١).

المبحث الأول

توجيه الخطاب في القرآن الكريم

● توطئة:

إنَّ أهميَّة توجيه الخطاب في القرآن الكريم يفيد الباحث معرفة ما فيه من التَّنوع، وفائدة هذا التَّنوع، وأنَّ الأسلوب في توجيه الخطاب القرآني لا يجري على نسقٍ واحد، بل يتنوع لحكمٍ ومقاصد، فمن ذلك:

أولاً: يتنوع بما يتلاءم مع مقتضى المعنى.

ثانياً: يتنوع بما يتلاءم مع طبيعة المخاطبين.

ثالثاً: إنَّ في هذا التَّنوع ما يدلُّ على مكانة المخاطب-بكسر الطاء المهملة-.

رابعاً: إن في هذا التَّنوع ما يدلُّ على مكانة المخاطب-بفتح الطاء المهملة-.

ولا يخفى أثر التَّنوع بالنسبة للمخاطب الذي يتدبَّر الخطاب القرآني ويتأمله، حيث يدرك طبيعة الخطاب القرآني وأهميَّة تنوعه. فإنَّ مطلق الخطاب لا يخلو: إمَّا أن يكون بين الخالق والمخلوق، وقد يكون المخاطب هو الله ﷻ، وقد يكون المخاطب -بكسر الطاء المهملة- هو المخلوق، وقد يكون من المخلوق إلى المخلوق. فإذا كان المخاطب هو الله ﷻ، فإنَّه يدلُّ على الرُّفعة والعظمة، وعلى البون

الشَّاسِعَ بينه وبين المخاطَب من حيث الصُّفَات - كما سبق في مقدِّمة البحث - وإذا كان من المخلوق إلى الخالق ﷻ كيف ينبغي أن يكون؟ وإذا كان من المخلوق إلى المخلوق كيف ينبغي أن يكون؟ وكفى بالخطابِ القرآني منهجًا يتعلَّم منه المخاطَب أدبَ الخطاب مع الخالق ﷻ، وطريقة مخاطبة المخلوق للمخلوق بما يتلاءم مع مكانة المخاطَب. ومن ذلك على سبيل المثال: (الأدب في مخاطبة الله ﷻ) حيث يصفه بما يليقُ به من صفاتِ العظمة، ويصف المخاطَب حاله من الضَّعف والانكسار بما يتلاءم مع حاجته إلى المخاطَب، وبما يتلاءم مع ما مَنَّ المخاطَب عليه وأسبغ من النِّعم، حيث يكون الطَّلَب من المخاطَب (المخلوق) إلى المخاطَب (الخالق) مقرونًا بالشُّكر والرُّضا. وإذا كان من المخاطَب كان محفِّزًا للمخاطَب على الامتثال. وهذا الأدب في الخطاب يستفاد من آيات كثيرة جدًا في القرآن الكريم، منها على سبيل المثال: أدب الأنبياء - عليهم الصَّلَاة والسَّلام - في مخاطبة الله ﷻ، يقول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، فهكذا ينبغي أن يكون حال المخاطَبين مع الله ﷻ.. سمعٌ وطاعةٌ وأدبٌ في الخطاب، ووصفٌ لله ﷻ بما يليقُ به من صفات الكمال. ويقول الله ﷻ معلِّمًا المخاطَبين كيفية توجيه الخطاب: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٦]، ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا

عَلَى الْفُورِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿١٤٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٤٩﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٥٠﴾ رَبَّنَا وَءَاثِمْنَا مَا وَعَدْنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿١٥١﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤].

ومع أنَّ الله ﷻ عالمٌ بحال إبراهيم عليه السلام إلا أنَّ إبراهيم عليه السلام أراد أن يظهر حاجته إلى رحمة الله ﷻ ورعايته وحمايته، فوصفه بما يليق به من الصفات، وحمد الله ﷻ على نعمه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ [إبراهيم: ٣٧-٣٩]، وسأل الله ﷻ أن يكون ممَّن يقيم الصلاة.. ويؤدِّي ما أوجبه الله ﷻ عليه، حتَّى يتجاوز الله ﷻ عنه يوم يقوم الحساب، ويكرمه ويكرم والديه والمؤمنين برحمته، وهو من الرُّسل أولي العزم والمقرَّبين، فكيف بحال المخاطبين ممَّن هم دونه في المكانة والمنزلة؟ كيف ينبغي أن يكون توجيه الخطاب منهم إلى المخاطب ﷻ. يقول الله ﷻ على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ

لِي وَلَوْلَدَيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٤١﴾ [إبراهيم: ٤٠-٤١].
 في مخاطبة الرسول ﷺ يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا
 أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن
 تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ
 أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقَاةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾
 [الحجرات: ٢-٣]، ومن ثم يبين كيفية التعامل مع الرسول ﷺ،
 -وعلى سبيل المثال- يقول الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى
 يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ
 وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، ويقول: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ
 آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾
 [النور: ٦٢]، ولا شك أن ذلك يترك أثراً واضحاً في كيفية التعامل مع
 المخاطب.

وبادئ ذي بدء لا بد من بيان منهجي في عرض (صيغ الخطاب
 القرآني المتعلقة بتوجيه الخطاب):

فتجدر الإشارة هنا إلى أن ما كان من هذه الصيغ يحتاج إلى
 استقصاء فإني ألتم ذلك، وذلك كالصيغ المباشرة، وإذا كانت الأمثلة
 كثيرة فإني أذكر (اسم السورة)، و(رقم الآية)، وذلك بغرض الاختصار
 ما أمكن، وفي الوقت نفسه لإعطاء هذه الصيغ حقها من العرض
 والتحليل، وفي مواضع مختلفة، فإذا كان في هذه الصيغ ما يقتضي
 التفصيل في عرض ما يمكن أن يندرج تحت صيغة من صيغ التنوع،

فإنِّي أعرضُ ذلك مفصَّلاً ، وإذا كان الأمر يقتضي اختصاراً اختصرت مع ذكر الأمثلة. وضبط ذلك يرجع إلى ما يلي:
أ. إذا كان في استقصاء التَّمثيل ما يخدم الموضوع من حيث كونه دراسة شاملة للخطاب فإنِّي أهتمُّ بذلك العرض الَّذي يثري الموضوع ويزيده إحكاماً وشموليَّة.

ب. أمَّا الاختصار فإنَّه يأتي لأغراض منها:

- ١ - عدم الوقوع في التَّكرار...
- ٢ - أن يكون قد سبق ذكره في موضع آخر مفصَّلاً ، وقد جاء ذكره من حيثيَّة أخرى ، فإنِّي أهتمُّ بالتَّفصيل في الموضوع الَّذي يحتاج إلى التَّفصيل أكثر من غيره ، وأكتفي بالتَّمثيل في الموضوع الآخر... ، وبذلك يتحقَّق القصد.. وأعرضُ أوَّل ما أعرض من هذه الصِّيغ:

● أوَّلاً: ما كان خطاباً من الله ﷻ بصيغة المتكلِّم:

وذلك باستخدام الضمائر المباشرة، وتأتي على النحو التَّالي:

أ. (نحن): وهي على التَّرتيب من المخاطب ﷻ:

- [الإسراء: ٥٨] ، [الكهف: ١٣] ، [مريم: ٤٠] ، [طه: ١٠٤] ،
[طه: ١٣٢] ، [المؤمنون: ٩٦] ، [القصص: ٥٨] ، [يس: ١٢] ،
[فصلت: ٣١] ، [الزُّخرف: ٣٢] ، [ق: ٤٣، ٤٥] ، [الواقعة: ٥٧، ٥٩] ،
٦٠، ٦٤، ٦٩، ٧٢، ٧٣] ، [المعارج: ٤١] ، [الإنسان: ٢٣، ٢٨].

ب. خطاب من الله ﷻ بصيغة المتكلِّم (إنِّي):

وهي من صيغ الخطاب القرآني المباشر... ، وقد جاءت على

التَّرتيب التَّالِي :

١ - إلى الملائكة :

[البقرة: ٣٠ - ٣٣] ، [الحجر: ٢٨] ، [ص: ٧١] .

٢ - إلى إبراهيم عليه السلام :

[البقرة: ١٢٤] .

٣ - إلى عيسى عليه السلام :

[آل عمران: ٥٥] .

٤ - إلى بني إسرائيل :

[المائدة: ١٢] .

٥ - إلى الحواريين :

[المائدة: ١١٥] .

٦ - إلى موسى عليه السلام :

[الأعراف: ١٤٤] ، [طه: ١٢] ، [النمل: ١٠] ، [القصص: ٣٠] .

٧ - إلى الرُّسل - عليهم الصلاة والسَّلام - :

[المؤمنون: ٥١] .

٨ - إلى المؤمنين :

[المؤمنون: ١١١] .

٩ - إلى آل داود عليه السلام :

[سبأ: ١١] .

ج. خطاب من الله ﷻ بصيغة المتكلم (أني):

وهي من صيغ الخطاب القرآني المباشر..

١ - إلى المؤمنين:

[آل عمران: ١٩٥]، [الأنفال: ٩]، [الحجر: ٤٩]، [الأنفال: ٩].

٢ - إلى الملائكة:

[الأنفال: ١٢].

د. خطاب من الله ﷻ بصيغة (أنا) - بتشديد الثون -:

وهي من صيغ الخطاب غير المباشرة، وقد جاءت على النحو

التالي: [النساء: ٦٦]، [الرعد: ٤١]، [مريم: ٦٧، ٨٣]، [طه: ١٣٤]، [الأنبياء: ٤٤]، [النمل: ٥١، ٨٦]، [العنكبوت: ٥١]،

[٦٧]، [السجدة: ٢٧]، [يس: ٤١، ٧١، ٧٧]، [الزخرف: ٨٠]،

[عبس: ٥٢].

هـ. خطاب من الله ﷻ بصيغة (أنا) - بالتخفيف -:

[الحجر: ٤٩]، [التحل: ٢]، [طه: ١٢، ١٤]، [الأنبياء: ٢٥]،

[النمل: ٩]، [القصص: ٣٠]، [ق: ٢٩]، [المجادلة: ٢١].

و. خطاب من الله ﷻ بصيغة (إنّا) أو الضمائر غير المباشرة، كضمير

(الألف اللينة في موضع الفاعل):

كما في الآيات التالية: [البقرة: ١١٩]، [النساء: ١٠٥، ١٦٣]،

[المائدة: ٤٤]، [الأعراف: ٢٧]، [يوسف: ٢]، [الحجر: ٩، ٩٥]،

[الكهف: ٧، ٢٩، ٣٠، ٥٧، ٨٤، ١٠٢]، [مريم: ٧، ٤٠]،

[الأنبياء: ١٠٤]، [القصص: ٧]، [العنكبوت: ٣٤]، [السجدة: ١٤]،
 [٢٢]، [الأحزاب: ٤٥، ٥٠، ٧٢]، [فاطر: ٢٤]، [يس: ٨، ١٢، ٧٦]،
 [الصافات: ٦، ١١، ٣٢، ٣٤، ٦٣، ٨٠، ١٠٥، ١٢١، ١٣١]، [ص: ١٨،
 ٢٦، ٤٤، ٤٦]، [الزمر: ٢، ٤١]، [الزخرف: ٣]، [الدخان: ٣، ٥]،
 [١٥، ١٦]، [الجاثية: ٢٩]، [الأحقاف: ٣٠]، [الفتح: ١، ٨]،
 [الحجرات: ١٣]، [ق: ٤٣]، [القمر: ١٩، ٢٧، ٣١، ٣٤، ٤٩]،
 [الواقعة: ٣٥]، [القلم: ١٧]، [الحاقة: ١١]، [المعارج: ٣٩، ٤٠]،
 [نوح: ١]، [المزمل: ٥، ١٥]، [الإنسان: ٢، ٣، ٤، ٢٣]، [المرسلات: ٤٤]،
 [التبأ: ٤٠]، [القدر: ١]، [الكوثر: ١].

ز. ضمير الياء للمتكلم ﴿فَإِنِّي﴾ :

كما في قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

● ثانيًا: خطاب عن الله ﷻ بصيغة الغيبة:

كما في نحو قوله ﷻ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]^(١).

(١) انظر مثلاً: الآيات التالية: [البقرة: ٢٩]، [آل عمران: ٦ و ٧]، [الأنعام: ٢]، [الأعراف: ١٨٩]، [الأنفال: ٦٢]، [التوبة: ٣٣]، [يونس: ٥ و ٢٢ و ٦٧]، [الرعد: ١٢]، [التحل: ١٠]، [الأحزاب: ٤٣]، [فاطر: ٣٩]، [غافر: ١٣ و ٦٧ و ٦٨]، [الفتح: ٤ و ٢٨]، [الحديد: ٤]، [الحشر: ٢]، [الصّف: ٩]، [الجمعة: ٢]، [التغابن: ٢]، [الملك: ١٥ و ٢٣]، وانظر أيضًا الآيات التالية: [الأنعام: ٦٠ و ٧٢ و ٧٣ و ٩٧ و ٩٨ و ٩٩ و ١١٤ و ١٤١ و ١٦٥]، [الأعراف: ٥٧]، [هود: ٧]، =

● ثالثاً: خطاب موجه من الله ﷻ إلى النبي ﷺ بلفظ مباشر:
وفي البداية ينبغي التنبيه إلى أن (صيغ مخاطبة الرسول ﷺ)، وما له صلة بذلك قد سبق بيانه، ولكنني أذكر هنا ما يتعلق بتوجيه الخطاب القرآني، وعدم إغفال جانب من جوانبه، كما ينبغي التنبيه إلى أن (صيغ نداء الرسول ﷺ) أيضاً ستأتي في (النداء)، وقد تأخر؛ لأن الخطاب أعم من النداء، والنداء أخص منه، وهو لون من ألوانه، وقد عرضتُ هنا ما يتعلق بالخطاب الموجه من الله ﷻ إلى النبي ﷺ بلفظ مباشر، وذلك مما يندرج تحت عموم (توجيه الخطاب في القرآن الكريم):

١ - النداء: (يَا أَيُّهَا) كما في نحو قوله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:

٦٤]. - وسيأتي بيان ذلك مفصلاً في (النداء).

٢ - لفظ: (قُل):

قد سبق بيان ذلك في صيغ خطاب مبلغ الخطاب (الرسول ﷺ).

٣ - ضمير المخاطب (الهاء):

كما في نحو قوله ﷻ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾

[الأنفال: ١٧]. - وقد سبق في (صيغ خطاب المبلغ).

= [الرعد: ٣]، [الحل: ١٤]، [الأنبياء: ٣٣]، [الحج: ٦٦]، [المؤمنون: ٧٨، ٧٩، و٨٠]، [الفرقان: ٤٧، ٤٨، ٥٣، و٥٤، و٦٢]، [الزّوم: ٢٧]، [الشورى: ٢٥، و٢٨]، [الزّخرف: ٨٤]، [الفتح: ٢٤].

٤ - الكاف :

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ٣]. - وقد سبق في (صيغ خطاب المبلَّغ) -.

● رابعا: خطابٌ موجَّهٌ إلى جماعاتٍ بعينها :

كالْمُؤْمِنِينَ أو أهل الكتاب، أو بني إسرائيل، أو النَّاسَ جميعًا، أو الْإِنْسَ وَالْجِنَّ - - وسيأتي في (النِّداء) مفصَّلًا -.

● خامسا: الخطابُ من الرُّسل - عليهم الصَّلَاةُ والسَّلَامُ - :

وهو كثيرٌ جدًّا ومتنوعٌ - وسيأتي في (النِّداء) ما جاء منه بصيغة النِّداء - . وأذكر هنا المحاور العامَّة التي لها صلة بالتنوع من حيث توجيه الخطاب القرآني، فمنه الموجَّه إلى الله ﷻ، ومنه الموجَّه إلى أقوامهم، ومنه الموجَّه إلى غيرهم.

فمن الخطاب الموجَّه منهم إلى الله ﷻ ما جاء على نحو: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّرَائِعِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]. ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ ءَامِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقَرْعَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠].

ومن الموجَّه إلى أقوامهم فهو كثيرٌ جدًّا على نحو: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة: ٥٤].

ومنه الموجّه من موسى عليه السلام لهارون عليه السلام نحو: ﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ﴿٩٢﴾ طه: ٩٢.

● سادسا: الخطاب من غير الرّسل:

والإضافة إلى ما سبق من تنوع أساليب توجيه الخطاب القرآني، فإنّ هناك أوجهاً أخرى أذكرها هنا استكمالاً لجوانب البحث:

ومن ذلك التّخاطب بين (أهل الجنّة) و(أهل النّار): ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤].

ونداء (أهل الأعراف) أهل الجنّة: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦].

وندائهم (أهل النّار): ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨].

ونداء (أصحاب النّار) (أصحاب الجنّة): ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠].

ومنه (نداء مالك عليه السلام) -خازن النّار-، وقد جاء بصيغة النّداء. -وسياتي في (النّداء)- إلى غير ذلك.

● سابعا: خطاب من اختلف في نبوّته:

ومن خطاب من قيل: إنّّه كان نبياً، والأكثر على خلافه: (لقمان) - عليه السّلام-^(١). وأذكره هنا لأنّ أكثره جاء بغير صيغة النّداء، وما

(١) انظر: تفسير الطّبري (٢١ / ٦٧-٦٨)، تفسير ابن كثير (٣ / ٤٤٤-٤٤٦)، الدر المنثور =

جاء منه بصيغة النداء أذكره في (النداء). قال الله ﷻ: ﴿وَلَا قَالَ لُقْمَنَّ
لَابَنِيَّ وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنَىٰ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) وَوَصَّيْنَا
الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي
وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ (١٤) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثَمَرٍ إِلَىٰ
مَرْجِعِكُمْ فَأَتَيْنُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥) يَبْنَىٰ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ
خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) يَبْنَىٰ أَقْبِرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْدِرْ
عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ (١٧) وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي
الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨) وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ
مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (١٩) [لقمان: ١٣-١٩] (١).

أمَّا خطاب من اختلف في نبوتها (مريم) - عليها السلام - فقد سبق
تحقيق هذه المسألة في (الوحي) -.

= (٥١٦/٦)، بحر العلوم (٣/٣٧٠)، الإتيان (٢/٣٧٣).

(١) وما ينبغي التنبيه إليه من خلال سرد هذه الآيات أن قوله ﷻ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾
إلى قوله ﷻ: ﴿فَأَتَيْنُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هاتان الآيتان اعتراض بين أثناء وصية لقمان
عليه السلام. وقيل: إن هذا مما أوصى به لقمان عليه السلام ابنه أخبر الله ﷻ به عنه.
القرطبي (٦٣/١٤). والأكثر على خلافه، وأنه مما قد اعترض به على نهج الاستطراد في أثناء
وصية لقمان تأكيد لما فيها من النهي عن الشرك؛ ولأنه لما وصى بالوالدين ذكر ما تكابده الأم
وتعانيه من المشاق في حمله وفصاله هذه المدة الطويلة تذكيراً بحقوقها العظيم مغرداً. انظر: الكشف
(٣/٢٣٢)، تفسير أبي السعود (٧/٧١)، فتح القدير (٤/٢٣٨)، التفسير (٣/٤٠٧).

أما خطابها بصيغة النداء فسيأتي في (النداء).

ثامنا: خطاب غيرهم من البشر:

وسيأتي في (نداء الأعلام وغيرهم) في (النداء).

تاسعا: خطاب غيرهم من المخلوقات:

وسيأتي أيضًا في (النداء).

عاشرا: النتائج:

١ - بيان أهمية توجيه الخطاب..

٢ - بيان التنوع في توجيه الخطاب، والفائدة من ذلك..

٣ - بيان الفرق بين كون الخطاب بين الخالق ﷻ والمخلوق، وبين

المخلوق والمخلوق.

٤ - الإشارة إلى أدبيات توجيه الخطاب..

٥ - الإشارة إلى صيغ توجيه الخطاب في القرآن الكريم.

هذا ما يتعلق بتوجيه الخطاب في القرآن الكريم مجملًا، وسيأتي

مفصّلًا ضمن فصول ومباحث، وانتقل بعد ذلك إلى (تنوع وجوه

المخاطبات في القرآن الكريم) الأخرى..

المبحث الثاني

تنوع أساليب الخطاب من حيث النزول

● ويتضمن:

- ١- أهمية العلم بالخطاب المكي والخطاب المدني.
- ٢- الاصطلاحات في معنى المكي والمدني.
- ٣- بيان ما يميز به كل من الخطاب المكي عن المدني من حيث الأسلوب والموضوع.
- ٤- ما يستفاد من كل من الخطاب المكي، والخطاب المدني.
- ٥- ضوابط ومميزات الخطاب القرآني المكي.
- ٦- ضوابط ومميزات الخطاب القرآني المدني.
- ٧- نتائج البحث.



● توطئة لبيان صلة هذا المبحث بموضوع البحث

لا بدَّ في البداية من بيان ما أُعنى هنا به من تنوع أساليب الخطاب، وارتباط ذلك بالتنوع بنزول الخطاب، فإن ما أُعنى ببيانه هنا: هو أساليب الخطاب المكي، وأساليب الخطاب المدني. أمَّا ما له صلة بالنزول ولا يعرف له تنوع في أساليب الخطاب يعرف به فإنه لا صلة له بموضوع البحث.

ولا بدَّ ثانيًا من بيان ما أُعنى ببيانه من الخطاب المكي، والخطاب المدني.

ولذلك فإني أقول: إنَّ ما أُعنى ببيانه من الخطاب المكي والخطاب المدني هو ما له صلة بمحور البحث، وفي ذلك ما فيه من تنوع الخطاب القرآني من حيث ما يلاحظ الزَّمان فيه مع بقاءه على المستوى نفسه من البراعة والبلاغة والإعجاز، وذلك على أرجح الأقوال كما سيأتي.

وقد يقال: ما يلاحظ فيه المكان أو المخاطب - على ما سيأتي بيانه من تحديد مصطلح الخطاب المكي والمدني -.

وإنما يستفاد ذلك من التعريف بالخطاب المكي، والخطاب المدني، وأيضًا ما له صلة بمحور البحث: التعرف على صيغ الخطاب المكي، وصيغ الخطاب المدني من حيث تنوعها، وبيان المقاصد من التنوع، وبيان فائدة العلم بذلك .

ولا أقصد من في هذا المبحث أن أستقصي بالتفصيل والتدليل آيات

القرآن الكريم وسوره، وأن أحقق ما كان منها مكياً وما كان مدنياً فتلك محاولة كبيرة جدية أن تفرد بالتأليف. ولكن حسبي هنا أن أتكلّم عن الاصطلاحات في معنى المكي والمدني من حيث إنّها من الأساسيات المتعلقة بهذا البحث؛ إذ لا بدّ من استكمال حلقاته لمعرفة جوانب الخطاب وألوانه، والتي منها الخطاب المكي، والخطاب المدني، ولا بدّ من معرفة فائدة العلم بالمكي والمدني، وعلى الطّريق الموصلة إليه، وعلى الصّوابط التي يعرف بها، حيث إنّ لها صلة وثيقة بالبحث، وهي من فروع (علم التّفسير)^(١).

وأيضاً ما له صلة بمحور البحث من بيان لصيغ الخطاب القرآني، وما للزّمن من أثر في فهم صيغ الخطاب القرآني، وذلك ممّا له صلة بالخطاب المكي، والخطاب المدني، والعامّ والخاصّ، والمطلق والمقيّد...-كما سيأتي-..

والحاصل أنّ محور الاهتمام بدراسة المكي والمدني بالنسبة لما يتعلّق بموضوع البحث هو ذكر صيغ الخطاب المكي، وصيغ الخطاب المدني، وفائدة العلم بذلك، وارتباطه بالزّمن.

(١) انظر: الإتيان (٢٧/١)، كشف الظّنون (١٦/١)، (٢/١٨١٢)، وأبجد العلوم (٦٨/١).

• أولاً: أهمية العلم بالخطاب المكي والخطاب المدني:

ولهذا العلم من الأهمية ما لا يخفى على كل باحث في هذا المجال. وقد قال أبو القاسم محمد بن حبيب النيسابوري في كتاب (التنبيه على فضل علوم القرآن)^(١):

- (١) (التنبيه على فضل علوم القرآن) لأبي القاسم محمد بن حبيب النيسابوري، المتوفى سنة [٢٤٥هـ]. انظر: كشف الظنون (٤٨٩/١)، وانظر: البرهان (١٩٢/١)، (٤٨٩/١)، أبجد العلوم (٥٠٥/٢). ومحمد النيسابوري هو محمد بن حبيب النيسابوري، أبو القاسم، مؤرخ، نسابة، مشارك في بعض العلوم، له (تاريخ بغداد)، (التنبيه على فضل علوم القرآن)، (رسالة في أسماء القبائل) توفي سنة [٢٤٥هـ]. انظر: معجم المؤلفين (١٧٥/٩). والكتاب منشور في مجلة (المورد) العراقية، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم، عدد [٤]، مجلد [١٧]، عام [١٤٠٩هـ]. الصفحات (٣٠٥-٣٢٢). أقول: والذي وقفت عليه أن الكتاب -أعني: (التنبيه على فضل علوم القرآن)- أنه لأبي القاسم محمد بن حبيب النيسابوري المتوفى سنة [٢٤٥هـ]، وليس كما ذكر كل من الزركشي والسويطي أنه للحسن بن محمد بن حبيب، وتبعهم في ذلك كثير من المعاصرين. [البرهان (١٩٢/١)، الإتيقان (١/٣٤)، وانظر: على سبيل المثال كتاب (مباحث في علوم القرآن)، لمناع القطان (ص: ٥١)] فقد ذكروا أن الكتاب هو لأبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب. ولعل الصواب ما ذكرته من كونه لأبي القاسم محمد بن حبيب. أما الحسن المذكور فهو الحسن بن محمد بن حبيب بن أيوب فهو أبو القاسم النيسابوري الواعظ المفسر. إمام عصره في معاني القرآن وعلومه، مصنف التفسير المشهور، وكان أديباً نحويّاً عالماً بالمغازي والقصص والسير، انتشر عنه (بنيسابور) العلم الكثير، وسارت تصانيفه الحسان في الآفاق، وكان أستاذ الجماعة، حدث عن الأصم وأبي زكريّا العنبري، وذكره في كتاب (سر السرور)، وقال: هو أشهر مفسري (خراسان) وأفهام لحق الإحسان، وكان الأستاذ أبو القاسم الثعلبي من خواص تلاميذه. وقال السمعاني: كان أولاً كراميّ المذهب، ثم تحول شافعيّاً. وقال الذهبي: سمع أبا حاتم بن حبان وجماعة. وروى عنه أبو بكر محمد بن عبد الواحد الحيري الواعظ، وأبو الفتح محمد بن إسماعيل الفرغاني وآخرون، وصنف في القراءات والتفسير والآداب وعقلاء المجانين، مات في ذي الحجة سنة (ست) =

«من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته، وترتيب ما نزل (بمكة) (والمدينة)، وما نزل (بمكة) وحكمه مدني، وما نزل (بالمدينة) وحكمه مكّي، وما نزل (بمكة) في أهل (المدينة)، وما نزل (بالمدينة) في أهل (مكة)، وما يشبه نزول المكّي في المدني، وما يشبه نزول المدني في المكّي»^(١).

● ثانيا: الاصطلاحات في معنى المكّي والمدني:

للعلماء في معنى المكّي والمدني ثلاثة اصطلاحات:

الاصطلاح الأول:

أنّ المكّي ما نزل (بمكة) ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل (بالمدينة)^(٢):

ويدخل في (مكة) ضواحيها، كالمنزل على النبي ﷺ بمنى وعرفات والحديبية، ويدخل في (المدينة): ضواحيها أيضا كالمنزل عليه ﷺ في بدرٍ وأحد، وهذا التّقسيم لوحظ فيه مكان النّزول.

= وأربعمئة). ولم أقف في كتب التّراجم على أنّ لأخير هذا الكتاب، بل وقفت على ما أثبتته ..
انظر: طبقات المفسّرين، للسيوطي (٤٥/١-٤٨)، وانظر: الأعلام (٢/٢١٣)، الأنساب (٣/١٢٥)، سير أعلام النبلاء (١٧/٢٣٧-٢٣٨)، تاريخ جرجان (١/١٩٠). وفي (المغني في الضّعفاء): "الحسن بن محمد بن حبيب أبو القاسم المفسّر، وهاه الحاكم في رقعة بخطه".
المغني في الضّعفاء (١/٦٦٦).

(١) الإتيان (١/٣٤).

(٢) انظر: روح المعاني (٩/١٨)، وانظر: أيسر التّفسير (١/١٠)، البرهان (١/١٨٧)، الإتيان (١/٣٥)، مناهل العرفان (١/١٩٣).

وينظر إلى هذا الاصطلاح من حيث اعتبار (مكان النزول)... ولكن من الملاحظ: أنَّ مثل هذا المصطلح غير ضابط ولا حاصر؛ لأنَّه لا يشمل ما نزل بغير مكَّة والمدينة وضواحيهما، كقوله ﷻ: ﴿كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبَعُوكَ﴾ [التوبة: ٤٢]؛ فإنَّها نزلت (بتبوك)^(١). والأمثلة كثيرة.. وهي مبسطة في كتب علوم القرآن. ولا ريب أنَّ عدم الضبط في التَّقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما يذكر من الأقسام، وذلك عيبٌ يخلُّ بالمقصود الأوَّل من التَّقسيم، وهو الضُّبط والحصر.

الاصطلاح الثاني:

أنَّ المكيَّ ما وقع خطابًا لأهل (مكَّة)، والمدني ما وقع خطابًا لأهل (المدينة)^(٢):

وينظر إلى هذا الاصطلاح من حيث اعتبار (المخاطب)... وعليه يحمل قول من قال: إِنَّ ما صُدِّرَ في القرآن بلفظ: ﴿يَتَأْتِيهَا﴾

(١) انظر: مناهل العرفان (١/١٣٥)، الإتيان (١/٦٢)، كما أخرج ذلك ابن جرير عن ابن عباس ﷺ في (تفسيره) (١٠/١٤١)، و(٢/١١)، والدُّر المنثور (٤/٢١٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/١٨٠٤)، وتفسير الصَّنْعَانِي (٢/٢٧٦)، وزاد المسير (٣/٤٤٤)، وانظر أيضًا: البحر المديد (٣/٧٨)، الكشف والبيان (٥/٥٠)، تفسير ابن عادل (١٠/١٠٠)، البحر المحيط (٥/٤٧)، الخازن (٣/١٠٢)، تفسير الرَّاظِي (١٦/٥٦-٥٧)، القرطبي (٨/١٥٣)، تفسير الماوردي (٢/٣٦٧)، التَّسْفِي (٢/١٨٤)، تفسير مقاتل (٢/٤٨)، تفسير الثَّيْسَابُورِي (٣/٤٧٤).

(٢) انظر: روح المعاني (٩/١٨)، البرهان (١/١٨٧)، الإتيان (١/٣٥).

النَّاسُ ﴿البقرة: ٢١﴾^(١) فهو مكِّي، وما صُدِّرَ فيه بلفظ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] فهو مدني؛ لأنَّ الكفر كان غالبًا على أهل (مكة) فخطبوا بـ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم؛ ولأنَّ الإيمان كان غالبًا على أهل (المدينة) فخطبوا بـ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وإن كان غيرهم داخلًا فيهم أيضًا. وألحق بعضهم صيغة: ﴿يَنْبَغِي ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦] بصيغة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾^(٢).

(١) انظر تاريخ ابن معين: رواية عثمان الدارمي (١٢٠/١).

(٢) «قال علقمة ومجاهد: كلُّ آية أولها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ فإنما نزلت (بمكة)، وكلُّ آية أولها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فإنما نزلت (بالمدينة)، قلت: وهذا يرده أن هذه السورة والنساء مدنيان، وفيهما: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾. وأما قولهما في ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فصحيح. وقال عروة بن الزبير: ما كان من حجة أو فريضة فإنه نزل (بالمدينة)، وما كان من ذكر الأمم والعذاب؛ فإنه نزل (بمكة)، وهذا واضح». تفسير القرطبي (٢٢٥/١). وسيأتي ضمن الضوابط. المناهل (١٣٦/١)، قال الزيلعي في (تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف) (٤٩-٥٠): «بلغنا بإسناد صحيح عن إبراهيم عن علقمة أنه قال: كل ما نزل فيه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ فهو مكِّي، وما نزل فيه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فمدني. قلت: رواه ابن أبي شيبة في (مصنفه) في كتاب فضائل القرآن [٣٠٧٦٨]، حدثنا وكيع عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: كلُّ شيء نزل فيه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ فهو بمكة وكل شيء نزل فيه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهو بالمدينة انتهى. وكذلك رواه الواحدي في (أسباب النزول) من حديث سفيان الثوري عن الأعمش به سندًا ومثناه، وهذا مرسل. وقد أسند عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه الحاكم في (مستدركه) في آخر كتاب الهجرة عن يحيى بن معين ثنا وكيع عن أبيه عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فذكره سواء. وعن الحاكم رواه البيهقي في أواخر كتابه (دلائل النبوة) بسنده ومثته، وكذلك رواه البزار في (مسنده) [١٥٣١] عن قيس عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله فذكره، ثم قال: وهذا يرويه غير قيس عن علقمة مرسلًا ولا نعلم أحدًا أسنده إلا =

وهذا التّقسيم لوحظ فيه (المخاطبون)، لكن يرد عليه أمران: أحدهما: ما ورد على سابقة من أنّه غير ضابط ولا حاصر؛ فإنّ في القرآن ما نزل غير مُصدّرٍ بأحدهما، نحو قوله ﷻ: في فاتحة (سورة الأحزاب): ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]. ونحو قوله ﷻ في فاتحة (سورة المنافقون): ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١].

ثانيهما: أنّ هذا التّقسيم غير مطّرد في جميع موارد الصّيغتين المذكورتين، بل إنّ هناك آيات مدنيّة صُدّرت بصيغة: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾. وهناك آيات مكّيّة صُدّرت بصيغة: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. مثال الأولى: (سورة النساء)، فإنها مدنيّة، وأولها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]، وكذلك (سورة البقرة) مدنيّة، وفيها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: ٢١]. ومثال الثانية: (سورة الحج)، فإنها مكّيّة مع أنّ في أواخرها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧].. إلخ. قال بعضهم: هذا القول إنّ أخذ على إطلاقه ففيه نظر؛ فإنّ (سورة البقرة) مدنيّة، وفيها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ إلى آخر ما ذكرناه... غير أنّه قال أخيراً ما نصّه: فإنّ أريد أنّ الغالب

= قيس، انتهى كلامه. ورواه ابن مردويه في (تفسيره) في سورة الحج من حديث وكيع بن الجراح ثنا أبي عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله.. وانظر الروايات في (الدر المنثور)، للسيوطي (٨٥/١)، وانظر ما قاله السيوطي في (الإتقان) في ضوابط في المكي والمدنيّ. الإتقان (٥٥/١)، وانظر: فهم القرآن (ص: ٣٩٧). المستدرك [٤٢٩٥]، وانظر: فضائل القرآن، للمقاسم بن سلام [٦٦٦]، فضائل القرآن، لمحمد بن الضريس [٢٥].

كذلك فصحيح»^(١).

ثم علّق صاحب (المناهل) على ذلك بقوله: «ولكنّ صحّة الكلام في ذاته لا تسوّغ صحّة التّقسيم؛ فإنّ من شأن التّقسيم السّليم أن يكون ضابطاً حاصراً، وأن يكون مطّرداً، وقيد الغالبية المراد لا يحقّق الضّبط والحصر، وإن حقّق الاطراد، فيبقى التّقسيم معيباً، على أنهم قالوا: (المراد لا يدفع الإيراد)»^(٢).

الاصطلاح الثالث:

وهو المشهور أنّ المكي ما نزل قبل هجرته ﷺ إلى (المدينة)، وإن كان نزوله بغير (مكة)، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة وإن كان نزوله (بمكة)^(٣).

وينظر إلى هذا الاصطلاح من حيث اعتبار (زمن النّزول)...، وهو

(١) مناهل العرفان (١/١٩٣-١٩٤).

(٢) مناهل العرفان (١/١٩٤). قولهم: «المراد لا يدفع الإيراد»: هذه العبارة استخدمها الفقهاء كثيراً في ثنايا كتبهم يعبرون عنها بأنّ المراد الذي يساق الحكم من أجله من قبل الفقيه المثبت للمسألة لا يعتبر بمقابل الإيراد الذي هو الأصل فيها. ينظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم (٢/٣٤٤)، والفتاوى الفقهية، لابن حجر الهيتمي (٢/١٠٧)، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي (٢/٤٩٢)، حاشية البجيرمي على شرح منهج الطلاب (التّجريد لنفع العبيد) (٣/١٩٩)، حاشية الجمل على المنهج (١/٧٦)، حواشي الشّرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج (٣/٢٢٧، ٢٥٠، ٢٩٩)، (٦/٣١٩، ٤٢٠)، (٨/٣٦٠)، (١٠/١٧٤).

(٣) انظر: روح المعاني (٢٦/٨٤)، البرهان (١/١٨٧-١٨٨)، وانظر: العجائب في بيان الأسباب، لابن حجر العسقلاني (١/٢٤٣).

الذي رجّحه العلماء -كما سيأتي-. ولذلك ينظر إليه هنا من حيث كونه من ألوان الخطاب ذات الصلة بالنزول، أو يقال: تنوع الخطاب من حيث النظر إلى نزوله..^(١).

«وهذا التقسيم لوحظ فيه زمن النزول، وهو تقسيم صحيح سليم؛ لأنه ضابط حاصر ومطرّد لا يختلف بخلاف سابقه؛ ولذلك اعتمده العلماء، واشتهر بينهم. وعليه فآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] مدنيّة^(٢) مع أنها نزلت يوم الجمعة (بعرفة) في (حجّة الوداع). وكذلك آية: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، فإنها مدنيّة مع أنها نزلت بمكة في (جوف الكعبة) عام الفتح.. إلخ^(٣). وهذا الرأي الذي أميل إلى ترجيحه؛ لسلامته من الاعتراض؛ ولكونه جامعًا مانعًا؛ ولكونه ضابطًا وحاصرًا ومطرّدًا لا يختلف، وقد اعتمده العلماء واشتهر بينهم...

(١) وهذه المنهجية قد انفردت بها... وقد أشرت إلى ذلك في (المقدمة)...

(٢) انظر: المحرّر الوجيز (١٥٤/٢)، البحر المحيط (٤٥٢/٣)، الإتيان (٥٧/١)، البرهان في علوم القرآن (١٩٥/١)، مناهل العرفان (١٩٤/١). وذلك خلافا لما ذكر على إطلاقه في التفاسير التالية -وكذلك كتب علوم القرآن-: تفسير القرطبي (١١٦/٧)، تفسير ابن عادل (١٦٠/٤)، تفسير السمعاني (٥/٢)، تفسير مقاتل (٢٧٦/١)، تفسير الثيسابوري (٥٣٩/٢)، وما نقله الآلوسي في (روح المعاني) (٤٧/٦)، زاد المسير (٢٦٧/٢)، البيان في عدّ آي القرآن، للدّاني (ص: ١٤٩)، قلائد المرجان، للكرمي (ص: ٩٦).. إلخ.

(٣) مناهل العرفان (١٩٤/١).

وهو الأقرب إلى فهم الصحابة رضي الله عنهم حيث إنهم عدّوا من المدنيّ (سورة التّوبة)، و(سورة الفتح)، و(سورة المنافقون). ولم تنزل (سورة التّوبة) كلّها (بالمدينة)، فقد نزل كثير من آياتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في طريق عودته من (تبوك)^(١)، ونزلت (سورة الفتح) على النّبي صلى الله عليه وسلم وهو عائد من (صلح الحديبية)^(٢)، ونزلت (سورة المنافقون) عليه، وهو في (غزوة المصطلق)^(٣).

● ثالثاً: بيان ما يميّز به كلّ من الخطاب المكيّ عن المدنيّ من حيث الأسلوب والموضوع:

أ- أمّا (من حيث الأسلوب) فيبانه على النحو التّالي:

١- الغالب في المكيّ قوّة الأسلوب، وقوّة الألفاظ مع قصر الفواصل

- (١) انظر على سبيل المثال: الدر المنثور (٤/ ١٩٠، ٢١٥، ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٧٥، ٣١٤)، تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٤٦) إلى (١٩٠٥)، تفسير الطّبري (١١/ ٥٨)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٣٣٢)، وانظر من كتب السّيرة: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثلثة الخلفاء (١/ ٢٨٤)، (٢/ ٢٢٢-٢٣٦)، الرّوض الأنف (٢/ ٣٧٦) إلى (٤/ ٣٠٩)، السّيرة الحليّة (٢/ ٦٦٤)، السّيرة النّبويّة، لابن كثير (٢/ ٣٤٤-٣٤٦)، (٤/ ٦٦-٦٦)، حدائق الأنوار (١/ ٣٧٣-٣٧٤)، زاد المعاد (٢/ ٩٥) إلى (٣/ ٤٨٠)، سبل الهدى والرّشاد (٥/ ٤٣٣) إلى (٥/ ٤٧٩)، عيون الأثر (١/ ٢٧٨)، مغازي الواقدي (٣/ ١٠٠٥)، إلى (٣/ ١٠٧٥).
- (٢) وذلك مشهور جدّاً في كتب التّفسير والسّيرة. انظر على سبيل المثال: الدر المنثور (٧/ ٥٠٧) إلى (٧/ ٥٣٥)، لباب الثّقول (١/ ١٩٣)، الرّوض الأنف (٤/ ٥٦)، السّيرة النّبويّة، لابن كثير (٣/ ٣٤٤-٤٢٨)، السّيرة النّبويّة، لابن هشام (٤/ ٢٨٨)، حدائق الأنوار (ص: ٣٢٤-٣٢٩)، زاد المعاد (٣/ ٢٦٥)، عيون الأثر (٢/ ٢٢٢).

- (٣) انظر على سبيل المثال: المحرّر الوجيز (٥/ ٣١١)، التّحرير والتّنوير (٢٨/ ٢٣١)، زاد المسير (٨/ ٢٧١)، السّيرة النّبويّة، لابن هشام (٣/ ٦١)، حدائق الأنوار (ص: ٦٧).

وإيجاز العبارة، وشدة الخطاب؛ لأنَّ غالب المخاطبين معرضون مستكبرون. مثال ذلك: (سورتي المدثر)، و(القمر).
أمَّا المدنيُّ فالغالبُ فيه سهولةُ الخطاب؛ لأنَّ غالب المخاطبين مقبلون منقادون، مثال ذلك: (سورة المائدة)^(١).

٢- الغالب في المكيِّ: قصرُ الآيات، وقوَّةُ المحاجة؛ لأنَّ غالب المخاطبين معاندون مشاقُّون، فخطبوا بما تقتضيه حالهم، مثال ذلك: (سورة الطور).

أمَّا المدنيُّ فالغالبُ فيه طول الآيات، وذكر الأحكام، وبيان تفاصيل الأحكام في العبادات والمعاملات والحدود والجهاد مرسله بدون محاجة؛ لأنَّ حالهم يقتضي ذلك، مثال ذلك: (آية الدين) في (سورة البقرة).

٣ - كثرةُ أسلوب التأكيد ووسائل التقرير، ومن ذلك: الإكثارُ من القسم وضرب الأمثال والتشبيه، وتكرار بعض الجمل أو الكلمات؛ وذلك ترسيخًا للمعاني.

ب- وأمَّا (من حيث الموضوع) فبيانُه على النحو التالي:

١- الغالبُ في المكيِّ: تقرير التوحيد والعقيدة السليمة، خصوصًا ما يتعلَّق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث، وعبادة الله ﷻ، وذكر القيامة والجنة؛ لأنَّ غالب المخاطبين ينكرون ذلك. ويفضح أعمال

(١) انظر ذلك مفصلاً في (مناهل العرفان) (١/٢٠٧-٢٠٩).

المشركين من سفك الدماء وأكل أموال اليتامى، والإكثار من قصص الأنبياء وتكذيب أقوامهم..

أمّا المدنيّ فالغالبُ فيه: تفصيل العبادات والمعاملات، والحدود، والجهاد، والسُّلم، والحرب، ونظام الأسرة، وقواعد الحكم، ووسائل التشريع؛ لأنّ المخاطبين قد تقرّر في نفوسهم التّوحيد والعقيدة السّليمة، فهم في حاجةٍ لتفصيل العبادات والمعاملات.

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه والكشف عن سلوك المنافقين وبيان خطرهم على الدّين في (القسم المدني)؛ لاقتضاء الحال، ذلك حيث شرع الجهاد، وظهر التّفاف بخلاف (القسم المكيّ). ومخاطبة أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام، وإقامة الحجّة عليهم^(١)..

● رابعا: ما يستفاد من كلّ من الخطاب المكيّ، والخطاب المدنيّ:

١- ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها، حيث يخاطب كلّ قوم بما تقتضيه حالهم من قوّة وشدّة، أو لين وسهولة.

(١) انظر: مناهل العرفان (١/٢٠٤-٤١٦)، مباحث في علوم القرآن، لمناع القطّان (ص: ٥٠-١١٣)، الموافقات، للشّاطبي (٤/٤٩٣)، المحرّر الوجيز (٥/٥)، البحر المحيط (٧/٤٦٤)، المحرّر الوجيز (٥/٤١٦)، تفسير الثّعالبي (٣/١٨٨)، وفي (البرهان) و(المناهل): «كلّ سورة فيها ذكر المنافقين فمدنيّة سوى (العنكبوت)، والتّحقيق أنّ (سورة العنكبوت) مكيّة ما عدا الآيات (الإحدى عشرة) الأولى منها فإنّها مدنيّة. وهي التي ذكر فيها المنافقون». البرهان في علوم القرآن (١/١٨٨)، مناهل العرفان (١/١٩٨)، التّاسخ والمنسوخ، للكرمي (ص: ٣٧)، الموافقات، للشّاطبي (٣/٢٤٠)، مباحث في علوم القرآن، لمناع القطّان (ص: ٥٠)، فنون الأفنان في عيون علوم القرآن (ص: ٣٣٩-٣٤٠).

٢- ظهورُ حكمة التشريع في أسمى غاياته، حيث يتدرج شيئاً فشيئاً بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين، واستعدادهم للقبول والتنفيد.

٣- تربية الدعاة إلى الله ﷺ، وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع - من حيث النظر إلى المخاطبين - بحيث يبدأ بالأهم فالأهم، وتستعمل الشدة في موضعها، والسهولة في موضعها.

٤- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية، يتحقق فيهما شروط النسخ؛ فإن المدنية ناسخة للمكية، لتأخر المدنية عنها.

٥ - ويستفاد من تقسيم القرآن إلى مكِّي ومدني أنه نزل على النبي ﷺ مُفرقاً، ولنزوله على هذا الوجه حكم كثيرة منها:

أ. تثبيت قلب النبي ﷺ، وذلك لقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ۖ وَلَا يَأتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢-٣٣].

ب. أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به، حيث يقرأ عليهم شيئاً فشيئاً، لقوله ﷻ: ﴿وَقُرْءَانَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ج. تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه، حيث يتشوق الناس بلهف وشوق إلى نزول الآية، ولا سيما عند اشتداد الحاجة إليها كما في آيات الإفك واللعان.

د. التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال، كما في (آيات الخمر) الذي نشأ الناس عليه وألفوه، وكان من الصعب عليهم أن يجابها بالمنع منه منعاً باتاً، فنزل في شأنه أولاً قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩]، فكان في هذه الآية تهيئة للنفوس لقبول تحريمه حيث إنَّ العقل يقتضي أن لا يقدم الإنسان على شيء ضرره أكبر من نفعه.

ثم نزل ثانياً قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣]، فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات، وهي أوقات الصلوات. ثم نزل ثالثاً قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ٩١ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَىٰ رَسُولِنَا أَلْبَلَعُ الْمَيِّنُ ٩٢﴾ [المائدة: ٩٠-٩٢]، فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعاً باتاً في جميع الأوقات، وذلك بعد أن هُيئت النفوس، ثم مرّنت على المنع منه في بعض الأوقات.

هـ. الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، إذ إن معرفة مكان نزول الآية تعين على فهم المراد بالآية، ومعرفة مدلولاتها، وما يراد فيها. و. إمعان النظر في سيرة الرسول ﷺ، وذلك بمتابعة أحواله قبل الهجرة وبعدها، ومواقفه وسيرته في الدعوة.

ز. بيان عناية المسلمين بالقرآن الكريم، واهتمامهم به حيث إنهم لم يكتفوا بحفظ النص القرآني فحسب، بل تتبّعوا أماكن نزوله، ما كان قبل الهجرة وما كان بعدها، ما نزل بالليل وما نزل بالنهار، ما نزل في الصيف وما نزل في الشتاء، إلى غير ذلك من الأحوال. وذلك مما يعطي الثقة بهذا القرآن، وبوصوله إلينا سالمًا من التّغيير والتّحريف.

٦ - «المدنيّ من السّور ينبغي أن يكون مُنَزَّلًا في الفهم على المكيّ، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التّنزيل، وإلا لم يصح. والدليل على ذلك أن معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكيّ، كما أن المتأخّر من كلّ واحد منهما مبنيّ على مقدّمه، دلّ على ذلك الاستقراء، وذلك إنما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق، أو تفصيل ما لم يفصل، أو تكميل ما لم يظهر تكميله»^(١).

(١) الموافقات، للشّاطبي (٤/٢٥٦).

● خامسا: ضوابط ومميزات الخطاب القرآني المكي:

- ١- كلُّ سورة فيها سجدة، سوى (الحج) عند من يقول: إنها مدنيّة^(١).
- ٢ - كلُّ سورة فيها لفظ: ﴿كُلًّا﴾^(٢).
- ٣ - كلُّ سورة فيها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾^(٣).

(١) انظر: المدخل، لأبي شهبه (ص: ٢٢٧)، ومنهم من يرى أنها مكية. انظر: تفسير القرطبي (١٤٤/٤)، وانظر: الإتقان (٥٥/١)، تفسير الصنعاني (٣١/٣)، تفسير الماوردي (الثكت والعيون) (٥/٤)، التفسير (٩٤/٣). والصحيح أن (سورة الحج) مدنيّة بدليل آية الجهاد. ورجح ابن العربي كونها - أي: آية الجهاد مكية. انظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٣/١٢٩٧-١٢٩٨). وقال القرطبي: «(سورة الحج)، وهي مكية، سوى ثلاث آيات، قوله ﷻ: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ﴾ [الحج: ١٩]، إلى تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد. وعن ابن عباس أيضا أنهن أربع آيات، إلى قوله ﷻ: ﴿عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]. وقال الضحاك وابن عباس أيضا: هي مدنيّة، وقاله قتادة، إلا أربع آيات: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، إلى ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥]، فهن مكيات. وعدّ (النفّاش) ما نزل (بالمدينة) عشر آيات. وقال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكّي، ومنها مدني. وهذا هو الأصح؛ لأن الآيات تقتضي ذلك؛ لأن ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ مكّي و﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ مدني..». تفسير القرطبي (١/١٢)، وانظر: روح المعاني (١٧/١٠٩)، معاني القرآن الكريم، للتحاس (١/٥٦١)، وانظر: تفسير الواحدي (٢/٧٢٧)، وفتح القدير (٣/٤٣٤)، البرهان (١/١٩٠-١٩١)، التأسخ والمنسوخ، للكرمي (ص: ١٤٢)، التأسخ والمنسوخ، لابن حزم (ص: ٤٦). التأسخ والمنسوخ، للتحاس (ص: ٥٦١)، وانظر: تفسير السمعاني (٣/٤١٦).

- (٢) انظر: البرهان (١/١٨٩)، الإتقان (١/٥٦)، التأسخ والمنسوخ، للكرمي (ص: ٣٧)، وناسخ القرآن ومنسوخه، لابن البارزي (ص: ٥٩)، والمناهل (١/١٣٨)، المدخل (ص: ٢٢٦).
- (٣) قال الحافظ ابن كثير: «كلُّ سورة فيها: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهي مدنيّة، وما فيها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ فيحتمل أن يكون من هذا، ومن هذا، والغالب أنه مكّي. وقد يكون مدنيّا كما في (البقرة): ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِبُودُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ =

٤ - كلُّ سورة فيها قصص الأنبياء -عليهم الصَّلَاة والسَّلَام- والأمم الغابرة.

٥ - كلُّ سورة فيها قصة آدم عليه السلام وإبليس ما عدا (البقرة).

٦ - كلُّ سورة تفتح بحروف التَّهجي مثل: ﴿الْق﴾ ، ﴿الر﴾ ، ﴿حَم﴾ ﴿١﴾ ما عدا (البقرة) و(آل عمران) ^(١).

● سادسا: ضوابط ومميّزات الخطاب القرآني المدني:

١- كلُّ سورة فيها فريضة أو حدٌّ.

٢- كلُّ سورة فيها ذكر المنافقين.

٣ - كلُّ سورة فيها مجادلة أهل الكتاب.

٤ - كلُّ سورة تبدأ بـ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ .

● سابعا: نتائج البحث:

١ - بيان ما تتنوّع فيه أساليب الخطاب من حيث صلة ذلك بالنزول.

٢ - بيان الفرق بين أسلوب الخطاب المكي وموضوعه، وبين أسلوب

= ﴿٢١﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُّوا مِنَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّكُمْ لَكُمْ عَذَابٌ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]. تفسير ابن كثير (١/١٠٢)، وانظر: الدر المنثور (١/٨٤)، وفي (المناهل): «كلُّ سورة فيها: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ ، وليس فيها: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهي مكّيّة، ولكنّه ورد على هذا ما تقدّم بين يديك من (سورة الحجّ)". مناهل العرفان (١/١٣٨)، وانظر: البرهان (١/١٨٨-١٨٩)، وانظر: البيان في عدّ آي القرآن، للدّاني (ص: ١٣٢) .

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/١٠٢)، أضواء البيان (٢/١٦٨).

الخطاب المدني وموضوعه.

- ٣ - بيان المقاصد من هذا التنوع، وأنَّ جريانَ الخطاب فيه على المستوى نفسه من البلاغة والإعجاز والبيان.. وبناءً على ذلك فإنَّه ليس في القرآن فاضل ومفضول من هذه الحيثية - أعني بلوغ كلِّ ألوان الخطاب أقصى درجات البلاغة والفصاحة -؛ لأنَّ الكلَّ كلام الله ﷻ الَّذي بُلِّغَ إلى المخاطبين، فهو من حيثُ البلاغة والفصاحة في قِمة الذُّرَّة .
- ٤ - بيانُ فائدة العلم بالمكيِّ والمدني من ألوان الخطاب، وأهميته، والاصطلاحات فيه، مع بيان الرَّاجح منها..
- ٥ - بيانُ ضوابط كلِّ من الخطابين..
- ٦ - بيانُ أنَّه خطاب يتلاءم مع الواقع، ويطابق المقام، ومقتضى الحال.



المبحث الثالث

التنوع في العموم والخصوص

وهو فرعانِ أو مطلبان:

الأول: العموم والخصوص.

الثاني: الجمع والإفراد والتثنية.

وعلى ذلك فإنه ينظر إلى هذا المبحث من جانبين:

أما الجانب الأول: فقد أردفت ما له صلة بصيغ توجيه الخطاب ما يتعلق بتنوعه من حيث العموم والخصوص، ولا أتناول في هذا المطلب إلا ما له صلة بتنوع أوجه الخطاب من هذه الحيثية.

وقد أتى ذكره بعد (توجيه الخطاب)؛ لما ذكرت من وجه تصدير (توجيه الخطاب)، ولكونه -أعني التنوع من حيث العموم والخصوص- من أشمل أوصاف الخطاب، وأكثرها تنوعاً، وناسب ذكره بعد توجيه الخطاب؛ لكونه أقل عموماً، وناسب ذكر الجمع والإفراد والتثنية بعد العموم والخصوص؛ لأنه أكثر تخصيصاً.

أما الجانب الثاني: فينظر إليه من حيث ما فيه من الجمع والإفراد والتثنية.

وقد جعلته بعد الجانب الأول؛ لأن فيه من المخصّصات ما يجعله أقلّ شمولاً من سابقه، وله من الصلة مع سابقه ما لا يخفى من تعلقه بتنوع الخطاب القرآني من حيث عمومته وخصوصه.

المطلب الأول: العموم والخصوص

أما المطلب الأول فهو أقسام:

• الأول: خطاب العام المراد به العموم:

والأمثلة من القرآن الكريم كثيرة:

منها: قوله ﷻ: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢]، ونحو ذلك من الآيات. وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُسْئِلُكُمْ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ ثُمَّ يُجْبِسُكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوَفِّي مِنْ قَبْلٍ وَلْيَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [غافر: ٦٧]، ونحو هذه الآيات، ونحو: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾﴾ [الانفطار: ٦].

• الثاني: خطاب الخاص والمراد به الخصوص:

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ

وَجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُغْنِي عَنْهُمْ كَذَبُهُمْ وَلَٰكِنَّ الْغُلَافَ كَثِيرٌ وَكَثِيرٌ مِّنْكُمْ تُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ [التوبة: ٦٦]، ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ٣٥]، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ [الدخان: ٤٩]، ﴿يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله ﷺ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وغير ذلك، والمعنى واضح.

● الثالث: خطاب الخاص والمراد به العموم:

ومن الخاص المراد به العموم قوله ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، فقد افتتح الخطاب بالنبي ﷺ، والمراد سائر من يملك الطلاق^(١).

يقول القرطبي رحمه الله: «ومنها: خطاب خُصَّ به لفظاً وشركة جميع الأمة معنى وفعلاً، كقوله ﷺ: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] الآية. وقوله ﷺ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ [النحل: ٩٨]. وقوله ﷺ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢]، فكلُّ من دلكت عليه الشمس مخاطب بالصلاة، وكذلك كلُّ من قرأ القرآن مخاطب بالاستعاذة،

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤٨/١٨).

وكذلك كلٌّ من خافَ يقيم الصَّلَاةَ بتلك الصِّفة. ومن هذا القبيل قوله ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. وعلى هذا المعنى جاء قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنْتَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ١]، و﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]»^(١).

وهنا قد يردُّ سؤالٌ مفاده: لماذا لم يُعبّر بالفاظِ العموم من أوّل الأمرِ بدلاً من التعبير بالألفاظ الخاصّة التي تدلُّ على العموم؟ والحاصلُ في الجواب أنّه قد دلّت القرائن على عموم المراد مع خصوص ألفاظِ الخطاب في الآيات الآتية الذكر... فإذا عُلِمَ ذلك فلا بدَّ لمثل هذا العدول من نكتةٍ أو حكمة .

وفي بيان الحكمة من ذلك، والوقوف على معنى هذا اللون من ألوان الخطاب عند من قال بهذا اللون من ألوان التفسير يقول الآلوسي رحمه الله: «خصَّ النداء به ﷺ، وعمَّ الخطاب بالحكم؛ لأنَّ النبي ﷺ إمام أُمَّته، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: (يا فلان: افعلوا كيت وكيت) إظهاراً لتقدّمه واعتباراً لترؤسه، وأنّه المتكلّم عنهم، والذي يصدر عن رأيه، ولا يستبدّون بأمر دونه، فكان وحده في حكمهم كلّهم، وسادّاً مسدّاً جميعهم، وفي ذلك من إظهار جلاله منصبه ﷺ ما فيه؛ ولذلك اختير لفظ النبي؛ لما فيه من الدلالة على علو مرتبته ﷺ»^(٢).

(١) تفسير القرطبي (٢٤٥/٨)، و(١٤٨/١٨).

(٢) تفسير الآلوسي (١٢٨/٢٨).

ومنه قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَائِبَتَ أَجُورُهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنَبَاتٍ عَمَلِكَ وَنَبَاتٍ خَالِكَ وَنَبَاتٍ خَلَائِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

وقال أبو بكر الصيرفي^(١): «كان ابتداء الخطاب له ﷺ فلما قال في (الموهوبة): ﴿خَالِصَةً لَكَ﴾ عُلِمَ أَنَّ مَا قَبْلَهَا لَهُ وَلِغَيْرِهِ ﷺ»^(٢). وهذه قرينة تدلُّ على العموم.

أما قوله ﷺ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢]. «فقد جرى أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّاهِرِ فَقَالَ: إِنَّ صَلَاةَ الْخَوْفِ مِنْ خِصَائِصِ النَّبِيِّ ﷺ»^(٣).

(١) انظر ترجمته في تهذيب الأسماء (٢/٤٨٢)، الأنساب، للسمعاني (٢/٥٠٤)، تاريخ بغداد (٥/٤٤٩)، الأعلام (٨/١٦٤)، وفيات الأعيان (٤/١٩٩).

(٢) انظر: البرهان (٢/٢١٨)، الإتيان (٢/٨٨).

(٣) أقول: والفتوى في المذهب على قول أبي حنيفة ومحمد، وقول أبي يوسف الأول الذي رجع عنه بعد ذلك، وهي موافقة لرأي الجمهور كما ذكر ذلك السرخسي في (الميسوط)، وكما في (بدائع الصنائع). قال السرخسي: «اعلم أنَّ العلماء اختلفوا في صلاة الخوف في فصول أحدها: أنَّه مشروع بعد رسول الله ﷺ في قول أبي حنيفة ومحمد -رحمهما الله تعالى-. وقال أبو يوسف -رحمه الله تعالى- أولاً كذلك، ثم رجع فقال: كانت في حياته ﷺ خاصة، ولم تبق مشروعة بعده؛ لقوله ﷺ: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢] فقد شرط كونه فيهم لإقامة صلاة الخوف؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا يرغبون في الصلاة خلفه ما لا يرغبون في الصلاة خلف غيره فشرع بصفة الذهاب والمجيء لينال كل فريق فضيلة الصلاة خلفه. وقد ارتفع هذا المعنى بعده، فكل طائفة يتمكنون من أداء الصلاة =

وأجاب الجمهور: بأنه لم يذكر فيهم على أنه شرط، بل على أنه صفة حال، والأصل في الخطاب أن يكون لمعين، وقد يخرج على غير معين ليفيد العموم كقوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥]. وفائدته: الإيدان بأنه خليف بأن يؤمر به كل أحد ليحصل مقصوده الجميل^(١).

وكقوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ﴾ [سبا: ٥١].. أخرج في صورة الخطاب لما أريد العموم للمقصد إلى تقطع حالهم، وأنها تناهت في الظهور حتى امتنع خفاؤها، فلا تخص بها رؤية راء، بل كل من يتأتى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب، كقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نِعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]، لم يُرد به مخاطب معين، بل عُبر بالخطاب ليحصل لكل واحد فيه مدخل مبالغة فيما قصد الله ﷻ من وصف ما في ذلك المكان من النعيم والملك، ولبناء الكلام في الموضعين على العموم لم يجعل لـ: ﴿تَكْرَىٰ﴾ ولا لـ: ﴿رَأَيْتَ﴾ مفعولا ظاهرا ولا مقدرًا ليشيع ويعم^(٢).

ويتبين مما سبق:

١ - أن من الخطاب ما لفظه خاص، ولكن المراد به العموم.

= بإمام على حدة فلا يجوز لهم أداؤها بصفة الذهاب والمجيء. وحجَّتنا في ذلك أن الصحابة أقاموها بعد رسول الله ﷺ.. ثم ذكر ما يدل على ذلك من فعل الصحابة -رضوان الله عليهم- ورد رأي أبي يوسف -رحمه الله-، المبسوط (٢/ ٤٥-٤٦)، بدائع الصنائع (١/ ٢٤٢).

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢١٨-٢١٩).

(٢) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢١٩).

٢ - القرائنُ هي التي تدلُّ على المراد.

٣ - إنَّ لمثل هذا العدول حكمٌ ظاهرة.

• الرابع: خطاب العام والمراد الخصوص:

وقد اختلف العلماء في وقوع ذلك في القرآن^(١) فأنكره بعضهم؛ لأنَّ الدلالة الموجبة للخصوص بمنزلة الاستثناء المتصل بالجملة كقوله ﷻ: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]^(٢).

قال الجصاص^(٣) في (الفصول): «وقال بعض أصحابنا: لا يجوز ورود لفظ العام والمراد به الخصوص؛ لأنَّ الدلالة الموجبة للخصوص بمنزلة الاستثناء المتصل بالجملة، كقوله ﷻ: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ غير جائز أن يقال: إنَّ هذه الصيغة عبارة عن (ألف

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٠)، روضة الناظر (١/٢٣٩)، إرشاد الفحول (١/٢١٩)، المحصول (٢/٥٦)، تيسير التحرير (١/٣٥٣)، أصول البزدوي (١/٢١٣)، الكوكب الدري (١/٩٤)، المستصفى (٢/٨١)، الإحكام، للآمدي (٢/٢٢٩)، أصول السرخسي (٢/٣٨-٣٩).

(٢) وهذا يسمَّى كما قال السرخسي: (بيان التَّغْيِير والتَّبْدِيل) قال: «أمَّا (بيان التَّغْيِير) فهو: الاستثناء، فإنَّ الألف اسم موضوع لعدد معلوم فما يكون دون ذلك العدد يكون غيره لا محالة، فلولا الاستثناء لكان العلم يقع لنا بأنَّه لبثَ فيهم (ألف سنة)، ومع الاستثناء إنما يقع العلم لنا بأنَّه لبثَ فيهم (تسعمائة وخمسين عامًا)، فيكون هذا تغييرًا لما كان مقتضى مطلق تسمية (الألف)». أصول السرخسي (٢/٣٥).

(٣) هو أحمد بن علي الرَّايزي، الحنفي، المعروف بالجصاص (أبو بكر). فقيهٌ مجتهدٌ، ورد (بغداد) في شبَّيته، ودرس وجمع، وتخرَّج به المتفقهة، وتوفي (ببغداد) في ذي الحِجَّة سنة [٣٧٠]، وله (٦٥) سنة. معجم المؤلفين (٧/٢). وانظر: طبقات الفقهاء، للشَّيرازي (ص: ٤٤)، الجواهر المضيئة (ص: ٨٤).

سنة) كاملة. كذلك قيام الدلالة على إرادة الخصوص تجعل اللفظ خاصاً، ويتبين أنه لم يكن لفظ عموم قط. وليس وجود اللفظ الذي يصلح للعموم بموجب أن يكون عمومًا، بل هو لفظ خاص، صورته غير صورة لفظ العموم، كما أن وجود لفظ: (الألف) من قوله ﷻ: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ أن تكون هذه الصيغة هي صيغة (الألف) المطلقة العارية من الاستثناء، بل الصيغتان مختلفتان، كذلك اقتران دلالة الخصوص إلى اللفظ الذي يصلح للعموم يغير صيغة اللفظ، ويمنع كونه عامًا أريد به الخصوص. فدل ذلك على أن ما كان هذا وصفه من الألفاظ فهو حقيقة فيما ورد فيه مستعمل في موضعه. وليس أن دلالة التخصيص غير مذكورة مع اللفظ بمانع أن يكون في معنى الاستثناء المتصل باللفظ؛ لأننا قد وجدنا اللفظ المطلق الذي قد أريد به في استثناء بعضه قد اقتصر فيه على الإطلاق من غير ذكر الاستثناء متصلًا به في بعض المواضع، وإن كان قد ذكر في بعضها، ولم يكن وجود ذلك في الكلام. وجوازه فيه بمانع أن يكون الاستثناء مرادًا كقوله ﷻ في قصة لوط عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْقَئُفَ مِنْكَ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]، فلم يستثن امرأته في هذا الموضع، وهي مستثناة في المعنى، وإن لم يذكرها. ثم قال في موضع آخر: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْقَئُفَ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَّكَ﴾ [هود: ٨١]، فأظهر الاستثناء في هذه الآية. ثم لم يختلف حكم اللفظين في أن كل واحد

منهما مستثنى منه المرأة في المعنى، وإن كانت مذكورة في أحدهما غير مذكورة في الآخر.

ونحو قوله ﷻ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، ومعلوم أنه لم يرد به المسيح وعزيراً -عليهما السلام-، فأنزل الآية مطلقة اكتفاء بالدلالة التي أقامها على أنه لا يعذبهما (في الآخرة)، وكان ذلك بمنزلة الاستثناء المتصل باللفظ، فلما قال المشركون هذا المسيح والعزير قد عبدا من دون الله ﷻ أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ثم لم يختلف حكم اللفظ بعد نزول هذه الآية وقبلها. فهذا يدل على أن دلالة التخصيص بمنزلة الاستثناء فينبغي على هذا أن لا يختلف حكم اللفظ فيهما في كونه حقيقة في موضعه وأنه ليس بلفظ عموم^(١).

فهذه حجة من أنكر وقوع هذا اللون من ألوان الخطاب، لكن الصحيح الذي أميل إلى ترجيحه أن خطاب العام الذي أريد به الخصوص واقع كقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وعمومه يقتضي دخول جميع الناس في اللفظين جميعاً، والمراد: بعضهم؛ لأن القائلين غير المقول لهم، والمراد بالأول: نعيم بن سعيد الثَّقَفي ذكره في (البرهان)^(٢) بهذا

(١) الفصول في الأصول (١/١٣٧) فما بعد.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٠)، (٧/٣).

الاسم، والصَّواب أنه نعيم بن مسعود الأشجعي^(١).
والثاني: أبو سفيان وأصحابه. ومما يقوِّي أن المراد بالناس في قوله
﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ واحد قوله ﴿لَكُمْ﴾: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ
يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فوقعت الإشارة بقوله ﴿لَكُمْ﴾:
﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى واحد بعينه، ولو كان المعنى به جمعاً لكان: (إِنَّمَا
الشَّيَاطِينُ)، فهذه دلالة ظاهرة في اللفظ. وقيل: بل وضع فيه ﴿الَّذِينَ﴾
موضع (الَّذِي)^(٣).

(١) هو نعيم بن مسعود الأشجعي، سمع النبي ﷺ، وكان في حجر عمر رضي الله عنه. يقال: إنه أسلم
في (الهند)، وهو خذل بين الناس يومئذ، وكان يسكن (المدينة)، وولده من بعده، وبقي إلى
زمان عثمان رضي الله عنه، ومات في آخره روى عنه ابنه سلمة بن نعيم. الجرح والتعديل (٤٥٩/٨)،
وانظر ترجمته: تقريب التهذيب (ص: ٥٦٥)، الكاشف (٣٢٥/٢)، تهذيب الكمال
(٢٩/٤٩١-٤٩٢)، معجم الصحابة (٣/١٤٧)، الطبقات، لابن خياط (١/١٢٩)،
الاستيعاب (٤/١٥٠٨-١٥٠٩)، الطبقات الكبرى (٢/٦٩)، الإصابة (٦/٤٦١).

(٢) انظر: الكشف (١/٤٨٠)، التحرير والتنوير (٤/١٦٨)، أضواء البيان (١/٢١٧)، المحرر
الوجيز (١/٥٤٢)، الخازن (١/٤٥٣)، السراج المنير (١/٣٠٢)، تفسير السمعاني
(١/٣٨٠)، تفسير الرازي (٩/٤٣٢)، القرطبي (٤/٢٧٩)، تفسير الماوردي (١/٢٦١)،
تفسير النسفي (١/٢٩٠)، زاد المسير (١/٥٠٤)، البحر المديد (١/٥٤٤)، العجائب في
بيان الأسباب (٢/٧٩٤)، تفسير الطبري (٢/٢٩٤)، القرطبي (١٢/١٢٧)، (١٣/٣١٣)،
الواحدي (١/٢٤٤)، البيضاوي (٢/١١٦)، البغوي (١/٢٩٨)، زاد المسير (١/٥٠٤)، فتح
القدير (١/٤٠٠)، الإتيقان (٢/٤٣)، (٢/٣٩٦)، ابن عادل (٥/١٩١)، (٦/٥٧)،
(١٠/١٤٠)، (١٠/٣٩١)، البحر المحيط (٢/٤٦٤).

(٣) انظر: البرهان (٢/٢٢٠)، الإتيقان (٢/٤٣ و ٢٩٦)، تفسير الطبري (٢/٢٩٤)، تفسير
القرطبي (٤/٢٧٩، ١٢/١٢٧-١٢٧)، (١٣/٣١٣)، تفسير ابن كثير (١/٤٣٢)، الدر
المنثور (٢/٣٨٨)، الكشف (١/٤٨٠-٤٨١)، تفسير البيضاوي (٢/١١٦)، البغوي =

قال في (مراقي السُّعود):

«وما به الخصوص قد يراد جعله في بعضها النِّقَادُ»^(١).

يعني أنَّ العامَّ المراد به الخصوص لم يُقصد فيه إلا بعض الأفراد، وبعضها لم يقصد، لا تناولاً ولا حكماً، بل المراد فيه البعض فقط في الاستعمال والحكم معاً كقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ ، أي: نعيم، ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: ٣٩]، أي: جبريل عليه السلام، فالأوَّل أريدت فيه الأفراد كُلُّها استعمالاً لا حكماً، والثَّاني لم يرد فيه إلا البعض استعمالاً وحكماً^(٢). فالأوَّل من القسمين (العامَّ المخصوص)، والثَّاني: (العامَّ الَّذي أريد به الخصوص).

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣] على قول من قال من المفسِّرين^(٣): إِنَّ المراد: عبد الله بن سلام^(٤). وقيل غير ذلك، وعلى آيَةٍ حال فإنَّ

= (٢٩٨/١)، تفسير فتح القدير (٤٠٠/١-٤٠٢)، تفسير الثَّعالبي (٣٣٤/١)، تفسير الواحدي (٢٤٣-٢٤٤)، زاد المسير (٥٠٤/١)، تفسير النَّسفي (١٩٢/١)، روح المعاني (١٢٥/٤) فما بعد.

(١) مراقي السُّعود، رقم [٣٨٨]، (ص: ٥٢)، وانظر: نثرُ الورود على مراقي السُّعود (٢٧٥/١).

(٢) انظر: نثرُ الورود (٢٧٥/١).

(٣) القرطبي (٢٠٥/١)، البغوي (٥١/١)، روح المعاني (١٥٥/١)، فتح القدير (٤٣/١)، ولم يذكر الزُّركشي في (البرهان) غيره على خلاف عامَّة المفسِّرين. انظر: البرهان في علوم القرآن (٢٢١/٢).

(٤) هو عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي، أبو يوسف، صحابيٌّ. قيل: إِنَّه من نسل يوسف بن يعقوب عليه السلام. أسلم عند قدوم النَّبي ﷺ (المدينة)، وكان اسمه:

الألف واللام في الشفهاء للعهد، فيعني به الصحابة، أو الصبيان والنساء، أو عبد الله بن سلام وأصحابه. ويحتمل أن تكون للجنس فيندرج تحته من فسّر به الناس من المعهودين، أو الكاملون في السّفة، أو لأنّهم انحصر السّفة فيهم؛ إذ لا سفيه غيرهم..^(١).

«وإنما أدخلت الألف واللام في ﴿النّاس﴾، وهم بعض النّاس لا جميعهم؛ لأنهم كانوا معروفين عند الذين خُوطبوا بهذه الآية بأعيانهم، وإنما معناه: آمنوا كما آمن النّاس الذين تعرفونهم من أهل اليقين والتّصديق بالله ﷻ، وبمحمد ﷺ، وما جاء به من عند الله ﷻ، وباليوم الآخر؛ فلذلك أدخلت الألف واللام فيه»^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ [الحجرات: ٤] على قول من قال من المفسرين: إنّ المراد: الأقرب بن حابس التّميمي رضى الله عنه، فيما أورده غير واحد.

ومن ذلك: قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]. لم

= (الحصين) فسّماه رسول ﷺ (عبد الله). ونزلت فيه الآية: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ الآية [الأحقاف: ١٠]، ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]. وشهد مع عمر رضى الله عنه فتح (بيت المقدس) و(الجابية). ولما كانت الفتنة بين علي ومعاوية -رضي الله عنهما-، اتخذ سيفاً من خشب، واعتزلها. وأقام (بالمدينة) إلى أن مات [٤٣ هـ]. له (٢٥) حديثاً. الأعلام (٩٠/٤)، وانظر: الإكمال (٤٠٣/٤)، الإصابة (١١٨/٤)، المقتنى في سرد الكنى (١٦٢/٢)، تذكرة الحفاظ، للذهبي (٢٤/١)، تهذيب الكمال (٧٤/١٥)، تاريخ دمشق (٩٧/٢٩).

(١) انظر: البحر المحيط (٢٠٠/١)، السراج المنير (٣٢/١).

(٢) تفسير الطبري (١٢٧/١).

يدخل فيه الأطفال والمجانين^(١).

ثم التخصيص بجيء تارة في آخر الآية كقوله ﷻ: ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ [النساء: ٤]، فهذا عام في البالغة والصغيرة عاقلة أو مجنونة، ثم خص في آخرها بقوله ﷻ: ﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤] الآية. فخصها بالعاقلة البالغة؛ لأن من عداها عبارتها ملغاة في العفو.

ونظيره قوله ﷻ: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْجِعْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإنه عام في البائنة والرجعية، ثم خصها بالرجعية بقوله ﷻ: ﴿وَيُعَوِّلُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة: ٢٢٨]؛ لأن البائنة لا تراجع. وتارة في أولها كقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فإن هذا خاص في الذي أعطاهما الزوج. ثم قال بعد: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ فهذا عام فيما أعطاهما الزوج أو غيره إذا كان ملكاً لها. وقد يأخذ التخصيص من آية أخرى كقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرُهُ﴾ [الأنفال: ١٦] الآية. فهذا عام في المقاتل كثيراً أو قليلاً ثم قال: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَبِيرُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥] الآية.

ونظيره قوله ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِئَةُ﴾ [المائدة: ٣]، وهذا عام في جميع الميتات، ثم خصه بقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]، فأباح الصيد الذي يموت في فم الجارح المعلم،

(١) سيأتي ما يتعلق بخطاب الصبي والمجنون والمعدوم، ومن ليس منتظماً في سلك التكليف وقت الخطاب.

وخصَّص أيضًا عمومه في آية أخرى، قال: ﴿أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَلَعًا لَكُمْ﴾ [المائدة: ٩٦]، تقديره: وإن كانت ميتة فخصَّص بهذه الآية عموم تلك. ومثله قوله ﷺ: ﴿أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٩]^(١). ونظيره قوله: ﴿وَالْدَّمُ﴾ [البقرة: ١٧٣]، [المائدة: ٣]، [النحل: ١١٥]. وقال في آية أخرى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥]، يعني: إلا (الكبد والطحال) فهو حلال. ثم هذه الآية خاصّة في (سورة الأنعام)، وهي مكّيّة، والآية العامّة في (سورة المائدة)، وهي مدنيّة، وقد تقدّم الخاصُّ على العامِّ في هذا الموضع كما تقدّم في الثُّزول (آية الوضوء) على أنّه التَّيَمُّم. وهذا ماش على مذهب الشَّافعي في أنّ العبرة بالخاصِّ سواء تقدّم أم تأخّر^(٢).

ومثله قوله ﷺ: ﴿وَمَا آتَيْتُمُ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا﴾ [النساء: ٢٠]. والآية عامّة سواء رضيت المرأة أم لا، ثمّ خصّها بقوله: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ

(١) يعني أنّه مخصّص لقوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [النور: ٢٧] الآية.

(٢) انظر: المجموع شرح المهذب (٥٥/١٠)، الحاوي في فقه الشَّافعي (٤٣١/١٥)، حواشي الشَّرواني على تحفة المحتاج بشرح المنهاج (٢٠٢/٧)، البحر المحيط في أصول الفقه (٥٣٧/٢) فما بعد، (٢٦٦/٣)، (٤٣٧/٤)، التَّمهيد، للإسنوي (ص: ٢٨٠)، حاشية الدُّسوقي على الشَّرح الكبير (٢٥٣/١)، التَّحبير شرح التَّحرير (١٥٠٣/٣)، (٢٦٥٢/٦)، التَّقرير والتَّحبير (٣٦٦/١)، القواعد والفوائد الأصوليّة (ص: ١٧٤)، الفواكه الدَّواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١٢٠/١)، الرُّوض المربع شرح زاد المستنقع (٣٣٤/١). وانظر من كتب التفسير: أضواء البيان (٤٢٥/٥)، تفسير الثَّيسابوري (غرائب القرآن) (٥٣١/١).

شَقَّوْهُ مِنْهُ نَفْسًا فَكُوهُ ﴿ [النساء: ٤]، وخصَّها بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهَا أَفَلَدَّتْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ومثله قوله ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] الآية، فهذا عامٌّ في المدخول بها وغيرها، ثم خصَّها فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٤٩] الآية. فخصَّ الآية والصغيرة والحامل، فالآيسة والصغيرة بالأشهر، والحامل بالوضع.

ونظيره قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٤] الآية. وهذا عامٌّ في الحامل والحائل^(١)، ثم خصَّ بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَخْمَالُ أَجْلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. ونظيره قوله ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣] الآية. وهذا عامٌّ في ذوات المحارم والأجنبيات، ثم خصَّ بقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] الآية. وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ [النور: ٢] عامٌّ في الحرائر والإماء، ثم خصَّه بقوله: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥]، وقوله: ﴿لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ فإن الخُلَّةَ عامة، ثم خصَّها بقوله: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].. إلخ^(٢).

(١) الحائل: التي ليست حاملاً..

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢١-٢٢٣).

ويتبيّن مما سبق:

- ١ - أنّ من العلماء مَنْ أنكر وقوع هذا اللَّون من ألوان الخطاب...
- ٢ - تحقيق هذه المسألة، وبيان أنّ الرَّاجح الوقوع..
- ٣ - ذكر نماذج وأدلة وقرائن تدلّ على ذلك...



المطلب الثاني: الجمع والإفراد والتثنية

أمّا الشُّقُّ الثاني من (التَّنوع في عموم الخطاب وخصوصه) فإنّه يتناول ما يتعلّق بالجمع والإفراد والتثنية، وهو أقسام:

• الأوّل: خطابُ الجنس

ولا بدّ في البداية بيان مصطلح: (الجنس).. جاء في (المغرب): «(الجنس) عن أئمة اللغة الضَّرْب من كلّ شيء، والجمع: (أجناس)، وهو أعمُّ من (النَّوع)، يقال: (الحيوان جنس)، و(الإنسان نوع)؛ لأنّه أخصُّ من قولنا: (حيوان)، وإن كان جنساً بالنسبة إلى ما تحته..»^(١). أقول: وعلى ذلك فالجنس -بالكسر- أعمُّ من النَّوع، وهو كلُّ ضرب من الشَّيء، فالإبل جنس من البهائم. وعلى ذلك فإنّه ينظر إلى (الإنسان) مثلاً من منظورين:

الأوّل: بالنسبة لما فوقه فهو نوع.

الثاني: بالنسبة لما تحته فهو جنس، فيكون النَّوع الذَّكر والأنثى. وهو جنسٌ قريب فلا جنس تحته، وإنما تحته النَّوع. و(الجنس) لغة: الضَّرْب من كلّ شيء، وهو أعمُّ من النَّوع^(٢). وعلى ذلك فالجنس ثلاثة

(١) المغرب، مادة: (جنس) (١/١٦٤).

(٢) انظر: مادة: (الجنس) في كلّ من (الصُّحاح) (٣/٩١٥)، لسان العرب (٦/٤٣)، مختار

الصُّحاح (ص: ١١٩)، المصباح المنير (١/١١١)، التوقيف على مهمات التعاريف

(ص: ٢٥٦)، المغرب (١/١٦٤).

أقسام: جنس قريب، وهو ما لا جنس تحته، وإنما تحته الأنواع كالإنسان والفرس ونحوهما، وجنس بعيد، وهو ما لا جنس فوقه، وتحته الأجناس كالجواهر-فليس فوقه جنس، وتحته أجناس، وهي الجسم والنَّامي والحيوان- وجنس متوسط، وهو ما فوقه جنس وتحته جنس كالجسم فإنَّ فوقه الجوهر، وتحته الحيوان .

وعند (المنطقيين) هو كُلِّيٌّ مَقُولٌ على كثيرين مختلفين بالحقيقة في جواب ما هو؟ مثل: (حيوان) فهو يصدق على أنواع كثيرة مختلفة الحقائق كإنسان وفرس^(١).

وبناءً على ما سبق من التعريف فإنِّي أستعرض الآيات التي تصلح أن تكون خطاباً للجنس. فقد جاء في تفسير قول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦] أنه (خطاب الجنس)^(٢). وجاء في تفسير قوله ﷻ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] (لتركبن) -بالضم- على (خطاب الجنس)؛ لأنَّ النداء في قوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ للجنس^(٣)، نحو: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾

(١) انظر: شرح تنقيح الفصول (١/٤٠٩)، انظر: التعريفات (ص: ١٩٣)، شرح السُّلم المنورق للملوي بحاشية الصَّبَّان (ص: ٦٨)، شرح الشيخ درويش القويسني على السُّلم (ص: ١٥-١٧)، تسهيلُ المنطق، للبدخشاني (ص: ٤٧)، الثَّعاريف، للمناوي (ص: ٢٥٦)، الحدودُ الأنيقة (ص: ٧٢-٧٣)، وينظر: تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، (كتاب قاطيغورياس)، المجلد الثاني (ص: ٩-١٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٨/٤٣٩)، البحر المديد (٨/٤١٣)، تفسير الرَّاَزي (٣١/٩٩-١٠٤).

(٣) انظر: تفسير الرَّاَزي (٣١/١٠٤-١٠٥)، الكشف (٤/٢٣٦).

[البقرة: ٢١]؛ فَإِنَّ المراد جنس النَّاس لا كلَّ فرد، وإلا فمعلوم أنَّ غير المكلف لم يدخل تحت هذا الخطاب، وهذا يغلب في خطاب أهل (مكة) - كما سبق -^(١).

ورجَّح الأصوليون دخول النَّبي ﷺ في الخطاب بـ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾^(٢). وفي القرآن سورتان أولهما: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ إحداهما في النصف الأول، وهي السُّورة الرَّابِعة منه، وهي (سورة النساء)، والثانية في النصف الثاني منه وهي (سورة الحج). والأولى تشتمل على شرح المبدأ، والثانية تشتمل على شرح المعاد.. فتأمل هذا الترتيب ما أوقعه في البلاغة^(٣).

قال الرَّاعِب في (المفردات): «وَالنَّاسُ قد يذكر ويراد به الفضلاء

(١) سبق بيان ذلك في الخطاب المكِّي والخطاب المدني.

(٢) قال الآمدي: يدخل الرَّسول ﷺ في عمومهم عندنا، وعند أكثر العلماء، خلافاً لطائفة من الفقهاء والمتكلمين. الإحكام (٢/٢٩٢-٢٩٤)، وفي (المحصول): «قوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عامٌّ في حقِّهما، ومنهم من خصَّصه بالأئمة، قال: لأنَّ منصب الرَّسول ﷺ يقتضي إفراده بالذكر، وهو باطل؛ لأنَّ اللَّفْظَ عامٌّ ولا مانع من دخول الرَّسول ﷺ فيه. وقال الصِّيرفي: كلُّ خطاب لم يصدر بأمر الرَّسول ﷺ بتبليغه ولكن ورد مطلقاً فالرَّسول ﷺ مخاطب به كغيره، وكلُّ ما كان مصدراً بأمر الرَّسول ﷺ بتبليغه فذلك لا يتناوله كقوله ﷺ: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]. المحصول (٣/١٩٩-٢٠٠). وفي (اللمع): "إذا خطب النَّبي ﷺ بخطاب خاصٍّ لم يدخل معه غيره إلا بدليل كقوله ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا التَّزَيُّلُ﴾ ﴿فَرَأَيْتَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢]. اللمع (١/٢٢). انظر: المسودة (١/٣٠)، القواعد والفوائد الأصولية (١/٢٠٧).

(٣) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٦-٢٢٧).

دون من يتناوله اسم النَّاس تجوُّزا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية، وهو وجود العقل والذكر، وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصة به، فإنَّ كلَّ شيءٍ عدم فعله المختصُّ به لا يكاد يستحقُّ اسمه، كاليد فإنَّها إذا عدمت فعلها الخاصَّ بها فإطلاق اليد عليها كإطلاقها على يد السرير ورجله. فقوله ﷺ: ﴿ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣]، أي: كما يفعل من وجد فيه معنى الإنسانية، ولم يقصد بالإنسان عينا واحدا بل قصد المعنى، وكذا قوله ﷺ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤]، أي: من وجد فيه معنى الإنسانية أي: إنسان كان^(١). وقال الرَّاغِب: «وربما قصد به النَّوع كما هو وعلى هذا قوله ﷺ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤]. قيل في الآية: إنَّ المراد بالنَّاس هو النَّبِيُّ ﷺ. وقيل: العرب»^(٢).

والحاصل أنَّ النَّاس هنا عامٌّ أريد به الخصوص، وهو النَّبِيُّ ﷺ، كما في قوله ﷺ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

فالنَّاس الأولى عامٌّ أريد به خصوص رجل واحد، وهو (نعيم بن مسعود الأشجعي) - كما سبق -.

(١) مفردات القرآن الكريم، للراغب، مادة: (نوس) (ص: ٥٠٩)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٧).

(٢) مفردات القرآن الكريم، مادة: (نوس) (ص: ٥٠٩). وانظر: تفسير الطبري (٥/١٣٨ - ١٣٩)، الدر المنثور (٢/٥٦٦)، روح المعاني (٥/٥٧-٦٢)، أبو السعود (٢/١٩٠).

ويتبيّن مما سبق:

- ١ - أنّ خطاب الجنس يدلُّ على عموم الخطاب، فهو من أعمّ أنواع الخطاب (ما صدّقًا)، أي: بالنسبة لما يندرج تحته من أفراد.
- ٢ - أنّ غير المكلف لا يدخل في هذا الخطاب..
- ٣ - أن غير المشافهين بالخطاب يدخلون في الخطاب بالإجماع، لكن هل يدخلون بطريق الحقيقة أم المجاز؟ سيأتي بيان ذلك في (خطاب المعدوم ومن ليس منتظمًا في سلك التكليف وقت الوحي والإناث والعبيد والأمم الماضية).



● الثاني: خطاب النوع

أما من حيث ذكر هذا اللون من الخطاب، فقد جاء عقب (خطاب الجنس)؛ لأنه أخص منه.

وأما ما يتعلق بالتعريف فقد جاء في (المعجم الوسيط) أن (النوع): «الصَّنْف من كلِّ شيء»^(١)، ويقال: (ما أدري على أيِّ نوعٍ هو؟ أي: على أيِّ وجه).

وفي (اصطلاح المناطقة): كُلِّي مَقُول على واحد أو على كثيرين متفقين في الحقائق في جواب ما هو؟ مثل: (إنسان)، فهو يصدق على أفراد كثيرة متفقة الحقائق، كزيد وعمر^(٢).

وفي (علم الأحياء): وحدة تصنيفية أقل من الجنس يتمثل في أفرادها نموذج مشترك محدود ثابت وراثي، جمع: أنواع^(٣). وبناءً على ما سبق من تعريف (الجنس) وتعريف (النوع) فإنني أستعرض الآيات التي تصلح أن تكون خطاباً للنوع.

فقد جاء في (نظم الدرر) في تفسير قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

(١) انظر: مادة: (النوع) في (المعجم الوسيط) (٢/ ٩٦٤)، ومادة: (صنف) في (مقاييس اللغة) (٣/ ٣١٣).

(٢) انظر: التعريفات (ص: ٣٠٢)، شرح السلم المنورق للملوي بحاشية الصبان (ص: ٧٠)، تسهيل المنطق، للبدخشاني (ص: ٤٦)، وينظر: تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد، (كتاب قاطيغورياس)، المجلد الثاني (ص: ٩ - ١٠).

(٣) بقليل من التصرف عن (المعجم الوسيط): مادة: (نوع) (٢/ ٩٦٤)، وانظر: تاج العروس (٢٢/ ٢٨٨).

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١﴾ [النساء: ١]:
«لَمَّا كَانَ خَلْقُ الْحَيَوَانَ أَدَلَّ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْقَهْرِ بِمَا خَالَفَ بِهِ
الْجَمَادَاتُ مِنَ الْحَيَاةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَى الْإِنْفِكَافِ عَنْهَا قَبْلَ أَجَلِهِ، وَبِمَا
لَهُ مِنْ أُمُورٍ اضْطِرَّارِيَّةٍ لَا مُحِيطُ لَهَا عَنْهَا، وَأُمُورٍ اخْتِيَارِيَّةٍ مُوَكَّلةٌ فِي
الظَّاهِرِ إِلَى مَشِيئَتِهِ، وَكَانَ أَعْجَبُهُ خَلْقُ الْإِنْسَانِ بِمَا لَهُ مِنْ قُوَّةِ النُّطْقِ،
قَالَ دَالًا عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ بِخَلْقِ الْخَافِقِينَ لِفَتْحِ الْقَوْلِ إِلَى (خَطَابِ
النَّوْعِ) كُلِّهِ إِذَا نَأَى بِتَأْهِلِهِمْ لِلخَطَابِ، وَتَرْقِيهِمْ فِي عُلَا الْأَسْبَابِ، مِنْ غَيْرِ
عَطْفٍ، إِذَا نَأَى بِأَنَّ كَلَامًا مِنْ خَلْقِهِمْ وَخَلَقَ مَا قَبْلَهُمْ مُسْتَقِلٌّ بِالدَّلَالَةِ عَلَى
مَا سَبَقَ لَهُ: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ أَيُّهَا النَّاسُ الْمَدْعُونَ لِلْإِلَهِيَّةِ غَيْرِهِ»^(١).
وقد مثَّلَ لخطاب (النَّوْعِ) الزَّرْكَشِيِّ فِي (الْبِرْهَانِ)، وَالسُّيُوطِيِّ فِي
(الْإِتْقَانِ)^(٢) بقول الله ﷻ: ﴿يَبْقَى إِسْرَؤِيلُ﴾، وَالْمَرَادُ: بَنُو يَعْقُوبَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٣).

وفي (روح المعاني): ﴿قَالَ أَهْطُوا بِعَضُكُمُ لِبَعْضِ عَدُوِّ﴾ [الأعراف:

(١) نظم الدرر (٦/٤٢١)، وانظر: السراج المنير (٣/٥٢١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٧)، وانظر: الإِتْقَانُ (٢/٨٨).

(٣) قال الزركشي رحمه الله تعالى: «وإنما صرَّحَ بِهِ لِلطَّيْفَةِ سَبَقَتْ فِي (النَّوْعِ السَّادِسِ) وَهُوَ (عِلْمُ الْمُبْهَمَاتِ). انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٧)، الإِتْقَانُ (٢/٨٨). ويقصد الزركشي ما ذكره في (علم المبهومات) في كتابه (البرهان) أَنَّهُ «قَدْ يَكُونُ لِلشَّخْصِ اسْمَانِ فَيَقْتَصِرُ عَلَى أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ لِنَكْتَةٍ، فَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷻ: فِي (خَاطِبَةِ الْكِتَابِيِّينَ): ﴿يَبْقَى إِسْرَؤِيلُ﴾، وَلَمْ يَذْكُرُوا فِي الْقُرْآنِ إِلَّا بِهَذَا دُونَ (يَا بَنِي يَعْقُوبَ)، وَسَرَّهُ أَنَّ الْقَوْمَ لَمَّا خُوطِبُوا بِعِبَادَةِ اللَّهِ ﷻ، وَذَكَرُوا بِدِينِ أَسْلَافِهِمْ؛ مَوْعِظَةً لَهُمْ؛ وَتَنْبِيْهُهَا مِنْ غَفْلَتِهِمْ، سَمُّوا بِالْأَسْمِ الَّذِي فِيهِ تَذَكُّرُ بِاللَّهِ ﷻ، فَإِنَّ (إِسْرَائِيلَ) اسْمٌ مُضَافٌ إِلَى اللَّهِ ﷻ فِي التَّأْوِيلِ...، وَلَمَّا ذَكَرَ مُوَهِّبَةُ لِإِبْرَاهِيمَ =

[٢٤]: «جَمَعَ الخطاب؛ لأنه في قوّة (خطاب النوع)»^(١).
 أقول: ويمكن أن يقال: إنّ من (خطاب النوع) الآيات التّالية:
 قوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤].
 ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ﴾ [النساء: ٤٧].
 ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١].
 ﴿يَتَأْتِيهَا النَّملُ﴾ [النمل: ١٨].
 ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَكُوتُ﴾ [النمل: ٢٩، ٣٢، ٣٨]، و[القصاص: ٣٨].
 ﴿يَنسَاءَ النَّبِيُّ﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣٢].
 ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ هَادُوا﴾ [الجمعة: ٦].
 ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [التحریم: ٧].
 ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١].
 أقول: وفي الخطاب بـ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ﴾ ، ونحوه من الأمثلة
 السّابقة قد يشكل ذلك على المخاطب من أيّ الخطابين هو؟ هل هو
 من (خطاب الجنس) أم من (خطاب النوع)؟

= عليه السلام، وتبشيره به قال: ﴿يَعْقُوبُ﴾ وكان أولى من (إسرائيل)؛ لأنها موهبة تعقب
 أخرى، وبشرى عقب بها بشرى، فقال ﷻ: ﴿فَبَشِّرْنَهَا بِإِسْحَاقَ وَبِنَ وَرَءَا إِسْحَاقَ يَعْقُوبُ﴾
 [هود: ٧١]، وإن كان اسم (يعقوب) عليه السلام عبرانيا لكن لفظه موافق للعربي من
 العقب والتّعقيب، فانظر مشاكلة الاسمين للمقامين فإنّه من العجائب. بقليل من التّصريف
 عن (البرهان) (١/ ١٦٠-١٦١). وسيأتي مزيد من البيان للخطاب بهذه الصّيغة.
 (١) روح المعاني (١٢٩/٨).

ولكنَّ ذلك الإشكال يندفعُ بما حَقَّقْته من بيان صلاحية هذا التَّمثيل لكلِّ من الخطَّابين - أعني الجنس والنَّوع - وذلك باختلاف النَّظر، فهو بالنِّسبة لما فوقه - أعني الحيوان - نوع، وبالنِّسبة لما تحته جنس. ولكنَّا لما علمنا أنَّ ما فوقه ممَّا لا يتوجَّه الخطاب له على عمومهِ؛ لأنَّه إنما أنزل للعاقليين المميِّزين قلنا بأنَّه من (خطاب الجنس)، وعلى ذلك يخرج قول من قال من المفسِّرين: إنَّه من (خطاب الجنس).

وإذا تقرر ذلك فإنَّه يقال في هذا الخطاب ما قيل في سابقه من كونه يدلُّ على عموم الخطاب، فهو من أعمِّ أنواع الخطاب (ما صدَّقًا)، أي: بالنِّسبة لما يندرج تحته من أفراد. ولكنَّ غير المكلف لا يدخل أصلًا في هذا الخطاب....

● الثالث: خطابُ العين

من ألوان الخطابِ ما كان موجَّهًا إلى فرد، وهو ما يسمَّى (بخطاب العين).

فمن ذلك قوله ﷺ: ﴿يَكَادُمْ أَشْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿يَنُوحُ أَخِيضَ﴾ [يس: ١١]، ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [١١]، ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ [الصافات: ١٠٤-١٠٥]، ﴿يَمُوسَى لَا تَخَفْ﴾ [النمل: ١٠]. ولم يقع في القرآن الكريم النداء بـ: (يا محمَّد) بل بـ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] تعظيمًا له وتبجيلًا.

وتخصيصًا بذلك عن سواه^(١).

وقد قال أبو حيان في (البحر) في تفسير قوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ النَّبِيَّ﴾
 اللَّهُ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]: «إِنَّ نداءه ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ
 النَّبِيُّ﴾، ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾ هو على سبيل التشريف والتكرمة والتتويه
 بمحلّه وفضيلته، وجاء نداء غيره باسمه، كقوله ﷻ: ﴿يَعَادِمُ﴾
 [البقرة: ٣٣]، ﴿يَنْوُحُ﴾ [هود: ٣٢]، ﴿يَكْأَبِرُهُمْ﴾ [هود: ٧٦]،
 ﴿يَمُوسَى﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿يَنْدَاوُدُ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿يَعِيسَى﴾ [آل
 عمران: ٥٥]، وحيث ذكره على سبيل الإخبار عنه بأنه رسوله، صرح
 باسمه فقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾
 [آل عمران: ١٤٤] أعلم أنه رسوله، ولقّنهم أن يسمّوه بذلك. وحيث لم
 يقصد الإعلام بذلك، جاء اسمه كما جاء في النداء: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَكْرَبُ﴾ [الفرقان: ٣٠]،
 وغير ذلك من الآي. وأمره بالتّقوى للمتلبس بها، أمر بالديمومية عليها
 والازدياد منها.

والظاهر أنه أمر للنبي، وإذا كان هو مأمورا بذلك، فغيره أولى
 بالأمر. وقيل: هو خطاب له لفظا، وهو لأمتّه^(٢).

أقول: والحاصل أن الذي يتقرّر في ذلك:

أولا: يعسر التحقيق في أن كلّ نبي قد نودي باسمه في عهده، وفي

(١) الإتيان (٢/٨٨-٨٩).

(٢) البحر المحيط (٧/٢٠٦).

ذلك تكلف، إن قال قائل بذلك.

ثانياً: إنَّ من الرُّسل من ذكرهم الله ﷻ في القرآن الكريم بالوصف الذي يدلُّ على الرِّسالة، وذلك كما في قوله ﷻ حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشَّمْس: ١٣]، ولكن من غير نداء.

ثالثاً: ورد ذكر (محمَّد) ﷺ من غير نداء، كما في قوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

رابعاً: إنَّ هناك الكثير من الأنبياء في القرآن الكريم -عليهم الصَّلاة والسَّلام- لم يقع النِّداء أصلاً باسمهم، وإنما ذكر اسمهم كما ذكر اسم (محمَّد) ﷺ.

وإذا تقرر ذلك عُلِمَ أنَّ التَّخصيص بالتَّشريف المذكور إنما هو مقصورٌ على نداءات القرآن الكريم فحسب -وهو الذي يعيننا هنا-، ولا يشمل الكتب السَّماوية الأخرى؛ لانتفاء الدَّليل؛ إذ يعسر التَّحقيق في أنَّ كلَّ نبيٍّ نودي باسمه في عهده، وإنَّما علم ذلك من نداءات القرآن الكريم نحو قول الله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وما سبق..

• الرابع: خطاب الاثنين

فمن ذلك الخطاب من إبليس لآدم وحواء -عليهما السلام-:
﴿فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِيهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١]. ومن الله ﷻ لآدم وحواء -عليهما السلام-:
﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢].

والخطاب من فرعون لموسى وهارون -عليهما السلام-:
﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٤٩].
ومن الله ﷻ لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام-:
﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمَكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧].
﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩].

ومن يوسف عليه السلام لصاحبيه في السجن:
﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأَكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا ﴿٣٧﴾﴾ [يوسف: ٣٧].
﴿يَصْطَلِحِي السِّجْنَ عَزَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: ٣٩].

﴿يَصْحَجِي السَّجَنَ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ
فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾
[يوسف: ٤١].

ومن الله ﷻ لموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- أيضًا:
﴿وَجْعَلْ لَكُمْ سُلْطَنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّدِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا
الْغَالِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

والحاصل أنَّ من ألوان الخطاب في القرآن الكريم ما كان موجَّهًا
إلى الاثنين.. والآيات هنا تدلُّ على التَّنوع في أساليب الخطاب،
وكذلك ينظر إلى المخاطب -بكسر الطاء المهملة- هنا، فقد يكون
المخاطب الله ﷻ، وقد يكون إبليس -لعنه الله-، وقد يكون
رسولاً.. وكذلك ينظر إلى اختلاف المخاطبين..، واختلاف الخطاب
بما يناسب المقام، وحال المخاطبين ومكانتهم..



المبحث الرابع

العدول إلى غير الظاهر في الأفراد والتثنية والجمع
أو (التجوز في الأفراد والتثنية والجمع)

وهو ما له صلة بالمخاطب، والعدول فيه هو لون من ألوان الخطاب لا ينفك عن كونه موجَّهاً إلى المخاطب، والنَّظر إليه من هذا الجانب المجرَّد إلا عن صفة العدول، وبيان أنَّ هذه الصِّفة فيها من التَّنوع ما يدلُّ على بلاغة الخطاب، وقد أتى بعد تلك المذكورات لكون الصِّفة المذكورة لها صلة بتوجيه الخطاب مع تخصيص الخطاب هنا بتلك الصِّفة، وفيها من التَّنوع ما تتعدَّد ألوانه.. وفي هذا المبحث مطالب متعدِّدة، وهي:

- المطلب الأول: خطابُ الجمع بلفظ الواحد.
- المطلب الثاني: خطابُ الواحد بلفظ الجمع.
- المطلب الثالث: خطابُ الواحد بلفظ الاثنين.
- المطلب الرابع: خطابُ الاثنين بلفظ الواحد.
- المطلب الخامس: خطابُ الاثنين بلفظ الجمع.
- المطلب السادس: خطابُ الجمع بعد الواحد.
- المطلب السابع: خطابُ الواحد بعد الجمع.
- المطلب الثامن: خطابُ الاثنين بعد الواحد.
- المطلب التاسع: خطابُ الواحد بعد الاثنين.

- المطلبُ العاشر: خطابُ عين والمراد غيره.
- المطلبُ الحادي عشر: خطابُ الشَّخص ثمَّ العدول إلى غيره.
- المطلبُ الثاني عشر: خطابُ الكلِّ وإرادة البعض.
- المطلبُ الثالث عشر: خطابُ الملائكة وإرادة غيرهم.
- المطلبُ الرَّابع عشر: الخطابُ القرآني العامُّ الَّذي لم يقصد به مخاطبٌ معيَّن.
- المطلبُ الخامس عشر: أساليبُ الالتفات في الخطاب القرآني.
- وبيانُ ذلك على النَّحو التَّالي:

المطلب الأول: خطاب الجمع بلفظ الواحد

أ. بيان أهمية هذا اللون من ألوان الخطاب، واهتمام المفسرين والباحثين به :
وقد أورد هذا النوع من الخطاب القرآني كلُّ من الزركشي في (البرهان)^(١)، والسيوطي في (الإتقان) مختصراً^(٢)، وابن الجوزي في (المدھش) أكثر اختصاراً^(٣) - وقد سبق-، وفي (بصائر ذوي التمييز) كذلك^(٤).

وأهتم في هذا المطلب بذكر ما يندرج تحت هذا اللون من ألوان الخطاب مفصلاً، مع إيراد ما يمكن أن يستدل به على ذلك من أقوال المفسرين ..

فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦]، ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦]، والمراد الجميع بدليل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي حُسْرٍ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢-٣].

أقول: ولا بدَّ هنا من توضيح هذه الآيات، وبيان الحكمة من خطاب (الجمع بلفظ الواحد). وقد تنبَّه إلى الحكمة الإمام الرّازي في

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٣).

(٢) الإتقان في علوم القرآن (٢/ ٩٠).

(٣) المدھش (١/ ١٥-١٦).

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز (١/ ١٠٨-١١٠). وقد ذكر هذا النوع أيضاً سيبويه في (الكتاب)

(١/ ٢١٠).

(تفسيره) - كما سيأتي -.. كما أنَّ المزيد من البيان سيأتي في مبحث (النداء).

وقد أتيت بالتمثيل أولاً بما شاع بين الباحثين في علوم القرآن مجملاً؛ لوضوح صيغة الخطاب القرآني من حيث معناه الأخص في ذلك التمثيل، ولم أغفل الخطاب القرآني من حيث معناه الأعم ممَّا له صلة بخطاب الجمع بلفظ الواحد، ويأتي أيضاً توضيح أنَّ مثل هذا المنهج قد سلكه الزركشي في (البرهان) من حيث التمثيل.

قال السيوطي في (المزهر): «ومن سنن العرب ذكر الجمع والمراد واحد أو اثنان، قال عز وجل: ﴿إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ﴾ [التوبة: ٦٦]، والمراد واحد، و﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ﴾ [الحجرات: ٤]، والمنادى واحد، ﴿يَمَّ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]^(١)، وهو واحد بدليل: ﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٣٧]»^(٢).

أمَّا قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ فهو «استئناف ابتدائي؛ لأنَّ ما قبله بمنزلة المقدمة له؛ لتهيئة السامع لتلقي هذه الموعظة؛ لأنَّ ما سبقه من التَّهويل والإنذار يهيئ النفس لقبول الموعظة؛ إذ الموعظة تكون أشدَّ تغلغلاً في القلب حينئذٍ؛ لما يشعر به

(١) المزهر، بتحقيق: محمَّد جاد المولى بك، ومحمَّد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمَّد البجاوي (٣٣٢-٣٣٣).

(٢) أمَّا الآيات التي قبل هذه الآية - والتي فيها الإنذار التَّهويل الذي يهيئ النفس لقبول الموعظة - فهي: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ ١ ﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انشَظَّتْ﴾ ٢ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ﴾ ٣ ﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ ٤ ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ ٥ [الانفطار: ١-٥].

السَّامِع من انكسار نفسه، ورقة قلبه فيزول عنه طغيان المكابرة والعناد، فخطر في النفوس ترقُب شيء بعد ذلك النداء للتَّنبيه تنبيهاً يشعر بالاهتمام بالكلام والاستدعاء لسماعه، فليس النداء مستعملاً في حقيقته؛ إذ ليس مراداً به طلب إقبال، ولا هو موجّه لشخص معيّن أو جماعة معيّنة، بل مثله يجعله المتكلم موجّهاً لكلّ من يسمعه بقصد أو بغير قصد. فالتعريف في ﴿الْإِنْسَانِ﴾ تعريف الجنس، وعلى ذلك حمّله جمهور المفسّرين، أي: ليس المراد إنساناً معيّنًا، وقرينة ذلك سياق الكلام مع قوله عَقِبَهُ: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الانفطار: ٩-١٠]. وهذا العموم مراد به الَّذِينَ أنكروا البعث بدلالة وقوعه عقب الإنذار بحصول البعث. ويدلّ على ذلك قوله بعده: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالَّذِينَ﴾ فالمعنى: (يا أيها الإنسان الذي أنكر البعث)، ولا يكون منكر البعث إلا مشركاً؛ لأنّ إنكار البعث والشرك مُتلازمان يومئذ، فهو من العامّ المراد به الخصوص بالقرينة أو من (الاستغراق العرفي)^(١)؛ لأنّ جمهور المخاطبين في ابتداء الدّعوة الإسلامية هم المشركون. و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ استفهاميّة عن الشَّيء الذي غرّ المشرك فحمّله على الإِشراك برَبِّهِ وعلى إنكار البعث^(٢).

(١) (الاستغراق العرفي) هو ما يعدّ في العرف شمولاً وإحاطة مع خروج بعض الأفراد، و(غير العرفي) وهو المسمّى (بالحقيقي) ما يكون شمولاً بجميع الأفراد في نفس الأمر. انظر: الكلّيات، (ص: ١٠٢٥).

(٢) التّحرير والتّنوير (٣٠/١٧٤).

أقول: ومما سبق يتبين أن سياق الكلام وسباقه يدلُّ العموم في تناولها لجميع العصاة؛ لأنَّ خصوص السَّبب لا يقدح في العموم... وهو الَّذي أميل إلى ترجيحه، وبالعموم قال جمعٌ من المفسِّرين^(١).

وهناك أقوالٌ أخرى؛ فقد روي عن ابن عباس، وعطاء أن المراد بالإنسان هنا: الوليدُ بن المغيرة. وعن عكرمة المراد: أبيُّ بن خلف. وعن ابن عباس رضي الله عنه أيضا: المراد: أبو الأشدُّ بن كَلْدَة الجُمحي^(٢). وقيل: غير ذلك^(٣).

وما يعنينا في خطاب (الجمع بلفظ الواحد) هو أن يراد بالإنسان (الجنس) وهو الَّذي قد رجَّحناه هنا، وهو الأكثر فائدة..
أما قوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ فإنَّ المراد بالإنسان: الجنس أيضًا، أي: (يا ابن آدم). و(الكدح) في كلام العرب: العمل والكسب^(٤).

(١) وأذكر على سبيل المثال ما قاله الطُّبري في تفسير هذه الآية: «يا أيُّها الإنسانُ الكافر، أيُّ شيء غرَّكَ برَّبُّكَ الكريم؟». تفسير الطُّبري (٨٧/٣٠)، وانظر: الجلالين (ص: ٧٩٥). وقال أبو حيَّان في (البحر): «والظاهر أنَّ المراد بالإنسان هنا ليس واحدا بعينه، بل المراد به الجنس كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلُقٌ هَلُوعٌ﴾ [المعارج: ١٩]. وهو راجع لمعنى الكافر». البحر المحيط (٧٣/٦)، وانظر: روح المعاني (٤٥/٣٠)، الخازن (٢١٦/٧)، وزاد المسير (٤٧/٩).

(٢) هو أبو الأشدُّ بن كَلْدَة بن أسد بن خلف الجُمحي قتل كافرا كنيته (أبو الأعور). نزهة الألباب في الألقاب، للحافظ ابن حجر (٢٥١/٢). وانظر: زاد المسير (٧٤/٩).

(٣) قال مقاتل: «نزلت في أبي الأشدين، اسمه أسيد بن كلدَة، وكان أعور شديد البطش». تفسير مقاتل (٤٥٨/٣)، وانظر: تفسير ابن عادل (١٩٦/٢٠)، الخازن (٢١٦/٧)، تفسير

البغوي (٤٥٥/٤). وقيل: في أبي جهل. انظر: تفسير السَّمعاني (١٧٣/٦).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٧١/١٩)، تفسير الرَّايزي (٩٩/٣١).

وقد أغفل الحكمة من (خطاب الجمع بلفظ الواحد) كثير من المفسرين، وتنبه إليها الإمام الرّازي في (تفسيره)، وبين المراد بياناً واضحاً قد غفل عنه الكثير من المفسرين والباحثين في علوم القرآن الكريم، حيث قال في قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسُنُ﴾ «فيه قولان: الأول: أن المراد جنس الناس كما يقال: (أيها الرجل)، وكلّكم ذلك الرجل، فكذا ههنا. وكأنه خطاب خصّ به كل واحد من الناس. قال القفال: وهو أبلغ من العموم؛ لأنه قائم مقام التّخصيص على مخاطبة كل واحد منهم على التّعيين بخلاف اللفظ العامّ فإنه لا يكون كذلك.

والثاني: أن المراد منه رجل بعينه، وههنا فيه قولان:

الأول: أن المراد به محمّد ﷺ، والمعنى: أنك تكدح في إبلاغ رسالات الله عز وجل، وإرشاد عباده، وتحمل الضرر من الكفار، فأبشر فإنك تلقى الله عز وجل بهذا العمل، وهو غير ضائع عنده.

الثاني: قال ابن عباس: هو أبي بن خلف. و(كدحه): جدّه واجتهاده في طلب الدنيا، وإيذاء الرّسول ﷺ، والإصرار على الكفر، والأقرب أنه محمول على الجنس؛ لأنه أكثر فائدة؛ ولأنّ قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ [الانشقاق: ٧]، ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ [الانشقاق: ١٠] كالنّوعين له^(١). وما يعنينا هنا القول الأول بأن المراد: جنس الناس. وقد رجّح الإمام الرّازي أنه يتناول

(١) انظر: تفسير الرّازي (١٠٤/٣١)، وانظر: تفسير السّمعاني (١٨٧/٦).

جميع العصاة^(١). وهو الذي أميل إلى ترجيحه - كآلية السابقة - في تناولها لجميع العصاة؛ لأنَّ خصوص السَّبب لا يقدر في العموم..
- كما سبق -.

قال الزَّرْكَشِيُّ: «وكثيراً ما يجيء ذلك في الخبر»^(٢).
أقول: وإتيان الزَّرْكَشِيِّ بالخبر يدلُّ على أنَّه لم يغفل الخطاب القرآني من حيث معناه الأعمُّ - وقد سبق بيان ذلك - من حيث إتيانه للخطاب بصيغة من صيغ الخطاب القرآني التي تدلُّ على الطَّلَب، وقد سبق الاصطلاح على ذلك بأنَّه من الخطاب القرآني من حيث الأخصُّ، وإتيانه بما لا يدلُّ على المواجهة أو الطَّلَب كالخبر كما هو هنا.. وقد ذكر في مظلة الأخص. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، و[آل عمران: ٨٤]، ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ﴿وَحَسَنَ أَوْلَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، أي: رفقاء^(٣).

وإذا تقرر ذلك علم أنَّه لا خلاف بين أهل اللسان العربي في وقوع إطلاق المفرد وإرادة الجمع مع تعريف المفرد وتنكيره وإضافته، وهو كثير في القرآن العظيم، وفي كلام العرب.
فمن أمثله في القرآن واللفظ معرَّف: قوله عز وجل: ﴿وَتُؤْمِنُونَ

(١) انظر: تفسير الرَّايزي (٣١ / ٧٩) .

(٢) البرهان (٢٣٣/٢).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢٣٣/٢).

بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ﴿ [آل عمران: ١١٩]، أي: بالكتب كلها، بدليل قوله عز وجل: ﴿كُلُّ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ بِهِ وَكُنِيَ﴾ [البقرة: ٢٨٥]^(١)، وقوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: ١٥]. وقوله عز وجل: ﴿سَيَهَيِّئُ الْمَجْمُوعَ وَيُولِئُونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]. يعني: الأدبار، كما هو ظاهر. وقوله عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥]، يعني: الغرفات بدليل قوله عز وجل: ﴿لَهُمْ عُرُفٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرُفٌ مَّيْنَةٍ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقوله عز وجل: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]. وقوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، أي: الملائكة، بدليل قوله عز وجل: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله عز وجل: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا﴾ [النور: ٣١] الآية، يعني: الأطفال الذين لم يظهروا. وقوله عز وجل: ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] الآية، يعني: الأعداء.

ومن أمثله واللفظ منكراً: قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ﴾ [القمر: ٥٤]، يعني: وأنهار^(٢)، بدليل قوله عز وجل: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّنْ مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ [محمد: ١٥] الآية. وقوله عز وجل: ﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُنَافِقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] يعني: أئمة، وقوله عز وجل:

(١) وكذلك قوله عز وجل: ﴿يَأْتِيَنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ بِهِ وَكُنِيَ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]. وهو واضح في الدلالة على ذلك.

(٢) انظر: الكشاف (٤/٤٢)، والتفسير (٤/٣٠٤)، والبيضاوي (٥/٢٧١).

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَعَمًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، يعني: سَامِرِينَ.
 وقوله: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥] يعني: أطفالا، وقوله: ﴿لَا
 نَفَرُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٣٦]، أي: بَيْنَهُمْ. وقوله عز وجل:
 ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، أي: رُفَقَاءَ. وقوله: ﴿وَإِنْ
 كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: ٦]، أي: جُنُبِينَ أَوْ أَجْنَابًا. وقوله:
 ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحریم: ٤]، أي: مُظَاهِرُونَ لِدَلَالَةِ
 السَّيَاقِ فِيهَا كُلُّهَا عَلَى الْجَمْعِ. وَاسْتَدَلَّ سَبِيوِيهِ^(١) لهذا بقوله: ﴿فَإِنْ طَبَنَ
 لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤]، أي: أَنْفُسًا.
 ومن أَمْثَلِهِ وَاللَّفْظُ مُضَافٌ: قوله عز وجل: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ
 مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١]، أي: أصدقاؤكم، وقوله:
 ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣] الآية، أي: أوامره،
 وقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]،
 أي: نِعَمَ اللَّهِ عز وجل، وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَلُّوا﴾
 [الحجر: ٦٨] الآية، يعني: أَضْيَافِي^(٢).

(١) انظر: الكتاب لسبيويه (١/ ٢١٠)، وانظر: ما استدلل به مما جاء في الشعر على لفظ الواحد ويراد به الجميع في (الكتاب) (١/ ٢١٠-٢١١).

(٢) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (السنة الأولى)، العدد الثالث (ص: ١٧)، وانظر: أضواء البيان (٤/ ٢٧٢-٢٧٣). وقد نقلت قول الشيخ الشنقيطي؛ لأنه قد انفرد من بين الباحثين من حيث المنهج، حيث ذكر ما جاء معرقاً، وما جاء منكراً، وما جاء مضافاً. وقد أتيت في سرد النماذج على بيان الكثير مما ذكر هنا مجملًا، مع بيان عناية المفسرين بإبراز هذا اللون من ألوان الخطاب، ومع اختلاف في الترتيب.

وقد بين الشيخ الشنقيطي في (دفع إيهام الاضطراب) من كلام العرب ما يدل على أن ذلك كان سائغاً عند العرب. قال: ولأجل مراعاة هذا لم يجمع في القرآن السَّمع والطَّرْف والضَّيف؛ لأنَّ أصلها مصادر كقوله عز وجل: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، وقوله: ﴿يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي﴾ ..

ومن اللطائف التي ذكرها في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِإِثْمِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١] أنه قد جاء في هذه الآية بصيغة خطاب الجمع في أفراد، والجمع في شيء واحد، فمعنى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ ، أي: أول فريق كافر، فاللفظ مفرد، والمعنى جمع فيجوز مراعاة كل منهما^(١).



(١) بتصريف عن (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)، (ص: ١٧-١٨)، وانظر: أضواء البيان (٤/ ٢٧٢-٢٧٣).

ب. سرد النماذج والأمثلة^(١):

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، أي: ما كانوا يذبحونه من القرابين فوق الأنصاب. و(النُّصُب) -بضمّتين- الحجر المنسوب، فهو مفرد مراد به الجنس. وقيل: هو جمع وواحد (نصاب).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]. فقلوه ﷻ: ﴿وَمَنْ﴾ (مَنْ) موصولة مراد به الجنس، أي: كل من افتري أو قال، وليس المراد فردا معيّنًا.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]. فعدوّا هنا بمعنى أعداء^(٢).

(١) وقد أتيت في سرد النماذج هنا -كما أسلفت- على بيان الكثير مما ذكر مجملًا، مع بيان عناية المفسرين بإبراز هذا اللون من ألوان الخطاب على الترتيب المتبع، ولكن الاهتمام ينصب على الآيات التي هي موضع عناية من المفسرين.

(٢) قال الرازي في (تفسيره) (١٣/١٤٥): «أراد أعدائي، فأذى الواحد عن الجمع، وله نظائر في القرآن. ومنها قوله: ﴿صَيفَ الْيَهُودِ الْمُكَرَّمِ﴾ [الذاريات: ٢٤]. جعل المكرمين - وهو جمع - نعتًا للضيف، وهو واحد، وثانيها: قوله عز وجل: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّمَا طَلَعَ﴾ [ق: ١٠]، وثالثها: قوله عز وجل: ﴿أَوِ الطَّغْيَلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ الْإِنْسِ﴾ [الثور: ٣١]، ورابعها: قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنٍ خَسِيرٌ﴾ [الذين آمنوا: ٢-٣]، وخامسها: قوله: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلًّا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ﴾ [آل عمران: ٩٣] أكد المفرد بما يؤكد الجمع به، ولقائل أن يقول: لا حاجة إلى هذا التكلف؛

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]،
الموصول في قوله ﷻ: ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ مراد به الجنس أيضًا؛
فلذلك استوى مفرده وجمعه^(١).

= فإنَّ التقدير: (وكذلك جعلنا لكل واحد من الأنبياء عدوًا واحدًا)؛ إذ لا يجب لكل واحد من الأنبياء أكثر من عدو واحد. أمَّا قوله عز وجل: ﴿يُوحَىٰ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، فالمراد أنَّ أولئك الشياطين يوسوس بعضهم بعضًا. واعلم أنَّه لا يجب أن تكون كل معصية تصدر عن إنسان فإنَّها تكون بسبب وسوسة شيطان، وإلَّا لزم دخول التسلسل أو الدور في هؤلاء الشياطين، فوجب الاعتراف بانتهاء هذه القبائح والمعاصي إلى قبيح أول، ومعصية سابقة حصلت لا بوسوسة شيطانٍ آخر. تفسير الرَّاَزي (١٥٤/١٣). والحاصل أنَّ (الطفل): اسم يصدق على الواحد والاثنين والجمع، للمذكر والمؤنث، قال عز وجل: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَتِ النَّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]، ولكن لماذا جاء (الطفل) مفردًا، والذين جمعًا؟ وردت كلمة: (طفل) في (سورة النور) كما سبق، وكذلك في (سورة الحج) [الآية: ٥]، وفي (سورة غافر) [الآية: ٦٧]. ووردت كلمة (الطفل) والأطفال في القرآن، و(الطفل) تأتي للمفرد والمثنى والجمع فنقول: (جارية طفل)، و(جارتان طفل)، و(جوازي طفل). فمن حيث اللغة ليست كلمة (الطفل) منحصرة بالمفرد. لكن وردت في (سورة النور) أيضًا كلمة: (الأطفال). قال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ [النور: ٥٩]. ولو لاحظنا في (سورة الحج): ﴿ثُمَّ نَخْرِجْكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥] الآيات تتكلم عن خلق الجنس، وليس عن خلق الأفراد، فكل الجنس جاء من نطفة، ثم علقية، ثم مضغة؛ لذا جاءت كلمة (طفل). أمَّا قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾؛ فإنَّ السياق هنا مبني على علاقات الأفراد، وليس على الجنس؛ لأنَّ الأطفال عندما يصلون إلى سن البلوغ تختلف نظرهم إلى النساء كل واحد له نظرة مختلفة عن الآخر، فلا يعود التعاطي معهم كجنس.

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٧٦/٨).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٦].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، ونحوه: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرُّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: ٨].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَا تَصِلْ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، ومثله قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَانَا﴾ [هود: ٨١]، وكذلك [الحجر: ٦٥]، ﴿هَلْ يُحِشُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

فالإنسان مراد به الجنس، والتعريف باللام يفيد (الاستغراق العرفي)، أي: الإنسان الكافر...، كما في قوله ﷻ: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثٌ لَّسَوْفَ أَخْرِجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦].

ومن المفسرين^(١) من جعل اللام في (الإنسان) للعهد، وجعل المراد به: أبا حذيفة بن المغيرة المخزومي، واسمه (مُهَشِّم)^(٢). ولكن

(١) انظر: تفسير الطبري (٩٢/١١)، البحر المحيط (١٣٣/٥)، تفسير مقاتل بن سليمان (٨٤/٢).

(٢) (مُهَشِّم) - بضم الميم وفتح الهاء وتشديد الشين المعجمة المكسورة - كما نصَّ عليه في (تاج العروس) (١٠٦/٩). وأبو حذيفة بن عتبة هذا، جزم ابنُ حزم [في] (جوامع السيرة وخمس =

ما يعنينا هنا ما سبقت الإشارة إليه غير مرة.
ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ [هود: ٧٨]. ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءَ ضَيْفِي﴾ [الحجر: ٦٨]. ولم يقل: (ضيوفي)؛ لأنه مصدر^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَتَوُا ظِلَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ﴾
[النحل: ٤٨]. قيل: اليمين بمعنى الأيمان، يعني أنه مفرد قائم مقام الجمع، فوحد (اليمين) في اللفظ، والمراد (الأيمان)؛ فلذلك عطف عليه بالشَّمَائِلِ، وهي جمع^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:
﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢]، أي: وكلاء.
ومن ذلك قوله ﷻ:
﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾ [الكهف: ٤٩]. و(الكتاب)

= رسائل أخرى (ص: ٥٠) بأن اسمه: (مُهَشَّم)، وكذلك جزم ابن هشام [في السيرة النبوية] (٢/ ٣٦٢)، واقتصر عليه الذهبي [في تاريخ الإسلام] (١/ ٣٦٤)، فقال: قيل: اسمه (مُهَشَّم)، وهو مشهور بكنيته. وهو صحابي قديم، هاجرَ الهجرتين، وشهد المشاهد كلها، بدرا فما بعدها. وقتل (يوم اليمامة) شهيدا سنة [١٢]، الرُّوض الأنف (٢/ ٨٦)، جوامع السيرة (١/ ٥٠). وانظر: التحرير والتنوير (١١/ ١٠٩)، تفسير القرطبي (٨/ ٣١٧)، تفسير ابن جزي (٢/ ٩٠).

(١) انظر: البرهان (٢/ ٢٣٣)، روح المعاني (١٤/ ٧١)، تفسير أبي السعود (٥/ ٨٥)، البيضاوي (٥/ ٢٣٧).

(٢) انظر: الكشف (٢/ ٤١٢)، ابن عادل (١٢/ ٧٠)، حجة القراءات، لأبي زهرة (ص: ١٣٣).

مرادٌ به الجنس، أي: وضعتُ كتبُ أعمال البشر، واكتفى باسم الجنس عن الجمع؛ إذ لكلِّ أحدٍ كتاب على حدة. كما دلَّت عليه آياتٌ أخرى، منها قوله ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [١٣-١٤]. ونحوه قوله ﷻ: ﴿وَرَرَى كُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨]؛ فإنَّ الإضافة فيه إلى ضمير الأمة على إرادة التوزيع على الأفراد؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ من كلِّ أمةٍ صحيفة عمله، خاصّة به، فقوله ﷻ: ﴿إِلَى كِتَابِهَا﴾ أي: إلى صحائف أعمالها، فاكتفى باسم الجنس. وقد ذكر ذلك غيرُ واحدٍ من المفسِّرين^(١). ونحوه قوله ﷻ: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ [الزمر: ٦٩]^(٢). ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾ [طه: ٦٤]، فالصَّفُّ هنا مراد به الجنس لا الواحدة، أي: ثمَّ اتوا صفوفًا، فهو كقوله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الزُّجُرُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبا: ٣٨]، وقال: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]^(٣).

(١) انظر: الكشف (٥١٣/٣)، التحرير والتنوير (٣٣٧/١٥)، (٣٦٧/٢٥)، روح المعاني (١٥٦/٢٥).

(٢) وعلى سبيل المثال فقد قال ابنُ جزي في تفسير هذه الآية: «يعني صحائف الأعمال، وإنَّما وحَّدها؛ لأنَّه أراد الجنس». تفسير ابن جزي (١٩٩/٣).

(٣) ذكر ذلك الطاهرُ بن عاشور في (التحرير والتنوير) (٢٥٧/١٦). والمسألة فيها أقوال، وقد أجملها الخطيبُ الشَّرينيُّ في تفسيره (السراج المنير): «الأول: أن يعرض الخلق كلُّهم صَفًّا =

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهَجُّونَ ۖ﴾ [المؤمنون: ٦٧]، أي: سَمَارًا^(١)؛ لقوله: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ قبله، وبعده ﴿تَهَجُّونَ﴾.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ۙ﴾ [النور: ٢١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١].
و(الطفل) هنا مفرد مراد به الجنس، ويبيّن ذلك ما بعده فقد أجرى الجمع في قوله: ﴿الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا﴾.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاحَهُ أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١]. «و(صديق) هنا مراد به الجنس الصادق بالجماعة بقرينة إضافته إلى ضمير جماعة

= واحدًا؛ لاتساع الأرض ظاهرين لا يحجب بعضهم بعضًا. ثانيها: لا يبعد أن يكونوا صفًا يقف بعضهم وراء بعض مثل الصفوف المحيطة بالكعبة التي تكون بعضها خلف بعض، وعلى هذا فالمراد بقوله عز وجل: ﴿صَفًّا﴾ [أي: صفوفاً، كقوله عز وجل: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]. أي: أطفالاً. ثالثها: المراد بالصفّ القيام كما في قوله عز وجل: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ [الحج: ٣٦]، أي: قيامًا. وقيل: كلُّ أمة صفّ، ويقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف: ٤٨]. السراج المنير (٢/ ٤٢٠). وما يعيننا هنا ما قيل من أن الصفّ مراد به الجنس، وهو الذي نصره الطاهر بن عاشور في قوله الآنف الذكر..

(١) انظر: الكشف (٣/ ٣٦)، المحرّر الوجيز (٤/ ١٥٠)، البحر المحيط (٨/ ٢٨٧)، القرطبي (١٢/ ١٣٦).

المخاطبين، وهو اسم تجوز فيه المطابقة لمن يجري عليه إن كان وصفاً أو خبراً في الأفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث، وهو الأصل. والغالب في فصيح الاستعمال أن يلزم حالة واحدة قال ﷻ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]. ومثله: (الخليط) و(القطين). و(الصديق): فعيل بمعنى فاعل، وهو الصادق في المودة. وقد جعل في مرتبة القرابة مما هو موقور في النفوس من محبة الصلة مع الأصدقاء. وسئل بعض الحكماء: أيُّ الرّجلين أحبُّ إليك أخوك أم صديقك؟ فقال: إنما أحبُّ أخي إذا كان صديقي^(١).

والحاصل أن (الصديق) هنا بمعنى: (الأصدقاء)، وقد ذكر ذلك غير واحد من المفسرين^(٢). أمّا الحكمة في كونه قد جمع (الشفعاء)، ووحد الصديق، فكثرة الشفعاء. وأمّا (الصديق)، وهو الصادق في وداك، الذي يهّمه ما أهّمك، ويسرّه ما أسرك فقليل.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. ف﴿الْكِتَابَ﴾

مراد به الجنس؛ فالتوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، كتب نزلت في ذرية إبراهيم عليه السلام^(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ

(١) التحرير والتنوير (٣٠٢/١٨).

(٢) انظر: الكشف (٧٧/٣)، البحر المديد (١٧٢/٥)، تفسير أبي السعود (٢٥٣/٦).

(٣) انظر على سبيل المثال: التحرير والتنوير (٢٣٩/٢٠)، البحر المديد (٤٦٧/٥).

أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ [العنكبوت: ٢٨].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]. فمما قيل^(١): إِنَّ مَلَكَ

الموت في هذه الآية مراد به الجنس، فتكون كقوله ﷻ: ﴿تُوفَّقُهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ

أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصافات: ٥١]. و(القرين)

مراد به الجنس؛ فَإِنَّ هذا القول من شأنه أن يقوله كثير من خلطاء المشركين قبل أن يُسلموا. و(القرين): المصاحب الملازم. شُبِّهت الملازمة الغالبة بالقرن بين شيئين بحيث لا ينفصلان^(٢).

والحاصل أن لفظ (القرين): اسم جنس، فسائقه قرين، وصاحبه من الزبانية قرين، وكاتبُ سيئاته في الدنيا قرين، والكلُّ تحتمله هذه

(١) انظر على سبيل المثال: روح المعاني (١٢٦/٢١)، التحرير والتنوير (٢٢١/٢١)، أضواء البيان (١٨٤/٦)، ابن عادل (١٩٧/٨).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١١٦/٢٣).

الآية ما يفيد الجمع، وإن كان اللفظ على الواحد^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوَّمُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾

[غافر: ٣٠]. مراد به، الجنس لا (يوم) معين، بقرينة إضافته إلى (جمع) أزمانهم متباعدة. فالتقدير: مثل أيام الأحزاب، فإفراد (يوم) للإيجاز حيث إنَّ جَمَعَ (الأحزاب) مع التفسير أغنى عن جمع (اليوم)^(٢). وذكر الرازي حكمة أخرى غير الإيجاز، حيث قال: «والتقدير: (مثل أيام الأحزاب)، إلا أنه لما أضاف (اليوم) إلى (الأحزاب)، وفسرهم بقوم نوح وعاد ثمود، فحيثُ ظهر أنَّ كلَّ حزبٍ كان له يومٌ معين في البلاء، فاقصر من الجمع على ذكر الواحد لعدم الالتباس، ثم فُسِّرَ قوله ﷻ: ﴿إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ بقوله: ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [غافر: ٣١].

و(دأب هؤلاء) دونهم في عملهم من الكفر والتكذيب وسائر المعاصي، فيكون ذلك دائماً ودائماً لا يفترون عنه، ولا بُدَّ من حذف مضاف، يريد: (مثل جزاء دأبهم). والحاصل أنه خوفهم بهلاك معجّل في الدنيا، ثمَّ خوفهم أيضاً بهلاك الآخرة^(٣).

(١) انظر: تفسير الثعلبي (٤/١٩٨)، السراج المنير (٣/٦٦٦).

(٢) أي: فسره بقوله عز وجل: ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]. كقوم لوط وشعيب -عليهما السلام-، لم يُلبَسْ أنَّ كلَّ حزبٍ منهم كان له يوم دمار... انظر: تفسير أبي السعود (٧/٢٧٥)، البحر المحيط (٧/٤٤٤).

(٣) تفسير الرازي (٢٧/٥١٧).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَهْلَكْنَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣].

«مراد به الجنس لوقوعه بعد (لا) النافية للجنس؛ فلذلك لا يقصد تضمُّنه لزمن ما؛ لأنَّه غير مراد به معنى الفعل، بل مجرد الاتِّصاف بالمصدر فتمحضٌ للاسمية، ولا التفات فيه إلى زمن من الأزمنة الثلاثة، ولذا فمعنى: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾: فلم ينصرهم أحد فيما مضى. ولا حاجة إلى إجراء ما حصل في الزَّمن الماضي مجرى زمن الحال. وقولهم اسم الفاعل حقيقة في الحال جرى على الغالب فيما إذا أريد به معنى الفعل»^(١).

ومما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]: إنَّ المراد بالنَّجم نجوم السَّماء، وعليه فهو من إطلاق المفرد وإرادة الجمع^(٢).
وما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَيُولُونُ الدُّبُرَ﴾ [القمر: ٤٥]، يعني: الأدبار..^(٣).

وأفرد (الدُّبر)، والمراد الجمع؛ لأنَّه جنس يصدق بالمتعدّد، أي: يولي كلُّ أحد منهم دبره، وذلك لرعاية الفاصلة، ومزاوجة القرائن.

(١) التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ (٩٢/٢٦).

(٢) انظر: تفسير الطُّبري (٤١/٢٧)، الكشف (٢٧/٤)، تفسير ابن جزي (٧٥/٤)، تفسير أبي السُّعود (١٥٤/٨)، وقيل: أي: أسقط مع الصبح، وقيل النَّجْم: الزُّهرة.. وقيل غير ذلك. انظر المواضع ذاتها في (المصادر السابقة).

(٣) انظر على سبيل المثال: الكشف (٤١/٤)، تفسير أبي السُّعود (١٧٤/٨)، البحر المحيِّط (١٨١/٨)..
إلخ.

وفيه إشارة إلى أنَّ جميعهم يكونون في الانهزام كشخص واحد^(١). قال
الفراء: «مثله أن يقول: إنَّ فلانا لكثير الدِّينار والدَّرهم»^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٧].

﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخْرِجَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا﴾ [الجن: ٢٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥].

فكأس مراد به الجنس، وتنوينه؛ لتعظيمه في نوعه^(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَأَلْهَمْنَا مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠]، والمعنى واضح.

وذكر الزركشي أنه يأتي في الوصف:

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَتِ النَّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]،

فأوقع الطِّفل جنسًا، وقد سبق.

وأراد بالطِّفل: الأطفال، يكون واحدا وجمعًا^(٤).

(١) انظر: التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ (٢٧/٢١٣)، وكذلك في (الكشاف) (٤/٤١)، ومعاني القرآن
للزجاج (٩٢/٥).

(٢) معاني القرآن، للفراء (٣/١١٠).

(٣) انظر: التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ (٢٩/٣٨٠).

(٤) انظر: تفسير البغوي (٣/٣٤٠).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

وقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، وجمعه: أنجية، من المناجاة. وأورد الزركشي أن نحو قوله ﷻ: ﴿أَوِ الْطِفْلِ الَّذِي لَمْ يَظْهَرُوا﴾ «من باب يغلب عليه الاسم لا الصفة نحو: الشاة والبعير والإنسان والملك. قال ﷻ: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

ومن مجيئه في الصفة قوله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧]، وقوله ﷻ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَفَرُ لِمَنِ عُقُوبَةُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]، وكل واحد من هذه الصفات لا تقع هذا الموقع إلا بعد أن تجري مجرى الاسم الصريح^(١).

ج. النتائج:

١ - يَبَيِّنُ أهمية هذا المطلب، وعناية الباحثين به، وصلته بموضوع البحث.

٢ - يَبَيِّنُ أَنَّ خطاب الجمع بلفظ الواحد أبلغ من العموم؛ لأنه قائم مقام التخصيص على مخاطبة كل واحد على حدة، مع بيان الحكم التي تختص بها بعض هذه الصيغ.

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٤).

- ٣ - يَبَيِّنُ أَنَّ خُطَابَ الْجَمْعِ بِلَفْظِ الْوَاحِدِ مِنْ أَلْوَانِ الْخُطَابِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّنَوُّعِ الْعَامِّ، كَمَا تَتَنَوَّعُ الْأَسَالِيبُ فِيهِ، فَيَجِيءُ فِي الْإِنْشَاءِ وَالْخَبَرِ، وَيَأْتِي وَاللَّفْظُ مَعْرَفٌ، كَمَا يَأْتِي وَاللَّفْظُ مَنْكُرٌ، كَمَا يَأْتِي وَاللَّفْظُ مضافٌ..
- ٤ - سَرَدُ النَّمَاذِجِ وَالْأَمْثَلَةِ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.



المطلب الثاني: خطاب الواحد بلفظ الجمع

أ. العرض والتحليل: قال السيوطي في (المزهر): «من سنن العرب مخاطبة الواحد بلفظ الجمع، فيقال للرجل العظيم: (انظروا في أمري). وكان بعض أصحابنا يقول: إنما يقال هذا؛ لأن الرجل العظيم يقول: (نحن فعلنا). فعلى هذا الابتداء خُوطبوا في الجواب. ومنه في القرآن: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]»^(١).

وإن هذا أسلوب سائغ لغة، يقول ابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن): «ومنه: [أي: من خروج ضمير الجمع عن ظاهره إلى ما يخالف الظاهر] أن يخاطب الواحد بلفظ الجمع كقوله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾. وأكثر من يخاطب بهذا الملوكة؛ لأن مذهبهم أن يقولوا: (نحن فعلنا)، ويعني نفسه فخُوطبوا بمثل ألفاظهم»^(٢).

فهل هناك من هو أعظم من مالك الملك، وأولى منه بمثل هذا الأسلوب منه ﷻ؟

ومن أمثلة (خطاب الواحد بلفظ الجمع) ما قيل في قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]. فقد قيل: إن المراد بالناس إبراهيم عليه السلام عبر عن الواحد بلفظ الجمع، كقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

(١) المزهر (٣٣٣/١)، وانظر: البحر المحيط، للزركشي (١٣٨/٣).

(٢) انظر: تأويل مشكل القرآن، شرح السيد أحمد صقر (ص: ٢٩٣).

النَّاسُ ﴿آل عمران: ١٧٣﴾.

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلُّوا وَيَتَزَكَّى﴾

النَّاسِ ﴿البقرة: ٢٢٤﴾. نزلت في الصديق ﷺ لما حلف أن لا ينفق على مسطح؛ لافتراءه على عائشة -رضي الله عنها-^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢]. فمما

قيل في تفسير الآية: إنَّ الخطاب في ﴿طَلَقْتُمُ﴾ ظاهره أنه للأزواج. وقيل: لثابت بن يسار^(٢)، خوطب الواحد بلفظ الجمع؛ للاشتراك في الحكم^(٣). وما كان تسمية للواحد بلفظ الجمع ما قيل في قوله ﷺ:

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩٧/٣)، وتفسير أبي السعود (٢٢٣/١)، والبغوي (٢٠٠/١)، الدر المنثور (٦٤٢/١). وقيل: إنها نزلت في عبد الله بن رواحة ﷺ كان بينه وبين خنته شيء، فحلف عبد الله أن لا يدخل عليه ولا يكلمه، وجعل يقول: قد حلفت بالله، فلا يحل لي إلا أن تبرّ يميني. فنزلت هذه الآية. قاله ابن عباس ﷺ. كما في (زاد المسير) (١/٢٥٣)، وكما في (العجائب) (٥٧٦/١).

(٢) هو ثابت بن يسار الكعبي الرُبَعي الخزاعي. قيل: نزل فيه قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلَهُنَّ فَأَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١] الآية. روى ذلك الطبري وابن المنذر من طريق السدي. قال: كان رجل يقال له: ثابت بن يسار طلق امرأته، فلما كادت عدتها تنقضي راجعها ثم طلقها، فعل ذلك مرارًا فنزلت. وذكره الثعلبي بغير إسناد. وأمّا الآية التي تليها، وفيها: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٢] فنزلت في معقل بن يسار. الإصابة في تمييز الصحابة (٣٩٩/١)، غوامض الأسماء المبهمة (٧٣٤/٢).

(٣) انظر: البحر المحیط (٢١٧/٢)، (٢٢٢/٢)، تفسير الطبري (٤٨١/٢)، تفسير القرطبي (١٤٨/١٨).

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة: ٢١٣]. قال مجاهد: الناس آدم وحده، وسمي (الواحد بلفظ الجمع)؛ لأنه أصل النسل^(١). وقيل: المراد بالناس بنو آدم عليه السلام..^(٢)، وقيل: على دين واحد^(٣).
والحاصل أن الشاهد فيما قاله مجاهد أنه أراد آدم عليه السلام وحده، حيث كان أمة واحدة، فسمي (الواحد بلفظ الجمع)؛ لأنه أصل النسل وأبو البشر، ثم خلق الله ﷻ حواء، ونشر منهما الناس فانتشروا، وكانوا مسلمين إلى أن قتل قابيل هابيل فاختلفوا .
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِحَيٍّ﴾ [آل عمران: ٣٩].
إن لفظ (الملائكة) جمع لا واحد له. ومن الجائز في كلام العرب أن تخبر عن الواحد بمذهب الجمع، كما يقال في الكلام: (خرج فلان على بغال البرد)^(٤)، وإنما ركب بغلا واحداً، وركب السفن، وإنما ركب سفينة واحدة، وكما يقال: ممن سمعت هذا الخبر؟ فيقال: من الناس. وإنما سمعه من رجل واحد. وقد قيل: إن منه قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ

-
- (١) انظر: تفسير مجاهد (١/١٠٤)، وقال ذلك أيضاً في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [يونس: ١٩]. وانظر: تفسير مجاهد (١/٢٩٢)، وانظر: تفسير القرطبي (٣/٣٠)، تفسير ابن عادل (٣/٥٠٢)، السراج المنير (١/١٥٨)، البغوي (١/٢٤٣).
(٢) انظر: القرطبي (٣/٣٠)، المحرر الوجيز (١/٢٨٥)، البحر المحيط (٢/١٤٣-١٤٤)، تفسير الماوردي (٢/٤٢٨)، تفسير العز بن عبد السلام (١/٤٤٨).
(٣) انظر على سبيل المثال: الطبري (٢/٣٣٦)، (١١/٩٨)، (٢٥/١٠)... الدر المنثور (٤/٤١٩)، القرطبي (٣/٣٠)... إلخ.
(٤) انظر: الأغاني (١١/٣١٩)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، للثعالبي (ص: ١٦٨).

قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٧٣].
 والمراد بالملائكة عند جمهور المفسرين^(٢) جبريل -عليه السلام-
 ويسمى الواحد بالجمع كقوله ﷻ في (سورة النحل): ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ
 بِالرُّوحِ﴾ [النحل: ٢]، يعني: جبريل (بالروح) بالوحي، ويجوز في
 العربية أن يخبر عن (الواحد بلفظ الجمع) كقولهم: (سمعت هذا الخبر
 من الناس)، وإنما سمع من واحد، نظيره قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ
 النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ يعني: نعيم بن مسعود. ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾
 يعني: أبا سفيان بن حرب^(٣). قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف
 قيل: ﴿النَّاسِ﴾ إن كان (نعيم) هو المثبط وحده؟ قلت: قيل ذلك؛
 لأنه من جنس الناس، ما يقال: (فلان يركب الخيل ويلبس البرود)،
 وماله إلا فرس واحد وبرد فرد، أو لأنه حين قال ذلك لم يخل من ناس من
 أهل (المدينة) يضامونه، ويصلون جناح كلامه، ويشبطون مثل تشبيطه»^(٤).
 ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧].

قيل: أراد به ملك الموت وأعوانه، أو أراد ملك الموت وحده، كما قال
 ﷻ: ﴿قُلْ يَتُوفَّيْكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، والعرب قد

(١) انظر ذلك في (تفسير الطبري) (٢٤٩/٣)، تفسير القرطبي (٧٤/٤).

(٢) ذكر ذلك الآلوسي في (تفسيره) (٩٣/١٤)، وستأتي الإشارة إلى أقوال المفسرين.

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤٩/٣)، تفسير القرطبي (٧٤/٤)، (١٣٣/٢٠).

(٤) الكشف (٤٨٠/١-٤٨١).

تخاطب الواحد بلفظ الجمع^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَمَّا يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤].

يعني محمداً ﷺ وحده، فذكر الواحد بلفظ الجمع، ومثله كثير^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

قيل: أراد بالرسُل مَلَك الموت وحده، فذكر الواحد بلفظ الجمع^(٣).

وقيل: أعوان مَلَك الموت يقبضونه فيدفعونه إلى مَلَك الموت

فيقبض روحه، كما قال ﷻ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَكُم مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ . وقيل:

الأعوان يتوفونه بأمر ملك الموت، فكان مَلَك الموت توفاه؛ لأنهم

يصدرن عن أمره. ولعلَّ الرَّاجح أنَّ الموكِّل بقبض الأرواح مَلَك

واحد، هو المذكور هنا، ولكن له أعوان يعملون بأمره..^(٤)

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[الأعراف: ٨].

(١) انظر: تفسير ابن عادل (٥٩٠/٦)، (١٩٧/٨)، تفسير البغوي (٤٦٩/١)، الخازن

(١/٥٨٢)، السراج المنير (٣٣٩/١)، تفسير السمعاني (١١٢/٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٣٧-١٤٠)، القرطبي (١٦/٢)، (٢٧٩/٤)، روح المعاني (٥٧/٥).

(٣) انظر: تفسير البغوي (١٠٣/٢)، البحر المحيط (١٥٢/٤)، البحر المديد (٢٢٦/٢)،

السراج المنير (٤٩٢/١)، السمعاني (١١٢/٢).

(٤) وينظر في ذلك مفصلاً في: الطبري (٢١٦-٢١٧)، القرطبي (٧/٧)، روح المعاني

(١٧٦/٧)، (١٢٦/٢١)، تفسير البغوي (١٠٣/٣)، الدر المنثور (٢٨١-٢٨٢).

فممّا قيل في بيان (الموازن) أنّه ذكر بلفظ الجمع، والميزان واحد. قيل: يجوز أن يكون لفظه جمعا ومعناه واحد، كقوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١] وسيأتي بيانه في موضعه. وعلى ذلك فقد جمعت الموازين باعتبار الموزونات والميزان واحد. وقيل: لكلّ عبد ميزان، وقيل غير ذلك..^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قيل: يعني: إبليس، أخبر عن الواحد بلفظ الجمع^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمَا ءَمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّتُهُ﴾ [يونس: ٨٣]. قيل: إنّما قال:

﴿وَمَلَانِيَهُمْ﴾ مع أنّ فرعون واحد لوجوه: الأوّل: أنّه قد يعبر عن

الواحد بلفظ الجمع، والمراد التّعظيم. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا

الدُّكْرَ﴾ [الحجر: ٩]، الثّاني: أنّ المراد بفرعون: آل فرعون. الثّالث:

أنّ هذا من باب حذف المضاف كأنّه أريد بفرعون: آل فرعون^(٣). قال

الفراء: وإنّما قال: ﴿وَمَلَانِيَهُمْ﴾ -بالجمع- وفرعون واحد؛ لأنّ

(١) انظر: تفسير البغوي (١٤٩/٢)، المحرّر الوجيز (٣٧٦/٢)، الخازن (٢١١/٢)، السّراج

النير (٥٣٤/١). وقد ذكر أبو حيّان في (البحر) أنّ جمع الموازين باعتبار الموزونات والميزان

واحد أنّه قول الجمهور. انظر: البحر المحيط (٢٧١/٤).

(٢) انظر: تفسير الطّبري (١٤٩/٩)، تفسير البغوي (٢٢١/٢)، الكشف والبيان (٣١٥/٤)،

الخازن (٣٢٥/٢)، زاد المسير (٣٠٢/٣).

(٣) انظر: تفسير الرّازي (١٤٥/١٧)، روح المعاني (١٦٨/١١).

الملك إذا ذكر ذهب الوهم إليه وإلى أصحابه^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَالِئِمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود: ١٤].

قيل: المخاطب النبي ﷺ؛ لقوله ﷻ: ﴿قُلْ فَأَتُوا﴾ [هود:

١٣] ^(٢). ولم يقل: (لك). فقليل هو على تحويل المخاطبة من الأفراد

إلى الجمع تعظيماً وتفخيماً، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به

الجماعة. وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ وفي ﴿فَأَعْلَمُوا﴾ للجميع، أي:

فليعلم الجميع أنما أنزل بعلم الله ﷻ. قاله: مجاهد^(٣). وقيل: الضمير

في ﴿لَكُمْ﴾ وفي ﴿فَأَعْلَمُوا﴾ للمشركين، والمعنى: فإن لم يستجب

لكم من تدعونه إلى المعاونة ولا تهيات لكم المعارضة فاعلموا أنما

أنزل بعلم الله ﷻ. وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ للنبي ﷺ

وللمؤمنين، وفي ﴿فَأَعْلَمُوا﴾ للمشركين^(٤).

والحاصل أنه جمع الضمير إمّا لتعظيم الرسول ﷺ، أو لأنَّ

المؤمنين كانوا أيضاً يتحدّونهم، وكان أمر الرسول ﷺ متناولاً لهم من

حيث إنّه يجب اتباعه عليهم في كلِّ أمر إلا ما خصّه الدليل.

(١) معاني القرآن، للقرّاء (١/٤٧٦-٤٧٧)، تفسير الطبري (١١/١٥٠)، تفسير البغوي

(٢/٣٦٤)، الكشف والبيان (٥/١٤٣)، زاد المسير (٤/٥٣)، الخازن (٣/٢٠٣).

(٢) انظر: الإتيان (٢/٩٢).

(٣) انظر: تفسير مجاهد (١/٣٠١).

(٤) تفسير القرطبي (٩/١٣)، وانظر: تفسير البيضاوي (٣/٢٢٥)، زاد المسير (٤/٨٣)، البحر

المديد (٣/٢٠١)، وتفسير مجاهد (١/٣٠١).

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢].

يعني: جبريل عليه السلام، و(الروح): الوحي. وجائز في العربية أن يخبر عن الواحد بلفظ الجمع، وقد جمعه تعظيماً^(١)، وقد سبق بيان ذلك.

ومما قيل في قوله ﷺ:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]: خاطب به النبي ﷺ بدليل قوله ﷺ: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] الآية^(٢).

والذي أميل إلى ترجيحه أنها عامة، ثم خص النبي ﷺ بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ﴾، أي: لا تعاقب انتقاماً -ولو بالمثلية-، ولكن اصبر، وهو الذي يتوافق مع ظاهر الآية؛ إذ كيف يأمره بأن يعاقب بالمثل.. ثم يقول له: اصبر ولا تعاقب..!!^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠].

(١) انظر ذلك مفصلاً في: تفسير القرطبي (٧٤/٤)، روح المعاني (٩٣/١٤)، الوجيز للواحدي (ص: ٦٠٠)، تفسير السمرقندي (٢٢٨/٢)، تفسير أبي السعود (٩٥/٥).

(٢) انظر: الإتيان (٩٠/٢)، البرهان (٢٣٥/٢)، وانظر: لباب الثقول (١٣٥/١)، وزاد المسير (٥٠٧/٤)، وتفسير مجاهد (٣٥٥/١).

(٣) ومن المفسرين من قال باحتمال عمومها. انظر: تفسير ابن جزي (١٦٥/١)، البحر المديد (٩٧/٤).

يجوزُ أن يكون هذا الخطاب للمرأة وولدها والخادم. ويجوز أن يكون للمرأة وحدها خرج على ظاهر لفظ (الأهل)؛ فإنَّ (الأهل) يقع على الجمع. وأيضاً فقد يخاطب الواحد بلفظ الجمع تفخيماً، أي: (أقيموا في مكانكم)^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَتَأْتِيَهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]، فقد ذكر الزركشي أنه خطاب للنبي ﷺ وحده؛ إذ لا نبيَّ معه قبله ولا بعده، وقد سبق بيان ذلك.

أقول: وما ذكره وجزم به هو رأي ذكره المفسرون، وهو في ظاهره مخالف لما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ^(٢) لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ

(١) انظر: روح المعاني (١٦/١٦٥)، تفسير التيسابوري (٤/٥١٩)، تفسير ابن عادل (١٣/١٨٥)، (١٥/١١٠)، السراج المنير (٢/٤٩٩)، (٣/٨٥).

(٢) قال القاضي عياض: «(الطيب) في صفة الله عز وجل بمعنى: المنزعة عن النقائص، وهو بمعنى القدوس، وأصل (الطيب): الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث». إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣/٥٣٢). وذكر الثووي أن «هذا الحديث أحد الأحاديث التي هي قواعد الإسلام ومباني الأحكام، وقد جمعت منها (أربعين) حديثاً في جزء -[يعني: الأربعين النووية]-». وفيه الحث على الإنفاق من الحلال، والنهي عن الإنفاق من غيره. وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه، وأن من أراد الدعاء كان أولى بالاعتناء بذلك من غيره. قوله: «ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب» إلى آخره.. معناه والله أعلم: أنه يطيل السفر في وجوه الطاعات كحج، وزيارة مستحبة، وصلة رحم، وغير ذلك. قوله ﷺ: «وغذي بالحرام» هو بضم الغين وتخفيف الذال المكسورة. قوله ﷺ: «فأني يستجاب لذلك؟» أي من =

بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيَ الرُّسُلَ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ ، وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبَّ يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟^(١).

وتفصيل القول في ذلك أنه خطاب لجميع الرُّسل -عليهم الصَّلَاة والسلام- لا على أنهم خطبوا بذلك دفعةً؛ لأنَّهم أرسلوا متفرِّقين في أزمنةٍ مختلفة، بل على معنى أنَّ كلَّ رسولٍ منهم خوطب به في زمانه، ونودي ووصي ليعلم السَّامع أنَّ إباحة الطَّيبات للرُّسل شرعٌ قديم، وأنَّ أمرًا نودي له جميعُ الأنبياء ووصُّوا به حقيقةً أن يؤخذ به ويعمل عليه. أي: وقلنا لكلِّ رسول: (كُلْ من الطَّيبات، واعمل صالحًا)، فعبرَ عن تلك الأوامر المتعددة المتعلقة بالرُّسل بصيغة الجمع عند الحكاية إجمالاً للإيجاز. وقال بعضهم: إنَّه خطاب لرسول الله ﷺ وحده على دأب العرب في مخاطبة الواحد بلفظ الجمع للتَّعظيم، وفيه إبانة لفضله، وقيامه مقام الكلِّ في حيازة كمالاتهم^(٢)، وهو رأيٌ

= أين يستجاب لمن هذه صفته؟ وكيف يستجاب له؟. شرح الثَّووي على صحيح مسلم (١٠٠/٧)، إكمال المعلم (٣/٥٣٢).

(١) أخرجه مسلم [١٦٨٦].

(٢) انظر: تفسير روح المعاني (٢٣٩/١٢)، البيضاوي (١٥٨/٤)، أبو السعود (١٨/٦). وفي (الثَّحفة): ((النَّداء خطاب لجميع الأنبياء -عليهم الصَّلَاة والسلام- لا على أنَّهم خطبوا بذلك دفعةً واحدة؛ لأنَّهم أرسلوا في أزمنةٍ مختلفة، بل على أنَّ كلا منهم خوطب به في زمانه. ويمكن أن يكون هذا النَّداء يوم الميثاق لخصوص الأنبياء -عليهم الصَّلَاة والسلام-)). =

الطبري^(١)، جاء في (تفسيره): «يقول ﷺ: وقلنا لعيسى عليه السلام: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ﴾ كلوا من الحلال الذي طيَّبه الله ﷻ لكم دون الحرام، واعملوا صالحًا. تقول في الكلام للرجل الواحد: (أيها القوم كفُّوا عَنَّا أذاكم).

وكما قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ ، وهو رجل واحد. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل^(٢).

وكذلك في (معاني القرآن)، للنحاس^(٣)، والواحد^(٤).

والحاصل: أنَّ الله ﷻ أمر في هذه الآية الكريمة رسله -عليهم الصلاة والسلام- مع أنَّ الموجود منهم وقت نزولها واحد، وهو نبيُّنا ﷺ، بالأكل من الطَّيبات، وهي الحلال الذي لا شبهة فيه على

= تحفة الأحوذى (٢٦٦/٨-٢٦٧).

(١) وهو قول ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة والسدي والكلبي. انظر: تفسير البغوي (٣/٣١٠). وكذلك في (زاد المسير) (٥/٤٧٧). وقال ابن الجوزي في (زاد المسير): «قال ابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة في آخرين يعني بالرسُل ها هنا محمداً ﷺ وحده، وهو مذهب العرب في (مخاطبة الواحد خطاب الجميع)، ويتضمَّن هذا أنَّ الرُّسل جميعاً كذا أمروا، وإلى هذا المعنى ذهب ابن قتيبة [في (تأويل مشكل القرآن) (ص: ٢٨٢)]، والزجاج [انظر: معاني القرآن وإعرابه، (٤/٥١)]. والمراد (بالطَّيبات): الحلال. قال عمرو بن شرحبيل كان عيسى عليه السلام يأكل من غزل أمه». زاد المسير (٥/٤٧٧).

(٢) تفسير الطبري (٢٨/١٨).

(٣) انظر: معاني القرآن، للنحاس (٤/٤٦٥). وانظر: الأعلام (١/٢٠٨)، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (ص: ٨)، بغية الوعاة (١/٣٦٢)، طبقات المفسرين.

(٤) انظر: تفسير الواحدي (٢/٧٤٨)، وانظر: الأعلام (٤/٢٥٥)، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (ص: ٤٠)، بغية الوعاة (٢/١٤٥)، سير أعلام النبلاء (١٨/٣٣٩-٣٤٠).

التَّحْقِيقَ، وأن يعملوا العمل الصَّالح، وذلك يدلُّ على أنَّ الأكل من الحلال له أثرٌ في العمل الصَّالح، وهو كذلك، وهذا الَّذي أمرَ به الرُّسل في هذه الآية الكريمة، أمرَ به المؤمنين من هذه الأُمَّة الَّتِي هي خيرُ الأمم. وذلك في قوله ﷻ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ عَلَيْهِ تَقْبُدُونَ﴾ (١٧٦). والآية تدلُّ على أنَّ كلَّ رسولٍ أمرَ في زمنه بالأكل من الحلال، والعمل الصَّالح، وتأثير الأكل من الحلال في الأعمال معروف. والحديث السَّابق يدلُّ دلالةً واضحةً أنَّ دعاءه الَّذي هو من أعظم القُرب لم ينفعه؛ لأنَّه لم يأكل من الحلال ولم يشرب منه، ولم يركب منه^(١). وسيأتي مزيد من التَّحقيق والبيان في (النِّداء). كما سيأتي أنَّه نداءٌ تنبيهٍ مع مدح. ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]. ولم يقل: (أرجعني)، وهو يسأل الله ﷻ وحده الرَّجعة، على عادة العرب؛ فإنهم يخاطبون الواحد بلفظ الجمع على وجه التَّعظيم، كما أخبر الله ﷻ عن نفسه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٩) [الحجر: ٩]، ومثله كثيرٌ في القرآن^(٢).

قيل: ﴿رَبِّ﴾ خطاب له ﷻ، أو استغاثة به، و﴿ارْجِعُونِ﴾

(١) انظر: أضواء البيان (٣٣٩/٥).

(٢) تفسير البغوي (٣١٧/٣)، روح المعاني (٢٨٣/١٣)، وانظر: الخازن (٤٤/٥)، وانظر:

البحر المحيط، للزُّركشي (١٣٨/٣).

للملائكة^(١).

أقول: وأميل إلى ضعف^(٢) هذا القول؛ لأن فيه تفكيكاً للخطاب، ومخالفةً لظاهره؛ ولما تقرر أن (خطاب الواحد بلفظ الجمع) أمرٌ سائغ، وله نظائر كثيرة فلا حاجة للعدول عن ظاهر الخطاب...، والحديث الذي ذكروه -وقد خرَّجته في الحاشية- مُرسلٌ، وهو أيضاً محتمل.

ومن ذلك قوله ﷺ: ﴿وَلَا يَأْتَلِي أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ [النور: ٢٢]. هو مسطح؛ فإنه كان قريب أبي بكر ﷺ، وكان مسكيناً، ومن المهاجرين. وقد ذكر (الواحد بلفظ الجمع)، ويجوز مثل هذا في اللغة. ويجوز أنه أراد وأراد غيره^(٣).

(١) انظر: الإتيان (٢/ ٩٠). ويستأنس لهذا الوجه بما ذكره ابن جرير عن ابن جريج قال: قال رسول الله ﷺ لعائشة -رضي الله عنها-: «إذا عاينَ المؤمنُ الملائكة قالوا: نرجعك إلى دار الدنيا، فيقول: إلى دار الهموم والأحزان، فيقول: بل قدَّموني إلى الله عز وجل. وأما الكافر فيقولون له: نرجعك، فيقول: ربِّ ارجعون». تفسير الطبري (١٨/ ٥٢)، روح المعاني (١٨/ ٦٣)، (١٣/ ٢٨٣)، تفسير البضاوي (٤/ ١٦٧). وقد أخرجه ابن جرير من حديث ابن جريج مُرسلاً. انظر: الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البضاوي، للمناوي (٢/ ٨٥٧). وفي (تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزنجشيري)، للزيلعي: رواه الطبري... حدَّثني القاسم حدثنا الحسين بن حجاج عن ابن جريج قال: قال النبي ﷺ لعائشة: «إذا عاينَ المؤمنُ الملائكة...» إلى آخره... وذكره الثعلبي عن عائشة مرفوعاً من غير سند. (٢/ ٤٠٧). أقول: والحاصل أن الضعف يعتري هذا القول من جهة المنقول، وكذلك من جهة المعقول لاحتماله.

(٢) أقول: وقد ضعفه كذلك السمعاني في (تفسيره) (٣/ ٤٨٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٠٢ - ١٠٣)، القرطبي (٣/ ٩٧)، و(١٢/ ٢٠٧)، وابن كثير (٣/ ٢٧١ - ٢٧٧)، وروح المعاني (٢/ ١٢٦)، و(١٨/ ١٢٥)، والدُر المنثور (٦/ ١٦٢).

وأورد الزركشي لإيقاع (خطاب الواحد بلفظ الجمع) قوله ﷺ: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، ثم قال: «يعني: عائشة رضي الله عنها وصفوان^(١)»^(٢).

أقول: والتحقق أن ذلك من إيقاع الجمع على التثنية إذا كان المراد عائشة رضي الله عنها وصفوان، فكيف يقول: إن المراد عائشة وصفوان، ويجعل ذلك مندرجاً تحت خطاب الواحد بلفظ الجمع!! ويمكن أن يصحّ قوله إذا كان قد ذكر أنه ممّا قيل: إن المراد عائشة رضي الله عنها فحسب^(٣). وعلى آية حال سيأتي إيقاع (الجمع على التثنية) في موضعه. ومنهم من جعل من ذلك قوله ﷺ:

﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النمل: ٣٥].

فإن المراد بالمرسلين: سليمان عليه السلام، أو الهدهد... وفي (شرح الكوكب المنير): «وفيه نظر؛ لاحتمال إرادتها الجيش»^(٤). «ومثله بعضهم بقول الزوج لامراته -وقد رآها تتصدى لناظرها-: تتبرّجين للرجال؟ ولم ير إلا واحداً؛ فإن الأنفة من ذلك

(١) هو صفوان بن المعطل بن رخصة السلمي الذكواني، أبو عمرو، صحابي، شهد (الحنديق) والمشاهد كلها. وحضر فتح (دمشق)، واستشهد (بأرمينية). وقيل: في (سميساط). وهو الذي قال أهل الإفك فيه وفي عائشة ما قالوا. روى عن النبي ﷺ حديثين [١٩هـ]. الأعلام (٢٠٦/٣)، الإصابة (٤٤٠-٤٤١)، سير أعلام النبلاء (٥٤٥/٢).

(٢) البرهان (٢٣٨/٢)، وانظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٣٤٠/١).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٠٩/١٨)، الدر المنثور (١٥٢/٦)، لباب الثقول (١٥٧/١).

(٤) شرح الكوكب المنير (١٥١/٣)، وانظر: إرشاد الفحول (٢١٦/١).

يستوي فيها الجمع والواحد^(١). واعترض بأنه إنما أراد الجمع لظنه أنها لم تتبرج لهذا الواحد إلا وقد تبرجت لغيره^(٢).

أقول: والذي يترجح لديّ القول بضعف احتمال إرادتها الجيش؛ لما ذكرت آنفاً من دلالة قوله ﷻ: ﴿أَتَجْعَلُ لَهُمُ الرَّسُولَ وَاحِدًا، وَهُوَ الْأَقْرَبُ إِلَى الظَّاهِرِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ سِيَاقُ الْآيَاتِ. قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: «وَالرَّسُولُ وَاحِدٌ»^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿لَا تَقْتُلُوا عَمَلًا أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذْهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ٩].

والخطاب في ﴿لَا تَقْتُلُوا﴾ قيل: لفرعون، وإسناد الفعل إليه مجازي؛ لأنه الأمر، والجمع للتعظيم. وقيل غير ذلك^(٤).

وفي (البرهان): «ولا ينبغي أن يستعمل ضمير الجمع (نحن) في واحد من المخلوقين على حكم الاستلزام؛ لأن ذلك كبير»^(٥). «ومن هذا ما حكاه الحريري^(٦) في شرح (الملحة) عن بعضهم أنه منع من

(١) انظر: المحلى على جمع الجوامع (١/٤٢١)، البرهان في أصول الفقه (١/٣٥٣).

(٢) شرح الكوكب المنير (٣/١٥١). انظر: أدلة إطلاق الجمع على الاثنين مجازاً في (مختصر ابن

الحاجب والعضد عليه) (٢/١٠٥)، المحلى والبناني على جمع الجوامع (١/٤٢١).

(٣) أحكام القرآن الكريم لابن العربي (١/٣٤٠).

(٤) انظر: روح المعاني (٢٠/٤٨).

(٥) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٦).

(٦) الحريري هو القاسم بن علي بن محمد بن عثمان، أبو محمد البصري الحريري صاحب (المقامات) التي بلغ بها أعلى المقامات. إمام عصره في الأدب والنظم والنثر والبلاغة، والفصاحة. ولد (بالبصرة) سنة (ست وأربعين وأربعمائة)، وقدم (بغداد) وتفقّه على الشيخ =

إطلاق لفظه: (نحن) على غير الله ﷻ من المخلوقين لما فيها من التعظيم^(١)، وهو غريب... فأما قول العالم: (نحن نبين أو نشرح) فمسموح له فيه؛ لأنه يخبر بنون الجمع عن نفسه وأهل مقالته^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

وقد حكي عن الضحاك أنه قال في قوله ﷻ: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]. إن من الجن رسولا اسمه يوسف، وهو قول ضعيف. فإن المراد: الإنس؛ لأن الرسل لا تكون إلا من بني آدم عليه السلام، وحكى بعضهم فيه الإجماع كما بين الزركشي^(٣).

وهذه المسألة لا يبنى عليها عمل، وليس فيها نص قاطع، وقد اتفقوا على عموم رسالة محمد ﷺ إلى الإنس والجن، وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة المسلمين، وسائر طوائف المسلمين أهل السنة والجماعة، وغيرهم، لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن ولا في أن الله ﷻ أرسل محمداً ﷺ إليهم^(٤).

= أبي إسحاق الشيرازي، وأبي نصر بن الصَّبَّاح، وقرأ الفرائض والحساب على أبي الفضل الهمداني وأبي حكيم الخبزي. توفي (بالبصرة) سنة [٥١٦هـ]، عن (سبعين سنة). وصنف (الملحة وشرحها)، و(درة الغواص في أوهام الخواص). انظر: طبقات الشافعية، لابن قاضي شعبة (٢٨٩/١)، طبقات الشافعية الكبرى (٢٦٧/٧).

(١) شرح ملحّة الأعراب في صناعة الإعراب (ص: ١٣).

(٢) بتصرف عن (البرهان في علوم القرآن) (٢/٢٣٦).

(٣) انظر البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧).

(٤) انظر: كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/١٠-١١).

قال الحافظ ابن كثير: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: من جملتكم، والرُّسل من الإنس فقط، وليس من الجنِّ رسل كما نصَّ على ذلك مجاهدٌ وابنُ جريج وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف. وقال ابنُ عباس: الرُّسل من بني آدم عليه السلام، ومن الجنِّ نذر^(١). وحكى ابنُ جرير عن الضَّحَّاك أنه زعم أن في الجنِّ رسلاً، واحتجَّ بهذه الآية الكريمة. وفيه نظر؛ لأنها محتملة وليست بصريحة، وهي - والله أعلم - كقوله ﷻ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]. إلى أن قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَاتُ﴾. ومعلوم أنَّ اللَّؤْلُؤَ والمرجان إنما يستخرجان من الملح لا من الحلو، وهذا واضح - والله الحمد -^(٢). وقد ذكر هذا الجواب بعينه ابن جرير...^(٣).

أمَّا ما يترجَّح لديَّ فهو أنَّ معنى: ﴿مِّنكُمْ﴾ ، أي: في الخلق

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٨/٢). وحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - أخرجه ابن جرير (٣٦/٨) من طريق ابن جريج، قال: قال ابن عباس: هم الجنُّ الذين لقوا قومهم، وهم رسلٌ إلى قومهم. ومعلوم أنَّ ابن جريج لم يدرك ابن عباس. وقد ورد عن يحيى بن سعيد أنه قال: إذا قال ابن جريج قال، فهو شبه الريح. انظر: تهذيب الكمال (٣٥١/١٨)، تهذيب التهذيب (٤٠٤/٦)، سير أعلام النبلاء (٣٣٠/٦)، ولهذا أورد ابنُ الجوزي قولَ ابن عباس هذا بصيغة التَّمريض فقال: «وروي عن ابن عباس». انظر: زاد المسير (١٢٥/٣)، وانظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزِّ الحنفِيَّ (ص: ١٦٦)، معاني القرآن، للنَّحاس (٤٩٢/٢).

(٢) سيأتي التعقيب على هذا القول في موضعه.

(٣) تفسير ابن كثير (١٧٨/٢)، تفسير الطُّبري (٣٦/٨).

والتكليف والمخاطبة، ولمّا كانت الجنّ ممّن يخاطب ويعقل قال: ﴿مِنْكُمْ﴾، وإن كانت الرُّسل من الإنس، وغلب الإنس في الخطاب كما يغلب المذكّر على المؤنث. وإنّ الرُّسل من الإنس، والنُّذر من الجنّ كما نصّ على ذلك الأئمّة، وهو الذي يتفق مع الأدلّة، وما خالف ذلك من الأدلّة محتمل^(١).

ويشهد لهذا أنّ الله ﷻ ذكر أنّهم منذرين لقومهم في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وقيل: ﴿رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾، أي: من مجموعكم الصّادق بخصوص الإنس؛ لأنّه لا رسل من الجنّ. ويستأنس لهذا القول بأنّ القرآن ربّما أطلق فيه المجموع مراداً بعضه كقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، وقوله ﷻ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشَّمس: ١٤]^(٢) مع أنّ العاقر واحدٌ منهم، كما بيّنه بقوله ﷻ: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٩]^(٣).

ولا يلزم إثبات رسل من الجنّ بطريق إثبات نفر من الجنّ يستمعون القرآن من رسل الإنس، ويبلغونه إلى قومهم وينذرونهم، ويصدق على

(١) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٨٥)، فتح القدير (٢/ ٢٣٦).

(٢) وكذلك قوله عز وجل: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، وقوله عز وجل: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٧].

(٣) انظر: أضواء البيان (١/ ٤٩٣)، دفع إيهام الاضطراب، السّنة الثالثة، العدد الأوّل، (ص: ٦).

أولئك النَّفَر من حيث إنَّهم رسل (الرُّسل)، وقد سَمَّى الله ﷺ رسل عيسى عليه السلام بذلك حيث قال ﷺ: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ﴾ [يس: ١٤]^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]. والمراد بالمرسلين: نوح عليه السلام^(٢).

و(القوم) يذكَّر ويؤنَّث؛ لأنَّ أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها إذا كان للآدميين فإنه يذكَّر ويؤنَّث، مثل: (رَهْط) و(نَفَر). وقد قال ﷺ: ﴿وَكَذَبَ يَهُودُ قَوْمُكَ﴾ [الأنعام: ٦٦] فذكَّر. وقال ﷺ: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُّوحٌ﴾ فأنَّث. فإن صغَّرت لم تدخل فيها الهاء، وقلت: قَوْمٌ ورَهْطٌ ونُفَيْرٌ^(٣). وقيل: هو مذكَّر ولحقت فعله علامة التأنيث على إرادة الأمة والجماعة منه، وتكذيبهم المرسلين باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التي لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار^(٤).

ولكن جوِّز أن يراد بالمرسلين (نوح عليه السلام) بجعل اللام للجنس، فهو نظير قولك: (فلانٌ يركبُ الدَّواب ويلبسُ البرود) وماله

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٧).

(٢) انظر: الكشف (٣/١١٩-١٢٠)، روح المعاني (١٩/١٠٦)، أيسر التفاسير (٣/٦٦٢).

(٣) انظر: الصُّحاح، للجوهري، مادة: (قوم) (٢/١٠١-١٠٢)، وكذلك في (مختار الصُّحاح) (ص: ٥٦٠)، وينظر: لسان العرب، مادة: (قوم) (١٢/٤٩٦).

(٤) انظر: روح المعاني (١٩/١٠٦-١٠٧)، تفسير أبي السُّعود (٦/٢٥٤)، البحر المحيط (٧/٢٩)، التحرير والتنوير (١٩/١٥٦-١٦٤).

إلا دابة واحدة وبرد واحد^(١). وهو الذي يعنينا هنا...
 ونحوه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠].
 ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِي﴾ [القمر: ٣٣].

ب. النتائج:

- ١ - بَيَّنْتُ أَنَّ (خطاب الواحد بلفظ الجمع) من الصِّغَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى التَّعْظِيمِ، وَأَنَّ مِنَ الْحِكْمِ مَا يَكُونُ خَاصًّا بِكُلِّ صِغَةٍ عَلَى حِدَةٍ.. وقد جاء عقب كلِّ صِغَةٍ.
- ٢ - بَيَّنْتُ أَنَّ (خطاب الواحد بلفظ الجمع) من ألوان الخطاب السَّائِغَةِ عند العرب.
- ٣ - يَقَالُ فِي هَذَا اللَّوْنِ مِنَ أَلْوَانِ الْخُطَابِ مَا قِيلَ فِي سَابِقِهِ، مِنْ حَيْثُ التَّنَوُّعِ..



(١) انظر: روح المعاني (١٩/١٠٦-١٠٧)، تفسير أبي السعود (٦/٢٥٤)، تفسير النَّسْفِيِّ (٣/٢٧٧)، البحر المديد (٥/١٧٥)، البحر المحيط (٣/١٢٣)، وهذا القول مستفاد مما ذكره الرَّخْشَرِيُّ فِي (الْكَشَافِ) حَيْثُ يَقُولُ: «(الْقَوْمُ): مُؤَنَّثَةٌ، وَتَصْغِيرُهَا (قَوِيْمَةٌ). وَنَظِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، وَالْمُرَادُ نُوْحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: قَوْلُكَ: (فَلَانِ يَرْكَبُ الدَّوَابَّ وَيَلْبَسُ الْبُرُودَ)، وَمَالَهُ إِلَّا دَابَّةٌ وَبَرْدٌ...». الْكَشَافُ (٣/١١٩-١٢٠).

المطلب الثالث: خطاب الواحد بلفظ الاثنين

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عِنْدَ ﴿٢٤﴾﴾ [ق: ٢٤]، والخطاب لمالك عليه السلام خازن النار..

وقال الفراء: «الخطاب لخزنة النار والزبانية. وأصل ذلك أن الرفقة أدنى ما تكون من ثلاثة نفر، فجرى كلام الواحد على صاحبيه. ويجوز أن يكون الخطاب للملكين الموكّلين من قوله ﷻ: ﴿وَحَآتَ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١]»^(١).

وقيل: لما ثنى الضمير استغنى عن أن يقول: (ألق ألق)، يشير إلى إرادة التأكيد اللفظي^(٢).

وقد ذكر الطبري^(٣) أن فيه متروكاً استغني بدلالة الظاهر عليه منه، وهو: (يقال ألقيا في جهنم)، أو قال ﷻ: ألقيا، فأخرج الأمر للقرين، وهو بلفظ واحد مخرج (خطاب الاثنين). وفي ذلك وجهان من التأويل:

(١) معاني القرآن، للفراء (٣/٧٨-٧٩)، وانظر: تفسير الطبري (٢٦/١٦٥)، تفسير القرطبي (١٦/١٧)، و(١٥٨/١٧)، والكشاف (٤/٧-٨)، وتفسير ابن كثير (٤/٢٢٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٢/١٤٩)، (١٦/١٧)، روح المعاني (٢٦/١٨٥)، زاد المسير (٨/١٦)، فتح القدير (٣/٤٩٨)، مشكل إعراب القرآن، لمكي (٢/٥٠٥).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٦/١٦٥).

أحدهما: أن يكونَ القرينُ بمعنى الاثنين، كالرَّسول، والاسم الذي يكون بلفظ الواحد في الواحد والتثنية والجمع، فردَّ قوله ﷺ: ﴿أَلَيْقَا فِي جَهَنَّمَ﴾ إلى المعنى.

والثاني: أن يكون كما كان بعض أهل العربية يقول، وهو أن العرب تأمر الواحد والجماعة بما تأمر به الاثنين، فتقول للرجل: (ويلك أرحلاها وازجراها)، وذكر أنه سَمِعَهَا من العرب، واستدل على ذلك من كلام العرب^(١).

ومنهم من جعل من هذا النوع قوله ﷺ: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس: ٨٩]^(٢).

قال أبو جعفر: «وهذا خبرٌ من الله ﷻ عن إجابته لموسى وهارون -عليهما السَّلام- دعاءهما على فرعون وأشراف قومه وأموالهم. يقول

(١) انظر: تفسير الطُّبري (١٦٥/٢٦)، تفسير القرطبي (١٦/١٧)، تفسير ابن عادل (٣١/١٨)، البغوي (٢٢٣/٤)، فتح القدير (٧٦/٥)، زاد المسير (١٥/٨).

(٢) ومنهم: (المهدوي) كما ذكر الزُّركشي في (البرهان) (٢٤٠/٢). و(المهدوي) هو أحمد بن عمَّار المهدوي العالم الفاضل، صُنِّف: (التفصيل الجامع لعلوم التَّنزيل)، وهو من أكبر التفاسير [ومن] أشرفها، ثمَّ بعد ذلك أعرب ما ينبغي إعرابه، وذكر أوجه القراءات وما ينبغي لكل وجه من أوجهها من الإعراب، توفي سنة (إحدى وثلاثين وأربعمائة). قال السيوطي: وقد اختصره أبو حفص الشَّيخ عمر بن أحمد الأندلسي، وسمَّاه: (عين الأعيان)، وكان ذلك في سنة (أربع وستين وسبعمائة). انظر: طبقات المفسِّرين، للأدوري (٩٧/١)، (١١١/١)، وطبقات المفسِّرين، للسيوطي (ص: ١٩)، وطبقات المفسِّرين، للدَّودي (٥٦/١). وفي (بغية الوعاة) (٣٥١/٢): «هو أحمد بن عمَّار أبو العباس المهدوي المقرئ النَّحوي المفسِّر، أصله من (المهدويَّة)، ودخل (الأندلس)، وتوفي سنة [٤٤٠]».

﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾ ، في فرعون وملئه وأموالهم^(١). فإن قال قائل: وكيف نسبت (الإجابة) إلى اثنين و(الدعاء) إنما كان من واحد؟ قيل: إنَّ الدَّاعِي وإن كان واحداً فإنَّ الثَّانِي كان مؤمِّناً، وهو هارون عليه السلام؛ فلذلك نسبت الإجابة إليهما؛ لأنَّ المؤمن داعٍ. وكذلك قال أهل التَّأْوِيل. وذكر من ذلك ما روى عن عكرمة قال: كان موسى عليه السلام يدعو، وهارون عليه السلام يؤمِّن. وعن محمَّد بن كعب^(٢)

(١) يعني قول الله عز وجل: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ مَنَيْتَ رَبَّنَا فِي الْفُتُورِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُخْرِجَ مِنَّا سَبِيلًا رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيْنَا أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ١٨٨].

(٢) قال ابن سعد: محمَّد بن كعب بن حيَّان بن سليم، الإمام العلامة الصَّادق، أبو حمزة. وقيل: أبو عبد الله القرظي المدني، من حلفاء (الأوس)، وكان أبوه (كعب) من سبي (بني قريظة)، سكن (الكوفة)، ثم (المدينة). قيل: ولد محمَّد بن كعب في حياة النَّبِيِّ ﷺ، ولم يصحَّ ذلك. قال زهير بن عبَّاد الرُّوَاسِي، عن أبي كبير البصري، قالت أمُّ محمَّد بن كعب القرظي له: يا بني لولا أنَّي أعرفك طَبِيًّا صَغِيرًا وَكَبِيرًا لَقُلْتُ: إِنَّكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا مُوبِقًا لما أراك تصنع بنفسك، قال: يا أمَّاه، وما يؤمنني أن يكون الله عز وجل قد أطلع عليَّ، وأنا في بعض ذنوبي فمقتني، وقال: اذهب لا أغفر لك، مع أنَّ عجائب القرآن ترد بي على أمور حتَّى إنَّه لينقضني اللَّيْل ولم أفرغ من حاجتي. وروى يعقوب الفسوي عن محمَّد بن فضيل البزاز قال: كان لمحمَّد ابن كعب جلساء من أعلم النَّاس بالتفسير، وكانوا مجتمعين في مسجد (الرَّبِذَةِ)، فأصابتهم زلزلة، فسقط عليهم المسجد، فماتوا جميعاً تحته. قال أبو معشر وجماعة: توفي سنة (ثمان ومائة). وقال الواقدي وخليفة والفلاس وجماعة: مات سنة (سبع عشرة). قال الواقدي وجماعة: وهو ابن (ثمان وسبعين) سنة. وقال محمَّد بن عبد الله بن نمير: سنة (تسع عشرة). وقال ابنُ المديني وابنُ معين وابن سعد: سنة (عشرين ومائة). وأخطأ من قال: سنة (تسع وعشرين). سير أعلام النبلاء (٦٥/٥-٦٦)، وانظر: الأنساب (٤/٤٢٨)، الثقات، لابن حبان (٣٥١/٥)، الطبقات الكبرى، لابن سعد (١/١٣٤).

قال: دعا موسى عليه السلام، وأمن هارون عليه السلام. وعن الربيع بن أنس^(١) قال: دعا موسى عليه السلام وأمن هارون... عليه السلام^(٢)، فذلك قوله: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾. وقد زعم بعض أهل العربية أن العرب تخاطب الواحد خطاب

(١) هو الربيع بن أنس بن زياد البكري، سكن (مرو) يروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه. روى عنه ابن المبارك وأبو جعفر الرازي، والناس يتقون حديثه ما كان من رواية أبي جعفر عنه؛ لأن فيها اضطراباً كثيراً. الثقات، لابن حبان (٢٢٨/٤)، وقال الذهبي في (سير أعلام النبلاء): «الربيع بن أنس بن زياد البكري، الخراساني، المروزي، بصري، سمع أنس بن مالك رضي الله عنه، وأبا العالية الرياحي وأكثر عنه، والحسن البصري. وعنه سليمان التيمي، والأعمش، والحسين بن واقد، وأبو جعفر الرازي، وعبد العزيز بن مسلم، وابن المبارك وآخرون. وكان عالم (مرو) في زمانه. وقد روى الليث عن عبيد الله بن زحر عنه. ولقيه سفيان الثوري. قال أبو حاتم: صدوق، وقال ابن أبي داود: سجن بمرور (ثلاثين) سنة. قلت: سجنه أبو مسلم (تسعة) أعوام، وتحيل ابن المبارك حتى دخل إليه فسمع منه. يقال: توفي سنة (تسع وثلاثين ومئة). حديثه في السنن الأربعة. سير أعلام النبلاء (١٧٠/٦)، وانظر: طبقات المفسرين، للأذرنوي (ص: ١٦)، تقريب التهذيب (ص: ٣١٨)، مشاهير علماء الأمصار (٢٠٣/١)، الأنساب، للسمعاني (٢٣٨/٣).

(٢) أورده أيضاً ابن أبي حاتم في (تفسيره) (١٩٨٠/٦) حيث قال: «حدثنا أبو سعد الأشج، حدثنا الفضل بن دكين عن أبي جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾». قال: دعا موسى وأمن هارون. وروى عن أبي صالح مثله. وروي عن عكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس نحو ذلك اهـ. والحاصل أن الحديث أخرجه ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: دعا موسى وأمن هارون، وأخرج ابن جرير عن أبي صالح وأبي العالية والربيع مثله. انظر: تفسير الطبري (١١/١٦٠-١٦١)، والدُر المشور (٣٨٥/٤)، وكذلك سعيد بن منصور. انظر: التفسير من سنن سعيد بن منصور (٣٣١/٥).

الاثنين، وأنشد في ذلك:

(فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لَا تُعْجَلَانَا بِنَزْعِ أَصُولِهِ وَاجْتَرَّ شَيْحًا)^(١).

وقال القرطبي: «وقال (أهل المعاني): رَبِّمَا خَاطَبْتَ الْعَرَبَ الْوَاحِدَ بِخَطَابِ الْاِثْنَيْنِ، قَالَ الشَّاعِرُ: فَقُلْتُ لِصَاحِبِي لَا تُعْجَلَانَا...»^(٢).

أقول: إِنَّ الْمَعْنَى يَسْتَقِيمُ فِي كِلَا الْحَالَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ، لَكِنَّ الثَّانِي أَقْرَبُ إِلَى الصُّحَّةِ، حَيْثُ إِنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ الَّذِي بَاشَرَ الدُّعَاءَ بِالْفَافِ، فَهَذَا يَنْبَغِي النَّظَرُ إِلَى التَّسَاوُلَاتِ التَّالِيَةِ:

أَوَّلًا: مَنْ قَالَ: إِنَّ الدَّاعِيَ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ -وهو من خطاب

(١) بتصرف عن (تفسير الطبري) (١١/١٦٠-١٦١). وهذا البيت من الوافر، وهو من كلمة لمضر بن ربيعة الفقعسي الأسدي، وأولها قوله:

(وضيف جاءنا والليل داج وريح القر تحفز منه روحا).

وقوله: (والليل داج) معناه: مظلم، و(القر)-بالضم-: البرد، و(تحفز): تدفع، وقوله: (فقلت لصاحبي.. إلخ): خاطب الواحد بخطاب الاثنين في قوله: (لا تحبسانا)، ثم عاد إلى الأفراد في قوله: (واجترَّ شَيْحًا). وليس هذا بأبعد من قول سويد بن كراع العكلي:

(فإن تزجراني يا ابن عَفَّانَ أنزجر وإن تدعاني أحم عِرْضًا مُمْتَعًا).

ويروى في بيت الشاهد: (فقلت لحاطبي لا تحبسي). والكلام على هذه الرواية جار على مَهَيِّجٍ واحد. والمعنى: (لا تؤخرنا عن شيء اللحم بشاغلِكَ بنزع أصول الخطب)، بل اكتف بقطع ما فوق وجه الأرض منه. الصَّاحِبِي (ص: ١٨٦)، ابن يعيش (١٠/٤٩)، واللَّسَانُ مَادَّةُ: (جزز)، (٣١٩/٥)، الصَّحَّاحُ، مَادَّةُ: (جزز) (٤/٦)، تاج العروس (١٥/٥٩). وانظر: معاني القرآن، للفرَّاء (١/٤٧٧-٤٧٨)، (٣/٧٨-٧٩).

(٢) تفسير القرطبي (٨/٣٧٦)، وانظر: الكشف والبيان (٥/١٤٥)، تفسير ابن عادل (١٨/٣٠)، القرطبي (٨/٣٧٦)، زاد المسير (٨/١٥).

الواحد بلفظ الاثنين - نظر إلى ظاهر قول الله ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، ولم ينظر ما قاله السلف في بيان المعنى، هذا أولاً ..

ثانياً: يُنظر هل أمّن هارون عليه السلام على دعاء موسى أم لم يؤمّن؟

ثالثاً: هل يجوز أن هارون عليه السلام قد دعا بمثل ما دعا به موسى عليه السلام؟

أقول: حقيق أن ما أورده الطبري في (تفسيره) من الروايات وكذلك ابن كثير^(١) يدل على أن هارون عليه السلام قد أمّن على دعاء موسى عليه السلام.

وكذلك ما أورده سعيد بن منصور في (سننه): «كان موسى عليه السلام يدعو وهارون يؤمّن، والدّاعي والمؤمن شريكان»^(٢).

(١) سبق إيجاز ما ذكره الطبري من الروايات، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/٥٢٢-٥٢٣).
 (٢) ونص ما جاء في (سنن سعيد بن منصور): حدّثنا سعيد، قال: حدّثنا أبو معشر عن محمد بن كعب، قال: قال موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ قال الله عز وجل: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا﴾، قال كان موسى يدعو، وهارون يؤمّن، والدّاعي والمؤمن شريكان. التفسير من سنن سعيد بن منصور، رقم [١٠٧٥]، (٥/٣٣١)، وانظر: تفسير الطبري (١١/١٦١)، القرطبي (١/١٣٠)، وانظر: فيض القدير (١/٥٥٦)، وتاريخ الطبري (١/٢٤٥).

أقول: ويدلُّ عليه العطفُ بالفاء، ووحدةُ الخطاب الذي جاء بصيغة التثنية، والذي تضمَّن شيئاً آخر بعد الدعاء، فلا حاجة لتكثُّفِ تفكيكه، وهو الموافق لظاهر النص، ولما ورد من الروايات.

قال الآلوسي: «هو خطابٌ لموسى وهارون -عليهما السلام-. وظاهره أنَّ هارون عليه السلام دعا بمثل ما دعا موسى عليه السلام حقيقةً، لكن اكتفى بنقل دعاء موسى عليه السلام؛ لكونه الرسول بالاستقلال عن نقل دعائه، وأشرك بالبشارة إظهاراً لشرفه عليه السلام، ويحتمل أنه لم يدع حقيقةً، لكن أضيفت الدعوة إليه أيضاً بناءً على أنَّ دعوة موسى عليه السلام في حكم دعوته لمكان كونه تابعاً ووزيراً له، والذي تضافرت به الآثار أنَّه عليه السلام كان يؤمِّن لدعاء أخيه، والتأمين دعاء»^(١).

وفي (غرائب القرآن): «ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان إلا أنَّه خصَّ موسى عليه السلام بالذكر في الآية؛ لأصالته في الرسالة، والمعنى أنَّ دعاءكما مستجاب، وما طلبتما كائن، ولكن في وقته»^(٢). ومما يستفاد من الآية من حيث مفهومها الرَّاجح -لما ذُكر- ما ذكره الحافظ ابن كثير في (تفسيره) حيث قال: «إنَّ تأمينَ المأموم على قراءة الفاتحة يُنزِّلُ منزلةَ قراءتها؛ لأنَّ موسى عليه السلام دعا وهارون عليه

(١) روح المعاني (١١/١٧٤)، وانظر: تفسير ابن عادل (١٠/٤٠١)، البحر المحيط (٥/١٨٦)،

السراج المنير (٢/٣٧)، تفسير السمعاني (٢/٤٠١)، القرطبي (١/١٣٠).

(٢) غرائب القرآن (٣/٦٠٧)، وانظر: فتح القدير (٢/٦٧٩).

السلام أَمَّنْ، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوَا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝﴾ (١). يعني أن الله ﷻ قد استجاب دعاء الداعي والمؤمن.

وقريب من دليل الترجيح -الذي ذكرته- ما ذكره أبو حيان في (البحر)، حيث قال: «كان موسى عليه السلام يدعو وهارون عليه السلام يؤمّن فنسب الدعوة إليهما، ويمكن أن يكونا دعوا. ويبعد قول من قال: كُنِيَ عن الواحد بلفظ التثنية؛ لأن الآية تَضَمَّنَتْ بعد مخاطبتهما في غير شيء» (٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ ١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ ٢٠ فَيَأْتِي أَوَّلَهُمَا رِيحًا تَكْذِبَانِ ۝ ٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝ ٢٢﴾ [الرحمن: ١٩-٢٢]، وإنما يخرج من أحدهما وهو الملح دون العذب (٣).

ولا بدّ هنا من التعقيب على ما ذكره غير واحد من المفسرين في تفسير هذه الآية، أعني قوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ۝ ٢٢﴾ يراد به البحر الملح خاصّة دون العذب، وهو غلط كبير، ولا يجوز

(١) تفسير ابن كثير (٣/٤٣٠).

(٢) البحر المحيط (٥/١٨٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٨/٣٦)، (١٥/٢٧٣)، وتفسير القرطبي (٧/٨٦)، (١٦/٢٩)، وابن كثير (٤/٢٧٣)، وروح المعاني (١/٢٧٣)، والبغوي (١/٧٨)، (٢/١٣٢)، (٣/٥٦٨).

القول به؛ لأنه مخالفٌ مخالفةً صريحةً لكلام الله ﷻ؛ لأنَّ الله ﷻ ذكر البحرين الملح والعذب بقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [فاطر: ١٢]، ثمَّ صرَّح باستخراج اللؤلؤ والمرجان منهما جميعاً بقوله ﷻ: ﴿وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، والحلية المذكورة هي اللؤلؤ والمرجان، فقصره على الملح مناقضٌ للآية.

ولقد تعقَّب الشيخ الشنقيطي في (أضواء البيان) من ذكر ذلك من المفسِّرين، حيث قال: «اعلم أنَّ جماعة من أهل العلم قالوا: إنَّ المراد بقوله في هذه الآية ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾، أي: من مجموعهما الصَّادق بالبحر الملح، وأنَّ الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأنَّ اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب.

وهذا القول الَّذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لا شكَّ في بطلانه؛ لأنَّ الله ﷻ صرَّح بنقيضه في (سورة فاطر). ولا شكَّ أنَّ كلَّ ما ناقض القرآن فهو باطلٌ، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، فالتنوين في قوله: ﴿وَمِنْ كُلِّ﴾ تنوينٌ عَوَضٍ، أي: من كلِّ واحدٍ من العذب والملح تأكلون لحماً طريًّا وتستخرجون حليَّةً تلبسونها، وهي اللؤلؤ والمرجان، وهذا ممَّا لا نزاع فيه. [قال:] وقد أوضحنا هذا في (سورة الأنعام) في الكلام على قوله

﴿يَمَعَشَرُ الْيَمِينَ وَالْأَيْسَى أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]»^(١).
 ويرجع ما ذكره الشيخ الشنقيطي على ما ذكره المفسرون؛ لأنه يتفق مع الظاهر، وقول غيره مخالف للظاهر^(٢).



- (١) أضواء البيان (٧/ ٥٠٠)، وانظر أيضًا: أضواء البيان (١/ ٤٣٩).
- (٢) وبيان ذلك: إن قوله عز وجل: ﴿مِنْهُمْ﴾ أضاف الخروج إلى البحرين العذب والمالح. وقد قيل: إن اللؤلؤ لا يخرج إلا من المالح، ولا يخرج من العذب، والذين قالوا بهذا اضطربوا في معنى الآية: كيف يقول الله: ﴿مِنْهُمْ﴾ وهو من أحدهما؟ فأجابوا: بأن هذا من باب التغليب، أي: أن يغلب أحد الجانبين على الآخر مثلما يقال: (العمران) لـ: أبي بكر وعمر، ويقال: (القمران) للشمس والقمر، فهذا من باب التغليب، والمراد من واحد منهما. وقال بعضهم: بل هذا على حذف مضاف والتقدير (منهما)، أي: من أحدهما. وهناك قول ثالث: أن تبقى الآية على ظاهرها لا تغليب ولا حذف، ويكون: (منهما) أي: منهما جميعاً اللؤلؤ والمرجان.. فبأي هذه الأقوال الثلاثة نأخذ؟ لا شك أننا نأخذ بما يوافق ظاهر القرآن، فالله عز وجل يقول: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ فالله عز وجل خالقهما، وهو يعلم ماذا يخرج منهما، فإذا كانت الآية ظاهرها أن اللؤلؤ والمرجان يخرج منهما جميعاً وجب الأخذ بظاهرها. والقاعدة أننا نحمل الشيء على ظاهره ولا نؤول، اللهم إلا إذا كان هناك ضرورة لا بد أن نسير على ما تقتضيه الضرورة، أما بدون ضرورة فيجب أن نحمل القرآن والسنة على ظاهرهما. وقد قرأت مقالات متفرقة تدل على موافقة ما قاله الشيخ فتحاً للواقع، ولكنها تحتاج إلى توثيق علمي. ولذلك فإنني أكتفي بما ذكرت من وجه الترجيح؛ ولأن ذلك المحذور الذي جعلهم يعدلون عن الظاهر لا دليل عليه، فعدم الوجدان منهم لا يستلزم عدم الوجود...

المطلب الرابع: خطاب الاثنين بلفظ الواحد

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَلَقَّحْ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَنَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقوله ﷻ:

﴿ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ١٢٢]:

ولم يقل: (عليهما)؛ اكتفاءً بالخبر عن أحدهما بالدلالة عليه^(١).

وقيل: اكتفى بذكر آدم عليه السلام؛ لأنَّ حواء كانت تبعًا له في الحكم، ولذلك طوي ذكر النساء في أكثر القرآن والسنة^(٢).

وأصل (التوبة) الرجوع^(٣). فالتوبة من آدم عليه السلام رجوعه عن المعصية، وهي من الله ﷻ رجوعه عليه بالرحمة والثواب الذي كلما تكررت توبة العبد تكرر قبوله، وإنما لم تذكر حواء في التوبة؛ لأنه لم يجر لها ذكر، لا أن توبتها لم تقبل.

وقال قوم: إذا كان معنى فعل الاثنين واحدًا جاز أن يذكر أحدهما، ويكون المعنى لهما كقوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٤١).

(٢) انظر: الكشف (١/٢٧٤)، روح المعاني (١٦/٢٧٥)، تفسير أبي السعود (١/٩٢)، تفسير البضاوي (١/٣٠٠).

(٣) انظر: زاد المسير (١/٧٠)، الثبيان في تفسير غريب القرآن، للجنياني (ص: ٧٩)، البحر المحيط (١/٣١٢)، ابن عادل (١٠/٢٣٤)، الخازن (٣/١٦٤).

[التوبة: ٦٢]، وقوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]^(١).
ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوِسُ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، فكأنهم أجمعوا وسئموا من أكل المن والسلوى،
وإنما قال: ﴿عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدٍ﴾ وهما اثنان؛ لأن العرب تعبر عن
الاثنين بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين. وقيل: كانوا
يأكلون أحدهما بالآخر فكانا كطعام واحد. وقال عبد الرحمن بن زيد
بن أسلم^(٢): كانوا يعجنون المن بالسلوى فيصيران واحدا^(٣).
وذلك أنهم سئموا من أكل المن والسلوى، وإنما عبر عنهما بطعام واحد

(١) انظر: زاد المسير (١/٧٠)، وانظر: البحر المحيط (١/٣١٩). وتوبة الله عز وجل على آدم
عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿فَنَلَقَ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَةً فَتَبَّ عَيْتُو﴾ [البقرة: ٣٧]، أي:
«بسبب تلك الكلمات كما تدل عليه الفاء. والكلمات المذكورة هي المذكورة في سورة:
[الأعراف] في قوله عز وجل: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾
[الأعراف: ٢٣]، وخير ما يفسر به القرآن القرآن». أضواء البيان (٤/١١٩).

(٢) هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه القرشي المدني، ضعفه أحمد
وغيره. وعن يحيى: ليس حديثه بشيء. وقال أبو داود: أولاد زيد بن أسلم كلهم ضعيف،
وأمثلهم عبد الله. وقال النسائي: ضعيف. وقال أبو زرعة: ضعيف. وقال أبو حاتم: ليس
بقوي في الحديث، وكان في نفسه صالحا، وفي الحديث واهي. وقال ابن عدي: له أحاديث
حسان، وهو ممن احتمله وصدقه بعضهم، وهو ممن يكتب حديثه. مات سنة (ثنتين وثمانين
ومائة). روى له الثرمذي، وابن ماجه، وأبو جعفر الطحاوي. مات (سنة ثنتين وثمانين).
تقريب التهذيب (ص: ٥٧٨)، تهذيب الكمال (١٧/١١٤-١١٦)، التاريخ الكبير
(٥/٢٨٤-٢٨٥).

(٣) انظر: تفسير البغوي (١/٧٧-٧٨)، تفسير السمعاني (١/٨٥)، الكشف والبيان
(١/٢٠٤-٢٠٥)، تفسير القرطبي (١/٤٢٢).

لعدم تبدلهما كقول العرب: (طعامٌ مائدة الأميرِ واحدٌ)، يريدون أنه لا يتغير ألوانه، أو لأنَّ العرب تعبر عن الاثنين بلفظ الواحد^(١).
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، أي: (ويا هارون)، وهو من خطابِ الاثنين بلفظ الواحد، وفيه وجهان:
أحدهما: أنه أفرد بالنداء؛ لإدلاله عليه بالتثنية. والآخر؛ لأنه صاحبُ الرسالة والآيات، وهارون عليه السلام تبع له.
«فخاطب موسى عليه السلام وحده بقوله: ﴿يَمُوسَىٰ﴾، وقد وجه الكلام قبل ذلك إلى موسى وأخيه. وإنما فعل ذلك كذلك؛ لأنَّ المجاوبة إنما تكون من الواحد وإن كان الخطاب بالجماعة لا من الجميع، وذلك نظير قوله ﷻ: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١]. وكان الذي يحمل الحوت واحد، وهو فتى موسى عليه السلام، يدلُّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣]»^(٢).

وقيل: ذكر فرعون موسى عليه السلام دون هارون عليه السلام لرؤوس الآي^(٣).

وقيل: خصَّصه بالذكر؛ لأنه صاحبُ الرسالة والكلام، ولزيمُ

(١) السراج المنير (١/ ٧٤)، روح المعاني (١/ ٢٧٣)، البيضاوي (١/ ٣٣١)، البحر المديد (١/ ٩١).

(٢) تفسير الطبري (١٦/ ١٧١).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١/ ٢٠٤)، الكشف والبيان، للثعلبي (٦/ ٢٤٦).

الآيات^(١).

وقيل: «إنهما جميعًا بلِّغا الرِّسالة - وإن كان ساكتا-؛ لأنه في وقت الكلام إنما يتكلَّم واحدٌ، فإذا انقطع وَازَرَهُ الْآخَرُ وَأَيَّدَهُ فصار لنا في هذا البناء فائدة علم أَنَّ الاثنين إذا قُلِّدا أمرًا فقام به أحدهما، والآخر شخصه هناك موجود، مستغنى عنه في وقت دون وقت أنهما أدَّيا الأمر الَّذي قُلِّدا وقاما به، واستوجبا الثَّواب؛ لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣]، وقال: ﴿أَذْهَبْ أَنْتَ وَأُخُوكَ﴾ [طه: ٤٢]، وقال: ﴿فَقُولَا لَهُ﴾ [طه: ٤٤]، فأمرهما جميعا بالذهاب وبالقول، ثمَّ أعلمنا في وقت الخطاب بقوله: ﴿فَمَنْ رَزَقْنَاهَا﴾ أَنَّهُ كان حاضرا مع موسى عليه السلام»^(٢).

وذكر الزَّمَخْشَرِيُّ في (الكشاف) «أَنَّ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَام لما كان أفصح من موسى عليه السلام نكب فرعون عن خطابه حذرًا من لسانه، أو لأنَّ موسى عليه السلام هو الأصل في الثُّبوت، وهَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَام

(١) انظر: تفسير ابن عطية (٤/٤٦)، تفسير القرطبي (١١/٢٠٤)، الإتيان (٢/٩٠). ونصُّ عبارة ابن عطية في (المحرر الوجيز): «قوله عز وجل: ﴿يَكْمُوسِي﴾ بعد جمعه مع هَارُونَ في الضَّمير، نداء بمعنى التَّخْصِيصِ والتَّوْقِيفِ؛ إذ كان صاحب عظم الرِّسالة ولزيم الآيات». المحرر الوجيز (٤/٤٦). وقد قال البغوي: «ولم يقل: (رسولا ربِّ العالمين)؛ لأنه أراد (الرِّسالة)، أي: أنا ذو رسالة ربِّ العالمين». تفسير البغوي (٣/٣٨٢)، (٣/٣٧٩)، (٤/٢٢٢)، فتح القدير (٤/٩٥)، (٤/٩٦)، وزاد المسير (٦/١١٨)، تفسير السَّمْعَانِي (٤/٤٠).

(٢) تفسير القرطبي (١١/٢٠٤).

وزيره وتابعه»^(١).

وقد أجمل الشيخ الشنقيطي رحمه الله أقوال المفسرين حيث قال: «قوله ﷺ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ يقتضي أنَّ المخاطب اثنان، وقوله ﷺ: ﴿يَمُوسَى﴾ يقتضي أنَّ المخاطب واحد، والجواب من ثلاثة أوجه: الأول: أنَّ فرعون أراد خطاب موسى عليه السلام وحده، والمخاطب إن اشترك معه في الكلام غير مخاطب غلب المخاطب على غيره، كما لو خاطبت رجلاً اشترك معه آخر في شأن، والثاني غائب فإنك تقول للحاضر منهما: (ما بالكما فعلتما كذا؟) والمخاطب واحد، وهذا ظاهرٌ.

الوجه الثاني: أنَّه خاطبهما معاً، وخصَّ موسى عليه السلام بالنداء؛ لكونه الأصل في الرسالة.

الثالث: أنَّه خاطبهما معاً، وخصَّ موسى عليه السلام بالنداء؛ لمطابقة رؤوس الآي مع ظهور المراد. ونظير الآية قوله ﷺ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]، ويجاب عنه بأنَّ المرأة تبعٌ لزوجها، وبأنَّ شقاء الكد والعمل يتولاه الرجال أكثر من النساء، وبأنَّ الخطاب لآدم عليه السلام وحده، والمرأة ذكرت فيما خوطب به آدم عليه السلام بدليل قوله ﷺ: ﴿إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [طه: ١١٧] فهي ذكرت فيما خوطب به آدم عليه السلام، والمخاطب عند الله ﷻ^(٢).

(١) انظر: الكشف (٢/ ٥٣١).

(٢) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، محمد الأمين الشنقيطي، العدد الرابع، (ص: ١٥).

قال ابن عطية في قوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ، «أفرده بالشقاء لأنه المخاطب أولاً^(١)، والمقصود في الكلام. وقيل: لأن الله ﷻ جعل الشقاء في معيشة الدنيا في جانب الرجال. وقيل: إغضاء عن ذكر المرأة كما قيل: (من الكرم ستر الحرَم)»^(٢).

وقوله ﷻ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ﴾ أي: لا يقع منكما طاعة له في إغوائه فيكون ذلك سبب خروجكما ﴿مِنَ الْجَنَّةِ﴾ ، ثم خصص بقوله ﷻ: ﴿فَتَشْقَى﴾ من حيث كان المخاطب أولاً، والمقصود في الكلام. وقيل: بل ذلك؛ لأن الله ﷻ جعل الشقاء في معيشة الدنيا في حيز الرجال»^(٣).

ومنهم -كالزركشي في (البرهان)^(٤) - من جعل من ذلك قوله ﷻ:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦].

وذهب الأخفش أيضا إلى أنه واحد يدل على اثنين وجمع..

قال: «وهذا يشبه أن يكون مثل: (العدو)، وتقول: (هما عدو

لي)»^(٥).

ومما قيل في تفسير قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥]،

(١) يعني في صدر الآية: ﴿فَقُلْنَا يَتَقَادِمُ إِنَّ هَذَا عَدُوُّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧].

(٢) تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز) (٤ / ٦٧)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢ / ٢٤١)، الإتيان (٢ / ٩١).

(٣) تفسير ابن عطية (٤ / ٦٧).

(٤) البرهان (٢ / ٢٤١).

(٥) انظر: معاني القرآن، للأخفش (ص: ٥٤٧-٥٤٨)، وانظر: معاني القرآن، للتحاس (٥ / ٦٨).

وقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةً أَعْيُنَ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۖ﴾ [الفرقان: ٧٤] ما قاله الفراء، قال: ﴿إِمَامًا﴾ ولم يقل: (أئمة) كما قال للاثنيين: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أنه من الواحد الذي أريد به الجمع^(١).

أمّا ما يترجّح عندي أنه ﷻ لم يقل: (رسل)؛ لأنّ (فعولا) و(فعيلا) يستوي فيهما المذكر والمؤنث والواحد والجمع مثل: (عدو) و(صديق)^(٢).

وفي (أسرار التكرار) للكرماني: «قوله ﷻ: ﴿فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، وبعده: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ لأنّ (الرّسول) مصدر يسمّى به فحيث وحده حملة على المصدر، وحيث ثني حمل على الاسم. ويجوز أن يقال: حيث وحد حمل على الرسالة؛ لأنهما أرسلّا لشيء واحد، وحيث ثني حمل على الشخصين»^(٣).

والحاصل أنّه لم يثنّ الرّسول كما ثني في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾؛ لأنّ (الرّسول) يكون بمعنى (المرسل)، وبمعنى (الرسالة)، فجعل ثمة بمعنى (المرسل) فلم يكن بد من تثنيته، وجعل هنا بمعنى

(١) معاني القرآن، للفراء (٢/٢٧٤)، زاد المسير (٦/١١١)، فتح القدير (٤/٨٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٩/٦٥)، القرطبي (١٧/١٠)، وانظر: لسان العرب، مادة: (رسل)، (١١/٢٨١)، تاج العروس، (٢٩/٧٤)، والصّحاح (٤/١٧٠٩)، ومختار الصّحاح (ص: ٢٦٧).

(٣) أسرار التكرار في القرآن الكريم (ص: ١٤٠)، وانظر: الكشاف (٣/١٠٧)، وانظر: تفسير النّسفي (٣/٢٦٣)، تفسير البيضاوي (٤/٢٣٤)، الخازن (٥/١١٥)، السّراج المنير (٣/٤٠).

(الرَّسَالَة) فيستوي في الوصف به الواحد والتَّثْنِيَة والجمع؛ ولأنَّهما لاتحادهما واتفاقهما على شريعة واحدة كأنَّهما رسولٌ واحد، أو أريد أن كلَّ واحدٍ مِنَّا أرسل لتضمَّن (الرَّسُول) معنى (الإرسال).

ومن المفرد المراد به المثنى ما قيل في قوله ﷻ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۖ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٩-١٠]. فمما قيل: أصله: (قَابِي قوس) أو (قَابِي قوسين)، بثنية أحد اللفظين المضاف والمضاف إليه، أو كليهما، فوق إفراد أحد اللفظين أو كليهما تجنباً لثقل المثنى كما في قوله ﷻ: ﴿إِنْ نُنُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، أي: قلباكما.. (١).

ومما سبق يتبيَّن أنَّ مثل هذا اللون من ألوان الخطاب فيه: الإيجاز والتَّجَنُّب لثقل المعنى، وفيه: التَّلَوِين. ويقال فيه ما قيل في سابقه من حيث التَّنوع.. وفيه أيضاً من المعنى ما قد يدلُّ على تميُّز الواحد، حيث يشعر اللفظ بأنَّ الآخر تبعٌ له.. وذلك كله ممَّا يدلُّ على بلاغة ألفاظه.



(١) انظر: التَّحْرِير والتَّنْوِير (٩٧/٢٧)، القرطبي (٩٠/١٧)، روح المعاني (٤٨/٢٧)، القاسمي

(٣٦٣/٦)، الكليات (ص: ٧٣٨)، مغني اللبيب (ص: ٨١٥)، و(٩١٤).

المطلب الخامس: خطاب الاثنين بلفظ الجمع

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [طه: ١٢٣]: أنه خطاب آدم عليه السلام وإبليس، أو لآدم عليه السلام وحواء^(١).

قال الزمخشري: «﴿أَهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦] خطاب لآدم عليه السلام وحواء وإبليس. وقيل: والحيّة. والصحيح أنه لآدم عليه السلام وحواء، والمراد هما وذريتهما^(٢)؛ لأنّهما لما كانا أصل الإنس ومنتشعبهم جُعلا كأنّهما الإنس كلهم. والدليل عليه قوله ﷻ: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾. ويدلّ على ذلك قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ تَبَعَ هَذَا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]»^(٣).

قال الحافظ ابن كثير: «قيل: المراد بالخطاب في ﴿أَهْبِطُوا﴾ [البقرة: ٣٦]: آدم عليه السلام وحواء وإبليس والحيّة، ومنهم من لم يذكر الحيّة - والله أعلم - . والعمدة في العداوة آدم وإبليس، ولهذا قال ﷻ: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الآية، وحواء تبع لآدم عليه السلام،

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٥٨/١١)، زاد المسير (٦٨/١)، (٣٣٠/٥)، روح المعاني (١٠٢/٨)، معاني القرآن، للفرّاء (٣١/١).

(٢) وهذا قول الفرّاء في (معاني القرآن) (٣١/١)، وقد رجّحه الزمخشري في (الكشاف) (٢٧٤/١). وفيه (خطاب المعدوم)، وسيأتي.

(٣) انظر: الكشاف (٢٧٤/١)، وانظر: البحر المحيط (١٣٦/١)، ابن عادل (٥٦٩/١).

والحِية إن كان ذكرها صحيحًا فهي تبعٌ لإبليس. وقد ذكر المفسِّرون الأماكن التي هبط فيها كلٌّ منهم، ويرجعُ حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات -والله أعلم بصحَّتها-، ولو كان في تعيين تلك البقاع فائدة تعود إلى المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله ﷻ في كتابه أو رسوله ﷺ^(١).

وأما حملة على أن أقلَّ الجمع اثنين، وأن ضمير الجمع هنا بمعنى ضمير التثنية فبعيد؛ لأنَّ كون أقلَّ الجمع اثنين مرجوح. وأما قوله ﷻ: ﴿إِنْ نُنُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤] فإنَّ الأفصح في المتعدّد إذا أضيف إلى متعدّد أن يكون بلفظ الجمع، وإن كان المراد به اثنين.

والتحقيق أن التثنية باعتبار آدم وحواء فقط، والجمع باعتبارهما مع ذريتهما. خلافاً لمن زعم أن التثنية باعتبار آدم وإبليس، والجمع باعتبار معهم ذريتهما معهما، وخلافاً لمن زعم أن الجمع في قوله: ﴿أَهْبِطُوا﴾، مراد به آدم وحواء وإبليس والحِية. والدليل على أن الحية ليست مرادة في ذلك هو أنها لا تدخل في قوله: ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾؛ لأنها غير مكلفة^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٠٧-٢٠٨).

(٢) أضواء البيان (٤/١٢٠).

الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ [آل عمران: ١٢٢]. فقد قرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿والله وليهم﴾ فرجع بهما على الجمع، حيث أعاد الضمير على المعنى لا على لفظ التثنية كقوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ اُخْضَمُوا فِي رَيْبِهِمَا﴾ [الحج: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]^(١).

وإنما جاز أن يقرأ ذلك كذلك؛ لأنَّ (الطائفتين) وإن كانتا في لفظ اثنتين، فإنَّهما في معنى جماع، بمنزلة: (الخصمين) و(الحزبين)^(٢). ومن ذلك ما قيل في قوله تعالى:

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ فَأَازِهُمَاهُ﴾ [النساء: ١٦]. فقد قرأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (والَّذين يفعلونه منكم)^(٣)، وهي قراءة مخالفة لسواد مصحف الإمام، ومتدافعة مع ما بعدها؛ إذ هذا جمع، وضمير جمع، وما بعدهما ضمير تثنية، لكنَّه يتكلَّف له تأويل بأنَّ الذين جمع تحته صنفا الذكور والإناث، فعاد الضمير بعده مثنى باعتبار الصنفين، كما عاد الضمير مجموعاً على المثنى باعتبار أنَّ المثنى تحتها أفراد كثيرة هي في معنى الجمع في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ اُخْضَمُوا﴾ [الحج: ١٩]. والأولى

(١) انظر: البحر المحيط (٥١/٣)، الكشف (٤٦١/١)، معاني القرآن، للفرأ (٢٣٣/١)، روح المعاني (٤٣/٤)، أبو السعود (٧٩/٢)، المحرر الوجيز (٥٠١/١)، وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر (٢٢٥/٨).

(٢) تفسير الطبري (٧٤/٤).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (٢٢/٢)، البحر المحيط (٢٠٧/٣)، ابن عادل (٢٤٦/٦)، الدر المصون (٣٣٢/٢).

اعتقاد قراءة عبد الله أنها على جهة التفسير، وأن المراد بالثنية العموم في الرُّنَاة^(١).

وفي هذا التأويل نظر؛ فإنَّ الفرق ثابت؛ لأنَّ (الطائفة) اسمٌ لجماعة، وكذلك (خصم)؛ لأنَّه في الأصل مصدر فأطلق على الجمع. وأصل: ﴿فَنَادَوْهُمَا﴾ : (فَادِيُوهُمَا)، فاستثقلت الضمة على الياء، فحذفت الياء التي هي لام، وضمَّ ما قبل الواو لتصحَّح^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﴿كَذَلِكَ﴾:

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]:

فقد جاء في (شرح الكوكب المنير): «روى البيهقي وابن حزم - محتجًا به - وغيرهما بإسنادٍ جيّد إلى ابن أبي ذئب^(٣) عن شعبة^(٤)»

(١) البحر المحيط (٣/٢٠٧).

(٢) انظر: الدر المصون (٢/٣٣٢)، تفسير ابن عادل (٦/٢٤٦)، وانظر: المحرر الوجيز (٢/٢٢).

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب، أبو الحارث، القرشي العامري المدني، أحد الأئمة الأعلام، صاحب الإمام مالك، قال الإمام أحمد عنه: يشبه ابن المسيب، وهو من عبّاد المدينة وقرّائهم وفقهائهم، توفي (بالكوفة) سنة [١٥٩هـ]. انظر ترجمته في (الخلاصة) (٢/٤٣١)، مشاهير علماء الأمصار (ص: ١٤٠)، وفيات الأعيان (٣/٣٢٣).

(٤) هو شعبة بن دينار الهاشمي مولى ابن عباس أبو عبد الله، ويقال: أبو يحيى المدني. حدّث عن عبد الله بن عباس. روى عنه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ذئب. وعنه ابن أبي ذئب وصالح بن خوات بن صالح بن خوات، وبكير بن الأشج وداود بن الحصين وغيرهم. قال عبد الله بن أحمد عن أبيه: ما أرى به بأسا، واختلف قول ابن معين. وقال الدوري عن ابن معين: ليس به بأس، وقال مالك: ليس بثقة. وقال أبو زرعة: ضعيف. وقال النسائي: ليس بقوي. انظر: فتح الباب في الكنى والألقاب، للأصفهاني (ص: ٤٦٧)، وانظر: ذكر من اسمه شعبة، للأصفهاني (ص: ٣٣)، المؤلف والمختلف، للدارقطني (٢/٧٨)، تهذيب =

مولى ابن عباس رضي الله عنه ...

أنه قال لعثمان رضي الله عنه: إِنَّ الْأَخْوِينَ لَا يَرُدَّانِ الْأُمَّ إِلَى السُّدُسِ. إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾، وَالْأَخْوَانِ فِي لِسَانِ قَوْمِكَ لَيْسَا بِإِخْوَةٍ^(١). فقال عثمان رضي الله عنه: «لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْقُضَ أَمْرًا كَانَ قَبْلِي، وَتَوَارَثَهُ النَّاسُ، وَمَضَى فِي الْأَمْصَارِ»^(٢).

ولما حَجَبَ الْقَوْمُ (الْأُمَّ) بِالْأَخْوَيْنِ دَلَّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ قَصَدَتْ الْأَخْوِينَ فَمَا فَوْقَ، وَهَذَا دَلِيلُ صَحَّةِ الْإِطْلَاقِ مَجَازًا. وَدَلِيلُ الْقَائِلِ حَقِيقَةُ هَذِهِ الْآيَةِ، وَالْأَصْلُ الْحَقِيقَةُ^(٣).

= التَّهْذِيبُ (٣٠٣/٤)، خلاصة تذهيب تذهيب الكمال (ص: ١٦٦).

(١) انظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٣٤٠/١)، تفسير الطبري (٢٧٨-٢٧٩/٤).
(٢) انظر: السنن الكبرى، للبيهقي (٢٢٧/٦)، وأخرج أثر ابن عباس رضي الله عنه الحاكم في (المستدرک) (٣٣٥/٤)، وصححه، ووافقه الذهبي، لكن تعقبه الحافظ ابن حجر في (التلخيص الحبير) (٨٥/٣). وانظر: المحلى، لابن حزم (٢٥٨/٩). وقال الحافظ ابن كثير: «وفي صحة هذا الأثر نظر؛ فإنَّ شعبة هذا تكلم فيه مالك بن أنس، ولو كان هذا صحيحاً عن ابن عباس رضي الله عنه لذهب إليه أصحابه الأخصاء به، والمنقول عنهم خلافه». تفسير ابن كثير (٤٦٠/١)، وانظر: ميزان الاعتدال (٢٧٤/٢)، يحيى ابن معين وكتابه التاريخ (٢٥٦/٢). وانظر: التبصرة (ص: ١٢٨)، اللمع (ص: ١٣)، رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب (٩٩/١)، روضة الناظر (ص: ٢٣٢)، قواطع الأدلة (١٧٢/١).

(٣) احتج الجمهور بقول ابن عباس رضي الله عنه بأنَّ (أقلَّ الجمع) ثلاثة حقيقة، ولذلك اعترض على عثمان رضي الله عنه، وأقره عثمان رضي الله عنه على ذلك، واستدلوا على صحة إطلاق الجمع على الاثنين مجازاً بالإجماع الذي ذكره عثمان رضي الله عنه، وذلك بحمل اللفظ على خلاف الظاهر بالإجماع، فدلَّ على صحته، وأنه ليس حقيقة، وإنما مجاز، وهو ما بيَّنه المصنِّف في (شرح الكوكب المنير) (١٤٨/٣)، وانظر: نزهة الخاطر (١٣٩/٢)، مختصر ابن الحاجب والعضد عليه (١٠٥/٢)، نهاية السؤل (١٠٣/٢)، مناهج العقول (٩٩/٢)، تيسير التحرير (٢٠٧/١).

وعن زيد بن ثابت (يسمى الأخوان إخوة)^(١) رَدَّ بما سبق. وإن صحَّ قول زيد فإنَّ فيه عبد الرحمن بن أبي الزناد^(٢) مختلف فيه^(٣)، فمراده: مجازاً وفي حجب الأم^(٤).

- (١) انظر: التبصرة (ص: ١٢٣)، تيسير التحرير (١/ ٢٠٧)، والعدة (٢/ ٦٥٢).
- (٢) هو عبد الرحمن بن أبي الزناد عبد الله بن ذكوان، المدني القرشي مولاهم، أبو محمد. قال الذهبي: أحد العلماء الكبار، وأخير المحدثين لهشام بن عروة اهـ. وكان فقيهاً مفتياً، وكان من الحفاظ الكثيرين، ولَّى خراج (المدينة)، وقدم (بغداد)، ولقي رجال أبيه، ولم يحدث عنهم حتى مات أبوه، روى له أصحاب السنن، توفي (ببغداد) سنة [١٧٤هـ]. انظر: طبقات الحفاظ (ص: ١٠٦)، الخلاصة (ص: ٢٢٧)، ميزان الاعتدال (٢/ ٥٧٥).
- (٣) قال يحيى ابن معين: وابن أبي الزناد لا يحتج بحديثه. وقال أيضاً: ما حدث (بالمدينة) فهو صحيح. وقال يعقوب بن شيبة عنه: ثقة صدوق فيه ضعف. وقال ابن عدي: بعض ما يرويه لا يتابع عليه. وقال أحمد: مضطرب الحديث، وثقه مالك، وضعفه النسائي. وقال الذهبي: وقد مشأ جماعة وعدلوه، وكان من الحفاظ الكثيرين. انظر: يحيى ابن معين وكتابه التاريخ (٢/ ٣٤٧)، ميزان الاعتدال (٢/ ٥٧٦)، الخلاصة (ص: ٢٢٧).
- (٤) شرح الكوكب المنير (٣/ ١٤٦-١٤٨) وانظر: التبصرة (ص: ١٢٩)، كشف الأسرار (٢/ ٨٢)، فواتح الرحموت (١/ ٢٧٠)، العدة (٢/ ٦٥٢). وقال ابن العربي في (أحكام القرآن الكريم) في التعقيب على قول ابن عباس **﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾**، والأخوان في لسان قومك ليسا بأخوة؟ فقال عثمان: هل أستطيع نقض أمر قد كان قبلي وتوارثه الناس، ومضى في الأمصار؟! وقول ابن عباس في هذا غير مأخوذ به. وأمّا الآية فإنَّ العرب توقع اسم الجمع على الثنية. وقوله عز وجل: **﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأَيِّهِ السُّدُسُ﴾** [النساء: ١١]، هذا قول يقتضي بظاهره أنه إذا كان له (ثلاثة) إخوة أنهم يحجبونها (حجب نقصان) بلا خلاف، وإن كانا (أخوين) فروي عن ابن عباس أنهما لا يحجبانها، وغرضه ظاهر، فإنَّ الجمع خلاف الثنية لفظاً وصيغة، وهذه صيغة الجمع فلا مدخل لها في الثنية. ومن يعجب فعجب أن يخفى على حبر الأمة، وترجمان القرآن، ودليل التأويل، عبد الله بن عباس مسألتان: إحداهما: هذه المسألة، والأخرى: مسألة العول. وعضد هذا الظاهر بأن

.....

= قال: إِنَّ الْأُمَ أَخَذَتْ الثَّلَثَ بِالنَّصِّ، فكيف يسقط النَّصُّ بمحتمل؟! وهذا المنحى مائل عن سنن الصَّواب. ولعلمائنا في ذلك سبيل مسلوكة نذكرها، ونبين الحقَّ فيها إن شاء الله عز وجل، وذلك من ثلاثة أوجه: الأول: أنه ينطلق لفظ (الإخوة) على (الأخوين)، بل قد ينطلق لفظ الجماعة على الواحد، تقول العرب: (نحن فعلنا)، وتريد القائل لنفسه خاصة. وقد قال عز وجل: ﴿هَٰذَانِ خَصَمَانِ أَحْضَمُوا فِي رِيبِهِمَا﴾ [الحج: ١٩]، وقال: ﴿وَهَلْ أَنتَكَ نَبُوءًا الْخَصَمَ إِذْ سَوَّرُوا الْأَمْكَارَ﴾ [ص: ٢١]، ثم قال: ﴿خَصَمَانِ بَعْنِ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ [ص: ٢٢]، وقال: ﴿نَقَدْ صَحَّتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التَّحْرِيم: ٤]، وقال: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وقال: ﴿يَمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [الثلث: ٣٥]، والرَّسُول واحد، وقال: ﴿أَوَّلَيْكَ مُبَرَّزَاتٍ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [التور: ٢٦]، يعني عائشة. وقيل: عائشة وصفوان. وقال: ﴿وَأَلْفَى الْأَلْوَاخَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وكنا اثنين كما نقل في التفسير [وقد بينت ذلك في موضعه]، وقال: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠]، وهما طرفان. وقال: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَعِينُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]، وقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]، وقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وكان واحدا. وهذا كله صحيح في اللغة سائغ، لكن إذا قام عليه دليل، فأين الدليل؟. [وقد بينت ذلك كل في موضعه]. الثاني: أن الله عز وجل قال في ميراث الأخوات: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثَّلَاثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء: ١٧٦]، فحمل العلماء البنتين على الأختين في الاشتراك في الثلثين، وحملوا الأخوات على البنات في الاشتراك في الثلثين، وكان هذا نظرا دقيقا، وأصلا عظيما في الاعتبار، وعليه المعول، وأراد الباري عز وجل بذلك أن يُبين لنا دخول القياس في الأحكام. الثالث: أن الكلام في ذلك لما وقع بين عثمان وابن عباس رضي الله عنهما، قال له عثمان رضي الله عنه: إن قومك حججوها -يعني بذلك قريشا-، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، وهم المخاطبون والقائمون لذلك، والعاملون به، فإذا ثبت هذا فلا يبقى لنظر ابن عباس وجه؛ لأنه إن عوّل على اللغة فغيره من نظائره ومن فوقه من الصحابة أعرف بها، وإن عوّل على المعنى فهو لنا؛ لأنّ الأخنتين كالبنتين كما بينا، وليس في الحكم بمذهبن خروج عن ظاهر الكلام؛ لأنّا بينا أن في اللغة وردَ لفظ الاثنتين على الجميع. أحكام القرآن، لابن العربي (١/٣٤٠).

ومن ذلك ما قيل في تفسير قول الله ﷻ:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

قال الزمخشري: «ونحوه: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ اكتفى بتثنية المضاف إليه عن تثنية المضاف، وأريد باليدين اليمينان بدليل قراءة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (وَالسَّارِقُونَ وَالسَّارِقَاتُ فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمْ)»^(١). وعقَّب أبو حيان في (البحر) على ما ذكره الزمخشري حيث قال: «وسوى بين ﴿أَيْدِيَهُمَا﴾ و﴿قُلُوبُكُمَا﴾ وليسا بشيئين؛ لأنَّ باب: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ يطرَّد فيه وضع الجمع موضع التثنية، وهو ما كان اثنين من شيئين كالقلب والأنف والوجه والظهر، وأمَّا إن كان في كلِّ شيء منهما اثنان كاليدَيْن والأذنين والفخذين، فإنَّ وضع الجمع موضع التثنية لا يطرَّد، وإنما يحفظ ولا يقاس عليه؛ لأنَّ الذَّهن إنما يتبادر إذا أطلق الجمع لما يدلُّ عليه لفظه، فلو قيل: (قطعت آذان الزَّيدين)، فظاهره قطع أربع آذان، وهو استعمال اللَّفْظ في مدلوله»^(٢). وقال ابن عطية: «جمع الأيدي من حيث كان لكلِّ سارق يمين واحدة، وهي المعرَّضة للقطع في السرقة، وللشَّراق أيد، وللسَّارقات أيد، كأنَّه قال: (اقطعوا أيمان النَّوعين)، فالتثنية للضمير إنما هي للنَّوعين»^(٣). وفي

(١) الكشاف (١/٦١٢)، وانظر: البحر المحيط (٣/٤٩٤)، تفسير ابن عادل (٧/٣٢٤)، الدر المصون (٢/٥٢٠).

(٢) البحر المحيط (٣/٤٩٤)، تفسير ابن عادل (٧/٣٢٤)، الدر المصون (٢/٥٢٠).

(٣) المحرَّر الوجيز (٢/١٨٩)، وانظر: البحر المحيط (٣/٤٩٤)، وقد ذكر الفراء ذلك مفصلاً في (معاني القرآن الكريم) (١/٣٠٦-٣٠٧)، وانظر: زاد المسير (٢/٣٤٩).

(التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ): «وجمع الأيدي باعتبار أفراد نوع السَّارِق. وثني الضَّمِير باعتبار الصَّنْفَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، فالجمع هنا مراد منه التَّثْنِيَة كقوله ﷻ: ﴿صَفَتْ قُلُوبُكُمَا﴾»^(١).

الخلاصة:

لقد جاء في قواعد اللغة أَنَّ كُلَّ اثْنَيْنِ أَضِيفَا إِلَى مُتَضَمِّنِهِمَا يَجُوزُ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَوْجِهٍ: الجمع على الأصحَّ، نحو: (قَطَعْتُ رُؤُوسَ الْكَبْشَيْنِ)^(٢)، ثُمَّ الْإِفْرَادُ كَرَأْسِ الْكَبْشَيْنِ، ثُمَّ التَّثْنِيَة كَرَأْسِي الْكَبْشَيْنِ. وَإِنَّمَا رُجِّحَ الْجَمْعُ اسْتِثْقَالًا؛ لِتَوَالِي دَالَّتَيْنِ عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ التَّثْنِيَة، وَتَضَمُّنُ الْجَمْعِ الْعَدَدَ، بِخِلَافِ مَا لَوْ أَفْرَدَ^(٣). وسيأتي في الآية التَّالِيَة مزيد بيان وتوضيح.

وقد قيل ذلك في قوله ﷻ:

﴿فَدَلَّيْهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله ﷻ: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

«فإن قيل: لم جمع السَّوَاءَاتِ في قوله ﷻ: ﴿سَوْءَاتُهُمَا﴾ مع أنهما سوأتان فقط؟ فالجواب من ثلاثة أوجه:

- (١) التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ (١٩٠/٦).
- (٢) انظر: الزهر (١٧٣/٢)، شرح شذور الذهب (ص: ٥٥٣)، الكلِّيَّات (ص: ٥١٥)، مع الهوامع (١٩٤/١-١٩٦).
- (٣) انظر: حاشية الخضرِيَّ على شرح ابن عقيل (ص: ٢٢٧)، شرح الأشموني ومعه حاشية الصَّبَّان (٧٤/٣)، وانظر: نزهة الخاطر (١٣٧/٢)، العدة (٦٥٤/٢).

الوجه الأول: أَنَّ آدَمَ وَحَوَاءَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لَهُ سَوْءَتَانِ: (القبل) و(الدبر)، فهي أربع، فكلُّ منهما يرى قُبْلَ نفسه، وَقُبْلَ الآخر، ودبره. وعلى هذا فلا إشكال في الجمع.

الوجه الثاني: أَنَّ المثنى إذا أُضِيفَ إِلَيْهِ شَيْئَانِ هُمَا جُزْءَاهُ جَازٍ فِي ذَلِكَ الْمُضَافِ الَّذِي هُوَ شَيْئَانِ: الجمع، والتثنية، والإفراد، وأفصحها: الجمع [لما سبق في خاتمة الآية السابقة]، فالإفراد، فالتثنية على الأصحَّ، سواء كانت الإضافة لفظاً أو معنى. ومثال اللفظ: (شَوِيتُ رُؤُوسَ الْكَبْشَيْنِ أَوْ رَأْسَهُمَا، أَوْ رَأْسَيْهِمَا). ومثال المعنى: (قَطَعْتُ مِنَ الْكَبْشَيْنِ الرُّؤُوسَ، أَوْ الرَّأْسَ، أَوْ الرَّأْسَيْنِ). فإن فرق المثنى المضاف إليه فالمختار في المضاف الإفراد، نحو: ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]. ومثال جمع المثنى المضاف المذكور الذي هو الأفصح قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، [كما سبق]، وقوله ﷻ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾، [كما سيأتي].

الوجه الثالث: ما ذهب إليه الإمام مالك بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ أَنَّ (أَقْلَّ الْجَمْعِ) اثْنَانِ^(١). قال في (مراقي السُّعُودِ):

(أَقْلَ مَعْنَى الْجَمْعِ فِي الْمَشْتَهَرِ الْاِثْنَانِ فِي رَأْيِ الْإِمَامِ الْحَمِيرِيِّ)^(٢).
وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْاِثْنَانِ الْمُضَافَانِ مُفَصِّلَيْنِ عَنِ الْمَثْنَى الْمُضَافِ إِلَيْهِ،

(١) سيأتي تفصيل ذلك، ومن قال به من العلماء، وبيان رأي الجمهور .

(٢) مراقي السُّعُودِ [٣٨٥]، (ص: ٥٢)، ونثر الورود (١/ ٢٧٤). وسيأتي .

أي: كانا غير جزأيه فالقياس الجمع وفقاً للقرآن^(١)، كقولك: «ما أخرجكما من بيوتكما؟»^(٢)، و(إذا أويتما إلى مضاجعكما)^(٣)، و(ضرباه بأسيا فهما)^(٤)، ونحو ذلك^(٥).

ومما قيل في قوله ﷺ:

﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. قال ابن العربي: «وكانا اثنين كما نقل في التفسير»^(٦).

(١) انظر: معاني القرآن للقرآن (٢/٣٠٦-٣٠٧).

(٢) وهذه العبارة جزء من حديث أخرجه مسلم، ونص الحديث: عن أبي هريرة ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أول ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة، قالوا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوما». فقاموا معه فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته فلما رآته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟»، قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء. إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبه ثم قال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني قال: فانطلق فجاءهم بعدق فيه بسر وعمر ورطب فقال: كلوا من هذه وأخذ المدينة فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب» فذبح لهم من الشاة ومن ذلك العذق وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر «والذي نفسي بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم» أخرجه مسلم [٣٧٩٩].

(٣) انظر هذا القول في صحيح البخاري، الجزء الخاص بالسيرة (٣/١٣٥٨)، وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى (١/٤٩، ٥١، ١٠٦)، وزاد المعاد (٥/١٨٧)، وصفة الصفوة (٢/١١).

(٤) انظر هذا القول في مسائل الإمام أحمد (١/٧٨)، والاكتفاء بما تضمنته من مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء (٢/٢٤)، وذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى (١/١٥٧).

(٥) انظر: دفع إيهام الاضطراب، العدد الثاني (ص: ١٣-١٤)، أضواء البيان (٤/١١٥-١١٦).

(٦) أحكام القرآن، لابن العربي (١/٣٤٠). انظر: تفسير الطبري (٩/٦٧).

ومما قيل إنَّه من (خطاب الاثنين بلفظ الجمع) قوله ﷺ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧]^(١).

لكنَّ التَّحْقِيق أنَّه ثَنَّى في الأوَّل، ثُمَّ جَمَعَ، ثُمَّ أَفْرَد؛ لأنَّه خاطَب أَوَّلًا موسى وهارون -عليهما السَّلام-؛ لأنَّهما المتبوعان، ثُمَّ سَيِّقَ الْخُطَابُ عَامًّا لهما ولقومهما باتِّخَاذِ الْمَسَاجِدِ وَالصَّلَاةِ فِيهَا؛ لأنَّه وَاجِبٌ عَلَيْهِمْ^(٢)، ثُمَّ خَصَّ موسى عليه السَّلامَ بالبشارة تعظيمًا لها وللمبشِّر بها^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [هود: ٧٨]:

قيل: أراد بنات صلبه، وهو رواية عن قتادة. وإذ كان المشهور أنَّ لوطًا عليه السَّلام له ابنتان صار الجمع مستعملًا في الاثنين بناءً على أنَّ

(١) انظر: الإتيان (٢/ ٩١)، (٢/ ٢٣٣)، الكلبيات (ص: ٦٦١).

(٢) لأنَّ كُلَّ واحدٍ مكلفٌ بأن يجعل بيته قبلَةً.

(٣) انظر: الكشف (٢/ ٢٤٩)، البرهان (٢/ ٢٤١-٢٤٢)، التحرير والتنوير (١١/ ٢٦٦). وقريب من ذلك ما ذكره التيسابوري في (تفسيره) (٣/ ٦٠٦): وإنما ثَنَّى الخطاب أَوَّلًا ثُمَّ جَمَعَ؛ لأنَّ اختيار المكان للعبادة مما يفوض إلى الأنبياء، فخطب موسى وهارون -عليهما السَّلام- بذلك، ثُمَّ جعل الخطاب عامًّا لهما ولقومهما؛ لأنَّ استقبال القبلة وإقامة الصَّلَاة واجب على الجمهور، ثُمَّ خَصَّ موسى عليه السَّلامَ بالتبشير في قوله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]؛ لأنَّ الغرض الأصلي من جميع العبادات هو هذه البشارة، فلم تكن لائقَةً إلا بحال موسى عليه السَّلام الَّذي هو الأصل في الرِّسالة، وفيه تعظيم لشأن البشارة والمبشِّر.

الاثنين تعامل معاملة الجمع في الكلام، وقيل: كان له ثلاث بنات^(١).
ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]، قيل: أراد به يوسف وأخاه بنيامين^(٢)، ولكنه ردَّ بأنه أراد يوسف وبنيامين وأخيها الذي توقف بمصر، وهو القائل: ﴿فَلَنْ أَتْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، وهو الصحيح^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]، فقوله ﷻ: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾، وذلك صلاة الصبح، ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وهي العصر، ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾، وهي ساعات الليل..

وقوله ﷻ: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾، قيل: الصُّبْح والمغرب، وقيل: الظُّهْر والمغرب^(٤). وقيل: ﴿وَأَطْرَافَ﴾ كما قيل: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٢/١٢٧)، المحرر الوجيز (٣/٣٦٩)، ابن عادل (١٠/٥٣٣).

(٢) انظر القول مع التعقيب عليه في (الإحكام) للآمدي (٢/٢٤٤)، والإحكام.

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٣/٣٨)، القرطبي (١٣/٢٤٧)، روح المعاني (١٣/٣٩)، الدر المنثور (٤/٥٦٦)، تفسير أبي السعود (٤/٣٠١)، البغوي (٢/٤٤٣).

(٤) جاء في (تفسير القرطبي): «قال أكثر المتأولين: هذا إشارة إلى الصلوات الخمس، قبل طلوع الشمس (صلاة الصُّبْح)، وقبل غروبها (صلاة العصر)، ومن آناء الليل (العتمة)، وأطراف النهار (المغرب) والظُّهْر؛ لأنَّ الظُّهْر في آخر طرف النهار الأوَّل وأوَّل طرف النهار =

[التحريم: ٤]، فجمع، والمراد قلبان^(١).

«وطرف الشيء منتهاه. قيل: المراد أول النهار وآخره، وهما وقتا الصبح والمغرب، فيكون من عطف البعض على الكل، للاهتمام ببعض، كقوله ﷻ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقيل: المراد طرف سير الشمس في قوس الأفق، وهو بلوغ سيرها وسط الأفق المعبر عنه بالزوال، وهما طرفان: طرف النهاية، وطرف الزوال، وهو انتهاء النصف الأول وابتداء النصف الثاني من القوس، كما قال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾ [هود: ١١٤]. وعلى هذا التفسير يتجه أن يكون ذكر الطرفين معاً لوقت صلاة واحدة أن وقتها ما بين الخروج من أحد الطرفين والدخول في الطرف الآخر، وتلك حصة دقيقة. وعلى التفسيرين فللنهار طرفان لا أطراف، كما قال ﷻ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ﴾، فالجمع في قوله ﷻ: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ من إطلاق اسم الجمع على المثنى، وهو متسع فيه في العربية عند أمن اللبس، كقوله ﷻ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ والذي حسنه هنا مشاكلة الجمع للجمع في قوله ﷻ: ﴿وَمِنْ أَمَّا يَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾^(٢).

الآخر، فهي في طرفين منه، والطرف الثالث غروب الشمس، وهو وقت المغرب. وقيل: النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال، ولكل قسم طرفان، فعند الزوال طرفان الآخر من القسم الأول، والأول من القسم الآخر، فقال عن الطرفين: أطرافاً على نحو: ﴿صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾. وقيل غير ذلك. تفسير القرطبي (١١/٢٦١)، معاني القرآن، للقرءاء (٢/١٩٥).

(١) انظر: تفسير الطبري (١٦/٢٣٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/٣٣٨)، وانظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/٣٤٠).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [٧٨] [الأنبياء: ٧٨]، وهما اثنان. ومن العلماء من يرى أن الآية دليل على أن (أقل الجمع اثنان)، وهو مذهب طائفة من العرب^(١).

وهاك بيان ما قيل في ذلك:

قال الفراء: «جمع اثنين فقال: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾، وهو يريد داود وسليمان؛ لأن الاثنين جمع، وهو مثل قوله ﷻ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُولَئِهِ السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١]، وهو يريد أخوين»^(٢).
ولكنه ردّ، بأن المراد من قوله ﷻ: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾، أي: «لحكم داود وسليمان -عليهما السلام-، والقوم الذين حكما بينهم

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣٠٧/١١)، زاد المسير (٢٥٨/٣)، وانظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٣٤٠/١)، وانظر: الخلاف في أقل الجمع في (لباب المحصول)، لابن رشيق (٥٧٨-٥٧٩)، المستصفى (٢٤٣/١-٢٤٤)، وسيأتي بيان ذلك.

(٢) معاني القرآن الكريم، للفراء (٢٠٨/٢)، وانظر أيضًا: معاني القرآن، للفراء (١/٢٥٧-٢٥٨)، البغوي (٣/٢٥٣)، زاد المسير (٤/١٣٧)، (٥/٣٧١). وقال الزخشري: «فإن قلت: فكيف صح أن يتناول الإخوة الأخوين. والجمع خلاف التثنية؟ قلت: الإخوة تفيد معنى الجمعية المطلقة بغير كمية، والتثنية كالتثليث والتربيع في إفادة الكمية، وهذا موضع الدلالة على الجمع المطلق، فدل بالإخوة عليه». الكشاف (١/٥٠٨). وانظر أيضًا: الإحكام، للآمدي (٢/٢٤٣-٢٤٤)، وانظر هذا الرأي والتعقيب عليه في (المستصفى) (١/٢٤٤)، وقد فصل القول في ذلك -أعني التعقيب- الرازي في (المحصول) (٢/٦٠٧)، وأورد التعقيب في (٢/٦١٠-٦١٣)، وانظر: الإبهاج (٢/١٢٤-١٢٧).

فيما أفسدت غنم أهل الغنم»^(١).

أمّا ما قيل من أنّ (أقلّ الجمع اثنان) فقد قال الشيرازي في (التبصرة): «إنّ أهل اللّغة فرّقوا بين الواحد والاثنين والجمع، فقالوا: رجل ورجلان ورجال، ولو كان الاثنان جمعاً لكان لفظ التثنية مساوياً لما زاد عليه كما كان لفظ الثلاثة مساوياً لما زاد عليه». وأورد على ذلك اعتراضات وأجاب عنها^(٢).

وفي (المحصول): «كُنِيَ عن المتحاكمين مضافاً إلى كنيته عن الحاكم عليهما، قد يضاف إلى المفعول، وإذا اعتبرنا المتحاكمين مع الحاكم كانوا ثلاثة»^(٣).

وفي (شرح الكوكب المنير): «قالوا: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] ردّ الضمير للقوم، أو لهم وللحاكم، فيكون الحكم بمعنى الأمر، لأنّه لا يضاف المصدر إلى الفاعل والمفعول. قالوا: قال ﷺ: «الاثنان فما فوقهما جماعة» ردّ خبر ضعيف^(٤).

(١) انظر: تفسير الطبري (٥١/١٧).

(٢) التبصرة (١٢٩/١-١٣٠)، وانظر: الإحكام، لابن حزم (٤/٤١٥).

(٣) المحصول (٢/٦١٠-٣١٣).

(٤) أخرجه (ابن ماجه، وابن عدي، والبيهقي وضَعَفَهُ عن أبي موسى. والدارقطني عن ابن عمرو. ابن سعد، والبخاري، والباوردي عن الحكم بن عمير الثمالي أحد، والطبراني في الكبير والأوسط، وابن عدي عن أبي أمامة). وبيان ذلك: حديث أبي موسى: أخرجه ابن ماجه [٩٧٢]، وفيه الرّبيع بن بدر وأبوه، وهما ضعيفان. قال ابن كثير في (تحفة الطالب): «والرّبيع هذا اتفق أئمة الجرح والتعديل على جرحه». تحفة الطالب (ص: ٢٥٢). وقال الحافظ ابن حجر في (التقريب) (٩٤/١٠): «بدر بن عمرو مجروح من الثالثة». قال

ثمَّ المراد في الفضيلة، لتعريفه الشرع لا اللغة^(١).
وعلى الأوَّل: قال أصحابنا وأبو المعالي^(٢): يصح إطلاق الجمع
على الاثنين والواحد مجازًا^(٣).

وهو الصَّحيح الَّذي أرجَّحه بعد الاطلاع على الأدلَّة..
أمَّا ما قيل من أنَّ (أقلَّ الجمع) اثنان^(٤) وكان لا بُدَّ من تحقيق هذه

= البوصيري: (١١٩/١): إسناده ضعيف. وجاء في (زوائد ابن ماجه): ربيع وولده
ضعيفان، ونقل العجلوني عن صاحب (التمييز) قال عنه: ضعيف.. ثمَّ قال: ولعلَّه أراد
باعتبار ذاته. انظر: كشف الخفاء (٤٧/١). والبيهقي [٤٧٨٧]، وقال: هو ضعيف.

(١) وضح ذلك الطوفي فقال: «والاثنان جماعة في حصول الفضيلة حكمًا لا لفظًا؛ إذ الشارع
بيِّن الأحكام لا اللغات» مختصر الطوفي (ص: ١٠١-١٠٢). وقال العضد بعد بيان رده على
دليل المخالفين: «واعلم أنَّ هذا الدليل وإن سلَّم فليس في محل النزاع، إنما النزاع في
صيح الجمع، وضماثه، ولذا قال ابن الحاجب: اعلم أنَّ النزاع في نحو: (رجال)،
(ومسلمين)، و(ضربوا) لا في لفظ جمع، ولا في نحو: (نحن فعلنا)، ولا في نحو:
﴿صَفَّتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فإنه وفاق..». العضد على ابن الحاجب (٢/١٠٦). وانظر: الإحكام،
للآمدي (٢/٢٢٣)، أصول السرخسي (١/١٥١) وما بعدها، فتح الغفار (١/١٠٩).

(٢) هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمَّد الجويني، أبو المعالي، ركن
الدين، الملقَّب بإمام الحرمين، انظر ترجمته في (الأعلام) (٤/١٦٠)، سير أعلام النبلاء
(١٧/٦١٧)، طبقات الشافعية، لابن قاضي شعبة (١/٢٥٥).

(٣) ذكر ابن الحاجب في المسألة أربعة أقوال: الأوَّل: لا يصحُّ. ثانيهما: يصحُّ حقيقة. ثالثها:
يصحُّ مجازًا. رابعها: يصحُّ حتَّى على الواحد. ثمَّ بيَّن العضد أدلَّة كلِّ قول. وقال ابنُ
السَّكِّي: والأصحُّ أنَّه يصدق على الواحد مجازًا. انظر: العضد على ابن الحاجب (٢/١٠٥)
وما بعدها، جمع الجوامع (١/٤٢٠)، نهاية السؤل (٢/١٠١).

(٤) وهو ما ذهب إليه مالك بن أنس من أنَّ (أقلَّ الجمع اثنان). قال في (مراقي السُّعود)، رقم
[٣٨٥]، (ص: ٥٢):

المسألة؛ لكثرة ورودها هنا؛ ولبناء كثير من المسائل على ما يتقرر من الترجيح..

وقد تقرر في هذه المسألة أنَّ القول بأنَّ (أقل الجمع اثنان) هو قول الإمام مالك كما سبق.

وهو أيضا قول القاضي أبي بكر الباقلاني.. وأنَّ من قال بذلك إنما استدلَّ بالآيات السابقة في هذا النوع من أنواع الخطاب القرآني، وهي في الحقيقة محتملة، وقد بينت ذلك، أعني: كلَّ ما قد استدلَّ به في موضعه..

وقد أجاب الجمهور أنَّ أقلَّ الجمع وما في معناه ثلاثة، لتفريق العرب بين الجمع والتثنية في وضعهما لكلَّ منهما لفظ يختصُّ به، كما أشار إلى ذلك الشيرازي في قوله الآنف الذكر. وجعلوا إطلاق الاثنين وإرادة الثلاثة من المجاز.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿هَٰذَانِ خَصَمَانِ اٰخَصَمُوْا فِي رِيْبِهِمْ﴾ [الحج: ١٩].

فإنَّه ﷻ لم يقل: (اختصما)، والعرب تسمي الاثنين جمعا^(١).

= «(أقل معنى الجمع في المشتهر الاثنان في رأي الإمام الحميري)».

نثر الورود (٢٧٤/١). وانظر في تقرير ذلك على سبيل المثال: الطبري (٢٧٩/٤)، القرطبي (٣٠٧/١١)، أضواء البيان (١١٦/٤)، وبداية المجتهد (١٢٨/١)، ومواهب الجليل لشرح مختصر خليل (٤٣٨/٣)، قال الغزالي في (المستصفى) (٢٤٣/١): «واختار القاضي [يعني: أبا بكر الباقلاني] أنَّ (أقل الجمع اثنان)».

(١) انظر: البرهان (٢٤١/٢)، معاني القرآن، للفرَّاء (٢٢٠/٢)، فتح القدير (٤٤٤/٣)، زاد =

وقد احتج من قال: (أقل الجمع اثنان) بقوله: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ أَتٰ خَصْمًا﴾ ، والجواب: الخصم صفة وصف بها الفوج أو الفريق فكأنه قيل: (هذان فوجان أو فريقان يختصمان)، فقوله: ﴿هَذَانِ﴾ للفظ، و﴿أَخَصِمَا﴾ للمعنى، كقوله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا﴾ [محمد: ١٦].

وقد ذكروا في تفسير (الخصمين) وجوهاً:
أحدها: المراد طائفة المؤمنين وجماعتهم، وطائفة الكفار وجماعتهم، وأنَّ كلَّ الكفار يدخلون في ذلك.
وثانيها: روي أنَّ أهل الكتاب قالوا: نحن أحقُّ بالله، وأقدم منكم كتاباً، ونبينا قبل نبيكم. وقال المؤمنون: نحن أحقُّ بالله ﷻ آمناً بمحمد ﷺ، وآمنَّا بنبيكم عليه السلام، وبما أنزل الله ﷻ من كتاب،

= المسير (٤١٧/٥)، وانظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/٣٤٠). ومَّا يقال في ذلك: إنَّ الخصم تأتي للمفرد والجمع مثل كلمة: (بشر) و(الفلك) و(ضيف) و(طفل)، وربما تأتي للتثنية: ﴿هَذَانِ خَصِمَانِ أَتٰ خَصْمًا فِي رِيحٍ﴾. يقول المفسرون: هما فريقان كلُّ فريق له جماعة، فلما جاءا يختصمان جاء من كلِّ فريق شخص واحد يمثل الفريق، والمتحدثان هما أصحاب المسألة (خصمان). كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَيْنَ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ [الحجرات: ٩]، فكلُّ طائفة لها جماعة عند الصلح يأتي من كلِّ طائفة من يفاوض باسمها لكن إذا وقع القتال بينهما يقتل كلُّ الأفراد، فإذا اختصم الفريقان يقال: (اختصموا)، وإذا اختصم أفراد الفريقين يقال: (اختصموا).. قال الفراء: «ولم يقل: (اختصما)؛ لأنهما جَمْعان ليسا برجلين، ولو قيل: (اختصما) كان صَوَابًا. ومثله: ﴿وَلَيْنَ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾. يذهب إلى الجمع. ولو قيل: (اقتتلنا) لجاز، يذهب إلى الطائفتين». معاني القرآن، للفراء (٢/٢٢٠).

وأنتم تعرفون كتابنا ونبيّنا، ثم تركتموه وكفرتم به حسداً، فهذه خصومتهم في ربهم^(١).

وثالثها: ما روي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه كان يحلف بالله سبحك أن هذه الآية نزلت في ستة نفر من قريش تبارزوا (يوم بدر): حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث^(٢) رضي الله عنه وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة^(٣).

- (١) انظر: تفسير الطبري (١٧/١٣٢)، القرطبي (٥/٣٩٦)، (١٢/٢٥)، روح المعاني (١٧/١٣٣).
- (٢) هو عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، أبو الحارث، من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام. ولد (بمكة)، وأسلم قبل دخول النبي ﷺ (دار الأرقم)، وعقد له النبي ﷺ ثاني لواء عقده بعد أن قدم (المدينة)، وبعثه في (ستين) راكباً من المهاجرين، فالتقى بالمشركين وعليهم أبو سفيان بن حرب، في موضع يقال له: (ثنية المرة)، وكان هذا أول قتال جرى في الإسلام. وهو أحد الثلاثة الذين بارزوا المشركين (يوم بدر)، وفيهم أنزلت: هَٰذَانِ خَصِمَانِ اِتَّخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ، استشهد ببدر، قطعت رجله فمات في منصرفه إلى (المدينة) بالصفراء، قتله: شيبة بن ربيعة. وقيل: عتبة بن ربيعة، أمه: (سُخَيْلَةُ بِنْتُ خُزَاعِيٍّ بْنِ الْخَوَيرِثِ)، من (ثقيف) [٢هـ]. الأعلام (٤/١٨٩)، معرفة الصحابة، لأبي نعيم (٤/١٩١٤).
- (٣) وهم من زعماء المشركين، قتلوا في المباراة (يوم بدر). فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش، وكانوا من عائلة واحدة، وهم عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار: عوف ومعوذ ابنا الحارث - وأمهما عفراء - وعبد الله بن رواحة، فقالوا: من أنتم؟ قالوا: رهط من الأنصار. قالوا: أكفأ كرام، ما لنا بكم حاجة، وإنما نريد بني عمنا، ثم نادى مناديه: يا محمد، أخرج إلينا أكفأنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قُم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما قاموا ودنوا منهم، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم، فقالوا: أنتم أكفأ كرام، فبارز عبيدة - وكان أسن القوم - عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد. فأما حمزة وعلي فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاههما، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان،

وقال علي عليه السلام: أنا أول من يجثو للخصومة بين يدي الله تعالى يوم القيامة^(١).

ورابعها: قال عكرمة: هما (الجنة والنار)، قالت النار: خلقتني الله تعالى لعقوبته. وقالت الجنة: خلقتني الله تعالى لرحمته، فقَصَّ الله تعالى من خبرهما على محمد صلى الله عليه وسلم ذلك^(٢). والأقرب هو الأول؛ لأنَّ السبب وإن كان خاصاً فالواجب حمل الكلام على ظاهره قوله عليه السلام: ﴿هَذَانِ﴾ كالإشارة إلى من تقدّم ذكره، وهم أهل الأديان الستة، وأيضاً ذكر صنفين أهل طاعته وأهل معصيته ممن حقَّ عليه العذاب، فوجب أن يكون رجوع ذلك إليهما، فمن خصَّ به مشركي العرب أو اليهود من حيث قالوا في كتابهم ونبیهم ما حكيناه فقد أخطأ، وهذا هو الذي يدل عليه قوله عليه السلام: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ١٧]، أراد به الحكم؛ لأنَّ ذكر التخاصم يقتضي الواقع بعده يكون حكماً فبين الله

= فأتخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كرَّ علي وحزة على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة، وقد قطعت رجله، فلم يزل ضَمِنَا حَتَّى مات بالصفراء، بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر. انظر: الرُّوض الأنف (٦٧/٣)، (٩٠/٣)، السيرة الحلبية (٢/٤٠٠-٤٠١). إلخ.

(١) جاء في (صحيح البخاري) [٣٦٦٩]: «عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة. وقال قيس بن عبّاد: وفيهم أنزلت: ﴿هَذَانِ حَصَمَانِ أَحْضَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾. قال: هم الذين تبارزوا (يوم بدر) حزة وعلي وعبيدة أو أبو عبيدة بن الحارث وشيبة بن ربيعة وعتبة بن ربيعة والوليد بن عتبة».

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٧/١٣٣)، والقرطبي (١٢/٢٥)، وابن كثير (٣/٢١٣)، والذّر المنثور (٦/٢٠)، وزاد المسير (٥/٤١٧).

﴿حَكَ حَكْمَهُ فِي الْكُفَّارِ﴾^(١) .

وفي (التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ): «إشارة إلى فريقين حاضرين في أذهان المخاطبين فنُزِّل حضورُ قصتهما العجيبة في الأذهان منزلة المشاهدة حتى أعيد عليها اسم الإشارة الموضوع للمشاهد، وهو استعمال في كلام البلغاء»^(٢).

وقد بدأت الآية الكريمة بالإجمال على معنى الجمع، ثم التفصيل الذي بدأ بذكر الذين كفروا، وجاءت الأفعال في حقهم مبنية للمجهول ﴿قُطِعَتْ﴾، ﴿يُصَبُّ﴾، ﴿يُضْهِرُّ﴾، ﴿أُعِيدُوا﴾^(٣) للدلالة على الذم والتقصير، وهم في مقام التجهيل والإهمال، فينصرف الذهن لمتابعة الحدث ومعموله، فيتراءى أمام العين مشهد التقطيع بصوته المدوي.

ومن ذلك قوله ما قيل في قوله ﴿حَكَ﴾:

﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]. قيل: يحتمل أن يكون الخطاب في قوله ﴿حَكَ﴾: ﴿مَعَكُمْ﴾ لموسى وهارون عليهما السلام^(٤). و[قد] رُدَّ، ومن آمن من قومهما، أو وفرعون أيضاً^(٥).

(١) بتصرف عن (تفسير الرازي) (٢٣/٢١-٢٢). وكذلك في (تفسير ابن عادل) (٤٨/١٤)، وانظر: البرهان (٨٦/٢)، ومعاني القرآن، للفرّاء (٢٢٠/٢).

(٢) التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ (٢٢٩/١٧).

(٣) انظر الآيات من (سورة الحج) من (١٩) إلى (٢٢).

(٤) انظر: معاني القرآن الكريم، للثعالب (٦٧/٥)، أحكام القرآن الكريم، لابن العربي

(١/٣٤٠)، العضد على ابن الحاجب (١٠٥/٢)، المحصول (٦١١/٢)، وفواتح الرحموت

(١/٢٧٠)، والعدّة (٢/٦٥٥)، وإرشاد الفحول (ص: ١٢٤).

(٥) انظر: شرح الكوكب المنير (٣/١٤٨). وقال الإمام الغزالي في (المستصفى): «واختير أن =

والحاصل أنه ذكر ﴿مَعَكُمْ﴾ بلفظ الجمع وهما اثنان، أجراهما مجرى الجماعة. وقيل: أراد معكما ومع بني إسرائيل نسمع ما يجيبكم فرعون^(١). وجاء في (شرح الكوكب المنير): «خطاب الاثنين بصيغة الجمع قالوا: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ لموسى وهارون -عليهما الصلاة

= (أقل الجمع) اثنان. واستدل بإجماع أهل اللغة على جواز إطلاق اسم الجمع على اثنين في قولهم: (فعلتم) و(فعلنا) و(تفعلون). وقد ورد به القرآن قال الله عز وجل في قصة موسى وهارون -عليهما السلام-: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾. المستصفى (٢٤٣/١). أمّا قوله: (واختير أن (أقل الجمع) اثنان) فهو ما ذهب إليه مالك بن أنس كما سبق. انظر: نثر الورود (٢٧٤/١)، تفسير الطبري (٢٧٩/٤)، القرطبي (٣٠٧/١١)، أضواء البيان (١١٦/٤)، وبداية المجتهد (١٢٨/١)، مواهب الجليل (٤٣٨/٣)، وحاشية الشرواني (٢١٥/٢). وانظر: ما قاله الرّازي في (المحصول) (٦٠٨/٢ - ٦١٣) في إيجاز ما قيل في هذا الباب مع التّعقيب عليه.

(١) انظر: تفسير البغوي (٣٨٢/٣). وقد وضح الآلوسي ما قيل في ذلك، وأجاب عما اعترض به، حيث قال: «الخطاب لموسى وهارون -عليهما السلام- ومن يتبعهما من بني إسرائيل، فيتضمن الكلام البشارة بالإشارة إلى علو أمرهما، وأتباع القوم لهما، ومنهم من ذهب إلى أنه لهما -عليهما السلام-؛ لشرفهما وعظمتهما عند الله عز وجل عوملا في الخطاب معاملة الجمع. واعترض بأنه يأباه ما بعده وما قبله من (ضمير التثنية). وقيل: هو لهما -عليهما السلام- وفرعون، واعتبر لكون الموعود بمحضر منه، وإن شئت ضم إلى ذلك قوم فرعون أيضا. واعترض بأن المعية العامة، أعني: المعية العلمية لا تختص بأحد؛ لقوله عز وجل: ﴿وَلَا أَتَىٰ مِنَ ذَلِكَ وَلَآ أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، والمعية الخاصة، وهي (معية الرأفة والثمرة) لا تليق بالكافر، ولو بطريق التغليب. وأجيب بأن خصوص المعية لا يلزم أن يكون بما ذكر، بل بوجه آخر، وهو تخلص أحد المتخاصمين من الآخر بنصرة المحق، والانتقام من المبطل». (روح المعاني) بقليل من التصرف (١٩/٦٦). وانظر أيضا: الفروع (٤٦٤/٤)، المغني (١٠٦/٩)، البحر الرائق (١٤/١)، (٣٩٦/٢).

والسَّلام-، ردًّا، ومن آمن من قومهما، أو وفرعون أيضًا^(١).
وقال الإمام الغزالي: «واختار القاضي^(٢) أن أقلَّ الجمع اثنان.
واستدلَّ بإجماع أهل اللغة على جواز إطلاق اسم الجمع على اثنين في
قولهم: (فعلتم) و(فعلنا) و(تفعلون). وقد ورد به القرآن، قال الله ﷻ
في قصَّة موسى وهارون -عليهما السَّلام-: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾^(٣).
واستدلُّوا بقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

وذلك ممَّا قيل أيضًا في قوله ﷻ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا
لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨]. فقد ذكر ذلك ابنُ العربي في (أحكام
القرآن الكريم)^(٤).

وممَّا قيل في قوله ﷻ:

﴿وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْفَاقِلِينَ﴾ [الصافات: ١١٦]. أي:
ونصرناهما فذكر الاثنين بلفظ الجمع^(٥). الضمير لموسى وهارون

(١) شرح الكوكب المنير (١٤٨/٣)، وانظر: العضد على ابن الحاجب (١٠٥/٢)، المحصول (٦١١/٢)، وفواتح الرَّحْمَت (٢٧٠/١)، والعدَّة (٦٥٥/٢).

(٢) والقاضي هو أبو بكر الباقلاني، وقد سبق التعريف به، وحجَّة هذا القول أنَّك إذا جمعت
واحدًا إلى واحد فهما جماعة؛ لأنَّ أصل الجمع ضمُّ شيء. وقد سبق تحقيق هذه المسألة وبيان
أنه قول الإمام مالك...

(٣) المستصفى (٢٤٣/١).

(٤) أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٣٤٠/١).

(٥) انظر: تفسير السَّمعاني (٤١٠/٤).

وحدهما، وهذا على أن الاثنين جمع. دليله قوله ﷻ: ﴿وَأَيُّنَهُمَا﴾^(١)،
﴿وَهَدَيْنَهُمَا﴾^(٢).

وقال الطبري: «إنما أريد بالهاء والميم في قوله ﷻ: ﴿وَنَصَرْنَهُمْ﴾ موسى وهارون، ولكنها أخرجت على مخرج مكني الجمع^(٣)؛ لأن العرب تذهب بالرئيس كالنبي والأمير وشبهه إلى الجمع بجنوده وأتباعه، وإلى التوحيد؛ لأنه واحد في الأصل. ومثله: ﴿عَلَى خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣]. وفي موضع آخر: ﴿وَمَلَائِيَهُ﴾^(٤)، وربما ذهبت العرب بالاثنين إلى الجمع، كما تذهب بالواحد إلى الجمع، فتخاطب الرجل فتقول: (ما أحستهم ولا أجملتهم)، وإنما تريده بعينه. وهذا القول الذي قاله هذا الذي حكينا قوله في قوله ﷻ: ﴿وَنَصَرْنَهُمْ﴾، وإن كان قولاً غير مدفوع، فإنه لا حاجة بنا إلى الاحتيال به لقوله ﷻ: ﴿وَنَصَرْنَهُمْ﴾؛ لأن الله ﷻ أتبع ذلك قوله: ﴿وَنَجَّيْنَهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٥].. ثم قال: ﴿وَنَصَرْنَهُمْ﴾ يعني: هما وقومهما؛ لأن فرعون وقومه كانوا

(١) يعني قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّنَهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧].

(٢) يعني قوله عز وجل: ﴿وَهَدَيْنَهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٨]. انظر: معاني القرآن، للقرءاء (٢/ ٣٩٠-٣٩١)، وتفسير القرطبي (١٥/ ١١٤)، معاني القرآن، للنحاس (٦/ ٥٢)، فتح القدير (٤/ ٤٠٨)، زاد المسير (٧/ ٧٩).

(٣) المكني: هو الضمير، فيما اصطلاح عليه التحويون؛ لأنه كناية عن الذي أخفيت ذكره.

(٤) كما في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣].

أعداء لجميع بني إسرائيل قد استضعفوهم يذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم، فنصرهم الله ﷻ عليهم بأن غرقهم، ونجى الآخرين»^(١).
وأيضاً ردّه القرطبي وغيره حيث قال: «الضمير لموسى وهارون وقومهما، وهذا هو الصواب؛ لأنّ قبله: ﴿وَيَجِئْتُهُمَا وَقَوْمُهُمَا﴾»^(٢).
ومما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۖ﴾ [ص: ٢١-٢٢].

ومن المفسرين من بين ذلك بياناً وافياً، وأوضح الحكمة منه كالظاهر بن عاشور حيث قال: «والخطاب يجوز أن يكون لكلّ سامع، والوجهان الأولان قائمان. والنبأ: الخبر. والتعريف في ﴿الْخَصَمِ﴾ (للعهد الذهني)^(٣)، أي: عهد فرد غير معيّن من جنسه، أي: نبأ خصم معيّن هذا خبره، وهذا مثل التعريف في: (ادخل السوق). و(الخصام) و(الاختصام): المجادلة والتداعي. و﴿الْخَصَمِ﴾: اسم يطلق على الواحد وأكثر، وأريد به هنا: (خصمان)؛ لقوله بعده: ﴿خَصْمَانِ﴾. وتسميتهما بالخصم مجاز بعلاقة الصّورة، وهي من علاقة المشابهة في

(١) تفسير الطبري (٢٣/٩٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/١١٤)، معاني القرآن، للقرّاء (٢/٣٩٠-٣٩١)، وروح المعاني (٢٣/١٣٨)، البغوي (٤/٣٥)، البياضوي (٥/٢٤)، السفي (٤/٤١).

(٣) المحلّ بلام (العهد الذهني) له جهتان: ١- التّكثير من جهة المعنى. ٢- التّعريف من جهة اللفظ. فتارةً ينظر إلى الجهة الأولى فيصفونه بالنّكرة، وتارةً ينظر إلى الجهة الثانية فيصفونه بالمعرفة. =

الذَّات لا في صفة من صفات الذَّات. وعادة علماء البيان أن يمثّلوها بقول القائل: إذا رأى صورة أسد: (هذا أسد). وضمير الجمع مراد به المثنى^(١)، والمعنى: ﴿إِذْ سَوَّرُوا الْإِمْحَارَ﴾، والعرب يعدلون عن صيغة التثنية إلى صيغة الجمع إذا كانت هناك قرينة؛ لأنّ في صيغة التثنية ثقلاً لندرة استعمالها، قال ﷺ: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، أي: قلبكما^(٢). ومما قيل في قوله ﷺ:

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤] إنّ هذه الآية الكريمة تدلّ بفحوى خطابها أنّه لم يجعل لامرأة من قلبيين في جوفها، وقد جاءت آية أخرى يوهّم ظاهرها خلاف ذلك، وهي قوله ﷺ في حفصة وعائشة رضي الله عنهما: ﴿إِن نُّؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الآية، فقد جمع القلوب لهاتين المرأتين.

والجواب عن هذا ما سبق بيانه من أنّ المثنى إذا أضيف إليه شيان هما جزأه جاز في ذلك المضاف الجمع والتثنية والإفراد، وأفصحها الجمع، فالإفراد، فالتثنية على الأصحّ سواء كانت الإضافة لفظاً أو معنى... إلخ^(٣).

(١) انظر: أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (١/٣٤٠).

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/٢٣١)، وانظر: الكتاب، لسيبويه (٢/٤٨).

(٣) سبق بيان ذلك عند تفسير قوله عز وجل: ﴿فَدَلَّهُمَا يَمُّرُّهُنَّ فَلَئِنَّ ذَاتَا لَشَجَرَةٍ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفَقَا يَخِصِّمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١].

ومما قيل في قوله ﷻ:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١].

أخبر الله ﷻ عن إجابة السموات والأرض إلى أمره ﷻ، فأما قوله ﷻ: ﴿طَائِعِينَ﴾، ولم يقل: (طائعات)، فقال فيه الفراء معناه: أتينا بمن فينا طائعين^(١).

إنما جمعهما جمع السلامة ولم يقل: (طائعتين)، ولا (طائعات)؛ لأنه أراد أتيا بمن فيكم من الخلائق طائعين فخرجت الحال على لفظ الجمع، وغلب من يعقل من الذكور.

وقال بعض النحويين^(٢): لما أخبر عنهما أنهما يقولان كما يقول الآدميون أشبهتا الذكور من بني آدم عليه السلام، وإنما قال:

(١) معاني القرآن، للفراء (١٣/٣)، ونص عبارة الفراء: «ولم يقل: طائعتين، ولا طائعات. ذهب به إلى السموات ومن فيهن، وقد يجوز: أن تقولوا، وإن كانتا اثنتين: (أتينا طائعين)، فيكونان كالرجال لما تكلمتا». معاني القرآن، للفراء (١٣/٣)، معاني القرآن، للنحاس (٦/٢٥٠)، زاد المسير (٧/٢٤٥). وانظر: تفسير الطبري (٩٩/١٤)، معاني القرآن الكريم، للنحاس (٦/٢٥١)، زاد المسير (٧/٢٤٥)، روح المعاني (١/٧٨). وقال العلامة محمد الطاهر: «قيل: ﴿طَائِعِينَ﴾ بصيغة الجمع؛ لأن لفظ السماء يشتمل على سبع سموات كما قال عز وجل إثر هذا: ﴿فَقَضَيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢] فالامثال صادر عن جمع. وأما كونه بصيغة جمع المذكر؛ فلأن السماء والأرض ليس لهما تانيث حقيقي. وأما كونه بصيغة جمع العقلاء فذلك ترشيح للمكنية المتقدمة مثل قوله عز وجل: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَمَدَ عَشَرِ كَوْكَبَاتٍ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ فِي سَجْدَتِكَ﴾ [يوسف: ٤]. التحرير والتنوير (٢٤/٢٤٨)، وانظر: روح المعاني (١٤/١٠٣).

(٢) انظر: أسرار العريية، لابن الأنباري (ص: ٧١)، اللباب في علل البناء والإعراب، للعكبري (١/١١٣)، شرح شذور الذهب (ص: ٣٩).

﴿طَائِعِينَ﴾ ، ولم يقل: (مطيعين)؛ لأنه من (طعنا) أي: (أنقذنا)، وليس من (أطعنا) يقال: (طاعت الناقة تطوع طوعًا إذا انقادت)^(١).
ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمْ
الرُّسُلُ مِنْ بَنِي آدِيمَ وَمَنْ خَلْفَهُمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ
مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [فصلت: ١٣-١٤].

«وضمير: ﴿جَاءَهُمْ﴾ عائد إلى عاد وثمود باعتبار عدد كل قبيلة منهما. وجمع (الرسل) هنا من باب إطلاق صيغة الجمع على الاثنين مثل قوله ﷻ: ﴿فَقَدْ صَفَّتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، والقريضة واضحة وهو استعمال غير عزيز، وإنما جاءهم رسولان: هود وصالح عليهما السلام»^(٢).

واحتجوا أيضًا بقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا
بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ
فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].
قالوا: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ رَدَّ (الطائفة): الجماعة لغة^(٣).
«وعن ابن عباس: الطائفة: الواحد فما فوقه»^(٤)، نحو قوله ﷻ:

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢٠٥-٢٠٦).

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/٢٥٣).

(٣) انظر: شرح الكوكب المنير (١٤٨-١٤٩)، المستصفى (٢٤٣-٢٤٤).

(٤) هذا الأثر رواه الفراء بإسناده، قال: حدثنا أبو العباس، قال: حدثنا محمد، قال: حدثنا
الفراء، قال: حدثني قيس ومنديل عن ليث عن مجاهد قال: (الطائفة): الواحد فما فوقه.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، فإن صحَّ فمجاز. ولا يلزم مثله في الجمع؛ ولهذا قال الجوهري^(١): هي (القطعة من الشيء)^(٢). وذكر قول ابن عباس رضي الله عنهما هذا، كالخصم للواحد والجمع،

قَالَ الْقَرَاءُ: وكذلك حَدَّثَنِي جَبَّانُ عَنِ الْكَلْبِيِّ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ قَالَ: الطَّائِفَةُ الْوَاحِدُ فَمَا فَوْقَهُ. معاني القرآن، للقرء (٢/٢٤٥)، انظر: الكشف (٣/٤٨)، البحر المحيط (٦/٣٩٥)، ابن عادل (١٠/١٤٠)، الرَّاظِي (١٦/٩٧)، القرطبي (١٦/٣١٦)، معاني القرآن، للزَّجَّاج (٤/٢٨-٢٩). والكَلْبِيُّ: اسمه: محمد بن السائب. قال الحافظ: متهم بالكذب. وقد قال هو نفسه لسفيان الثوري: ((كل ما حدثك عن أبي صالح فهو كذب)). ميزان الاعتدال (٣/٥٥٧). وقال الزَّجَّاج: أصل (الطَّائِفَةُ) فِي اللُّغَةِ: الجماعة، ويجوز أن يقال للواحد طائفة يراد به (نفس طائفة). معاني القرآن، للزَّجَّاج (٤/٢٨، ٢٩)، ولكنه قال: وأقل ما يجب في (الطَّائِفَةُ) عندي اثنان، والذي ينبغي أن يُتَحَرَّى في شهادة عذاب الرَّاظِي أن يكونوا جماعة؛ لأنَّ الأغلب على (الطَّائِفَةُ) الجماعة. معاني القرآن، للزَّجَّاج (٤/٢٨-٢٩). ولا يبعد أن تكون (الطَّائِفَةُ) إذا أريد بها الواحد يكون أصلها: (طائفا)، على مثال (قائم) و(قاعد)، فتدخل الهاء للمبالغة في الوصف كما يقال: رواية علامة نسابة. انظر: زاد المسير (٣/٤٦٦)، تفسير الرَّاظِي (١٦/٩٧). وانظر: الفروع، لابن مفلح (١٠/٣٩). ولكن قد نقل عن ابن عباس أيضًا أنَّ (الطَّائِفَةُ) من (أربعة) إلى (أربعين)، وعن مجاهد: (الواحد) فما فوقه. وفضل قول ابن عباس [أي: من (أربعة) إلى (أربعين)]؛ لأنَّ (الأربعة) هي الجماعة التي ثبت بها هذا الحدُّ. والصَّحيح أن هذه الكبيرة من أمهات الكبائر. انظر: الكشف (٣/٤٨)، البحر المحيط (٦/٣٩٥)، وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر (١٣/٢٣٤)، تهذيب الأسماء، للإمام النووي (٤/١٧٩).

- (١) هو إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر، أول من حاول (الطَّيْران)، ومات في سبيله. لغوي، من الأئمة. وخطه يذكر مع خط ابن مقلة. أشهر كتبه: (الصَّحاح) مجلدان. [٣٩٣هـ]. الأعلام (١/٣١٣)، وانظر: البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة (ص: ١٠).
- (٢) الصَّحاح، مادة: (طاف) (٤/١٣٩٧).

لأنَّه في الأصل مصدر»^(١).

أقول: وكذلك قال كثيرٌ من المفسِّرين، أعني أنَّ الجمع باعتبار المعنى؛ فإنَّ كلَّ طائفة جمع^(٢).

وقال القرطبي: «(الطَّائِفَةُ) في اللُّغة: الجماعة. وقد تقع على أقل من ذلك حتَّى تبلغ الرِّجلين، وللواحد على معنى: (نفس طائفة)، وكما قال ﷺ: ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، فالمراد رجل واحد، ولا شكَّ أنَّ المراد هنا: جماعة لوجهين: أحدهما عقلاً، والآخر لغةً. أمَّا العقل؛ فلأنَّ العلم لا يتحصَّل بواحد في الغالب. وأمَّا اللُّغة فقوله ﷺ: ﴿لَيَنْفَقَهُنَّ فِي الدِّينِ وَلَيُنْذِرُوا قَوْمَهُنَّ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فجاز بضمير الجماعة»^(٣).

أقول: ومن العلماء من يرى أنَّ الطائفة ها هنا واحد، ويتعضدون فيه بالدليل على وجوب العمل بخبر الواحد^(٤).

وقد علَّق القرطبي على ذلك بأنَّه «صحيحٌ لا من جهة أنَّ الطَّائِفَةَ تطلق على الواحد، ولكن من جهة أنَّ خبر الشَّخص الواحد أو الأشخاص خبر واحد، وأنَّ مقابله وهو التَّواتر لا ينحصر. [قال]: أنصُّ ما يستدلُّ به على أنَّ الواحد يقال له: (طائفة) قوله ﷺ: ﴿وَإِنْ

(١) شرح الكوكب المنير (٣/١٤٨-١٤٩)، وانظر: المستصفى (١/٢٤٣-٢٤٤).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٦/١٤٩)، البياضوي (٥/٢١٥)، تفسير أبي السُّعود (٨/١٢٠).

(٣) تفسير القرطبي (٨/٢٩٤).

(٤) انظر: تفسير الطُّبري (١٨/٦٩)، الدرُّ المشور (٧/٥٦١)، تفسير الصَّنَّاعِي (٣/٢٣٠).

طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴿١٠﴾ يعني: نفسين. دليله قوله ﷺ: ﴿فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فجاء بلفظ التثنية، والضَّمير في ﴿اقْتَتَلُوا﴾، وإن كان ضمير جماعة فأقل الجماعة اثنان في أحد القولين للعلماء^(١).

أقول: والراجح أنَّ الطَّائِفَةَ لأكثر من واحد؛ لأنَّه إنما يراد به الشهرة، وهذا بالجماعة أشبه، ولما ذكره القرطبي في قوله الآنف الذكر. وما ذكره ابن عباس -إن صحَّ- فمجازٌ على اعتبار الجمع في المعنى. وقد روي عنه خلافة -كما سبق-.

ومما قيل في قوله ﷺ:

﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴿٤١﴾﴾ [القمر: ٤١].

قيل: هو جمع (نذير) وهو (الرَّسُول). وقيل: هو مصدر بمعنى (الإنذار)^(٢).

«فعلى أنه مصدر فقد بيَّنت الآيات القرآنية بكثرة أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون -عليهما السَّلام-. وعلى أنه جميع (نذير) أي: منذر، فالمراد به موسى وهارون -عليهما السَّلام-. وقد جاء في آيات كثيرة إرسال موسى وهارون لفرعون كقوله ﷺ: ﴿فَأَنبِأَهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٩٤/٨).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (١٧٨/٤)، البحر المديد (٢٥١/٧)، التحرير والتنوير (١٧٦/٢٧)، وانظر ذلك مفصلاً في (تاج العروس)، مادة: (نذر) (٢٠٠/١٤).

رَبِّكَ ﴿ [طه: ٤٧]. ثُمَّ بَيَّنَّ لَكَ إِذْ نَادَاهُمَا لَهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ ﴿٤٨﴾ [طه: ٤٨]، ونحوها من الآيات. وفي هذه الآية سؤال معروف، وهو أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَرْسَلَ لِفِرْعَوْنَ نَبِيَّيْنِ هُمَا مُوسَى وَهَارُونَ -عليهما السَّلام-، كما قال ﷻ: ﴿ فَأَتَيْنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿١٦﴾ [الشعراء: ١٦]، وهنا جمع النذر في قوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ ﴾ ﴿٤١﴾ . وللعلماء عن هذا أجوبة:

أحدها: أَنَّ (أقل الجمع اثنان) كما هو المقرر في أصول مالك بن أنس «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».. إلخ^(١).

وقد ذكر غير واحد من المفسرين أَنَّ المراد بالنذر موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء؛ لأنَّهما عرضا عليهم ما أُنذر به المرسلون^(٢).. والتَّحْقِيقُ في الجواب، أَنَّ من كَذَّبَ رسولا واحداً فقد كَذَّبَ جميع المرسلين، ومن كَذَّبَ نذيراً واحداً فقد كَذَّبَ جميع النُّذُر؛ لأنَّ أصل دعوة جميع الرُّسل واحدة، وهي مضمون (لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) كما أوضحه ﷻ بقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقوله ﷻ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

(١) أضواء البيان (٧/ ٤٨٣)، وقد سبق بيان ذلك مفصلاً.

(٢) الكشاف (٤/ ٤١). كذا قال القرطبي: إنَّ المراد موسى وهارون. وقد يطلق لفظ الجمع على

الاثنتين. تفسير القرطبي (١٧/ ١٥٤)، وانظر: تفسير البغوي (٤/ ٢٦٣)، زاد المسير (٨/ ١٠٠).

وأوضح ﷺ أَنَّ من كَذَّب بعضهم فقد كَذَّب جميعهم في قوله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠]^(١).

ومما قيل في قوله ﷻ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿٣١﴾ [الرحمن: ٣١].

يأتي في كثير من آيات القرآن الكريم لفظ: (الجن) في مقابلة لفظ: (الإنس)، أو يأتي الخطاب لكل منهما. يقول الله ﷻ: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ﴿٣١﴾ فمن هما الثَّقَلَانِ إن لم يكونا نوعين مختلفين هما: الإنس والجن؟ ويقول الله ﷻ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ [الرحمن: ١٤-١٥].

فقوله ﷻ: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ﴿٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ ﴿١٥﴾ ، وقوله ﷻ: ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ المراد: الإنس والجن، وهما اثنان .

فقوله ﷻ: ﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ ؛ لأنهما فريقان، وكلُّ فريق جمع. وكذا قوله ﷻ: ﴿يَمْعَشَرُ الْإِنِّ وَالْإِنِّسِ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ﴾ [الرحمن: ٣٣]. ولم يقل: (إن استطعتما) ؛ لأنهما فريقان في حال الجمع، كقوله ﷻ: ﴿فَإِذَا هُم بِفَرِيقَيْنِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] ، ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] ، ولو قال: (سنفرغ لكما)، وقال: (إن استطعتما

(١) انظر: الكشاف (٣/٥٢٣)، (٤/٤١)، البحر المحيط (٨/١٨١)، روح المعاني (٢٧/٩١).

لجواز^(١)..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنْ نُّؤَبَّا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ كما سبق.

أما ما قاله كثير من المفسرين في تفسير الآية التي قد استدلل بها في غير موضع، فقد قالوا: إِنَّ قوله ﷻ: ﴿إِنْ نُّؤَبَّا إِلَى اللَّهِ﴾ يعني: حفصة وعائشة -رضي الله عنهما- حثهما على التوبة على ما كان منهما من الميل إلى خلاف محبة رسول الله ﷺ. وقوله ﷻ: ﴿فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ أي: زاغت ومالت عن الحق.. ولم يقل: (فقد صغى قلباكما)، ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعهما؛ لأنه لا يشكل. وقيل: كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع أليق به؛ لأنه أمكن وأخف^(٢).

ومما سبق يتبين:

أَنَّ (خطاب الاثنين بلفظ الجمع) فيه ما قد يشعر بتمييز المخاطبين،

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٦٩/١٧)، تفسير ابن عادل (٣٣٠/١٨).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٧٣-١٧٤/٦)، (١٨٨/١٨)، تفسير ابن عادل (١٩٧/١٩)، السراج المنير (٣٥١/٤). وانظر: تفسير ابن كثير (٣٨٨-٣٨٩/٤)، وانظر: روح المعاني (١٣٣/٦)، (٢٨/١٥٢-١٥٥)، تفسير البغوي (١٧٢/١)، (٤٠٢/١)، (٥٣/٤)، وانظر: معاني القرآن، للفرّاء (١٦٦/٣)، وأيضاً ذكر ذلك الشيخ محمد الأمين في (أضواء البيان): «و﴿قُلُوبُكُمَا﴾ جمع مع أنه لاثنتين هما حفصة وعائشة، فقيل: لأن المعنى معلوم، والجمع أخف من المثني إذا أضيف. وقيل: هو ما استدلل به على أَنَّ (أقل الجمع) اثنين». أضواء البيان (٢٢٠/٨). وقد بينت ما قيل في أقل الجمع بياناً وافياً..

وقد ينظر إلى بعض صيغ الخطاب فيه من اعتبار المثنى الذي يدلُّ على صنفين أو فريقين يندرج تحتها أفراد. وفي كلِّ ما ذكر ما يدلُّ على البلاغة والفصاحة، وما هو في سبكه أليق وأمكن وأخفُّ، ويقال في ذلك كلُّه ما قيل في سابقه.



المطلب السادس: خطاب الجمع بعد الواحد

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾. خطاب له ﷺ، والمراد هو وأُمَّته، وقد يخاطب الرسول ﷺ، والمراد هو وأتباعه^(١).

وفي قوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أمران مخصوصان بالرسول ﷺ. وأما قوله ﷺ: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فهذا خطاب مع النبي ومع جميع الأمة. والسبب في أن حُصَّ الرسول بالخطاب أولاً، ثم عُمِّ الخطاب مع الكل، هو أن قوله ﷺ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ وإن كان بحسب الظاهر خطاباً مختصاً بالرسول ﷺ، إلا أن الأمة داخلون فيه، ومرادون منه؛ لأنه من المعلوم أنه إذا خطب رئيس القوم كان القوم داخلين في ذلك الخطاب. والدليل عليه قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، ثم إنه ﷺ بعد أن حُصَّ الرسول ﷺ بذينك الخطابين عُمِّ الكل بالخطاب الثالث فقال: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ فدل ذلك

(١) انظر: تفسير القرطبي (٨/٣٥٦)، وانظر: الكليات (ص: ٤٢١)، الإتيان (٢/٩١).

على كونهم داخلين في الخطابين الأولين»^(١).

قال الزركشي: «فجمع ثالثها، والخطاب للنبي ﷺ. قال ابن الأنباري: إنما جمع في الفعل الثالث ليدل على أن الأمة داخلون مع النبي ﷺ وحده، وإنما جمع تفخيماً له وتعظيماً كما في قوله ﷺ: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: ٧٥]. وكذلك قوله ﷺ: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يُثُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧]. فثني في الأول، ثم جمع، ثم أفرد؛ لأنه خوطب أولاً موسى وهارون -عليهما السلام-؛ لأنهما المتبوعان. ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها؛ لأنه واجب عليهم، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة تعظيماً له»^(٢).

ومما سبق يُعلم تميّز المخاطب أولاً.. ويقال في هذا الخطاب ما قيل في سابقه.



(١) تفسير الرازي (١٧/١٢٢)، تفسير ابن عادل (١٠/٣٦٣)، وانظر: تفسير القرطبي (١٨/١٤٨).

(٢) البرهان (٢/٢٤١-٢٤٢)، وانظر: الإتيان (٢/٩١).

المطلب السابع: خطاب الواحد بعد الجمع

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٨٧].

قال ابن القيم رحمه الله: «هو من أحسن النظم وأبدعه، فإنه ثنى أولاً إذ كان موسى وهارون -عليهما السلام- هما الرسولان المطاعان، ويجب على (بني إسرائيل) طاعة كل واحد منهما سواء، وإذا تبوءا البيوت لقومهما فهم تبع لهما. ثم جمع الضمير فقال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾؛ لأن إقامة فرض على الجميع. ثم وحده في قوله ﷺ: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن موسى عليه السلام هو الأصل في الرسالة، وأخوه رداءً ووزيراً، وكما أرسلنا برسالة واحدة كانا رسولاً واحداً، كقوله ﷺ: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٦]، فهذا الرسول هو الذي قيل له: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾»^(١).

والحاصل أنه ثنى أولاً؛ لأنهما المتبوعان، ثم جمع؛ لأن الأمر بإقامة الصلاة للجميع، ثم أفرد موسى عليه السلام بالبشارة تعظيماً له، وهو الشاهد هنا؛ إذ جاء الأفراد عقب الجمع. وذلك يدل على تميز المخاطب آخرًا، وأنه المتبوع، والجمع قبله تبع له...

(١) بدائع الفوائد (٤/٨١٦)، وانظر: البرهان (٢/٢٤١-٢٤٢)، (٣/٣٣٥)، الإتيان

(٢/٩١)، (٢/٢٣٣).

المطلب الثامن: خطاب الاثنين بعد الواحد

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨]. المراد بضمير المخاطبين أعني: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ﴾: موسى وهارون عليهما السلام، وإنما لم يفرّدا موسى عليه السلام بالخطاب هنا كما أفردوه به فيما تقدّم؛ لأنّه المشافه لهم بالتوبيخ والإنكار تعظيماً لأمر ما هو أحد سببي الإعراض معنى ومبالغة في إغاضة موسى عليه السلام، وإقناطه عن الإيمان بما جاء به^(١). وفي (تفسير أبي السعود): «أنّ تثنية الضمير في هذين الموضعين بعد إفراده فيما تقدّم من المقامين باعتبار شمول الكبرياء لهما -عليهما السلام- واستلزام التصديق لأحدهما التصديق للآخر، وأمّا اللفت والمجيء له فحيث كانا من خصائص صاحب الشريعة أسند إلى موسى عليه السلام خاصّة»^(٢).

قال الألوسي تعقيباً على كلام أبي السعود: «فتدبر ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ [يونس: ٧٩] أسند الفعل إليه وحده؛ لأنّ الأمر من وظائفه دون الملاء،

(١) انظر: تفسير الألوسي (١١/١٦٥-١٦٦)، البرهان (٣/٣٣٤)، الإنقان (٢/٩١)، (٢/٢٣٣).

(٢) تفسير أبي السعود (٤/١٦٩).

وهذا بخلاف الأفعال السابقة من الاستكبار ونحوه، فإنها ممّا تسند إليه وإلى ملئه، لكنّ الظاهر أنّه غير داخل في القائلين: ﴿أَحِثَّنَا لِتُلَقِّنَا عَمَّا وُجِدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [يونس: ٧٨]؛ لأنّه -عليه اللّعة- لم يكن يظهر عبادة أحدٍ كما كان يفعل ملؤه، وسائر قومه، أي: قال لملأه: يأمرهم بترتيب مبادئ الإلزام بالفعل بعد اليأس عن الإلزام بالقول: ﴿أَتُؤْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩]»^(١).

وفي (التحرير والتنوير): «ولما كانوا ظنّوا تطلّبهما للسيادة أتوا في خطاب موسى عليه السلام بضمير المثنى المخاطب؛ لأنّ هارون عليه السلام كان حاضراً، فالتفتوا عن خطاب الواحد إلى خطاب الاثنين. وإنّما شرّكوا هارون عليه السلام في هذا الظنّ من حيث إنّّه جاء مع موسى عليه السلام، ولم يباشر الدّعوة فظنّوا أنّه جاء معه لينال من سيادة أخيه حظاً لنفسه»^(٢).

أقول: والشّاهد -بالنسبة لمن قال: إنّّه من (خطاب الاثنين بعد الواحد)- أنّهم أفردوه بالخطاب في صدر الآية، ثمّ عطف عليه الخطاب المتوجّه إليهما، وهو من أساليب الالتفات، والغرض منه زيادة التّيسيس، فإذا كانوا قد أعرضوا عن دعوة موسى عليه السلام لسبب من الأسباب، فإنّ ذلك الإعراض بعينه متوجّه لهارون عليه

(١) روح المعاني (١١/١٦٥-١٦٦).

(٢) التحرير والتنوير (١١/٢٥٢).

السلام، فسواء أكان من يدعوهما موسى عليه السلام، أم كان هارون عليه السلام، أم كانا معًا فلن يستجيبوا، ولن تكون لهما السيادة عليهم -كما يقولون-..

وواضح أنَّ سبب إعراضهم: التكبر والاستعلاء، فهذا القول الأوَّل، وقد قيل أيضًا: إنَّ الخطاب مَتَّجَةٌ لهما في صدر الآية وما عطف عليه وفي عجزها، ولكنَّه أفرد أوَّلًا؛ لأنَّ موسى عليه السلام صاحب الرُّسالة... .



المطلب التاسع: خطاب الواحد بعد الاثنين

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿قَالَ فَمَنْ رَزَقْنَا يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩].

وقال ابن عطية: «وقوله ﷺ: ﴿يَمُوسَىٰ﴾ بعد جمعه مع هارون في الضمير، نداء بمعنى التخصيص والتوقيف إذ كان صاحب عظم الرسالة ولزيم الآيات»^(١).

ومن ذلك قوله ﷺ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧].

وقد سبق بيانه، والتعقيب عليه.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]. وقد

سبق بيانه، والتعقيب عليه.



(١) المحرر الوجيز (٤/٤٦)، وانظر: الكليات (ص: ٢٤٢)، انظر: المطلب الرابع (خطاب الاثنين بلفظ الواحد).

المطلب العاشر: خطاب عين والمراد غيره

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿... أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ [البقرة: ١٠٦-١٠٧] (١).

قال الطبري في (تفسيره): «إِنَّ قَالَ لَنَا قَائِلٌ: أَوَلَمْ يَكُن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَأَنَّهُ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ، حَتَّى قِيلَ لَهُ ذَلِكَ؟! قِيلَ: بَلَى فَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ: إِنَّمَا ذَلِكَ مِنَ اللَّهِ ﷻ خَبَرَ عَنْ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَخْرَجَ الْكَلَامَ مَخْرَجَ التَّقْرِيرِ كَمَا تَفْعَلُ مِثْلُهُ الْعَرَبُ فِي خُطَابِ بَعْضِهَا بَعْضًا، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ لِصَاحِبِهِ: (أَلَمْ أَكْرَمَكَ؟)، (أَلَمْ أَتَفَضَّلْ عَلَيْكَ؟) بِمَعْنَى إِخْبَارِهِ أَنَّهُ قَدْ أَكْرَمَهُ وَتَفَضَّلَ عَلَيْهِ، يَرِيدُ (أَلَيْسَ قَدْ أَكْرَمْتَكَ؟)، (أَلَيْسَ قَدْ تَفَضَّلْتَ عَلَيْكَ؟) بِمَعْنَى: قَدْ عَلِمْتَ ذَلِكَ. قَالَ: وَهَذَا لَا وَجْهَ لَهُ عِنْدَنَا، وَذَلِكَ أَنَّ قَوْلَهُ ﷻ ﴿... أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ إِنَّمَا مَعْنَاهُ: (أَمَا عَلِمْتَ)، وَهُوَ حَرْفُ جَحْدٍ أُدْخِلَ عَلَيْهِ حَرْفُ اسْتِفْهَامٍ، وَحُرُوفُ الاسْتِفْهَامِ إِنَّمَا تَدْخُلُ فِي الْكَلَامِ إِمَّا بِمَعْنَى: (الاسْتِثْنَاءِ) وَإِمَّا بِمَعْنَى: (النَّفْيِ). فَأَمَّا

(١) ونحوه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٤٠]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٧٠].

بمعنى (الإثبات) فذلك غير معروف في كلام العرب، ولا سيما إذا دخلت على حروف الجحد، ولكن ذلك عندي وإن كان ظهر ظهور الخطاب للنبي ﷺ فإنما هو معني به: أصحابه الذين قال الله ﷻ: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]. والذي يدل على أن ذلك كذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٠٧]، فعاد بالخطاب في آخر الآية إلى جميعهم، وقد ابتداء أولها بخطاب النبي ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟﴾ لأن المراد بذلك الذين وصفت أمرهم من أصحابه، وذلك من كلام العرب مستفيض بينهم فصيح أن يخرج المتكلم كلامه على وجه الخطاب منه لبعض الناس، وهو قاصد به غيره^(١).
وقد قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]^(٢)، الخطاب للنبي ﷺ، والمراد الأمة^(٣).
ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]. وينبغي التنبيه على أن

(١) الطبري (١/٤٨١-٤٨٢).

(٢) ونحوه: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢/١٦٢)، تفسير الثعالبي (١/١٠٣)، (١/١١٧)، تفسير السمرقندي (١/١٥٤).

النبي ﷺ معصوم، وأنَّ الخطاب له ﷺ، والمراد غيره ممن يمكن منه الشك^(١).

ومن الملاحظ بشكل عام أنَّ قوله ﷺ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]. ممَّا قيل فيه: إنَّه من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر أو النهي للمخاطب به، والمراد به غيره، كما جاء ذلك في آيات أخرى.. حيث خرج الكلام مخرج الأمر للنبي ﷺ، والنهي له ﷺ، والمراد به أصحابه المؤمنون به^(٢).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣/٣٨٢-٣٨٣)، تفسير الثعالبي (١/٥٥٤)، الكشف والبيان (٢/١٣)، (٣/٢٣٦)، (٣/٣٧٤)، (٣/٣٨٢)، (٥/١٤٩)، (٦/٩٢)، (٦/١٠٠)، (٧/٣٣٤-٣٣٥)، (٩/٣٤)، تفسير ابن عادل (٧/٧)، (٨/٢٠٧)، (٩/٢٧).

(٢) انظر المصادر السابقة والطبري (٢/٢٧). قال الإمام الشافعي -رحمه الله-: «قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [١-٢]. وقال عز وجل: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ١-٢]. وقال عز وجل: ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]. فأعلم الله عز وجل رسوله ﷺ مِنَّةً عليه بما سبق في علمه من عصمته إياه من خلقه، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وشهد له عز وجل باستمساكه بما أمره به، والهدى في نفسه، وهداية من أتبعه، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ. مَن شَاءَ مِنَّا وَمِنْ بَعْدِنا وَإِلَيْكَ لَنَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصْرِفُونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] فأبان الله عز وجل أنَّ قد فرض على نبيه ﷺ اتباع أمره، وشهد له بالبلاغ عنه، وشهد به لنفسه، ونحن نشهد له به تقرُّبًا إلى الله عز وجل بالإيمان به.. وقال: وفي =

ومن ذلك ما قيل ^(١) في قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ١٦٥] على قراءة من قرأ ^(٢): ﴿وَلَوْ تَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ﴾.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] ^(٣). وهو كقوله ﷻ في (سورة البقرة) الآنف الذكر. ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْكَ الْقُلُوبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَلْبَدِ﴾ [آل عمران: ١٩٦]. قال قتادة: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره. وقال غيره: إنما

= شهادته له بأنه يهدي إلى صراط مستقيم، صراط الله عز وجل، والشهادة بتأدية رسالته وأتباع أمره، وفيما وصفت من فرضه طاعته، وتأكيده إياها في الآي [انظر: بيان ذلك فيما سبق من صفات مبلغ الخطاب ﷺ] ذكرت ما أقام الله عز وجل به الحجّة على خلقه بالتسليم لحكم رسول الله ﷺ، وأتباع أمره. وقد سنّ رسول الله ﷺ مع كتاب الله عز وجل، وسنّ فيما ليس فيه بعينه نصّ كتاب، وكلّ ما سنّ فقد ألزمنّا الله عز وجل أتباعه، وجعل في أتباعه ﷺ طاعته عز وجل، وفي العنود عن أتباعها معصيته التي لم يعذر بها خلقاً... بتصرف عن (الرسالة)، للشافعي (١/٨٥-٩٠).

- (١) انظر: القرطبي (٢/٢٠٥)، والثعالبي (١/١٢٧).
 (٢) وهي قراءة نافع وابن عامر كما في (حجّة القراءات) (ص: ١١٩)، وانظر: الحجّة في القراءات السبع (ص: ٩١)، وتفسير الطبري (٢/٦٧-٦٩)، والدّر المشور (١/٤٠٢).
 (٣) انظر: تفسير القرطبي (٢/١٦٣)، والبعوي (١/٣١٠). ونحوه: ﴿قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الحجر: ٥٥].

خاطبه تأديباً وتحذيراً، وإن كان لا يغتر^(١). والخطاب للنبي ﷺ على أن المراد تثييته على ما هو عليه، كقوله ﷻ: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]. أو على أن المراد نهى المؤمنين كما يوجّه الخطاب إلى مداره^(٢) القوم ورؤسائهم، والمراد: أفناؤهم^(٣)، أو لكل أحد ممن يصلح للخطاب من المؤمنين، والنهي للمخاطب^(٤).

(١) انظر: زاد المسير (١/ ٥٣١-٥٣٢)، تفسير البيضاوي (٢/ ١٣٥)، والتعلي (١/ ٣٤٣)، الكشف والبيان (٣/ ٢٣٦)، الثيسابوي (٢/ ٣٣٤) أخرج الطبري بسنده الحسن عن قتادة: والله ما غرؤا نبي الله قط، حتى قبضه الله تعالى. تفسير الطبري (٤/ ٢١٧)، الدر المنثور (٢/ ٤١٥)، موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور (١/ ٤٩٦).

(٢) يقال: (مذرة القوم) أي: زعيمهم وخطيئهم والمتكلم عنهم والدافع عنهم. انظر: تاج العروس، مادة: (دره) (٣٦/ ٣٧٥)، وكذلك في (العين) (٤/ ٢٤)، تهذيب اللغة، للأزهري (٦/ ١١٢).

(٣) أي: من جماعتهم وعامتهم...، يقال: (رجل من أفناء الناس)، أي: لم يعلم ممن هو. وفي (تاج العروس): «الأفناء من الناس: الأخلاط، واجدها: فتو، بالكسر». تاج العروس، مادة: (فتو) (٣٩/ ٢٥٨)، وانظر: لسان العرب، مادة: (فني) (١٥/ ١٦٤).

(٤) تفسير أبي السعود (٢/ ١٣٥)، روح المعاني (٤/ ١٧١). وقد فصل القول في ذلك الآلوسي في (تفسيره) حيث قال: «الخطاب للنبي ﷺ، والمراد منه أمته. وكثيراً ما يخاطب سيد القوم بشيء ويراد أتباعه، فيقوم خطابه مقام خطابه. ويحتمل أن يكون عاماً للنبي وغيره بطريق التغليب تطبيقاً لقلوب المخاطبين. وقيل: إنه خطاب له -عليه الصلاة والسلام- على أن المراد: تثييته على ما هو عليه، كقوله عز وجل: ﴿فَلَا تُطِيعُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]. وضعف بأنه -عليه الصلاة والسلام- لا يكون منه تزلزل حتى يؤمر بالثبات، وفيه نظر لا يخفى. والنهي في المعنى للمخاطب. أي: لا تغتر بما عليه الكفرة من التبسط في المكاسب والمتاجر والمزارع، ووفور الحظ، وإنما جعل النهي ظاهراً للتقلب تنزيلاً للسبب منزلة المسبب؛ فإن تغير التقلب للمخاطب سبب، واغتراره به مسبب، فمنع السبب بورود =

والخطاب لكل أحد أو للنبي ﷺ، والمراد به غيره؛ ولأن مِدرَهُ القَوْمِ ومقدمهم يخاطب بشيء فيقوم خطابه مقام خطابهم جميعاً، فكأنه قيل: (لا يغرنكم)؛ ولأن رسول الله ﷺ كان غير مغرور بحالهم فأكد عليه ما كان عليه، وثبت على التزامه كقوله ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]. وهذا في التَّهْيِ نظير قوله في الأمر: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَنَّ اللَّهَ﴾ [النساء: ٧٩]، أي: ما أصابك من من خير ونعمة فمن الله ﷻ، وما أصابك من بليّة أو أمر تكرهه فمن نفسك، أي: بذنوبك. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره. نظيره قوله ﷺ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]^(٢).

= التَّهْيِ عليه ليمتنع السَّبَبُ الَّذِي هو اغترار المخاطب بذلك السَّبَبِ على طريق برهاني، وهو أبلغ من ورود التَّهْيِ على السَّبَبِ من أوّل الأمر. قالوا: وهذا على عكس قول القائل: (لا أريئك هنا)، فإنّ فيه التَّهْيِ عن السَّبَبِ -وهو الرُّؤْيَا- ليمتنع السَّبَبُ، وهو حضور المخاطب، وأورد عليه أنّ الغاية والمغروية متضايقان. وقد صرّحوا بأنّ القطع والانقطاع ونحو ذلك مثلاً متضايقان، وحقق أنّ المتضايقين لا يصحّ أن يكون أحدهما سبباً للآخر، بل هما معاً في درجة واحدة، فالأولى أن يقال: علّق التَّهْيِ بكون التَّقَلُّبِ غاراً ليفيد نهي المخاطب عن الاغترار؛ لأنّ نفي أحد المتضايقين يستلزم نفي الآخر، ولا يخفى أنّ هذا مبنيٌّ على ما لم يقع الإجماع عليه، ولعلّ النُّظْرَ الصَّائِبَ يقضي بخلافه. روح المعاني (٤/١٧١).

(١) انظر: الكشف (١/٤٩٠)، تفسير النُسَفي (١/٣٠٠)، البحر المحيط (٣/١٥٣).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٥/٢٨٥)، تفسير البغوي (١/٤٥٤)، تفسير الثَّعَالِبِي (١/٣٩٣)، =

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨]، وهذا خطاب للنبي ﷺ، بدليل أول الآية: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾. قيل: الخطاب له ﷺ، والمراد غيره^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَقْتَرُونَا عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]. قيل: الخطاب له والمراد غيره^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٥٥]. وقد ذكر ذلك المعنى كل من الزجاج في (معاني القرآن)، والقرطبي في (تفسيره).. فحيث إن قراءة التاء خطاب للنبي ﷺ، أي: (ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين)، فإنه قد يرد على ذلك اعتراض مفاده: فإن قيل: فقد كان النبي ﷺ يستبينها؟ فالجواب عند الزجاج أن الخطاب للنبي ﷺ خطاب لأُمَّته، فالمعنى: ولتستبينوا سبيل المجرمين^(٣).

= وفي (معاني القرآن وإعرابه)، للزجاج: «هذا خطاب للنبي ﷺ مراد به الخلق، ومخاطبة النبي قد تكون للناس جميعاً؛ لأنه لسانهم..». معاني القرآن الكريم وإعرابه، للزجاج (٢/ ٨٧).

(١) انظر: تفسير الرّازي (١٢/ ١٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٢١٣)، وانظر: الكلّيات (ص: ٦٦١).

(٣) انظر: معاني القرآن، للزجاج (٢/ ٢٥٤-٢٥٥)، تفسير القرطبي (٦/ ٤٣٧).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾
﴿وَأَمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدَ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ذهب بعض المحققين أنَّ الخطاب هنا وفيما قبل لسيّد المخاطبين - عليه الصّلاة والسّلام - والمراد غيره. وقيل: لغيره ابتداءً، أي: إذا رأيت أيّها السّامع، وإن أنساك أيّها السّامع^(١).
والحاصل أنّه قد قيل: إنّ خطاب للنبي ﷺ والمراد غيره. وقيل: الخطاب لغيره، أي: إذا رأيت أيّها السّامع الذين يخوضون في آياتنا^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدَآكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠] الخطاب له ﷺ والمراد غيره ممن يمكن ذلك منه^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كَتَبْنَا نُزُلًا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]^(٤).

(١) انظر: روح المعاني (٧/ ١٨٢)، تفسير القرطبي (٧/ ١٤)، تفسير الرّازي (١٣/ ٢٣)، تفسير ابن عادل (٨/ ٢٠٧).

(٢) انظر: تفسير الرّازي (١٣/ ٢٤).

(٣) انظر: روح المعاني (٨/ ٥٣)، وتفسير الثّعالبي (١/ ٥٦٧).

(٤) انظر: فتح القدير (٢/ ١٨٧).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠].

ووجه كاف الخطاب في قوله ﷺ: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ﴾ أن المعنى:

ولو أعجبك أيها السامع أو أيها المخاطب. وأمّا أن لا يكون من جملة ما أمر بقوله، ويكون خطاباً للنبي ﷺ، فقد ذكر بعضهم أنه يحتمل ذلك، والأولى القول الأول، أو يحمل على أنه خطاب له في الظاهر والمراد غيره^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ

الْكَاذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣].

قال الزركشي: «قوله ﷺ: ﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ﴾ تغليظ على المنافقين، وهو

في الحقيقة راجع إليهم، وإن كان في الظاهر للنبي ﷺ»^(٢).

والقول الذي عليه جمهور المفسرين أنه^(٣): عتاب من الله تعالى

ذكره، عاتب به نبيه ﷺ في إذنه لمن أذن له في التّخلف عنه... يقول ما

كان ينبغي لك أن تأذن لهم في التّخلف عنك، إذ قالوا لك: (لو

استطعنا لخرجنا معك) حتّى تعرف من له العذر منهم في تخلفه، ومن

(١) انظر: البحر المحيط (٣١/٤)، تفسير القرطبي (٣٢٩/٦)، وروح المعاني (٣٧/٧)، نظم الدرر (٣٧١/٣).

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢٤٣/٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٤٢/١٠)، تفسير الواحدي (٤٦٥/١)، القرطبي (١٥٤/٨).

لا عذر له منهم، فيكون إذذك لمن أذنت له منهم على علم منك بعذره، وتعلم مَنْ الكاذب منهم من المتخلف نفاقًا وشكًا في دين الله ﷻ^(١). وهنا لطيفة، وهي أَنَّ الله ﷻ ومن غاية لطفه بعبده محمد ﷺ أن بدأه بالعفو عنه، ورفع محله، فافتتاح الكلام بالدُّعاء له؛ إذ معناه أدام الله ﷻ لك العفو. وأصل العفو: (المحو والتَّرك)^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

«ولا شك أن خطاب الرأس بشيء أوقع في قلوب أصحابه؛ فلذلك وقع الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره من أتباعه وجماعته وأشياعه ممن قد يجنح إلى الأسباب، ويقف عنده، كما هو طبع النفوس في تأمل ما شهد، ونسيان ما غاب وعهد، تدريبًا لهم على الحب في الله ﷻ، والبغض فيه؛ لأنَّه من أدق أبواب الدِّين فهمًا وأجلها قدرًا، وعليه تبتنى غالب أبوابه، ومنه تجتنى أكثر ثمراته وآدابه، وذلك أنَّه ربَّما ظنَّ الناظر فيمن بسطت عليه الدنيا أنَّه من الناجين فيوآده لحسن قوله غافلا عن سوء فعله، أو يظنُّ أنَّ أهل الدِّين فقراء إلى مساعدته لهم في جهاد أو غيره بما له وذويه روية فيداريه، فأعلمهم ﷻ أنَّ ما هذا سبيله مقطوع البركة نهياً عن النَّظر إلى الصُّور، وتنبهًا على قصر

(١) بتصرف عن (تفسير الطبري) (١٤٢/١٠).

(٢) انظر: النَّاسخ والمنسوخ، للكرمي (ص: ١١٩).

الأنظار على المعاني»^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ
لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤]،
الخطاب للنبي ﷺ، بدليل قوله ﷻ في صدر الآية بعدها: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا
النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شكٍّ مِنْ دِينِي﴾ [يونس: ١٠٤]، والمراد غيره. أي:
لست في شك، ولكن غيرك في شك^(٢).

ثم استأنف الكلام فقال: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُمْتَرِينَ﴾، أي: الشاكين المرتابين، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا
بَيَّاتٍ اللَّهُ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٥]، والخطاب في
هاتين الآيتين للنبي ﷺ، والمراد غيره^(٣). وقال الرَّاظي: «إنَّ الخطاب
مع النبي ﷺ في الظاهر، والمراد غيره كقوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّوْءُ اتَّقِ اللَّهَ
وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]^(٤)، وكقوله ﷻ: ﴿لَنْ
أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]^(٥)، وكقوله

(١) نظم الدرر (٣/ ٣٧١).

(٢) ونحوه قول الله عز وجل: ﴿وَتَنَزَّلُ مِنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥]. انظر: الإتيان (٢/ ٩١)، انظر: تفسير أبي السعود

(٤/ ١٧٥)، القرطبي (٨/ ٣٨٢)، (١٦/ ٩٦)، الطبري (١١/ ١٦٨-١٦٩).

(٣) تفسير القرطبي (٨/ ٣٨٣)، الثكت والعيون (١/ ١٠٥)، (٢/ ١٨٣). إلخ.

(٤) انظر: تفسير الرَّاظي (٧/ ٣٠٢)، السراج المنير (٣/ ٢٧٩)، زاد المسير (٦/ ٣٤٧).

(٥) انظر: تفسير القرطبي ١٥ / ٢٧٦.

﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ١١٦].
 ومن الأمثلة المشهورة: (إِيَّاكَ أَغْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ) ^(١).
 كما بين الرّازي ذلك بيّناً وافيّاً في كلام مطوّل.. ^(٢).
 ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ: ﴿وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، فقد قيل: الخطابُ له ﷺ والمراد غيره ^(٣).

(١) تفسر الرّازي (٣٠٢/١٧). جاء في (جهرة الأمثال): «قولهم: (إِيَّاكَ أَغْنِي واسمعي يا جارة)، المثل لسيار بن مالك الفزاري، قاله لأخت حارثة بن لأم الطّائي، وذلك أنّه نزل بها فنظر إلى بعض محاسنها فهوها، واستحيا أن يخبرها بذلك، فجعل يشبب بامرأة غيرها، فلما طال ذلك وضاق ذرعاً بما يجد، وقف لها فقال:

كانت لنا من غطفان جاره حلالة طعانة سياره
 كأنها من هيئة وشاره والحلى حلى التبر والحجارة
 مدفع ميثاء إلى قراره إِيَّاكَ أَغْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ».

جهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري (ص: ٢٩). وانظر: فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد البكري (ص: ٧٦-٧٧).

(٢) انظر: تفسير الرّازي (١٧/ من ١٦٠ إلى ١٦٣). وفي (أحكام أهل الذّمة)، لابن القيم: وقال كثير من المفسرين هذا الخطاب للنبي ﷺ والمراد غيره؛ لأنّ القرآن نزل عليه بلغة العرب، وهم قد يخاطبون الرّجل بالشيء ويريدون غيره، كما يقول متمثلهم: (إِيَّاكَ أَغْنِي وَاسْمِعِي يَا جَارَةَ)، وكقوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ أَنَّ اللَّهَ وَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَالْمُشْفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، والمراد أتباعه بهذا الخطاب. وقيل: إنّ الله عز وجل يخاطب النبي ﷺ والخطاب شامل للخلق، والمعنى: (وإن كنتم في شك). والدليل على ذلك: قوله عز وجل: ﴿قُلْ يَتَأْتِيَ النَّاسُ لِنِ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَغْبُدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٤]. انظر: أحكام أهل الذّمة (١/ ١٠٣).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٨/ ٣٨٧)، تفسير الثّعالي (٢/ ١٩٥).

ومن ذلك ما قيل ^(١) في قوله ﷻ:

﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] بدليل قوله ﷻ:
﴿وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ من الآية نفسها.

ومن ذلك ما قيل ^(٢) في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧].

ومن ذلك ما قيل في الآيات التالية:

﴿لَا يَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقَعُدَ مَذْمُومًا مَحْذُومًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦].

﴿وَلَا يَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَلَا يَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩] ^(٣).

فلم يكن النبي ﷺ مثلاً ممن يتحسر على إنفاق ما حوته يده في سبيل الله ﷻ، فثبت أن المراد غير النبي ﷺ، وهو نحو قوله ﷻ:
﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ فإنَّ

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٠٧/٩).

(٢) انظر: المرجع السابق (١٦١/٧).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٢٣٦/١٠)، (٢٥٠/١٠)، روح المعاني (٧٨/١٦).

الخطاب للنبي ﷺ، والمراد غيره^(١). وقوله ﷻ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤]، لم يرد به النبي ﷺ؛ لأنه لم يشك قط، فاقتضت هذه الآيات من قوله ﷻ: ﴿وَقَصَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] الأمر بتوحيد الله ﷻ، والإحسان إلى الوالدين، والتذلل لهما، وطاعتهما، وإعطاء ذي القربى حقه، والمساكين وابن السبيل حقوقهم، والنهي عن تبذير المال وإنفاقه في معصية الله ﷻ، والأمر بالاعتصام في الإنفاق، والنهي عن الإفراط والتقصير في الإعطاء والمنع، وتعليم ما يجيب به السائل والمسكين عند تعذر ما يعطى^(٢).
أقول: السياق والسباق يفهم منه أن مثل هذا الخطاب القرآني هو خطاب العام من غير قصد شخص معين، ولعل هذا هو الراجح.
ومن ذلك ما قيل^(٣) في قوله ﷻ:

﴿إِذَا لَادَقْنَكَ الْحَيَوةُ ضِعْفَ الْحَيَوةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾

[الإسراء: ٧٥].

- (١) انظر: تفسير القرطبي (٢٧٦/١٥)، وانظر: أضواء البيان (٣/٢). وبهذا يعلم أن مثل قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَسْتَحْفِظُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وقوله عز وجل: ﴿لَيْنَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَنْكَ﴾، وقوله عز وجل: ﴿وَلَا تَطِغْ مِنْهُمْ عَظِيمًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، وقوله عز وجل: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّاخَرًا﴾ [الإسراء: ٢٢] يراد به التشريع لأئمة؛ لأنه ﷺ معصوم من ذلك الكفر الذي نهى عنه. انظر: أضواء البيان (١٧٧/٦-١٧٨)، البحر المحيط (٤٢١/٤)، البحر المديد (٤٢٣/٦)، التحرير والتنوير (٤/١٧٥)، (١٩/٢٠٠).
(٢) انظر: أحكام القرآن الكريم، للجصاص (٢٣/٥)، تفسير الطبري (١١/١٦٨)، الدر المنثور (٤/٣٨٩)، الكشف والبيان (٥/١٤٩)، ابن عادل (١٠/٤١١).
(٣) انظر: روح المعاني (١٥/٧٨).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سَعَةَ ءَايَاتِنَا يَظُنُّكَ يُمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝﴾ [الإسراء: ١٠١] ^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦]، وذلك على قراءة: ﴿وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ -بالتاء والجزم- على النّهي. أي: لا تنسب أحداً إلى علم الغيب، فالخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد غيره ^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ۝﴾ [طه: ١٦].
هو المنهي صورة، والمراد غيره، فهو من باب (لا أُرَيْتَكَ هَهنا) ^(٣).
وقيل: «إِنَّ صَدَّ الكافر عن التصديق بها سببٌ للتكذيب، فذكر السبب ليُدلَّ على المسبب» ^(٤).

(١) انظر: تفسير البغوي (٣/ ١٤٠)، أضواء البيان (٣/ ٢)، (١٢/ ٧)، البحر المديد (٣/ ١٨٥).

(٢) وهي قراءة ابن عامر من السبعة. انظر: حجة القراءات (١/ ٤١٥)، وانظر: إبراز المعاني (٢/ ٥٦٨)، الأحرف السبعة للقرآن، للداني (ص: ٣٨)، معاني القرآن، للنحاس (٤/ ٢٢٩).

(٣) ومن فائدة ذلك أن النّهي عن اللّازم أبلغ في الدلالة على النّهي عن الملزوم من النّهي عن الملزوم ابتداءً، فإن قولك: (لا أُرَيْتَكَ هَهنا) أبلغ في الدلالة على نهي المخاطب عن الحضور عندك من أن تقول: (لا تحضر عندي). انظر: الكليات (ص: ١٦٣٤)، وانظر: الإنصاف، للبطلوسي (ص: ١١٠).

(٤) انظر: الدر المصون (٥/ ١٢)، تفسر ابن عادل (١٣/ ٢٠٥-٢٠٦)، البحر المحيط (٦/ ٢١٩)، تفسير الرّازي (٢٢/ ٢٤).

ومن ذلك ما قيل ^(١) في قوله ﷻ:
 ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ
 وَرَزَقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:
 ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى
 الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].
 قال أبو السُّعود في التَّعْقِيبِ على ما قيل: «من أنَّ التَّقْدِيرَ: (إنْ
 شَكَّكَ فِيهِ فَاسْأَلْ بِهِ خَيْرًا) على أنَّ الْخُطَابَ لَهُ ﷻ، والمراد غيره
 بمعزل من السَّدَادِ». وفي المعنى أقوال كثيرة ^(٢). فمِمَّا قيل: المعنى:
 فاسْأَلْ عَنْهُ، قاله الرَّجَاجُ ^(٣).

وقد حكى هذا جماعةٌ من أهل اللُّغة أنَّ (الباء) تكون بمعنى
 (عن) ^(٤) كما قال الله ﷻ: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]. وقال الشَّاعر:

(هَلَّا سَأَلَتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي) ^(٥).

(١) انظر: روح المعاني (٢٨٣/١٦).

(٢) أبو السُّعود (٢٢٧/٦)، روح المعاني (٣٩/١٩).

(٣) معاني القرآن الكريم وإعرابه، للرَّجَاج (٧٣/٤)، الدُّرُ الْمَصُون (٢٦٠/٥).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٦٣/١٣)، (٢٧٩/١٨)، البغوي (٨٤/٢)، (٣٧٤/٣)، وزاد

المسير (٢/٣)، (٣٥٨/٨)، التَّبْيَانُ فِي إِعْرَابِ الْقُرْآنِ الْكَرِيم (٢٣٤/١)، (١٦٤/٢).

(٥) والْقَائِلُ هُنَا هُوَ عَتْرَةُ بْنُ شَدَادٍ الْعَيْسِيُّ، مِنْ أَصْحَابِ (الْمَعْلَقَاتِ). وَقَوْلُهُ مَشْهُورٌ فِي مَعْلَقَتِهِ،

رَقْم [٣٢]، (ص: ٢٠٢)، وانظر: طبقات فحول الشعراء (ص: ١٢٨)، الشعر والشُعراء

(٢٥٠/١)، الْأَغَانِي (٢٥٤/٩).

وقال علقمة بن عبدة^(١):

(فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي بَصِيرٌ بِأَذْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ)^(٢).

وقيل غير ذلك .

قال القرطبي: «وقول الزَّجاج^(٣) يخرج على وجه حسن، وهو أن يكون الخبير غير الله ﷻ، أي: (فاسأل عنه خبيراً)، أي: عالماً به، أي: بصفاته وأسمائه...»^(٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَحَمِّدُوا بِهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُومًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]. قيل: الخطاب له ﷺ والمراد غيره^(٥).

ومن ذلك ما قيل^(٦) في قوله ﷻ:

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا

(١) قوله: (وقال علقمة) هو علقمة بن عبدة الفحل التيمي، شاعر جاهلي من أصحاب (المعلقات). انظر: طبقات فحول الشعراء (ص: ١٢٨)، والشعر والشعراء (١/ ٢٥٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ٦٣-٦٤).

(٣) يعني قوله السابق في (معاني القرآن الكريم وإعرابه، للزجاج) (٤/ ٧٣).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ٦٣-٦٤)، الكشف والبيان (٧/ ١٤٣)، (١٠/ ٣٤)، البحر المحيط (٦/ ٤٦٦)، ابن عادل (١٩/ ٣٤٨-٣٥١)، السراج المنير (٣/ ٢٨-٢٩).

(٥) انظر على سبيل المثال: تفسير القرطبي (١٣/ ١٦٣).

(٦) انظر: تفسير القرطبي (١٤/ ٤٩).

﴿٢﴾ [الأحزاب: ١-٢] ^(١).

هو من الخاص الذي يراد به العام، فالخطاب له ﷺ، والمراد: الناس جميعاً؛ لأن الخطاب الخاص لفظه بالنبي ﷺ يشمل حكمه جميع الأمة ^(٢).

أو يقال: معناه: اثبت على تقوى الله ﷻ، كما قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] ^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿عَسَ وَتَوَلَّى﴾ [عبس: ١]: ولا بدّ أولاً من التعقيب على ما ذكره الزركشي ^(٤) وغيره ^(٥) ممّا قيل في قوله ﷻ: ﴿عَسَ وَتَوَلَّى﴾ من أنه أمية بن خلف، قال: وهو الذي تولى دون النبي ﷺ. ألا ترى

(١) ونحوه: ﴿وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨]، ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٩]، ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَنَّهُدْهُمْ بِيَدِ جَهَنَّمَ كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، ﴿فَلَا تُطِيعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨]، ﴿وَلَا تُطِيعْ كُلَّ حَلَاقٍ مُّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠]، ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. وانظر: تفسير الطبري (١/٤٨٢)، (١١/١٦٨-١٦٩)، زاد المسير (٤/٦٣)، (٦/٣٤٨).

(٢) انظر: أضواء البيان (٦/١٨٨)، تفسير الطبري (١/٤٨٢)، (٢/٢٧)، السراج المنير (٢/٣٧).

(٣) انظر: معاني القرآن، للتحاس (٥/٣١٧)، وزاد المسير (٦/٣٤٨).

(٤) البرهان (٢/٢٤٣).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٣٠/٥١)، الخازن (٧/٢٠٨)، تفسير الماوردي (٦/٢٠٢)، تفسير

مقاتل (٣/٤٥١)، تفسير ابن جزي (٤/١٧٨).

أنَّه لم يقل: (عبست)!!^(١).

وقد ردَّ هذا القول ابنُ العربيِّ في (أحكام القرآن الكريم) حيث قال: «أمَّا قول المفسِّرين: إنَّه الوليدُ بن المغيرة، أو أميَّة بن خلف والعباس، فهذا كلُّه باطلٌ وجهلٌ؛ لأنَّ أميَّة والوليد كانا بـ: (مكة)، وابن أمِّ مكتوم كان بـ (المدينة) ما حضر معهما، ولا حضرا معه، وماتا كافرين، أحدهما: قبل الهجرة، والآخر في (بدر)، ولم يقصد أميَّة (المدينة) قطُّ، ولا حضر معه مفردًا، ولا مع أحدٍ، وإنَّما أقبل ابن أمِّ مكتوم ﷺ، والنبيُّ ﷺ مشغولُ بمن حضره من وجوه قريش يدعوهم إلى الإسلام، وقد طمع في إسلامهم، وكان في إسلامهم إسلام من وراءهم من قومهم، فجاء ابن أمِّ مكتوم ﷺ -وهو أعمى-، فقال: يا رسول الله علِّمني مما علَّمك الله، وجعل يناديه، ويكثر النداء، ولا يدري أنَّه مشغولٌ بغيره، حتَّى ظهرت الكراهة في وجه رسول الله ﷺ

(١) انظر: البرهان (٢/٢٤٣).

أورد ابن حجر روايات متعدّدة في بيان المراد به. فقال: «وذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنَّ الَّذي كان يكلِّمه أبيُّ بن خلف. ذكره عبد الرزاق الصنعاني في (تفسيره) (٣/٣٤٨)، وانظر: فتح الباري (٨/٦٩٢)، وفي (مسند أبي يعلى) [٣١٢٣]، وروى سعيد بن منصور من طريق أبي مالك أنَّه أميَّة بن خلف. وروى ابن مردويه من حديث عائشة أنَّه كان يخاطب عتبة وشيبة ابني ربيعة. ومن طريق العوفي عن ابن عباس قال: عتبة وأبو جهل وعياش. ومن وجه آخر عن عائشة: كان في مجلس فيه ناس من وجوه المشركين منهم أبو جهل وعتبة. ثمَّ قال - أي: ابن حجر - : فهذا يجمع الأقوال». انظر: فتح الباري (٨/٦٩٢). وأخرجه الترمذي [٣٣٣١]، والحاكم، [٣٨٩٦].

لقطعه كلامه، وقال في نفسه: يقول هؤلاء: إنما أتباعه العُمَيَّانِ والسَّفلة والعييد، فعبس وأعرض عنه، فنزلت الآية^(١).
ويقال ذلك أيضًا في الآيات التي هي من نظائر الآيات السابقة، وقد جاء بيان بعضها وأقوال المفسرين في ذلك، فيقاس عليها الآيات التالية:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّنِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَتِّنِينَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٥]، ﴿وَأَنْ أَقَمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥]، ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦]، ﴿وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٨٧]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٧-٨٨]، إلى غير ذلك.
ولكن التحقيق الذي يترجح عندي هو ما ذكره الزركشي في

(١) أحكام القرآن الكريم، لابن العربي (٤/١٩٠٥-١٩٠٦)، ومن المفسرين من نقل أيضًا ما قاله ابن العربي في رده كالقرطبي في (تفسيره) (١٩/٢١٢)، وابن عادل (١٦/٢٢١).

(البرهان)، حيث أورد سؤالاً: «كيف يصحُّ خطابه ﷺ مع ثبوت عصمته عن ذلك كله؟» ويجاب: بأنَّ ذلك على سبيل الفرض، والمحال يصحُّ فرضه لغرض.

والتَّحقيق أنَّ هذا ونحوه من باب خطاب العامِّ من غير قصد شخص معيَّن. والمعنى: اتَّفاق جميع الشَّرائع على ذلك، ويستراخ حينئذٍ من إيراد هذا السُّؤال من أصله»^(١).



(١) البرهان (٢/٢٤٣-٢٤٤).

المطلب الحادي عشر خطاب الشخص ثمّ العدول إلى غيره

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿فَإِلَّامَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ^(١)﴾ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ يَعْلِمُ اللَّهُ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود: ١٤]. قيل: الخطاب للنبي ﷺ، ثمّ قال للكفار: ﴿فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ يَعْلِمُ اللَّهُ﴾ ، بدليل قوله ﷺ: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(٢). أمّا ما جاء من اختلاف المفسّرين في تفسير هذه الآية فإنّي أوجز أهمّ أقوال المفسّرين في بيان معنى الآية، فقد قال الفراء في معنى قوله ﷺ: ﴿لَكُمْ﴾: «أريد بها النبي ﷺ». وقوله: ﴿فَأَعْلَمُوا﴾ ليست للنبي ﷺ. إنما هي لكفار (مكة). ألا ترى أنّه ﷺ قال: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾»^(٣).

قال الطبري: «وقد قيل: إنّ قوله ﷺ: ﴿فَإِلَّامَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ خطابٌ من الله ﷻ لنبيه ﷺ، كأنّه قال: (فإن لم يستجب لك هؤلاء

(١) ولعلّ مما يدلّ أنّ المراد بـ: ﴿لَكُمْ﴾ ، النبي ﷺ قوله عز وجل في (سورة القصص): ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمْ أَنَّمَا يَكْفُرُونَ﴾ أهواءهم» [القصص: ٥٠]. وخير ما يفسّر به القرآن بالقرآن نفسه. وفي (الكشف والبيان): ﴿فَإِلَّامَ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ لفظه جمع، والمراد به الرّسول ﷺ وحده كقوله عز وجل: ﴿بِأَيِّهَا أَرْسَلْتُ﴾ [المؤمنون: ٥١]. ويعني: الرّسول. انظر: الكشف والبيان (١٥٩/٥). وقد بيّنت المراد من الآية الأخيرة في موضعها.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢٤٥/٢)، الإتيان (٩٢/٢) .

(٣) انظر معاني القرآن، للفراء (٦-٥/٢).

الكفار يا محمد، فاعلموا أيها المشركون أنما أنزل بعلم الله ﷻ، وذلك تأويل بعيد من المفهوم^(١). وقال القرطبي: «ولم يقل: (لك)، فقل: هو على تحويل المخاطبة من الأفراد إلى الجمع تعظيمًا وتفخيماً، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة. وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وفي ﴿فَاعْلَمُوا﴾ للجميع، أي: فليعلم الجميع أنما أنزل بعلم الله ﷻ، قاله مجاهد^(٢). وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾، وفي ﴿فَاعْلَمُوا﴾ للمشركين، والمعنى: فإن لم يستجب لكم من تدعونه إلى المعاونة، ولا تهيات لكم المعارضة ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾. وقيل: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ للنبي ﷺ وللمؤمنين، وفي ﴿فَاعْلَمُوا﴾ للمشركين^(٣).

والحاصل أن قوله ﷻ: ﴿فَالِئِمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فيها وجهان: أحدهما: أن تكون مخاطبة من الله ﷻ للنبي ﷺ وللمؤمنين، أي: إن لم يستجب الكفار إلى ما دعوتموهم إليه من معارضة القرآن فاعلموا أنه من عند الله ﷻ، وهذا على معنى: (دوموا على علمكم بذلك)، أو (زيدوا يقيناً به).

والثاني: أن يكون خطاباً من النبي ﷺ للكفار. أي: إن لم يستجب

(١) تفسير الطبري (١٢/١٠).

(٢) وما ذكره القرطبي عن مجاهد يخالف ما روي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿فَالِئِمَّ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أُنْتَدِىَ مُسْلِمُونَ﴾ يعني به أصحاب محمد ﷺ. انظر: تفسير مجاهد (١/٣٠١)، وانظر: تفسير الطبري (١٢/١٠).

(٣) تفسير القرطبي (٩/١٣)، وانظر: تفسير ابن جزي (١/٤٣٩).

من تدعونه من دون الله ﷻ إلى شيء من المعارضة، ولا قدر جميعكم عليه فاعلموا أنه من عند الله ﷻ، وهذا أقوى من الأوّل لقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٩﴾ [الفتح: ٨-٩]، في قراءة من قرأ: ﴿لَتُؤْمِنُوا﴾ بالفوقية^(١)، فالخطاب في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ للنبي ﷺ وأُمَّته^(٢)، «فالخطاب في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ للنبي، وفي: ﴿لَتُؤْمِنُوا﴾ لأُمَّته، فعلى هذا إن كان اللام للتعليل يكون المعلل محذوفًا، أي: لتؤمنوا بالله وكيث وكيث فعل ذلك الإرسال، أو للأمر على طريقة: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْتَفَرِّحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] - على قراءة التاء الفوقانية^(٣). فقيل: هو على معنى: (قل لهم لتؤمنوا.. إلخ).

(١) «قرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو: ﴿ليؤمنوا بالله ورسوله ويعزروه ويوقروه ويسبحوه﴾ أربعين بالياء. وروى عبيد عن هارون عن أبي عمرو بالتاء أربعين، وقرأ نافع وابن عامر وعاصم وحمة والكسائي بالتاء جميعًا. السبعة في القراءات (ص: ٦٠٣)، الحجة (ص: ٣٢٩)، حجة القراءات (ص: ٦٧١)، إتحاف فضلاء البشر (ص: ٧٠٦).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (١٠٦/٨)، روح المعاني (٩٥/٢٦)، التفسير (٢٣٠/٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٢٦/١١). انظر تفسير الطبري (١٢٦/١١)، روح المعاني (٩٥/٢٦)، وانظر: المقتضب، للمبرّد (١٢٩/٢)، الدر المنثور (٣٦٧/٤). وفي (معاني القرآن، للتحاسن) (٣/٣٠٠)، (الحجة في القراءات) (ص: ١٨٢).

وقيل: «هو للأمة على أن خطابه ﷺ منزَّل منزلة خطابهم، فهو عينه ادعاء، واللام متعلِّقة بأرسلنا...»^(١).

وفي (فتح القدير): «فعلى القراءة الأولى: الخطاب لرسول الله ﷺ ولأُمَّته. وعلى القراءة الثانية المراد: المبشِّرين والمنذرين»^(٢).
وانظر المزيد من البيان لذلك في (البرهان في علوم القرآن)^(٣)



(١) روح المعاني (٩٥/٢٦).

(٢) فتح القدير (٤٧/٥)، وانظر: زاد المسير (٤٤١/٣).

(٣) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣٧٤-٣٧٥).

المطلب الثاني عشر خطاب الكل وإرادة البعض

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الذِّبْنَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْخُذْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨]. وهذا قد يشكل على البعض حيث يدلُّ على أنَّ كلَّ المؤمنين كانوا متشاقلين في ذلك التَّكليف، وذلك التَّشاكل معصية، وهذا يدلُّ على إطباق كلِّ الأمة على المعصية، وذلك يقدح في أنَّ إجماع الأمة حجة. والجواب: أنَّ خطاب الكلِّ لإرادة البعض مجازٌ مشهور في القرآن، وفي سائر أنواع الكلام كقوله: (إِيَّاكَ أَغْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ)^(١).



(١) سبق بيان هذا القول وتخریجه. انظر: تفسير الرازي (٤٨/١٦).

المطلب الثالث عشر خطاب الملائكة وإرادة غيرهم

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءَ بِإِثْمِ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾
[سبأ: ٤٠].

هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار، وارد على المثل السائر: (إِيَّاكَ أَغْنِي وَأَسْمِعِي يَا جَارَةَ)..^(١).



(١) انظر: الكشاف (٣/٢٩٢-٢٩٣)، وانظر: البحر المديد (٦/٨٩)، السراج المنير (٣/٣٧٥)،
التسفي (٣/٤٧٣).

**المطلب الرابع عشر: الخطاب القرآني العام
الذي لم يقصد به مخاطب معين**

وهو من الخطاب بصيغة من صيغ الخطاب الخاص، ولا يراد به مخاطب معين كما قال بذلك جمع من المفسرين -كما سيأتي بيان ذلك-. وقد ناسب أن نختم به المباحث ذات الصلة بالعام والخاص. ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ وقد أحصيت هذه الصيغة هنا، وهي على النحو التالي:
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [البقرة: ٢٤٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ﴾ [آل عمران: ٢٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ﴾ [النساء: ٤٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء: ٤٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُوتِ﴾ [النساء: ٥٠]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النساء: ٦٠]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ١٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: ٢٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا﴾

[إبراهيم: ٢٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾﴾
 [مريم: ٨٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴿١٨﴾﴾
 [الحج: ١٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴿٦٣﴾﴾ [الحج: ٦٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴿٦٥﴾﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَيِّعُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٤١﴾﴾ [النور: ٤١]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزَيِّجُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴿٤٣﴾﴾ [النور: ٤٣]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَيَّ رِيكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان: ٤٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٥]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴿٢٩﴾﴾ [لقمان: ٢٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ فِي الْبَحْرِ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان: ٣١]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿٢٧﴾﴾ [فاطر: ٢٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [غافر: ٦٩]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ﴿٨﴾﴾ [المجادلة: ٨]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴿١٤﴾﴾ [المجادلة: ١٤]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ﴿١١﴾﴾ [الحشر: ١١]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾﴾ [الفجر: ٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾﴾ [الفيل: ١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ :

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَى النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنعام: ٢٧]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ

رَبِّهِمْ ﴿[الأنعام: ٣٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ ﴿[الأنعام: ٩٣]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ ﴿[الأنفال: ٥٠]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴿[السجدة: ١٢]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ ﴿[سبأ: ٣١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فِرْعَوْنُ فَلَا فُتً ﴿[سبأ: ٥١].

لم يقصد بذلك خطاب معيّن، بل كلُّ أحد، وأخرج في صورة الخطاب؛ لقصد العموم، يريد أن حالهم تناهت في الظهور، بحيث لا يختصُّ بها راءٍ دون راءٍ، بل كلُّ من أمكن منه الرؤية داخل في ذلك الخطاب^(١).

وقال الألوسي في تفسير قول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]: «قيل: خطاب لسيد المخاطبين ﷺ. وقيل: عامٌّ لكلِّ من يصلح للخطاب، وهو الأوفق لما سبق وما لحق، أي: (ألم تعلم)^(٢).

وفي (التحرير والتنوير): «اعلم أن تركيب ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إذا جاء (فعل الرؤية) فيه متعدياً إلى ما ليس من شأن السامع أن يكون راء، كان كلاماً مقصوداً منه التحريض على علم ما عدّي إليه (فعل الرؤية)، وهذا

(١) البرهان (٢/٢١٩)، الإتيان (٢/٩٢)، تفسير ابن عادل (١٥/٤٦٣-٤٦٤)، الخازن

(٧/٢٤١)، السراج المنير (٣/٢٥٤-٢٥٥)، الكلّيات (ص: ١٦٦).

(٢) روح المعاني (٢١/١٠٢).

مما اتَّفَق عليه المفسِّرون؛ ولذلك تكون همزة الاستفهام مستعملة في غير معنى الاستفهام، بل في معنى مجازي أو كنائي من معاني الاستفهام غير الحقيقي، وكان الخطاب به غالباً موجَّهاً إلى غير معيَّن، وربَّما كان المخاطب مفروضاً متخيلاً..»^(١).

وفي موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ «الخطاب لكل من يصلح للخطاب غير معيَّن»^(٢).

وفي (البرهان): «وقد يخرج على غير معيَّن؛ ليفيد العموم كقوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥]. وفائدته الإيذان بأنَّه خليقٌ بأن يؤمر به كلُّ أحد؛ ليحصل مقصوده الجميل، وكقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ﴾ [سبأ: ٥١] أخرج في صورة الخطاب لما أريد العموم للقصد إلى تقطيع حالهم، وأنها تناهت في الظهور حتَّى امتنع خفاؤها، فلا تخص بها رؤية راء، بل كلُّ من يتأتَّى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب، كقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثُمَّ رَأَيْتَ نِعِمَّا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠] لم يُردَّ به مخاطب معيَّن، بل عبَّر بالخطاب ليحصل لكلِّ واحد فيه مدخل مبالغة فيما قصد الله ﷻ من وصف ما في ذلك المكان من النعيم والملك، ولبناء الكلام في الموضعين على العموم لم يجعل لـ (تري) ولا لـ (رأيت) مفعولا ظاهرا ولا مقدِّرا ليشيع ويعم. وأمَّا قوله ﷻ:

(١) التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ (٢/ ٤٧٦).

(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٢١٤).

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [السجدة: ١٢]،
 فقيل: إنه من هذا الباب، ومنعه قوم. وقيل: الخطاب للنبي ﷺ،
 و(لو) للتمني لرسول الله ﷺ كالترجي في ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾
 [الأنبياء: ٣١]؛ لأنه تجرّع من عداوتهم الغصص، فجعله الله ﷻ كأنه
 تمنى أن يراهم على تلك الحالة الفظيعة من نكس الرؤوس صمًا عميًا
 ليشتت بهم. ويجوز أن تكون (لو) امتناعية وجوابها محذوف، أي:
 لرأيت أسوأ حال يرى^(١).

أما نحو قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥] فليس من هذا الباب. ولكن يظهر تباين ما
 بين قوله ﷻ لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وبين قوله ﷻ:
 لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦]،
 وقد تقرر أن محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام-.
 ومنهم من قال^(٢): المراد بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ للنبي ﷺ،
 والمراد أمته. قال ابن عطية: «وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ»^(٣).

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/٢١٩-٢٢٠).

(٢) حكاه ابن عطية عن مكّي والمهدويّ كما في (المحرر الوجيز) (٢/٢٨٨)، وكذلك الزركشي
 في (البرهان) (٢/٢٤٤)، وفي (البحر المحيط في أصول الفقه) (٢/٣٤١)، وكذلك أبو
 حيّان في (البحر المحيط)، وأورد التضعيف المذكور (٤/١٢١-١٢٢).

(٣) أقول: أورد الثعالبي في (تفسيره) تعقيبًا على ما ذكره ابن عطية -والذي نقله عنه غير واحد-
 قال: «قلت: وما قاله فيه عندي نظر؛ لأنّ هذا شأن التأويل (إخراج اللفظ عن ظاهره
 لموجب) على أنّ أبا محمد مكّيًا ﷺ نقل هذا القول عن غيره نقلًا، ولفظه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْجَاهِلِينَ﴾ أي: ثمن لا يعلم أنّ الله عز وجل لو شاء لجمع على الهدى جميع خلقه. وقيل: =

وقال قوم: وقر نوح عليه السلام لسنه وشيئه. وقال قوم: جاء الحمل على النبي ﷺ، لقربه من الله ﷻ، ومكانته، كما يحمل العاتب على قريبه أكثر من حملة على الأجانب^(١). قال^(٢): والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجيء بحسب التبيين، وإنما جاء بحسب الأمر من الله ﷻ، ووقع النبي ﷺ عنهما والعقاب فيهما^(٣). وفي خطابه سبحانه لنبيه ﷺ بهذا الخطاب دون خطابه بما خوطب به نوح عليه السلام من قوله ﷻ: ﴿إِنِّي أَعْطُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ إشارة إلى مزيد شفقتة ﷻ، وحرصه ﷻ على أمته^(٤). ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَكُنْ لَكَ جَدِيدًا﴾ [الرعد: ٥].
والخطاب هنا يجوز أن يكون موجهاً إلى النبي ﷺ، وهو المناسب بما وقع بعده من قوله: ﴿وإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَلَمْ نَكُنْ لَكَ

= معنى الخطاب لأمة النبي ﷺ، والمعنى: فلا تكونوا من الجاهلين.. ومثله في القرآن كثير. تفسير الثعالبي (٥١٧/١). أقول: أما قول الثعالبي: «ومثله في القرآن كثير»، أي: بأن يكون الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته فلا يسلم له هذه الكثرة، بل هذا تأويل بغير موجب، والذي يوجد بكثرة هو دخول النبي ﷺ وأمه في الخطاب، وقد يخاطب الرئيس بما يخاطب به الجماعة.

- (١) انظر: المحرر الوجيز (٢/٢٨٨)، (٣/١٧٨)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٤٤).
(٢) أي: ابن عطية (القاضي أبو محمد).
(٣) المحرر الوجيز (٢/٢٨٨)، وكذلك في (البحر المحيط) (٤/١٢١)، البرهان في علوم القرآن (٢/٢٤٤).
(٤) انظر: روح المعاني (٧/١٣٩).

خَلَقَ جَدِيدٌ ﴿الرعد: ٦﴾، وما بعده من الخطاب الذي لا يصلح لغير النبي ﷺ. ويجوز أن يكون الخطاب هنا لغير معين.. والفعل الواقع في سياق الشرط لا يقصد تعلُّقه بمعمول معين فلا يقدر: إن تعجب من قول أو إن تعجب من إنكار، بل ينزل الفعل منزلة اللازم ولا يقدر له مفعول، والتقدير: إن يكن منك تعجب فاعجب من قولهم.. إلخ^(١). ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿لَا تَسْمَعْ فِيهَا لَفِيَةً﴾ [الغاشية: ١١].

فقوله ﷻ: ﴿لَا تَسْمَعْ﴾، أي: أنت يا مخاطب، فالخطاب عام لكل من يصلح له.

أقول: ويتبين ممَّا سبق أنَّ الخطاب القرآني الذي لم يقصد به مخاطبٌ معين يدلُّ على عموم الخطاب، وفيه زيادة الحثِّ والتَّحريض حيث خرجت صورة الخطاب العامَّ وكأنَّها موجَّهة إلى كلِّ فرد من أفراده على حدة، فيكون ذلك أدعى إلى الامتثال... .



(١) التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ (٨٩/١٣).

المطلب الخامس عشر أساليب الالتفات في الخطاب القرآني

وحيث إنَّ هذا اللون من ألوان الخطاب مبسوط في (كتب البلاغة)^(١)، وفي (كتب علوم القرآن) ك: (البرهان)، للزركشي^(٢)، و(الإتقان)، للسيوطي^(٣)، فإنِّي أهتم بالتعريف به استكمالاً لجوانب البحث؛ ولأنَّه جدير بأن يفرد بالبحث؛ لتنوع الأساليب فيه وكثرتها^(٤). وما أتناوله هنا يتضمَّن:

أ. تعريف الالتفات:

(الالتفات) هو التَّعبير عن معنى من المعاني بطريق من الطرق الثلاثة: التَّكلم والخطاب والغيبة بعد التَّعبير عنه بطريق آخر منها، وهو من أجل علوم البلاغة^(٥).

(١) انظر على سبيل المثال: الإيضاح في علوم البلاغة (ص ٧٣-٧٤)، مختصر المعاني، للسَّعد (ص: ٧١-٧٢).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٣/ من ص: ٣١٤ إلى ٣٣٧).

(٣) انظر: الإتقان (١/ من ص: ٢٢٨ إلى ٢٣٤).

(٤) ومن الباحثين من أفرده بالتأليف، كالذُّكتور حسن طبل في كتابه: (أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية)، دار الكتب، (القاهرة)، [١٤١١هـ].

(٥) انظر ما يدلُّ على اهتمام المفسرين ببيان هذا اللون من ألوان الخطاب في (التحرير والتنوير)

(١/ ١٠٩)، وانظر (التحرير والتنوير) أيضاً في كلام جدِّ نفيس (١/ ١٧٨)، (٣٠/ ١٣٨)،

وكذلك الزُّمخشري في (الكشاف) (١/ ٦٢)، وانظر: تفسير ابن عادل (١/ ١٩٨-١٩٩)،

وانظر: التعريف في (مختصر المعاني)، للسَّعد (ص: ٧١)، الكليات (ص: ٢٤٠)، =

وسمّي بذلك: لأنّه مأخوذ من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا، وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصّة؛ لأنّه ينتقل فيه من صيغة إلى صيغة، من خطاب إلى غيبة، ومن غيبة إلى خطاب، إلى غير ذلك من أنواع الالتفات .

ويسمّى أيضا: (شجاعة العربيّة)^(١)، وإنّما سمّي بذلك؛ لأنّ الشجاعة هي الإقدام، وذاك أنّ الرّجل الشّجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا يتورّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام، فإنّ اللّغة العربيّة تختصّ به دون غيرها من اللّغات^(٢).

ومنهم من أطلق عليه (خطاب التّلوين)^(٣).

= التعاريف، للمناوي (ص: ٨٧)، التعريفات، للجرجاني (ص: ٥١).

- (١) وقد أطلق عليه هذا الاسم ابنُ جني في (الخصائص) (٢/٣٦٠)، (٢/٤٤٧)، وجعله من (شجاعة العربيّة) الطوفي في (الإكسير). انظر: الإكسير في علم التفسير (ص: ١٤٠).
- (٢) انظر: الخصائص، لابن جني (٢/٣٦٠)، (٢/٤٤٧)، المثل السائر (٢/٣)، شرح شافية ابن الحاجب (٤/٢٦٥). وقد ذكر هذا المعنى من المفسرين: الطاهر بن عاشور في (التحرير والتّلوين) (١/١٠٩)، (١/١٨٠)، والزركشي في (البرهان) (٣/١٠٥)، والسّيوطي في (الإتقان) (٢/٥٥).

- (٣) انظر: المدهش، لابن الجوزي (١/١٥-١٦)، وانظر: من (كتب التفسير): تفسير الماوردي (٣/٢١٨)، تفسير القرطبي (١٢/٣٢٣)، ومن كتب (علوم القرآن): الإتقان (٢/٩٢)، والبرهان في علوم القرآن (٢/٢٤٦)، ومن غيرها: اقتضاء الصراط، لابن تيمية (ص: ٢٣).

ب. ومن صور الالتفات:

- ١- (الالتفات من الغيبة إلى الخطاب) كقوله ﷻ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) [الفاتحة: ٢-٥]، فحوّل الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ﴾ ، وكقوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٦) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (٧) [الإنسان: ٢١-٢٢].
 - ٢- (الالتفات من الخطاب إلى الغيبة): كقوله ﷻ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكَ وَجَرَّيْنَ يَمِينٍ﴾ [يونس: ٢٢].
 - ٣- (الالتفات من الغيبة إلى التكلّم): كقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]، ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا﴾ [فصلت: ١٢].
 - ٤- (الالتفات من التكلّم إلى الغيبة): كقوله ﷻ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ (٢) [الفتح: ١-٢].
 - ٥- (التكلّم إلى الخطاب): قوله ﷻ: ﴿... وَأْمُرْنَا لِئَلْسَلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ (٧) [الأنعام: ٧١-٧٢].
- وله صور أخرى مبسوطة في مظانها^(١).

ومن الالتفات: نقل الكلام من خطاب الواحد إلى الاثنين، وإلى الجمع، ومن الاثنين إلى الواحد، وإلى الجمع، ومن الجمع إلى الواحد، وإلى

(١) تنظر: هذه الأوجه فيما سبقت الإشارة إليه من المراجع، ك (أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية)، للدكتور حسن طبل.

الاثنين... إلخ. وقد كانت العناية ببيان ذلك كله، كل في موضعه..

ج. بيان ما يستفاد من الأهداف والمقاصد العامة من الالتفات:

إنَّ من فوائد الالتفات: تطرية الكلام، والتفنن في الأسلوب؛ لأنَّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع؛ وإيقاظًا للإصغاء إليه؛ واستدراةً له؛ وتجديدًا لنشاطه؛ وصيانةً لخاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه^(١).

ويمكن إيجاز هذه الفوائد بما يلي:

١- حملُ المخاطب على الانتباه، لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التفكير في المعنى؛ لأنَّ تغيير وجه الأسلوب، يؤدِّي

إلى التفكير في السبب.

٣ - التعرف على أسلوب بلاغي من أساليب القرآن..

٤ - وفي تنوع الأساليب: تقرير للحجج والبراهين، وترسيخ

للعقيدة والأحكام، وتثبيت للنفوس وتسلية لها، وتجديد لنشاطها

واقبالها على كتاب الله ﷻ.

وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صورته. أمَّا الفوائد الخاصة

فتتعيَّن في كلِّ صورة، حسب ما يقتضيه المقام - كما بين ذلك في ثنايا

البحث-.

(١) انظر: الكشف (٦٤/١)، روح المعاني (٨٩/١)، فتح القدير (٣٥/١)، تفسير التيسابوري

(٨٥/١)، البرهان في علوم القرآن (٣١٤/٣)، الإتقان (٢٢٩/٢)، وينظر: المثل السائر

(٣/٢)، ومختصر المعاني (٧٢/١).

المبحث الخامس

ما يتعلّق من الخطاب بحال الإنسان ومشاعره وأحاسيسه

وإذا عرف المخاطب ما يتعلّق بتنوّع الخطاب من الحيثيّات المذكورة اشتاقت نفسه إلى التّعرف على ما يتعلّق منه بحال الإنسان ومشاعره وأحاسيسه، وأنّ من أوجه التّنوع ذات الصّلة بحال الإنسان ومشاعره ما له أثر في قبول الخطاب أو العمل بمقتضاه، كالتهييج والإغضاب والتّشجيع... إلخ.

وكذلك (خطاب الاعتبار) وهو ممّا له تأثير في نفس المخاطب يجعله أقرب إلى تأمّل الخطاب، والعمل بمقتضاه.. إلخ.

وفي هذا المبحث مطالب، وهي على النّحو التّالي:

المطلب الأوّل: خطاب الكرامة.

المطلب الثّاني: خطاب الإهانة.

المطلب الثّالث: خطاب التّهم.

المطلب الرّابع: خطاب الاعتبار والاعتاظ.

المطلب الخامس: خطاب التّهييج.

المطلب السّادس: خطاب الإغضاب.

- المطلب السابع: خطاب التشجيع والترغيب وخطاب التنفير والترهيب.
المطلب الثامن: خطاب التحنن والاستعطاف والتعجب.
المطلب التاسع: خطاب التحسر والتلهف.
وبيان ذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: خطاب الكرامة

أقول: ويلاحظ في هذا النوع من الخطاب القرآني أن التمثيل له يختلف بين الباحثين في علوم القرآن، فقد مثل الزركشي لهذا النوع من الخطاب القرآني بما يفهم (مما ولي المنادي)^(١)، وذلك بخلاف ما مثل الشيوطي له مما يفهم من لفظ (المنادي) نفسه^(٢).

فقد مثل الزركشي بقول الله ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَتَادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله ﷻ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، بينما مثل الشيوطي بقول الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، و﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]. ثم قال: ولهذا تجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه، كقوله ﷻ في مقام الأمر بالتشريع العام: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]. وفي مقام الخاص: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحریم: ١]. ومثله: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنَ الدُّنْيَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠].. إلى آخر ما ذكره.. ويلاحظ أنه نقله عن الزركشي^(٣)، ولكن الزركشي جعله من

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣١).

(٢) انظر: المصدر السابق (٢/ ٨٩).

(٣) انظر: المصدر السابق (٢/ ٢٢٨). وسيأتي (خطاب المدح) مستقلاً.

(خطاب المدح)، والشُّيوطي من (خطاب الكرامة).

أقول: ولا بدَّ أولاً من بيان أنَّ ما ذكره الشُّيوطي في معنى المدح والتَّكريم، ولكنَّ الأولى - إذا أردنا أن نميِّز بينهما - إدراجه تحت (خطاب المدح)، وإلا فما الَّذي يميِّز (خطاب المدح) عن (خطاب الكرامة)؟

إنَّ (خطاب الكرامة) إذا ذكر مستقلاً فإنه يكون أكثر تخصيصاً من (خطاب المدح)، ويفهم ذلك من تمثيل الزُّركشي، والذي لا يقتصر فيه على (المنادى) فحسب، وإنَّما يعتبر فيه (ما وليَّ المنادى) من المعنى الَّذي يدلُّ على الكرامة، فقوله ﷻ لآدم عليه السلام: ﴿وَقُلْنَا يَتَّادُمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ، فما وليَّ المنادى من (فعل الأمر) ﴿اسْكُنْ﴾ وما أتى بعده يدلُّ على الكرامة، وإلا فإن اقتصر على قوله: ﴿يَتَّادُمُ﴾ فأين المدح؟ وإن نظرنا إلى (ما وليَّ المنادى) فإنه ممَّا أكرمه الله ﷻ به؛ فإنَّ الجنَّة هي دار الكرامة، ومن يحلُّ فيها فهو مكرَّم، وكذلك قوله ﷻ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]، وقوله ﷻ: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] حيث يقال فيه ما قيل في سابقه. فالنظر في خطاب الكرامة المستقل المتميز ينظر فيه إلى مآل وعاقبة يكون المكلف فيها مكرِّماً. ولم يتنبَّه الشُّيوطي إلى هذا المعنى، حيث فرَّق بين الخطابين من حيث العنوان، ولم يفرِّق بينهما من حيث التَّمثيل..

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الخطاب ب: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾ ، أو ﴿يَتَأْتِيهَا

النَّبِيُّ ﷺ فيه المدح والتكريم؛ فإنه على سبيل التشريف والتكرمة والتثويه بمحلّه وفضيلته، ومثل هذا ينظر إليه بالنظر إلى (المنادى). أمّا (ما ولي المنادى) فقد يكون أمرًا آخر.. كقوله ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْلَغِي مَرْضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحریم: ١]. وإنّ الاهتمام هنا ينصبّ على (ما ولي المنادى) حتّى يتميّز كلّ من الخطابين عن الآخر كما هو صنيع الزركشي في (البرهان) - كما أسلفت-. وأمّا الخطاب بنحو: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ فإنّ معنى الكرامة فيه هو المقصود من الخطاب، بمعنى أنّه لا يقصد من المنادى في قوله ﷺ: ﴿يَتَّخِذُكُمْ مَسْكَنًا أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: التّكريم، وإنّما (مما ولي المنادى)، كما أنّ (ما ولي المنادى) لا يقصد منه إلا التّكريم؛ فإنّ دخول الجنّة تكريم من الله ﷻ. والتّكريم والإكرام بمعنى، والاسم منه: الكرامة. ويقال: حمّل إليه الكرامة، وهو مثل: النّزل^(١). أمّا قوله ﷺ: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فإنّه يحتمل أن يكون للسّكن والأكل، بمعنى: اسكنا حيث شئتما، وكلا حيث شئتما. وفي هذا تكريم أوسع؛ لأنّ الله ﷻ جعل لهما مجال اختيار السّكن والأكل.

ومن عموم الخطاب الذي فيه الكرامة والتّشريف: خطاب الله ﷻ لأهل الجنّة، حيث يقول الله ﷻ: ﴿دَعُونَهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّاتُهُمْ

(١) انظر: مختار الصحاح، مادة: (كرم) (ص: ٥٨٦)، العين، للخليل (٥/ ٣٦٨).

فِيهَا سَلَامٌ ﴿١﴾ [يونس: ١٠].

فقوله ﷻ: ﴿وَحَيْثُكُمْ﴾ ، أي: ما يحيون به . ﴿فِيهَا سَلَامٌ﴾ ، أي: سلامتهم من كل مكروه، وهو خبر ﴿وَحَيْثُكُمْ﴾ ، و﴿فِيهَا﴾ متعلق بها، والتَّحِيَّةُ والتَّكْرِمَةُ بالحال الجليلة، و(أصلها: أحياك الله ﷻ حياة طيبة)، وإضافتها هنا إلى المفعول. والفاعل إمَّا الله ﷻ، أي: تحية الله ﷻ إيَّاهم ذلك، ويرشد إليه قوله ﷻ: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، أو الملائكة -عليهم السَّلام-، ويرشد إليه قوله ﷻ: ﴿... وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۖ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعَمَ عُقْبَى الَّذِينَ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]^(٢)، وجُوزَ أن تكون الإضافة إلى الفاعل بتقدير مضاف، أي: تحية بعضهم بعضًا آخر ذلك^(٣).

(١) قوله عز وجل: ﴿وَحَيْثُكُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ ابتداء وخبر، و﴿فِيهَا﴾ من صلة التحية. وقيل: هي والمعنى: أن بعضهم يحیی بعضًا بالسَّلام. وقيل: هي تحية الملائكة إيَّاهم من إضافة المصدر إلى المفعول من غير أن يذكر معه الفاعل. وقيل: تحية الله عز وجل إيَّاهم، أي: يحییهم الله عز وجل بالسَّلام. انظر: الفريد (٢/٥٣٦). أو يقال: ﴿وَحَيْثُكُمْ﴾ مبتدأ و﴿فِيهَا﴾ متعلقان بتحييتهم أو بمحذوف حال، و﴿سَلَامٌ﴾ خبر تحييتهم، والمصدر -يعني: التحية- مضاف لمفعوله، والفاعل مستتر، أي: تحية الله عز وجل لهم أو تحية الملائكة إيَّاهم، أو مضاف لفاعله، أي: ويحيي بعضهم بعضًا..

(٢) قوله عز وجل: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ ابتداء وخبر، أي: يقولون: سلام عليكم، وساغ الابتداء لما فيه من معنى الدُّعاء، والجملة مقول قول محذوف في موضع نصب على الحال، أي: قائلين..

(٣) انظر: روح المعاني (١١/٧٥-٧٦)، (١١/٩٢)، تفسير القرطبي (٨/٣١٣)، (١٤/١٩٩)، زاد المسير (٤/١١)، فتح القدير (٢/٤٢٧)، (٤/٢٨٧)، (٥/١٥٠).

وقد قال الله ﷻ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [٢٥] إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: ٢٥-٢٦].

ومما سبق يتبين أن المخاطب إذا عمل بما يتضمنه الخطاب من الأمر والنهي والتوجيه والإرشاد فإنه مكرم من المخاطب ﷻ، الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً... كما قال الله ﷻ: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [٤٠] أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ [٤١] فَوَكَدُوا لَهُمْ مَكْرُمُونَ [٤٢] [الصافات: ٤٠-٤١]. وقال ﷻ: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [٢٥] [المعارج: ٣٥]^(١). والإكرام محفّز على الامتثال والعمل، والعمل يشمر ذلك الجزاء الذي فيه الإكرام والتشريف.



(١) انظر: الآيات من (٢٣) إلى (٣٥) من المعارج.

المطلب الثاني: خطاب الإهانة

ولا بدَّ أوَّلاً من بيان أنَّه حيثُ يذكر التَّشريفُ والإكرام يذكر في مقابله: الذُّلُّ والهوان، كما يذكر التَّرهيب في مقابل: التَّغيب. وكلُّ ذلك من أساليب الدَّعوة، وعوامل الاستجابة..

ولا بدَّ هنا من إيضاح معنى: (الإهانة)، ولعلَّ أفضل من وضح هذا المعنى توضيحاً شافياً (صاحب الفروق) حيث قال في (الفرق بين الإذلال والإهانة):

«إنَّ إذلال الرَّجل للرَّجل هنا: أن يجعله متقاداً على الكره أو في حكم المتقاد، والإهانة: أن يجعله صغير الأمر لا يبالي به، والشَّاهد قولك: (استهان به)، أي: لم يبالي به ولم يلتفت إليه. و(الإذلال) لا يكون إلَّا من الأعلى للأدنى، والاستهانة تكون من التَّظهير للتَّظهير: ونقيض (الإذلال): الإعزاز، ونقيض (الإهانة): الإكرام، فليس أحدهما من الآخر في شيء، إلا أنَّه لما كان الذُّلُّ يتبع الهوان سمِّي (الهوان): ذلاً. و(إذلال أحدنا لغيره) غلبته له على وجه يظهر ويشتهر، ألا ترى أنَّه إذا غلبه في خلوة لم يقل: إنَّه أدلَّه. ويجوز أن يقال: إنَّ (إهانة أحدنا صاحبه) هو تعريف الغير أنَّه غير مستصعب عليه، و(إذلاله): غلبته عليه لا غير. وقال بعضهم: لا يجوز أن يذلَّ الله ﷻ العبد ابتداءً؛ لأنَّ ذلك ظلم، ولكن يذلُّه عقوبة. ألا ترى أنَّه من قاد

غيره على كره من غير استحقاق فقد ظلمه. ويجوز أن يهينه ابتداءً بأن يجعله فقيراً فلا يلتفت إليه، ولا يبالي به. وعندنا أن نقيض (الإهانة): الإكرام - على ما ذكرنا - فكما لا يكون الإكرام من الله ﷻ إلا ثواباً فكذلك لا تكون الإهانة إلا عقاباً. و(الهوان): نقيض الكرامة. والإهانة تدلُّ على العداوة، مأخوذ من تهوين القدر، والاستخفاف مأخوذ من خفَّة الوزن، والألم يقع للعقوبة، ويقع للمعاوضة^(١).

والإهانة لا تقع إلا عقوبة.

ويقال: يستدل على نجابة الصبي بمحبته الكرامة، وقد قيل: الذلة الضعف عن المقاومة، ونقيضها: العزة، وهي القوة على الغلبة، ومنه: «(الذلول) وهو المقود من غير صعوبة؛ لأنه ينقاد انقياد الضعيف عن المقاومة، وأمّا الدليل فإنه ينقاد على مشقة»^(٢).

وبعد هذا التوضيح لمعنى الإهانة من صاحب (الفروق) أنتقل إلى سرد الآيات من الخطاب القرآني، والتي يستفاد منها ما ذكر من معنى: الإهانة، وهو ما يسمى بـ: (خطاب الإهانة)، مع بيان ما يتعلّق بهذه الآيات من معنى. ومن ذلك قوله ﷻ لإبليس:

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

[الأعراف: ١٣].

(١) يقال: أذنب فعاقبته، كما يقال: آلمني فآلمته. وقد قال الله عز وجل: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ

فَأِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

(٢) الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص: ٣٢).

أي: من أهل الصَّغار والهوان على الله ﷻ وعلى أوليائه لتكبرك، كما تقول للرجل:

قم صاغراً، إذا أهنته. وفي ضده: قم راشداً. وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصَّغار^(١).

والصَّغار: هو الذُّل^(٢)، أو هو أشدُّ الذُّل والهوان^(٣).

وقال الله ﷻ لإبليس: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْهُومًا مَدْحُورًا﴾ [الأعراف: ١٨].
و(الذَّام): أشدُّ الذَّم^(٤).

«وهذا خبر من الله ﷻ ذكره عن إحلاله بالخبيث عدو الله ما أحلَّ به من نعمته ولعنته، وطرده إياه عن جنته؛ إذ عصاه وخالف أمره،

(١) انظر: الكشف (٦٩/٢)، النَّسْفِي (٦٧/٢)، روح المعاني (٩٠/٨)، فتح القدير (٢٨٠/٢).

(٢) انظر: تفسير الطُّبري (٢٠٤/١)، (١٣٢/٨)، القرطبي (١٧٣/٧)، (١٨٤/٩)، ابن كثير (٧٧/١)، (٢٠٥/٢)، روح المعاني (٩٠/٨)، (٩٧/٨)، (٢٣٤/١٢)، (٢٢٨/٢٣)،

وينظر تفسير الرَّازي (٣٠٨/٨) في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةَ أَتَيْنَ مَا تُوقِفُوا﴾ [البقرة: ١١٢]. ونظم الدرر (٦٢٣/٢)، تفسير: ﴿وَلَوْ تَرَكْتَ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْسَ نَارُهَا نَارُهَا وَلَا تَكْذِبُ بِمَا نَرَى وَتَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٧] بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخَفُّونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَلَئِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [٢٨] وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [٢٩] وَلَوْ تَرَكْتَ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [٣٠] [الأنعام: ٢٧-٣٠]. وينظر: تفسير الماوردي (١٦٤/٢)، تفسير قول الله عز وجل:

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وأيضاً ينظر: تفسير الرَّازي (٢٧/١٦)، تفسير قول الله عز وجل: ﴿فَنَبِّئْهُمُ الْذِّبَ لَا يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِنُونَ الْآخِرَ وَلَا يُحِزُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الذِّبِ أَوْثُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

(٣) انظر: أضواء البيان (١٠/٢).

(٤) انظر: أسرار التكرار، للكرماني (٨٠/١).

وراجعه من الجواب بما لم يكن له مراجعته به. يقول: قال الله ﷻ له عند ذلك: ﴿أَخْرِجْ مِنْهَا﴾، أي: من الجنة. ﴿مَذْءُومًا مَذْحُورًا﴾ يقول: مَعِيْبًا. و(الذَّامُ): العيب. يقال منه: ذَامَهُ يَذَامُهُ ذَامًا فهو مذْءُومٌ، ويتركون الهمز فيقولون: ذِمَّتْهُ أَذِيْمُهُ ذِيْمًا وَذَامًا، و(الذَّامُ) و(الذِيْمُ)، أبلغ في العيب من الذم.

وقد أنشد بعضهم هذا البيت:

(صَحِبْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَذِيْمَهَا)^(١).

وأكثر الرواة على إنشاده (ألومها). وأما (المدحور): فهو الْمُقْصَى، يقال: (دحره يدحره دَحْرًا وَدُحُورًا)، إذا أقصاه وأخرجه^(٢).

وقد روي عن ابن عباس ؓ في بيان قوله ﷻ: ﴿مَذْءُومًا مَذْحُورًا﴾:

-
- (١) صاحبُ هذا البيت هو الحارث بن خالد المخزومي، من (الطَّويل)، وروايته هناك: (صحبتك إذ عيني.. أذيمها)، شاهدًا على (الذَّام)، وهو أبلغ في العيب من الذم، ثم قال أبو جعفر: «وأكثر الرواة على إنشاده: (ألومها)». وخبر البيت: أن عبد الملك بن مروان لما ولي الخلافة حجَّ البيت، فلما انصرف رحلَ معه الحارث إلى (دمشق)، فظهرت له منه جفوة، وأقام ببابه شهرًا لا يصل إليه، فانصرف عنه وقال البيت الشاهد، وبعده: (وما يبِّي إن أقصيتني من صرَاعَةٍ وَلَا افْتَقَرْتُ نَفْسِي إِلَى مَنْ يَضِيْمُهَا)
- وبلغ عبد الملك شعره، فأرسل إليه من ردّه إليه. انظر الأغاني (٣/٣١٧)، لسان العرب: مادة: (غشا)، (١٢٦/١٥)، الكامل في اللغة والأدب، للمبرّد (٣/١٠٨)، وانظر: تفسير الطبري (٨/١٣٨)، البحر المحيط (٤/٢٦٥)، تفسير القرطبي (١/١٩١)، وانظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (١١/٤١٩).
- (٢) انظر: تفسير الطبري (٨/١٣٨).

صغيراً مقيتاً^(١).

وقال السدي: مقيتاً مطروداً^(٢).

وقال قتادة: لعيناً مقيتاً^(٣).

وقال مجاهد: منفيّاً مطروداً^(٤).

وقال الربيع بن أنس: ﴿مَذْمُومًا﴾: منفيّاً، و(المدحور): المصغر^(٥)،

أي: معيياً.

وقال الكلبي: ﴿مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾: مقصياً من الجنة، ومن كل خير^(٦).
وكل ذلك من المعاني التي تدلُّ على أشدّ الذم.

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: قال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْحُورًا﴾، قال: ملوماً مدحوراً، قال: مقيتاً. تفسير ابن أبي حاتم (١٤٤٧/٥)، الدر المنثور (٤٢٨/٣)، فتح القدير (٢٨١/٢)، الطبري (١٣٨/٨). وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله: ﴿مَذْمُومًا﴾، قال: مذموماً مدحوراً، قال: منفيّاً. الدر المنثور (٤٢٨/٣).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢٠٦/٢)، الطبري (١٣٨/٨)، البحر المحيط (٢٧٨/٤).

(٣) أخرج ابن المنذر وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿مَذْمُومًا﴾ قال: معيياً مدحوراً، قال: منفيّاً. الدر المنثور (٤٢٨/٣)، تفسير ابن أبي حاتم (١٤٤٧/٥).

(٤) أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله: ﴿مَذْمُومًا﴾، قال: منفيّاً مدحوراً، قال: مطروداً. الدر المنثور (٤٢٨/٣)، تفسير ابن أبي حاتم (١٤٤٧/٥)، انظر: تفسير الطبري (١٣٨/٨)، تفسير ابن كثير (٢٠٦/٢)، البحر المحيط (٢٧٨/٤).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٣٩/٨)، تفسير ابن كثير (٢٠٦/٢).

(٦) انظر: تفسير البغوي (١٥٢/٢)، تفسير مقاتل (٣٨٥/١)، وانظر: زاد المسير (١٧٨/٣)، الكشف (٧١/٢)، وانظر: لسان العرب، مادة: (ذام) (٢١٩/١٢)، وكذلك في مختار الصحاح، مادة: (ذام) (ص: ٢٢٦)، وكذلك في (مقاييس اللغة) (٣٦٨/٢).

و(الذِّم) و(الذَّام): أشدُّ العيب، يقال: (ذأمه يذأمه ذأماً) فهو مذءوم،
و(ذامه يذيمه ذاماً) فهو مذيم، مثل: ساريسير سيراً، و(المدحور): المبعد
المطرود. يقال: (دحره يدحره دحراً) إذا أبعدته وطرده.

ومن خطاب الإهانة قوله ﷻ لإبليس أيضاً: ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۖ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۖ﴾ [الحجر: ٣٤-٣٥].
ومما يدلُّ على كونه من خطاب الإهانة من أقوال المفسرين: ما ذكره
الطُّبري في تفسيره حيث قال: «(الرَّجِيم): المرجوم، صرف من مفعول
إلى فاعيل، وهو (المشتوم)»^(١).

وعن قتادة: الملعون^(٢).

وعن ابن جريج قال: ملعون^(٣).

والرَّجم في القرآن يأتي بمعنى: الشَّتْم..^(٤)

وفي (روح المعاني): ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ «مطرود من كلِّ خير وكرامة؛
فإنَّ من يطرد يرحم بالحجارة، فالكلام من باب الكناية. وقيل: أي:

(١) تفسير الطُّبري (٣٢/١٤).

(٢) أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧]، قال: الرَّجِيم الملعون. تفسير ابن أبي حاتم (٢٢٥٩/٧)، الدر المنثور (٦٩/٥)، الطُّبري (٣٢/١٤)، الماوردي (١٥٢/٣).

(٣) الطُّبري (٣٢/١٤)، معاني القرآن، للثَّحاس (١٦/٤).

(٤) قال الزُّمخشرِيُّ: قوله عز وجل: ﴿لَا رَجْمَ لَكَ﴾ [مريم: ٤٦]، لَأَرْمِيَنَّكَ بِلِسَانِي، يريد الشَّتْم والذَّم. الكشف (٥١١/٢)، وانظر: تفسير الطُّبري (٣٢/١٤)، المحرَّر الوجيز (٣/٣٥٥). وقال الكسائي: «كلُّ رجيم في القرآن فهو بمعنى الشَّتْم». تفسير الطُّبري (١٤/٣٢)، القرطبي (١٠/١٠)، روح المعاني (٢٢٣/٢٢)، السَّمَرَقندي (٣٢٥/٢).

شيطان يَرجم بالشُّهب، وهو وعيد بالرَّجم بها، وقد تضمَّن هذا الكلام الجواب عن شبهته حيث تضمَّن سوء حاله، فكأنَّه قيل: إنَّ المانع لك عن السُّجود: شقاوتك وسوء خاتمتك، وبعذك عن الخير، لا شرف عنصرك الَّذي تزعمه. وقيل: تضمَّنه ذلك؛ لأنَّه علم منه أنَّ الشرف بتشريف الله ﷻ وتكريمه، فبطل ما زعمه من رجحانه؛ إذ أبعد الله ﷻ، وأهانته وقرب آدم عليه السلام وكرَّمه. وقيل: تضمَّنه للجواب بالشُّكوت كما قيل: (جواب ما لا يرضى الشُّكوت). وفي تفسير (الرَّجيم): بالمرجوم بالشُّهب إشارة لطفية إلى أنَّ اللَّعين لما افتخر بالنَّار عذَّب بها في الدُّنيا، فهو كعابد النَّار يهواها وتحرقه..^(١)

وقيل: إنَّه إنما مُنع من الدُّخول على وجه التَّكرمة كما يدخلها الملائكة عليهم السَّلام، ولا يُمنَع من الدُّخول للوسوسة ابتلاءً لآدم عليه السلام وحواء^(٢).

و(الرَّجيم): المحقَّر، لأنَّ العرب كانوا إذا احتقروا أحداً حصبوه بالحصباء^(٣).

أقول: ولا بدَّ هنا من التَّعقيب على ما ذكر، وبيان ما يستفاد: فإنَّ مما يستفاد أنَّ طاعة الله ﷻ توجبُ كلَّ خيرٍ وكرامة، ومعصيته سبحانه توجبُ كلَّ بليةٍ وغرامة. والحاصلُ أنَّ الخروجَ من الجنَّة هو خروج صَغَارٍ واحتقار، لا خروج إكرام.

(١) روح المعاني (٤٧/١٤)، (٢٢٨/٢٣)، تفسير أبي السُّعود (٧٦/٥)، (٢٣٧/٧).

(٢) انظر: تفسير أبي السُّعود (٩١/١)، الكشاف (٢٧٤/١)، البياضوي (٢٩٨/١).

(٣) انظر: التَّحْريْر والتَّنْويِر (٣٠/١٤).

أَمَّا مَا يَدُلُّ عَلَى الْإِهَانَةِ فَهُوَ قَوْلُهُ: (مِنَ الصَّاغِرِينَ، وَمَذْهُومًا مَدْحُورًا، وَرَجِيمًا) فَقَدْ كَانَ الْخُرُوجُ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الْإِهَانَةِ - كَمَا سَبَقَ -.

وَإِنَّ الطَّاعَةَ كَانَتْ لِلَّهِ ﷻ فِي السُّجُودِ لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَكْرَمَهُ اللَّهُ ﷻ بِذَلِكَ.

وَعَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ ﷻ: ﴿وَحَرُّوا لَهُمْ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]، قَالَ: كَانَتْ تَحِيَّتُهُمُ السُّجُودُ^(١).

وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ السُّجُودُ عِبَادَةً لِلَّهِ ﷻ، وَتَكْرِمَةً وَتَحِيَّةً لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَكَذَلِكَ سَجُودُ إِخْوَةِ يُوسُفَ - عَلَيْهِمُ السَّلَامُ - وَأَهْلِهِ لَهُ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَجُوزُ لغيرِ اللَّهِ ﷻ، وَالتَّحِيَّةُ وَالتَّكْرِمَةُ جَائِزَانِ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ ضَرْبًا مِنَ التَّعْظِيمِ^(٢).

وَمِنْ خُطَابِ الْإِهَانَةِ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَعْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤].

(١) أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَحَرُّوا لَهُمْ سُجَّدًا﴾، قَالَ: «كَانَتْ تَحِيَّةً مَنْ قَبْلَكُمْ، فَأَعْطَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ السَّلَامَ، تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ». وَفِي لَفْظٍ: «وَكَانَتْ تَحِيَّةَ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَسْجُدَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ». تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (٦٨/١٣). وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ ثَوْرٍ، عَنْ مَعْمَرٍ، عَنْ قَتَادَةَ، بِهِ. تَفْسِيرُ الطَّبْرِيِّ (٦٨/١٣)، فَتَحَ الْبَارِي (٣٧٦/١٢). أَمَّا رَوَايَةُ ابْنِ إِسْحَاقَ فَأَخْرَجَهَا الطَّبْرِيُّ (٦٨/١٣) قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ حَمِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ، عَنْ ابْنِ إِسْحَاقَ، وَلَفْظُهُ: «وَكَانَتْ تِلْكَ تَحِيَّةَ الْمُلُوكِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ». وَفِي إِسْنَادِهِ ابْنُ حَمِيدٍ شَيْخُ الطَّبْرِيِّ ضَعِيفٌ.

(٢) انْظُرْ: أَحْكَامُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، لِلْجِصَّاصِ (٣٧/١).

قالوا: ليس هذا إباحة لإبليس، وإنما معناه أن ما يكون من إبليس لا يضرُّ عباد الله ﷻ المخلصين، وهذا استخفاف بفعله الذي لا يكون له أثر في عباد الله ﷻ المخلصين الصادقين كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فقوله: ﴿يَحْيَاكَ وَرَجُلًا﴾، قيل: هو بمعنى: (اسع سعيك) و(ابلغ جهدك). وقيل: ليس للشيطان خيل ولا رجل، ولا هو مأمور، إنما هذا زجر واستخفاف به كما تقول لمن تهدده: اذهب فاصنع ما شئت واستعن بما شئت^(١).

واستفزاز إبليس بصوته وإجلابه بخيله ورجله هو كلام وارد التمثيل، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتًا يستفزهم من أماكنهم، ويقلقهم عن مراكزهم، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم^(٢). والمعنى: افعل جميع ما تقدر عليه، ولا تدع شيئًا من قوتك، فإنك لا تقدر على شيء لم أقدره لك.

وقيل: «(الاستفزاز): طلب الفز، وهو الخفة والانزعاج وترك الثقل. و(السَّين والتَّاء) فيه للجعل الناشئ عن شدة الطلب، والحث الذي هو أصل معنى السَّين والتَّاء، أي: استخفهم وأزعجهم.

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣/٤٧٠)، البحر المحيط (٦/٥٦)، الثعالبي (٢/٣٥٠).

(٢) انظر: الكشف (٢/٤٥٦)، وانظر: البحر المحيط (٦/٥٦) السراج المنير (٢/٣٥٢)، تفسير

أبي السعود (٥/١٨٤)، روح المعاني (١٥/١١٢)، البيضاوي (٣/٤٥٦)، نظم الدرر

(٤/٤٠٥)، غرائب القرآن (٤/٣٦٦).

والصَّوت: يطلق على الكلام كثيرًا؛ لأنَّ الكلام صوت من الفم. واستعير هنا لإلقاء الوسوسة في نفوس النَّاس. ويجوز أن يكون مستعملًا هنا تمثيلًا لحالة إبليس بحال قائد الجيش فيكون متَّصلاً بقوله: ﴿وَأَعْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ﴾. [و] (الإجلاب): جَمَعَ الجيش وسوقه، مشتق من الجَلَبَة -بفتحتين- وهي الصَّيَّاح؛ لأنَّ قائد الجيش إذا أراد جمع الجيش نادى فيهم للتَّفير أو للغارة والهجوم. و(الخيل): اسم جمع الفرس. والمراد به عند ذكر ما يدلُّ على الجيش: الفرسان، وهو تمثيل لحال صرف قوَّته ومقدرته على الإضلال بحال قائد الجيش يجمع فرسانه ورجاله. ولمَّا كان قائد الجيش ينادي في الجيش عند الأمر بالغارة جاز أن يكون قوله ﴿عَلَيْكَ﴾: ﴿وَأَسْتَفْزِرُ مِنْ أَسْطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ من جملة هذا التَّمثيل. و(الرَّجل): اسم جمع الرُّجال كصحب. وقد كانت جيوش العرب مؤلفة من رجاله يقاتلون بالسُّيوف، ومن كتائب فرسان يقاتلون بنضح النُّبال، فإذا التحموا اجتلدوا بالسُّيوف جميعًا. والمعنى: اجمع لمن اتبعك من ذرِّية آدم عليه السلام وسائل الفتنة والوسوسة لإضلالهم. فجعلت وسائل الوسوسة بتزيين المفساد، وتفضيع المصالح كاختلاف أصناف الجيش، فهذا تمثيل حال الشَّيْطان وحال متبعيه من ذرِّية آدم عليه السلام بحال من يغزو قومًا بجيش عظيم من فرسان ورجالة^(١).

ومما ينبغي التَّنبيه له التَّفريق بين (خطاب الإهانة) و(خطاب التَّهديد)

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٥/١٥٤).

حيث يشتمل (خطاب الإهانة) على أوصاف تدلُّ على معنى (الإهانة) الآنف البيان والذكر، ويتَّضح ذلك من النِّماذج والأمثلة .. -كما سيأتي-.

ومن خطاب الإهانة قوله ﷻ: ﴿قَالَ أَخْسَأُ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [١٠٨] [المؤمنون: ١٠٨]، فقوله ﷻ: ﴿أَخْسَأُ﴾ أي: انزجروا وانطردوا عن مخاطبتي ساكتين سكوت هوان، و﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أي: فإنَّكم لستم أهلاً لمخاطبتي^(١). و(الخاصي): الصَّاغر، أو السَّاكت الَّذي لا يتكلَّم سكوت هوان، وفيه بيان مدى حسرة أهل النَّار. وقد قال الله ﷻ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [٣٥] وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ [٣٦] [المرسلات: ٣٥-٣٦]، أي: يوم القيامة ﴿يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾، أي: بشيء، وذلك من فرط الدهشة والحيرة، وهذا نوع من أنواع تخويف الكفَّار، حيث بيَّن أنَّه ليس لهم عذر ولا حجة فيما أتوا به من القبائح .

وقيل: فيه إضمار، أي: هذا يوم لا ينطقون فيه بحجة نافعة، فجعل نطقهم كلا نطق؛ لأنَّه لا ينفع ولا يسمع، ومن نطق بما لا ينفع فكأنَّه ما نطق، كما يقال لمن تكلم بكلام لا يفيد: ما قلت شيئاً. وقيل: إنَّ هذا وقت جوابهم: ﴿أَخْسَأُ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾^(٢). وقد قال الله ﷻ أيضاً: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا

(١) انظر: نظم الدرر (٥/٢٢٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٩/١٦٦)، روح المعاني (٢٩/١٧٧)، الكشف (٣/٤٤)، تفسير أبي السعود (٩/٨١)، البضاوي (٥/٤٣٦)، تفسير ابن عادل (٢٠/٨٤).

يَمَكُرُونَ ﴿[الأنعام: ١٢٤].

ويقال في هذا المثال ما قيل في سابقه من التنبه للفرق بين (خطاب التهديد)، و(خطاب الإهانة) من حيث المعنى والوصف كما يدلُّ مثلاً معنى: ﴿أَخْسَوْا﴾ على الصَّغار والذُّل، وأيضاً ما أعقبه من قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُكَلِّمُون﴾ على حالٍ فيها أيضاً الذُّل والصَّغار، فلا يسمح لهم بالكلام إهانةً لهم، أو لا يسمع كلامهم إن تكلموا.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَابَةً أَوْ حَدِيداً﴾ [الإسراء: ٥٠]، وقوله ﷻ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. والنَّظر إلى ذلك من حيث إظهار ما فيه من تصغير المهان، وقلة المبالاة به^(١). ويبقى النَّظر في المثال الأخير هل هو من خطاب الإهانة أو التَّهْكُم؟ أو منهما معاً...؟ فمن المفسِّرين من ذكر أنَّه من (خطاب التَّهْكُم)^(٢)، ومنهم من ذكر أنَّه من (خطاب الإهانة)^(٣)، ومنهم من أشار إلى كلا المعنيين^(٤).

(١) انظر: شروح تلخيص المفتاح (٣١٧/٢).

(٢) انظر على سبيل المثال: تفسير ابن عادل (٤٨/٥)، (٣٣٣/١٧)، (٢٢٥/٢٠)، وانظر: التَّقريب لحدِّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهيَّة، لابن حزم (٤٠/١).

(٣) ذكر في (الثَّكت والعيون) (٢٥٨/٥) أنه استهزاء على جهة الإهانة، وأنَّه قول سعيد بن جبير -رحمه الله-.

(٤) انظر: أضواء البيان (٥٢٦/٧)، التَّحرير والتَّنوير (٣١٦/٢٥).

وقد ذكر في (التَّحْيِير)^(١) أَنَّهُ من (خطاب الإهانة)، ومنهم من يسمّيه (التَّهْكُم)، وضابطه: أن يأتي بلفظ ظاهره الخير والكرامة والمراد ضده، ويمثل بقوله ﷻ: ﴿وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ بِحَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، والعلاقة أيضا هنا المضادة^(٢). وقد وَضَح العلامة الطَّاهر بن عاشور العلاقة بقوله: «إنه خبرٌ مستعمل في التَّهْكُم بعلاقة الضَّدية. والمقصود عكس مدلوله، أي: أنت الدَّلِيل المهان، والتَّأكيد للمعنى التَّهْكُمي^(٣)».

والَّذي أَرَجَحَهُ أَنَّهُ مِنْهُمَا مَعًا، حيث إنَّ فيه معنى التَّهْكُم، وفيه معنى الإهانة - وقد بَيَّنْتُ ذلك في غير موضع -.

وقد ناسب بعد ذكر هذا اللون من ألوان الخطاب - أعني خطاب الإهانة - ذكرُ ما يتعلَّق بخطاب التَّهْكُم؛ لما بَيَّنْتُ من احتمال بعض النصوص لهما معًا.

ومِمَّا سبق يَتَبَيَّن أَنَّ المخاطَب - بفتح الطاء المهملة - إذا لم يعمل

(١) صاحب (التَّحْيِير) هو علاء الدِّين المرداوي، علي بن سليمان بن أحمد المرداوي الدَّمَشَقِي الصَّالِحِي الحَنْبَلِي. حفظ القرآن، وأخذ عن الشَّهاب أحمد المرداوي، وقرأ (المقنع) على أبي الفرج الطُّرَابِلَسِي، ولازم ابن قنْدَس حتى انتفع به، وقرأ عليه (المقنع)، و(مختصر الطُّوفِي)، و(ألفيَّة ابن مالك)، أخذ عنه بدر الدِّين السَّعْدِي، وابن عبد الهادي حيث قرأ عليه غالب (المقنع) . . . إلخ. توفي سنة [٨٨٥هـ]، ذكر ترجمته يوسف بن حسن بن عبد الهادي المبرِّد في كتابه: (محض الصُّواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه) (٤٧/١)، وانظر: الضُّوء اللامع (٥/٢٢٥-٢٢٧)، الأعلام (٥/١٠٤).

(٢) التَّحْيِير (٥/٢١٩١).

(٣) التَّحْيِير والتَّنْوِير (٢٥/٣١٦).

بما يتضمّنه الخطاب من الأمر والنهي والتوجيه والإرشاد فإنه مهان، وقد حقّ عليه العذاب من المخاطب ﷻ - بكسر الطاء المهملة - كما قال الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

ويتبيّن أن (الإذلال) لا يكون إلا من الأعلى للأدنى، وهو في مقابل (الإكرام)، والله يبتلي العبد بالشر والخير، كما قال ﷻ: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وكما يكرم الله ﷻ العبد جزاء على ما قدّم، كذلك فإنه يهينه عقاباً. وطاعة الله ﷻ فيها الحياة الطيبة والعزاء الحسن، كما قال ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِئَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ومعصيته توجب المؤاخظة والعقاب .



المطلب الثالث: خطاب التَّهْكَم

١ - توطئة:

ولا بدَّ أولاً من بيان معنى (التَّهْكَم) وذلك للتفريق بينه وبين غيره من أنواع الخطاب الأخرى كخطاب الإهانة مثلاً..

يقول ابن فارس: «(هكم) الهاء والكاف والميم تدلُّ على تقحُّم وتهْدُم. و(هَكَمَ هَكْمًا): تقحَّم على النَّاس وتعرَّضهم بشرٍّ، و(التَّهْكَم): التَّهْزؤُ، و(تَهَكَّمتِ البِئْرُ): تَهَدَّمت»^(١).

و«(التَّهْكَم): التَّهْدَم يكون في البئر ونحوها، يقال: (تَهَكَّمتِ البِئْرُ) إذا تَهَدَّمت، أي: تهورت. و(التَّهْكَم): الاستهزاء والاستخفاف. يقال: قاله على سبيل التَّهْكَم كالأهكومة بالضَّم، و(التَّهْكَم): الطَّعن المتدارك، وأيضاً: التَّبَخُّتر بطراً، وأيضاً: الغضب الشَّدِيد، وهو التَّهْدَم من الغيظ والحمق، وأيضاً: التَّنَدُّم على الأمر الفائق وأيضاً: المطر الكثير الذي لا يطاق، وكذلك السَّيل، وأيضاً: التَّغْيِي. يقال: هكمته تهكيمًا غنيت له بصوت، و(المستهكم): المتكبر..»^(٢).

(١) مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: (هكم) (٥٩/٥)، انظر كذلك: أساس البلاغة (ص: ٤٨٦). وقد عرّفه ابنُ أبي الإصبع بقوله: «التَّهْكَم في الصُّنْاعة عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضوع التَّنْذارة، والوعد في مكان الوعيد تهاوئاً من القائل بالمقول به واستهزاء به». بديع القرآن (ص: ٢٨٣).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس، مادة: (هكم) (٣٤/١١١)، لسان العرب، (١٢/٦١٧).

وفي (الكليات): التَّهْكَم «ما كان ظاهره الجِدُّ وباطنه الهزل، والهزل الَّذي يراد به الجِدُّ بالعكس، ولا تخلو ألفاظُ التَّهْكَم من لفظةٍ من اللَّفْظ الدَّال على نوع من أنواع الذَّم، أو لفظة من معناها الهجو. وألفاظ الهجاء في معرض المدح لا يقع فيها شيء من ذلك، ولا تزال تدل على ظاهر المدح حتَّى يقترن بها ما يصرفها عنه. والتَّهْكَم والسُّخْرية كلاهما لا يناسب كلام الله ﷻ.

وأما قوله ﷻ: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]^(١) فمن قبيل تنزيل غير المحتمل منزلة المحتمل، وذلك قد يكون في مقام المدح، وقد يكون في مقام الإقنات الكلِّي، وقد يكون في الوعيد..^(٢)

أقول: قوله -أعني: صاحب الكليات^(٣) - (إنَّ ذلك من قبيل تنزيل غير المحتمل)، أي: ما لا يحتمل إلا المدح تنزيله منزلة ما يحتمل

(١) وفي (الفروق): «أما قوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ و﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]، فهو من باب التَّهْكَم والاستهزاء. وقيل: اشتقاقه من البشرة، وهو ظاهر الجلد لتأثيره في تغيير بشرة الوجه، فيكون فيما يسرُّ ويغم؛ لأنَّ السُّرور كما يوجب تغيير البشرة، فكذلك الحزن يوجبه. فوجب أن يكون لفظ التَّبشِير حقيقة في القسمين، لكنَّه عند الإطلاق يختصُّ في العرف بما يسرُّ، وإن أريد خلافه قيَّد». الفروق (ص: ١٠٠-١٠١).

(٢) الكليات (ص: ٣٠٣).

(٣) صاحب الكليات هو أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكوفي، كان من قضاة الحنفية. عاش ووليَّ القضاء في (كفه) بتركيا، و(بالقدس)، و(ببغداد). وعاد إلى (استانبول) فتوفي بها، ودفن في (تربة خالد). انظر: الأعلام (٣٨/٢)، وانظر: معجم المؤلفين (٣/ ٣١).

الذَّم، أو ما لا يحتمل إلا الذَّم تنزيله منزلة ما يحتمل المدح... وقوله: (وذلك قد يكون في مقام المدح)، أي: ما لا يحتمل إلا الذَّم تنزيله منزلة ما يحتمل المدح، وهو عكس الصُّورة الَّتِي معنا... وقوله: (وقد يكون في مقام الإقناط الكلِّي، وقد يكون في الوعيد...)، أي: ما لا يحتمل إلا المدح تنزيله منزلة ما يحتمل الذَّم... أقول: ولا بدُّ من قرينة تُعَيِّنُ المراد إذا كان في مقام الذَّم، لكونه عند الإطلاق يختصُّ في العرف بما يسرُّ، وإن أريد خلافه قيْدٌ... ولا بدُّ من نكتة تدلُّ على أهميَّة وفائدة ذلك الصَّرف عن حقيقة ما وضع له اللَّفظ.

أما القرينة هنا فهي قوله ﷻ: ﴿يُعَذِّبُ آلِيْمٍ﴾...، وأما النُّكْتة فهي زيادة التَّحَسُّر...، حيثُ إِنَّهم يتَحَسَّرُونَ لانقطاعهم عن حقيقة البشري، والَّتِي هي في معنى المدح، والَّتِي بَشَّرَ الله بها عباده المؤمنون كما قال الله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُؤُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾ [الأحزاب: ٤٧]، ﴿لَهُمْ فِي الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا بُدَّ لَهُمْ لِكَامِلَتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٤]، كما أَنهم يتَحَسَّرُونَ على ما أَلَمَ بهم وأصابهم من العذاب.

ويتقرَّر ممَّا سبق: أهميَّة وضرورة الاحتراز عن المعاني الَّتِي لا تناسب

كلام الله ﷻ. وقد قال الله ﷻ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. أما التَّهْكُم المراد هنا فهو الَّذي يليق بكلام الله ﷻ، وليس كتهْكُم المخلوقين؛ فإنَّ الاختلاف بين تهْكُم الخالق وتهْكُم المخلوقين كالاختلاف بين صفات الخالق وصفات المخلوقين.

والحاصل أنَّ معنى التَّهْكُم في هذه الآية واضح، فقد جعل العذاب مبشِّراً به، وقد ذكر ذلك غير واحد من المفسِّرين^(١). وذكرُوا أنَّ حقيقة (التبشير): الإخبار بما يُظهر سرور المخبر (بفتح الباء)، وهو هنا مستعمل في ضدِّ حقيقته، إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبرين، فهذا الاستعمال في الضدِّ معدود عند (علماء البيان) من الاستعارة، ويسمونها: تهْكُمِيَّة؛ لأنَّ تشبيه الضدِّ بضدِّه لا يروج في عقل أحدٍ إلا على معنى التَّهْكُم أو التَّلْمِيح^(٢).

(١) انظر: الدر المصون (١/١٢٥)، (٤/٤٨٥)، ابن عادل (١/٣٦٣)، (٤/٤١٤)، (٥/٤٨)، (١٠/٨٠)، (١٢/٥١٧)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٥٣٨).

(٢) انظر: التحرير والتَّنوير (٣/٢٠٧)، وانظر: (١٠/١١١). إنَّ من أنواع الاستعارة ما يسمَّى: بالاستعارة العناديَّة التَّهْكُمِيَّة والتَّلْمِيحِيَّة، وهما ما استعمل في ضدِّ أو نقيض نحو: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: أنذرهم، فقد استعيرت البشارة، وهي الإخبار بما يسرُّ للإنذار الَّذي هو ضدهُ بإدخاله في جنسها على سبيل التَّهْكُم والاستهزاء. ونحو ذلك قوله عز وجل -حكاية عن قوم شعيب عليه السلام -: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ أَلَمِيلُهُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]. فقد عني: الغوي السَّفيه تهْكُماً. انظر: الإتيقان (٢/١٢٤)، وانظر: مختصر المعاني، للسَّعد (ص: ٢١٥)، ونحوه: قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [النحل: ٥٨]. ونحو ذلك (الوعد)، فإنَّه يستعمل في الخير والشر. قال عز وجل في الخير: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ [الفتح: ٢٠]. وقال في الشر: =

والأمثلة على (خطاب التَّهْكَم) كثيرة، وسأتي على بيانها هنا مع بيان وجه التَّهْكَم إلا ما كان ظاهرًا.

أقول: والحاصل أنَّ التَّهْكَم هو من غايات الخطاب ووظائفه، ومن مقاصده التأثير والتَّحذير، وهو فنٌّ من فنون بديع القرآن الكريم. وممَّا يستفاد منه: اعتبار المخاطبين بحال من تُهْكَم به، وقد يستفاد منه: تهْكَم المتلقِّي له بالمتَّهْكَم به، فيكون التَّهْكَم قائمًا في نفس المخاطب كذلك كما في قوله ﷻ: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

والموازنة تدلُّ على التَّفاوت بين الحالين، وفي ذلك ما فيه من إبراز نعم الله ﷻ على المخاطب المتلقِّي حيث لم يكن حاله كحال المتَّهْكَم به، وفيه التَّحذير من مواضع الزَّلل ليكون المتلقِّي على بصيرة.

٢ - الأمثلة على التَّهْكَم من الخطاب القرآني:

فمن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]. ف قيل لهم ذلك على سبيل التَّهْكَم، وكما تهْكَم بلفظ النَّد شَنَّع عليهم بأنَّهم جعلوا أُنْدَادًا كثيرة لمن

= ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢]. ويمكن أن يحمل هذا على التَّهْكَم به كقوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فإذا لم يذكر الخير والشر، قلت في الخير: وعده، وفي الشر أوعده.. انظر: تفسير ابن عادل (٤/٤١٤)، انظر: تفسير الرَّايزي (٧/٥٥)، تفسير النيسابوري (١/٤٤-٤٥). ونحو ذلك قوله عز وجل: ﴿فَهَلْ يَجِدُ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]. انظر: ابن عادل (٥/٤٨)، السَّراج المنير (١/٢٢٣).

لا يصلح أن يكون له نذُّ قط^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِالنَّارِ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤].
فإنَّ الأمر بأن يستعينوا بما لا ينطق في معارضة المعجز غاية التَّهْكُم بهم^(٢). وبيان ذلك أن يقال: «لما بيَّن سبحانه عظيم كفرهم وعنادهم مع وقاحتهم بادِّعاء الإيمان، والاختصاص بالجنان أمر نبيِّه ﷺ أن يقول لهم على وجه التَّهْكُم بهم مؤكِّداً لذمِّهم بالتَّعبير بما وضع لمجامع الذم، فقال: ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾» [البقرة: ٩٣]، أي: بئس شيئاً الشَّيء الذي ﴿يَأْمُرُكُمْ بِهِ﴾ من الكفر ﴿إِيمَانُكُمْ﴾ هذا الذي ادَّعيتموه، وأوضح هذا التَّهْكُم بقوله على سبيل الفرض والتَّشكيك: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ على ما زعمتم، فحصل من هذا أنَّهم إمَّا كاذبون في دعواهم، وإمَّا أنَّهم أجهل الجهلة حيث عملوا ما لا يجامعه الإيمان وهم لا يعلمون»^(٣).

(١) انظر: الكشف (٢٣٧/١)، تفسير الرَّاзи (١١١/٢-١١٢)، تفسير النَّيسابوري (١/١٨٩)، تفسير القاسمي (١/٢٥٨).

(٢) انظر: الكشف (٢٤٥/١)، البحر المحيط (١/٢٤٨)، تفسير الرَّاзи (٢/١١٩)، غرائب القرآن (١/١٩٤)، تفسير ابن عادل (١/٤٣٧).

(٣) نظم الدرر (١/٢٠٠).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في كل من (سورة آل عمران) [٢١]،
و(التوبة) [٣٤]، و(الانشقاق) [٢٤]. وقد سبق بيان المعنى مفصلاً.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَمْ يَأْتِهِمْ يَكْفُلْ مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤].
فقوله ﷻ: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ ، «أي: عند المتنازعين، فالضمير عائد إلى غير مذكور دلّ عليه المعنى، والمقصود من هذه الجملة: تحقيق كون الإخبار بما ذكر عن وحي على سبيل التّهم بمنكره، كأنّه قيل: إنّ رسولنا ﷺ أخبركم بما لا سبيل إلى معرفته بالعقل مع اعترافكم بأنّه لم يسمعه ولم يقرأه في كتاب، وتنكرون أنّه وحي فلم يبق مع هذا ما يحتاج إلى التّفي سوى المشاهدة التي هي أظهر الأمور انتفاءً لاستحالتها المعلومة عند جميع العقلاء»^(١).

(١) روح المعاني (٣/١٥٨). ونحوه: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]. وقد ذكر معنى التّهم فيه غير واحد، فقد قالوا: إنّ هذا التّبا غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي؛ لأنّك لم تحضر (بني يعقوب) حين أجمعوا أمرهم، وهو إلقاءهم أخاهم في البئر، كقوله عز وجل: ﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]، وهذا تهكم بقريش وبمن كذّبه؛ لأنّه لم يخف على أحد من المكذّبين أنّه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه. ولم يكن من علم قومه. فإذا أخبر به وقصّ هذا القصص العجيب الذي أعجز حلته ورواته، لم تقع شبهة في أنّه ليس منه وأنّه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم. انظر: الكشف (٢/٣٤٥-٣٤٦)، وانظر: تفسير أبي السّعود (٤/٣٠٩)، البحر المحيط (٥/٣٤٤)، تفسير =

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجَكُمْ فَأَتْبَعَكُمْ عَمَّا يَغْمُرُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣]. فَإِنَّ التَّعْبِيرَ بِالْإِثَابَةِ مِنْ بَابِ التَّهْكِيمِ^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]،

= القاسمي (٤٠١/٤-٤٠٢). ونحوه قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ مَا بَيْنَنَا وَلَكَ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْأُطُورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطُ بِيَمِينِكَ إِذْ لَا رَتَابَ الْمُحِيطُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. والحاصل أَنَّ قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ تَهْكُمُ بِهِمْ؛ لَأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ مَا كَانَ مَعَهُمْ .

(١) انظر: روح المعاني (٩٢/٤)، تفسير الرّازي (٣٨٤/٩)، غرائب القرآن (٢٨٢/٢). وقد بين الرّازي -رحمه الله- ذلك مفصلاً في (تفسيره)، قال: «وبيان ذلك أَنَّ لفظ (الثّواب) لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، ويجوز أيضاً استعماله في الشر؛ لَأَنَّهُ مأخوذ من قولهم: (ثاب إليه عقله)، أي: رجع إليه، قال عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، والمرأة تسمى (ثيباً)؛ لَأَنَّ الواطئ عائد إليها، وأصل (الثّواب) كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سواء كان خيراً أو شراً، إلا أَنَّهُ بحسب العرف اختصّ لفظ: (الثّواب) بالخير، فان حملنا لفظ: (الثّواب) ههنا على أصل اللّغة استقام الكلام، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك وارداً على سبيل التّهكم، كما يقال: (تحيتك الضّرب)، و(عتابك السّيف)، أي: جعل الغمّ مكان ما يرجون من الثّواب». تفسير الرّازي (٣٨٤/٩). ونقل قول الرّازي القاسمي في (تفسيره) (١٥٥/٢)، وانظر: البحر المحيط (٤٣٠-٤٣١).

فقوله: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا﴾ ، أي: لم يفارقونا ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ «وهذا في غاية التَّهْكُمْ بهم؛ لأنَّ إطلاق هذا القول منهم - ولا سيَّما على هذا التَّأكيد - يلزم منه ادِّعاء أنَّه لا يموت أحدٌ في (المدينة)، وهو لا يقوله عاقل»^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَيْنَ أَصْبَحْتُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٣]. «فقوله ﷻ: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ من كلامه ﷻ اعتراض بين القول ومقوله الذي هو: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لثلاث يتوهم من مطلع كلامه أنَّ تمنيه المعية للنُّصرة والمظاهرة حسبما يقتضيه ما في البين من المودة، بل هو للحرص على حطام الدُّنيا كما ينطق به آخره، فإنَّ الفوز العظيم الذي عناه هو ذلك، وليس إثبات المودة في البين بطريق التَّحقيق، بل بطريق التَّهْكُمْ»^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥]. فمما قيل: إنَّ التَّقدير: من يشفع شفاعته سيئة يكن له منها نصيب يعتمد عليه، ويكون له ذخيرة في معاشه

(١) نظم الدرر (٢/ ١٧١).

(٢) روح المعاني (٥/ ٨٠)، وذكر معنى التَّهْكُمْ في هذه الآية أيضًا أبو السعود في (تفسيره)

(٢/ ٢٠١)، والزَّخْشَرِيُّ في (الكشاف) (١/ ٥٤١-٥٤٢) . الخ .

ومعاده. والغرض التَّهْكُم وحصول ضدِّ ذلك^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٣٨].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن سُبُّهُ لَمْ يَكُنْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]. قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾، أي: هذا الذي يدَّعي لنفسه هذا المنصب قتلناه. وهذا منهم من باب التَّهْكُم والاستهزاء، كقول المشركين: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]^(٢). ولكن ينبغي التَّمييز بين ما كان تهْكُمًا من المخلوقين، وبين تهْكُم الخالق ﷻ فَإِنَّ الاختلاف بين تهْكُم الخالق وتهْكُم المخلوقين كالاختلاف بين صفات الخالق وصفات المخلوقين.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شَفَعُوا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٨]. فمما قيل: إِنَّ قوله ﷻ: ﴿أَتُنَبِّئُونَ﴾ فقد قيل معناه:

(١) انظر: تفسير التيسابوري (٢/٤٦٠).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١/٥٧٤-٥٧٥)، تفسير أبي السعود (٢/٢٥١)، وقولهم: ﴿الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هو لقب قصدوا منه التَّهْكُم، فصار لقبًا له بينهم. وقلب الله عز وجل قصدهم تحقيره فجعله تعظيمًا له. التَّحْزِير والتَّنْوِير (٦/١٩).

التقريع والتوبيخ والإنكار والتَّهْكُم بعقولهم وأفكارهم، ونفي أن تكون الأوثان شفعاء عند الله ﷻ^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]. فإن المثوبة ضد العقوبة. واستعمال أحد الضدين مكان الآخر مجاز رخصه إرادة التَّهْكُم. حيث إن الأكثر المتعارف استعمال المثوبة في الخير، واستعمالها هنا في الشر على طريقة التَّهْكُم..^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

قوله ﷻ: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ يعني: بذلك الكفار؛ لأنهم موتى القلوب، فشبههم الله ﷻ بأموات الأجساد، فقال: ﴿وَالْمَوْتُ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وهذا من باب التَّهْكُم بهم، والازدراء عليهم^(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ

(١) انظر: البحر المحيط (١٣٨/٥)، فتح القدير (٢٦٢/٢).

(٢) انظر: تفسير النيسابوري (٦١١/٢)، روح المعاني (١٧٥/٦)، وقد سبق بيان قوله عز وجل: ﴿قَاتِلُوا كُفْرًا كَبِيرًا﴾ [آل عمران: ١٥٣]، وسيأتي بيان قوله عز وجل: ﴿هَلْ يُؤْتِي الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٣٦] في موضعه.

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (١٣١/٢)، وتفسير القاسمي (٣٠٥/٣).

بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَنًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾
[الأنعام: ٨١] ^(١). فقلوه ﷻ: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَنًا﴾ أي:
حجة وبرهاناً على طريق التَّهْكُم. قيل: مع الإيذان بأنَّ الأمور الدِّينية لا
يعول فيها إلا على الحجة المنزلة من عند الله ﷻ ^(٢). والآية الكريمة
قد اشتملت على التَّهْكُم بالمشرِكين وتوبيخهم على كفرهم وإشراكهم.
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ
حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف: ٤٤].
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنِزْنَا
بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأعراف: ٧٠]. فإنَّ معنى
المجيء إمَّا مجيئه -عليه السَّلام- من مكان كان يتحنَّث فيه كما كان
رسول الله ﷺ يفعل بحراء قبل المبعث، أو مجيئه من السَّماء، أي:

(١) ونحوه قوله عز وجل: ﴿سَتَلْقَىٰ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَنًا﴾ [آل عمران: ١٥١]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾
[الأعراف: ٣٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾﴾ [الحج: ٧١].

(٢) قال الزَّخَشَرِيُّ في (الكشاف) (٧٧/٢)، تفسير الآية: [٣٣] من (الأعراف): «فيه تهكم؛
لأنَّه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشارك به غيره». وانظر: تفسير أبي السَّعود (٣/١٥٥).

أنزلت علينا من السماء، ومرادهم: التَّهْكُم والاستهزاء^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩]. فقلوه ﷻ: ﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا﴾ خطاب للمشركين على سبيل التَّهْكُم^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَيَسْتَفِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَقٍ إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]. «و(الاستنباء) على سبيل التَّهْكُم والاستهزاء - كما هو المعلوم من حالهم -، فلا يقتضي بقاءه على أصله، وربما يقال: إِنَّ (الاستنباء) بمعنى طلب النبأ حقيقة لكن لا عن الحقيّة ومقابلها بالمعنى المتبادر؛ لأنهم جازمون بالثاني، بل المراد من ذلك: الجدُّ والهزل كأنهم قالوا: إنا جازمون بأنَّ ما تقوله كذب لكننا شاكون في أنه جدُّ منك أم هزل، فأخبرنا عن حقيقة ذلك.

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٣/٢٣٩)، روح المعاني (٨/١٥٧)، وانظر: البحر المحيط (٤٠١/٥).

(٢) انظر: الكشف (٢/١٥٠)، تفسير أبي السعود (٤/١٤)، روح المعاني (٩/١٨٧)، ونحوه قوله عز وجل: ﴿وَأَسْتَفِئُوا وَغَابَ عَنْهُمْ جَبَّارٌ عَنِيذٌ﴾ [إبراهيم: ١٥] فاستفتحوا على سبيل التَّهْكُم والاستهزاء، كقول قوم نوح عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا نُوْحُ نَعِدْنَاكَ﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقوم شعيب عليه السلام: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ [الشعراء: ١٨٧]. إلى غير ذلك. انظر: البحر المحيط (٥/٤٠١)، روح المعاني (١٣/٢٠١).

ونظير هذا قولهم: ﴿أَفَرَأَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾ [سبأ: ٨]»^(١).
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ بَأْسًا نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَفْقَهُمْ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي
بَيَّانَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ غُمَّةٌ ثُمَّ أَقِضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]» [يونس: ٧١]. فقد قيل: إنَّ
الكلام خارج مخرج التَّهْكُمْ بناءً على أنَّ المراد بالشُّركاء: الأصنام.
وفي (البحر): «وأسند الإجماع إلى الشُّركاء على وجه التَّهْكُمْ كقوله
ﷻ: ﴿قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ [الأعراف: ١٩٥]»^(٢). أو يراد
بالشُّركاء: من كان على دينهم وطريقتهم... وأمره إِيَّاهم بإجماع أمرهم
دليل على عدم مبالاته بهم ثقة بما وعده ربُّه من كلاءته وعصمته..
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالِیَوْمَ تُنْجِيكَ يَدُنَا لَتَكُونَنَّ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢].
«والكلام جار مجرى التَّهْكُمْ، فإطلاق (الإنجاء) على إخراجهم من
(البحر) استعارة تهْكْمِيَّة. وليس مسوغها التَّهْكُمْ المحض كما هو
الغالب في نوعها، بل فيها علاقة المشابهة؛ لأنَّ إخراجهم إلى البرِّ كاملاً
بشكَّته^(٣) يشبه (الإنجاء)، ولكنَّه ضدُّ (الإنجاء)، فكان بالمشابهة

(١) روح المعاني (١١/١٣٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٥/١٧٨)، وانظر: روح المعاني (١١/١٥٨).

(٣) (الشكَّة): ما يلبس من السَّلاح. انظر: تاج العروس، مادة: (دجج) (٥/٥٤٨)، وكذلك
في (لسان العرب) (٢/٢٦٣).

استعارة، وبالضدية تهكما..»^(١). قال الرازي: «إنَّ هذا وعد له بالنَّجاة على سبيل التَّهْكُمْ كأنَّه قيل له: ننجيك لكنَّ هذه النَّجاة إنما تحصل لبدنك لا لروحك، ومثل هذا الكلام قد يذكر على سبيل الاستهزاء كما يقال: (نعتك، ولكن بعد الموت)، و(نخلصك من السجن، ولكن بعد أن تموت)»^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالُوا يَسْعَيْبُ أَصْلُوكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧].
قالوا ذلك على سبيل التَّهْكُمْ والازدراء^(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِإِيلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠-١١]. فقد قيل: هو تهكم؛ فإنه لا يحفظه من أمر الله ﷻ شيء إذا جاءه، وذلك بالنظر إلى تفسير (المعقبات) بالحرص حول السلطان يحفظونه على زعمه من أمر الله ﷻ^(٤).

(١) التحرير والتنوير (١١/٢٧٨).

(٢) تفسير الرازي (١٧/١٥٦-١٥٧)، وانظر: تفسير الخازن (٣/٢٠٩).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٤٧)، الكشف (٢/٢٨٦)، تفسير أبي السعود (٤/٢٣٣).

(٤) قال الزنجشيري: «أي: يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله عز وجل. أي: من قضاياہ ونوازه، أو على التَّهْكُمْ به». الكشف (٢/٣٥٢)، وقد اختاره الرازي (١٩/٢٠).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝٩ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٠﴾ [الإسراء: ٩-١٠] حيث يقال ذلك في البشرى بالعذاب الأليم للذين لا يؤمنون بالآخرة.

ومن ذلك الآيات التالية:

﴿انظُرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٤٨ وَقَالُوا لَئِنَّا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا لَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٤٩ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُقْضَوْا إِلَيْكَ رُءُوسُهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝٥١﴾ [الإسراء: ٤٨-٥١]. فإن فيها: التَّهْكَم بهم، والتَّهْكِيت لهم، والاستخفاف بعقولهم^(١)

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝٢٩﴾ [الكهف: ٢٩] فإنه خارج مخرج التَّهْكَم، ومعنى التَّهْكَم واضح^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ۝﴾ [الكهف: ١٠٢]. فإن قوله ﷻ:

(١) انظر: نظم الدرر (٤/٣٩٢).

(٢) انظر: روح المعاني (١٥/٢٦٨).

﴿نُزُلًا﴾ ، أي: هي معدة لهم كالمنزل المعد للضيف، وهذا على سبيل التهكم، فإنَّ العرب ربما استعملت النزول في ضدَّ ذلك على سبيل التهكم والاحتقار. وقد قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنْتَآ الصَّآلُونَ الْمُكَذِبُونَ ﴿٥١﴾ لَاكُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَآلُونَ مَنهَا الْبَطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مَن الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَرِبُونَ شُرَبَ آلِيمٍ ﴿٥٥﴾ هَآذَا تُرْمَتُمْ يَوْمَ آلِذِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦].

فهذا الذي ذكر من الرُّقوم والحميم أوَّل ما يلقونه من العذاب ﴿تُرْمَتُمْ﴾ ، أي: كالنزل الذي يعد للنَّازل مما حضر مكرمة له. وفيه من التهكم ما لا يخفى.. وقال ﷻ: ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِبِينَ الصَّآلِينَ ﴿٩٢﴾ فَتُرْزَلُ مِّن حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٣]^(١). وسيأتي بيان ذلك في موضعه.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَسَاءَ لَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠١].

أي: بشس الحمل حملهم، أو يقال: أي: قبح ذلك الوزر من جهة كونه حملاً لهم في القيامة، وفيه ما فيه من التهكم^(٢). وذلك لأنَّ من عادة الإنسان أن يحمل ما ينفعه، وهؤلاء يحملون أوزارهم كما قال الله ﷻ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِن أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥].

أقول: وهذا يصلح أن يكون من (خطاب الذم)، وذلك بالنظر إلى

(١) انظر: روح المعاني (٤٧/١٦)، (٩٥/٢٣)، (١٤٦/٢٧)، السراج المنير (٤٤٩/٢)، أضواء

البيان (٥٢٧/٧)، نظم الدرر (٤١٥/٧)، ابن عادل (٥٧١/١٢).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١٦٦/٣)، روح المعاني (٢٦٠/١٦).

﴿سَاءَ﴾ - وسيأتي بيان ذلك في خطاب الذم - كما أنَّ فيه معنى التَّهْكُمْ والإهانة، وذلك بالنَّظر إلى قوله ﷻ: ﴿جَمَلًا﴾ .
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٢-١٣]. فقوله ﷻ: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ على وجه التَّهْكُمْ بهم، وكذلك وقوله ﷻ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ﴾ من جملة التَّهْكُمْ^(١).

وهذا التَّهْكُمْ يحتمل وجوهاً:

الأول: ارجعوا إلى نعمتكم ومساكنكم لعلكم تسألون عما جرى عليكم ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السَّائل عن علم ومشاهدة.
الثاني: ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم حتَّى تسألكم عبيدكم ومن ينفذ فيه أمركم ونهيكم، ويقولوا لكم: بم تأمرون؟ وماذا ترسمون؟ كعادة المخدومين.

الثالث: تسألكم النَّاس ما في أيديكم ويستشيرونكم في المهمَّات^(٢).
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنبياء: ٢١]. أي: أهم يحيون الموتى، وينشرونهم من الأرض!! أي: لا يقدرُونَ على شيءٍ من

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٧/١٧)، فتح القدير (٣/٥٧٣)، نظم الدرر (٥/٧١).

(٢) انظر: الكشف (٢/٥٦٤-٥٦٥)، البحر المحيط (٦/٢٧٩)، تفسير الرازي (٢٢/١٢٤)،

تفسير ابن عادل (١٣/٤٥٨).

ذلك، فكيف جعلوها لله **عَلَيْكَ** ندًا وعبدوها معه؟! وفيه ما فيه من التَّهْكُم^(١).
ومن ذلك قوله **عَلَيْكَ**:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ **﴿٣٨﴾** لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُورُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ **﴿٣٩﴾** [الأنبياء: ٣٨-٣٩]، والمعنى واضح.

ومن ذلك قوله **عَلَيْكَ**:
﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ
مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾ **﴿٤٣﴾** [الأنبياء: ٤٣]، والمعنى واضح.

ومن ذلك قوله **عَلَيْكَ**:
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَتَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ **﴿٢﴾**

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١٧٦/٣)، وقد ذكر الرُّخْشَرِيُّ في (الكشاف) (٥٦٧/٢) من المعنى ما نقله عنه غير واحد من المفسرين، قال: « فَإِنْ قُلْتَ: كيف أنكر عليهم اتخاذ آلهة تنشر وما كانوا يدعون ذلك لآلهتهم؟ وكيف وهم أبعد شيء عن هذه الدُّعوى، وذلك أنهم كانوا مع إقرارهم لله عز وجل بأنه خالق السموات والأرض، ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وبأنه القادر على المقدورات كلها وعلى النُّشْأَةِ الأولى منكرين البعث. ويقولون: من يحيي العظام وهي رميم؟! وكان عندهم من قبيل المحال الخارج عن قدرة القادر كثاني القديم، فكيف يدعونه للجُمَادِ الذي لا يوصف بالقدرة رأسًا؟ قلت: الأمر كما ذكرت، ولكنهم بادَّعائهم لها الإلهية، يلزمهم أن يدعوا لها الإنشَارَ؛ لأنه لا يستحق هذا الاسم إلا القادر على كلِّ مقدور، و(الإنشَار) من جملة المقدورات. وفيه باب من التَّهْكُمِ بهم والتَّوْبِيخِ والتَّجْهِيلِ، وإشعار بأن ما استبعدوه من الله عز وجل لا يصح استبعاده؛ لأنَّ الإلهية لما صَحَّتْ صَحَّ معها الاقتدار على الإبداء والإعادة. الكشاف (٥٦٧/٢)، وقد ذكر هذا المعنى أيضًا أبو حَيَّان في (البحر) (٢٨٢/٦)، وابن عادل في (تفسيره) (٤٦٧/١٣)، والرَّاظِي (١٣٤/٢٢)، والنَّيْسَابُورِي (١٢/٥).

كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾
[الحج: ٣-٤]. والشَّاهد قوله ﷻ: ﴿وَيَهْدِيهِ﴾ حيث عبَّر بلفظ
(الهداية) على سبيل التَّهْكُم^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى
السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ ﴿١٥﴾ [الحج: ١٥].
قال ابن عباس رضي الله عنه^(٢): من كان يظنُّ أن لن ينصر الله ﷻ محمداً ﷺ
في الدنيا والآخرة، ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ ، أي: بحبل، ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ ،
أي: سماء بيته، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ، يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال
مجاهد، وعكرمة، وعطاء، وأبو الجوزاء، وقتادة، وغيرهم. وقال عبد
الرَّحْمَنِ بن زيد بن أسلم: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ ، أي: ليتوصل
إلى بلوغ السَّمَاءِ، فَإِنَّ النَّصْرَ إِنَّمَا يَأْتِي مُحَمَّدًا مِنَ السَّمَاءِ، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾
ذلك عنه، إن قدر على ذلك. قال الحافظ ابن كثير: «وقول ابن عباس
وأصحابه أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التَّهْكُم؛ فَإِنَّ المعنى: من
ظنَّ أَنَّ اللَّهَ ﷻ ليس بناصر محمداً ﷺ وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل

(١) انظر: المفردات (ص: ٥٣٨)، البحر المحيط (٣٢٧/٦)، تفسير الرَّايزي (٣/٣٦٠)،
القاسمي (١٨٦/٥).

(٢) انظر قول ابن عباس أيضا في (الدُّر المنثور) حيث قال السيوطي: «أخرج الفريائي وعبد بن
حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس
-رضي الله عنهما- «الدُّر المنثور (١٥/٦)، وقد وصل عبد بن حميد من طريق أبي إسحاق
عن الثَّمِيمِي عن ابن عباس. انظر: فتح الباري (٨/٤٤١).

نفسه إن كان ذلك غائظه، فإنَّ الله ﷻ ناصره لا محالة، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ۚ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۝٥٢﴾ [غافر: ٥١-٥٢]، ولهذا قال: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدُهُ مَا يَعِيطُ﴾^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّكَ الْذِيكَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ۝٧٣﴾ [الحج: ٧٣]، خارج مخرج التَّهْكَم أيضًا^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۝٢٧﴾ [الشعراء: ٢٧]. قيل:

(١) تفسير ابن كثير (٢١١/٣).

(٢) انظر: تفسير القاسمي (٢٢٠/٥)، والكشاف (٢٢/٣). قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ﴾، أي: هذا الخلق الأذل الضَّعِيف، لو اختطف منهم شيئاً فاجتمعوا على أن يستخلصوه منه، لم يقدروا: ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ﴾، أي: الضَّئِيف يطلب ما سلب منه: ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾، أي: الذُّبَاب بما سلب. وهذا كالتَّسْوِية بينهم وبين الذُّبَاب في الضَّعْف. ولو حققت وجدت الطَّالِب أضعف وأضعف؛ فإن الذُّبَاب حيوان وهو [أي: الأصنام التي يعبدونها] جماد. وهو [أي: الذُّبَاب] غالب، وذلك [أي: الضَّئِيف] مغلوب. وجوز أن يراد بالطَّالِب عابد الضَّئِيف، وبالمطلوب معبوده. قيل: وهو أنسب بالسياق؛ لأنه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم، فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التَّذْيِيل. واختار الوجه الأول الزَّخْمَشَرِي [الكشاف (٢٢/٣)] لما فيه من التَّهْكَم، بجعل الضَّئِيف طالبا على الفرض تهكماً وأنه أضعف من الذُّبَاب؛ لأنه [أي: الضَّئِيف] مسلوب وجماد، وذلك [أي: الذُّبَاب] حيوان بخلافه.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ﴾ [الأحزاب: ١٨].
والله ﷻ يعلم حقيقتهم، ﴿يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتُ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: ٧٧]، ولا تخفى عليه خافية. والشاهد أن قوله ﷻ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ فيه دخول (قد) على الفعل المضارع بمعنى: التهديد. وقيل: للتعليل على وجه التَّهْكُم^(١). وما قيل آخرًا هو الذي يعيننا هنا^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]. فيه أيضًا من التَّهْكُم بهم والتَّجْهِيل ما لا يخفى^(٣).

= ﴿أَسْبَغَ السَّمَكُوتِ فَأَطْلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ [الطور: ٣٨]. انظر: الكشاف (٣/ ٣٦١)، تفسير الرَّايزي (٢٤/ ٦٠٥-٦٠٦)، التحرير والتَّنْوِير (٢٧/ ٧٢). ومن التَّهْكُم قول فرعون عندما التفت إلى مَنْ حوله من مَلَأْته ورؤساء دولته قائلًا لهم -على سبيل التَّهْكُم والاستهزاء والتكذيب لموسى عليه السلام فيما قاله-: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]، أي: ألا تعجبون ثم يقول: ... انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٣٤). وفي ذلك كله ما فيه مما أشرت إليه غير مرة من الاختلاف بين تهْكُم الخالق وتهْكُم المخلوقين. (١) انظر: تفسير ابن جزي (٣/ ١٣٥). ونحوه قوله عز وجل: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِيكَ يَسْأَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَأ﴾ [النور: ٦٣]. أقول: وهو أقرب إلى معنى التهديد، ولذلك لقوله عز وجل -عقب ذلك- ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣]. ونحو ذلك أيضًا قوله عز وجل: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَكُوتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤]. فقد دخلت (قد) للتأكيد. وفي الكلام معنى الوعيد والتهديد. وقيل: معناها التقليل على وجه التَّهْكُم. والخطاب لجميع الخلق، أو للمنافقين خاصة. انظر: تفسير ابن جزي (٣/ ٧٣-٧٤). (٢) وذلك بصرف النَّظَر عن كونه راجحًا أو مرجوحًا. (٣) انظر: روح المعاني (٢٢/ ١٥٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْثِقَالَ ذَرَقٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢]، ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٧]. ونحوه: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠]، ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ [الأحقاف: ٤]، والمعنى واضح^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١]، وقوله: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ﴾ [يس: ٧٥].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، وقوله ﷻ: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩]. والمراد: الشَّهْم عليهم بصورة الاستفتاء... والمعنى واضح^(٢).

(١) انظر: روح المعاني (٢٢/٢٠٤).

(٢) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ (٢٣/١٨٠)، نظم الدرر (٦/٢٩٥)، تفسير ابن جزي (٣/١٧٦).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَأَمْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣]. وارد على الصحيح
مورد التَّهْكَمُ^(١). وكذلك قوله ﷻ: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ﴾ [١٥٠]. [الصافات: ١٥٠].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿لَهُمْ مِّنْ قُوَّةٍمَّ ظَلُّوا مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحَنُّنٍمَّ ظَلَّلَ ذَلِكَ يَخَوْفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ
يَعْبُدُونَ﴾ [١٦]. [الزمر: ١٦]، ومعنى التَّهْكَمُ واضح.
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا نَحْمُ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ
عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [٤٩]. [الزمر: ٤٩].
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [٢٠]. [غافر: ٢٠]، وقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾
[٨٣]. [غافر: ٨٣].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَن أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا
أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ﴾ [١٥].
[فصلت: ١٥]، ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ

(١) روح المعاني (١/٩١)، مفردات غريب القرآن (ص: ٥٣٨).

فَدُّوْ دُعَاۥ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ [فصلت: ٥١].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّطُ الْحَقَّ يَكَلِمَنِيهِۦ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ [الشورى: ٢٤] ^(١)،
وقوله ﷻ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنِشَاءً أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ
سَتَكُنُّبُ شَهِدَتِهِمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الزخرف: ١٩]، والمعنى واضح.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٩].
فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من يعظم فقده، فيقال فيه:
(بكت عليه السماء والأرض) ^(٢). وفيه ما يشبه السخرية بهم، يعني أنهم
كانوا يستعظمون أنفسهم، وكانوا يعتقدون في أنفسهم أنهم لو ماتوا
لبكت عليهم السماء والأرض، فما كانوا في هذا الحد، بل كانوا دون
ذلك. وهذا إنما يذكر على سبيل التهكم ^(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]. فهو خبر
مستعمل في التهكم بعلاقة الضدية، والمقصود عكس مدلوله، أي:
أنت الدليل المهان، والتأكيد للمعنى التهكمي ^(٤)، وهو أغيب للمتهكم

(١) قيل: يجوز أن يكون قوله عز وجل: ﴿فَإِنْ يَشِئِ﴾ الخ مفرعاً على كلامهم خارجاً مخرج
التهكم بهم. انظر: روح المعاني (٣٥/٢٥).

(٢) انظر: الكشف (٥٠٤/٣)، تفسير أبي السعود (٦٣/٨)، البحر المديد (٤٨/٧).

(٣) انظر: تفسير الرازي (٢٤٧/٢٧)، تفسير ابن عادل (٣٢٤/١٧).

(٤) التحرير والتنوير (٣١٦/٢٥). وقد بيئت ذلك في غير موضع.

أو المستهزأ به .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا نُنَاجِيهِمْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنْتَوِيحُونَ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا اتَّبِعُوا بَنَاءَنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٢٥﴾ [الجاثية: ٢٥]، أي: وإذا تقرأ على هؤلاء المشركين آياتنا المنزلة وفيها الحجج والبيّنات ما كان حجتهم إلا أن قالوا اتتوا بآبائنا. قال الزمخشري: «فإن قلت: لم سمي قولهم حجة وليس بحجة؛ قلت: لأنهم أدلوا به كما يدلي المحتج بحجته، وساقوه مساقها فسميت حجة على سبيل التّهم؛ أو لأنّه في حسابهم وتقديرهم حجة.. إلى غير ذلك..»^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٤﴾ [الأحقاف: ٣٤].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق: ٢٢]. وهنا كلام مهم للظاهر بين عاشور بيّن ما فيه من التّهم حيث يقول عن هذه الآية: فيها «مقول قول محذوف دلّ عليه تعينه من الخطاب، أي: يقال هذا الكلام لكلّ نفس من نفوس المشركين، فهو خطاب التّهم التّوبيخي للنفس الكافرة؛ لأنّ المؤمن لم يكن في غفلة

(١) الكشف (٣/٥١٣)، وأورد ذلك أيضًا القرطبي في (تفسيره) (١٦/١٧٣)، البحر المحيط

عن الحشر والجزاء. وجملة القول ومقوله في موضع الحال من ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ [ق: ٢١] ^(١)، أو موقع الصِّفة. وعلامات الخطاب في كلمات: ﴿كُنْتُ﴾ و﴿عَلَيْكَ﴾ و﴿غِطَاءَكَ﴾ و﴿فَبَصَّرُكَ﴾ مفتوحة لتأويل النفس بالشَّخص أو بالإنسان، ثمَّ غُلِّب فيه التذكير على التأنيث. وهذا الكلام صادر من جانب الله ﷻ، وهو شروع في ذكر الحساب. و(الغفلة): الذُّهول عمَّا شأنه أن يُعلم. وأطلقت هنا على الإنكار والجحد على سبيل التَّهْكُم. ورشَّح ذلك قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ بمعنى: بيَّنا لك الدَّلِيل بالحسِّ فهو أيضا تهْكُم. وأوثر قوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ على أن يقال غافلا للدلالة على تمكن الغفلة منه، ولذلك استتبع تمثيلها بالغطاء ^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَيُظِلُّ مَنِ يَحْمِيهِ﴾ ٤٣ ﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ ٤٤ [الواقعة: ٤٣-٤٤] إلى قوله ﷻ: ﴿هَذَا نَزَمُومُ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ٥٦ [الواقعة: ٥٦]، وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ ٩٧ ﴿فَنُزِّلُ مِنْ حَمِيمٍ﴾ ٩٨ [الواقعة: ٩٢-٩٣]، ونحوه:

﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ ٦٢ [الصافات: ٦٢].

والتَّهْكُم في معنى: (الظِّل) ووصفه؛ لأنَّ المعنى أنه ليس باردا كسائر الظلال، ولا دافعا أذى الحرِّ لمن يأوي إليه، وهو هنا خبر،

(١) وتام الآية: ﴿وَمَلَأَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾.

(٢) التَّحْرِير والتَّنْوِير (٣٠٩/٢٦).

وليس إنشاء، وإن كان معنى التَّهْكُم واضحاً في الخبر؛ لأنَّ الظِّل إنما يستظلُّ به اتِّقاء الحرِّ. وفي (النُّزَل)، فإنَّ (النُّزَل) لغة هو الَّذي يقدِّم للنَّازل تَكْرَمَةً له قبل حضور الضَّيَافَةِ. و(النَّزِيل): الضَّيْف، و(النُّزَل): ما هيئ للضيِّف من الضَّيَافَةِ إذا نزل عليه^(١). وقد قال الله ﷻ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ ثَوْبِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، وقوله ﷻ: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمْ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الحديد: ١٥].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قَالُوا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]، ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٦]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨].

ومن ذلك قوله ﷻ عن المنافقين:

(١) انظر: مادة: (نزل) في (لسان العرب) (١١/٦٥٦)، وفي (مختار الصحاح) (ص: ٦٨٨)، وكذلك في (أساس البلاغة) (ص: ٤٥٢). .. إلخ. وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٢).

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾﴾

[المنافقون: ٢].

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿أَمَنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

[الملك: ٢١]، وقوله ﷺ: ﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْبٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القلم: ٢٥].

ونحو هذه الآيات التي تدلُّ على معنى: التَّهْكُم والسُّخْرِيَّة والازدراء، وبيان ضعف المخاطب -بفتح الطاء المهملة-

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿ذَرَفِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَا لَا مَمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَيْنَ شُهُودًا ﴿١٣﴾

وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾

سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾

﴿٢٠﴾﴾ (١) [المدرثر: ١١-٢٠]. والإطراء في الإعجاب بتقديره يدلُّ على

غاية التَّهْكُم به (٢)

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿تَنْظُرُونَ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القيامة: ٢٥].

الظَّنُّ ههنا بمعنى اليقين، هكذا قاله المفسِّرون (٣). ولكن قال

(١) قال الزُّمَخْشَرِيُّ: «قيل: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وكان يلْقَبُ في قومه بالوحيد، ولعلَّه لُقِّبَ بذلك بعد نزول الآية، فإن كان ملقَّبًا به قبل فهو تهْكُم به وبلقبه». الكشاف (١٨٢/٣).

(٢) انظر: روح المعاني (١٢٣/٢٩).

(٣) انظر: تفسير ابن جزي (١٦٥/٤)، روح المعاني (١٤٦/٢٩).

الرَّازِي: «وعندي أَنَّ الظنَّ إنما ذكر ههنا على سبيل التَّهْكِمْ كأنَّه قيل: إذا شاهدوا تلك الأحوال، حصل فيهم ظنٌّ أَنَّ القيامة حقٌّ»^(١).
و(الفاقرة): الدَّاهِيَة.

وقيل: شر، وقيل: تستيقن أنها هالكة أو أنها ستدخل النَّار..^(٢).
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَنَّ أَنْتَ الْفَرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨].

قيل: لعلَّه سَمَّاه بالظنِّ على سبيل التَّهْكِمْ^(٣).
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ [القيامة: ٤٠]، وما قبلها من

الآيات^(٤).

قال الحافظ ابن كثير: «هي على سبيل التَّهْكِمْ والتَّهْدِيد كقوله ﷻ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، وكقوله ﷻ: ﴿كُلُوا وَتَمَنَّوْا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]، وكقوله ﷻ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٥]، وكقوله ﷻ: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].. إلى غير ذلك»^(٥). وما ذكره الحافظ ابن كثير من التَّمْثِيل يصلح لخطاب التَّهْكِمْ

(١) تفسير الرَّازِي (٢٣٠/٣٠)، ابن عادل (٥٦٨/١٩).

(٢) انظر: تفسير الطَّبْرِي (١٩٤/٢٩)، ابن كثير (٤٥١/٤).

(٣) انظر: تفسير الرَّازِي (٢٣١/٣٠)، روح المعاني (١٤٧/٢٩).

(٤) انظر: الآيات من (٣٦) إلى (٣٩).

(٥) تفسير ابن كثير (١٤٧/٤)، (٤٥٢/٤). وقد ذكر معنى التَّهْكِمْ في هذه الآية غير واحد من المفسرين. انظر: البحر المحيط (٤٠/٨)، السَّراج المنير (١١/١)، الدر المصون (١١٨/٦).

ولخطاب التهديد .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٌ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهِابِ ﴿٣١﴾﴾

[المرسلات: ٣٠-٣١].

فهذا تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين، والمعنى أن ذلك الظل لا يمنع حرَّ الشمس^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿هَلْ تُؤْتِبُ الْكَفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٦]. ثوب وأثاب

بمعنى، وقد تستعمل الإثابة في الشرِّ كالمجازاة. ويجوز أن يراد التَّهْكُم، وفي هذا القول مزيد غيظ وتوبيخ للكافرين، ونوع سرور وتنفيس للمؤمنين^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَجُودٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾﴾ [الغاشية: ٢-٣].

قيل: وصفها بالخشوع من الإشارة إلى التَّهْكُم، وأنها لم تخشع في وقتٍ ينفع فيه الخشوع، وكذا حال وصفها بالعمل في قوله ﷻ: ﴿عَامِلَةٌ...﴾^(٣).

(١) انظر: تفسير الرّازي (٢٧٥/٣٠)، وتفسير النّيسابوري (٤٢٨/٤).

(٢) انظر: تفسير الرّازي (٩٧/١)، غرائب القرآن (٤٦٧/٦)، روح المعاني (٧٧/٣٠).

(٣) انظر: روح المعاني (١١٢/٣٠).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَلْيَنْعُ نَادِيَهُ ۖ سَنَعُ الرِّبَانَةَ﴾ [العلق: ١٧-١٨]. قيل: سمي نادياً؛ لأنه مجلس الندى والجود، ذكر ذلك على سبيل التَّهْكُمْ، أي: اجمع أهل الكرم والدِّفاع في زعمك، لينصروك^(١).
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكٰفِرُونَ﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١-٦]. قيل: أتى الجواب على التكرير على وفق قولهم، وهو ضرب من التَّهْكُمْ، فإنَّ من كرر الكلمة الواحدة لغرض فاسد يجازى بدفع تلك الكلمة على سبيل التكرار؛ استخفافاً به، واستحقاراً لقوله^(٢).

(١) انظر: تفسير الرَّاَزي (٢٥/٣٠).

(٢) انظر: تفسير الرَّاَزي (١٤٦/٣٠).

فرع في بيان (خذلان المخاطب)

أقول: وقد يندرج بعض أنواع الخطاب تحت عنوان واحد.. وذلك كبعض النماذج في كلٍّ من (خطاب التَّهْكُم) و(خطاب التَّهْدِيد) تحت ما يسمَّى بـ: (خذلان المخاطب)، وهو أمره بعكس المطلوب منه، مع اقترانه بالوعيد الشَّدِيد^(١)، وذلك كقوله ﷻ:

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا﴾ [العنكبوت: ٦٦].

﴿قُلْ تَمَنَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ [الزمر: ٨].

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ [الزمر: ١٥].

﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠].

(١) عرّفه ابن النّقيب بقوله: «هو الأمر بعكس المراد، وذلك يدلُّ على الاستهانة بالمأمور، وقلة المبالاة بأمره». مقدّمة تفسير ابن النّقيب (ص: ٤٤٢-٤٤٣)، وانظر: الإكسير في علم التفسير، للطوفي (ص: ٢٣١). «والواقع أنَّ الخذلان يتعلّق بغايات الخطاب، ولا يمكن أن يكون مصطلحاً لظاهرة بلاغية أو بديعية؛ لأنّه لا يتعلّق بالخطاب في بعده البنائي. إنّ الخذلان بعد دلالي ونفسي يتحقّق بوسائل بلاغية كالتشبيه والمجاز والكناية، أمّا أن يعدّ فنّاً بديعياً، فالأمر لا يسلم به...». انظر ذلك مفصّلاً في (بديع القرآن، دراسة تاريخية نقدية)، د. محمّد إقبال عروي (ص: ١١٢-١١٣).

المطلب الرابع : خطاب الاعتبار والاتعاظ

• أ. بيان معنى الاعتبار والاتعاظ:

ولا بُدَّ أوَّلاً من بيان المعنى اللُّغوي للاعتبار والاتعاظ، للتأسيس على ذلك.

فإنَّ (العبرة): العجب، و(اعتبر منه): تعجَّب. وفي التَّنْزيل: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَكَاؤُلَى الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، أي: تدبَّروا وانظروا فيما نزل بقريظة والنَّضِير^(١)، فقايسوا فعالهم، واتَّعظوا بالعذاب الَّذي نزل بهم. و(العبر): جمع عبرة، وهي كالموعظة مما يَتَّعِظُ به الإنسان، ويعمل به، ويعتبر، ليستدلَّ به على غيره. و(العبرة): الاعتبار بما مضى. وقيل: (العبرة): الاسم من الاعتبار. والعرب تقول: (اللهمَّ اجْعَلْنَا مِمَّنْ يَعْبُرُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْمُرُهَا)، أي: مِمَّنْ يعتبر بها، ولا يموت سريعاً حتَّى يرضيك بالطَّاعة^(٢).

و«(العبرة) بالكسر: الاسم من الاعتبار، وبالفتح: تحلب الدَّمع،

(١) كانت في (يثرب) منهم ثلاث قبائل مشهورة: [١-] (بنو قَيْنُقَاع): وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم داخل (المدينة). [٢-] (بنو النَّضِير): وكانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم بضواحي (المدينة). [٣-] (بنو قُرَيْظَةَ): وكانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحي (المدينة). انظر: سبل الهدى والرَّشاد (٣٢٦/٤)، البداية والنهاية (٩٢/٤).
(٢) انظر: لسان العرب، مادة: (عبر) (٥٢٩/٤). تاج العروس (٥٠٧/١٢)، القاموس المحيط (ص: ٥٩٩).

وَعَبَّرَ الرَّجُلَ وَالْمَرْأَةَ وَالْعَيْنَ مِنْ بَابٍ: (طَرِبَ)، أي: جرى دمه،
وَالنَّعْتُ فِي الْكَلِّ عَابِرٌ، واستعبرت عينه أيضاً، و(العبران)
الباكي...»^(١).

أَمَّا (الاعتبار) فهو الحالة التي يُتَوَصَّلُ بها من معرفة المُشَاهِدِ إِلَى ما
ليس بِمُشَاهِدٍ^(٢). أو هو التَّدْبِيرُ وقياس ما غاب على ما ظهر. ويكون
بمعنى: (الاختبار والامتحان)، [مثل] عَبَرْتُ الدَّرَاهِمَ واعتبرتها
فوجدتها ألقاً. وبمعنى: (الاتعاض) نحو: ﴿فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾،
وبمعنى: (الاعتداد بالشَّيء في ترتيب الحكم) نحو قول الفقهاء:
(الاعتبار بالعقب)، أي: الاعتداد في التَّقَدُّمِ بِهِ^(٣). و(العبرة)
و(الاعتبار): الاتِّعَاضُ، أو الاِغْتِبَارُ بما مَضَى. وتكون بمعنى:
الاعتداد بالشَّيء في ترتيب الحكم، نحو قولهم: (العبرة بالعقب)،
أي: الاعتداد في التَّقَدُّمِ بالعقب كذا في (المصباح)^(٤).

وقيل: المجاوزة من عدوة دنيا إلى عدوة قصوى، ومن علم أدنى
إلى علم أعلى، ففي لفظها بما ينالون من ورائها مما هو أعظم منها إلى
غاية العبرة العظمى^(٥).

(١) مختار الصحاح، مادة: (عبر) (ص: ٤٦٧)، وانظر: لسان العرب، (٤/ ٥٢٩).

(٢) وقال المفسرون: (الاعتبار) هو النَّظَرُ في حقائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنَّظَرِ فيها
شيء آخر من جنسها. والاعتبار له مفاهيم مختلفة، وتتعدد هذه المفاهيم بتعدد الفنون.. انظر
في بيان ذلك: الكلبيات (ص: ١٤٧-١٤٨).

(٣) انظر: التعاريف (ص: ٧٣-٧٤)، وتاج العروس، مادة: (عبر) (١٢/ ٥١١).

(٤) انظر: المصباح المنير، مادة: (عبر) (٢/ ٣٨٩-٣٩٠)، وكذلك التعاريف (ص: ٥٠١).

(٥) انظر: التعاريف (ص: ٥٠١)، وانظر: نظم الدرر (٢/ ٣٣).

وفي بيان الآيات التالية مزيد من البيان..
يقول الله ﷻ:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنُ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرِيٍّ مَن يَشَاءُ لَكُ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]. ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَكُونُوا لِلْأَبْصَارِ﴾ (٢). (العبرة) هنا: الاتعاظ يقال: منه اعتبر، وهو الاستدلال بشيء على شيء يشبهه، واشتقاقها من العبور، وهو مجاوزة الشيء إلى الشيء، ومنه: عبر النهر، وهو شطه، و(المعبر): السفينة، و(العبرة) يعبر بها إلى المخاطب بالمعاني، وعبرت الرؤيا مخففاً ومثقلاً: نقلت ما عندك من علمها إلى الرائي أو غيره ممن يجهل: وكان الاعتبار انتقالاً عن منزلة الجاهل إلى منزلة العلم، ومنه: (العبرة)، وهي: الدَّمْع؛ لأنها تجاوز العين^(١).

وأيضاً ما كان نحو الآيات التالية، والتي فيها معنى الاعتبار والاتعاظ واضح:

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا

(١) البحر المحيط (٢/٤٠٨)، الكشف (٢/٣٢٣)، وانظر: تفسير أبي السعود (٤/٢٨١)،

وانظر: الاشتقاق، لابن دريد (ص: ٤٩٦)...

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ [البقرة: ١٣٤]، و[١٤١]، ففيها ما يشير إلى الاعتبار بأخبارها وقصصها.

ونحو قوله ﷻ:

﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ لَا يَبْحِثُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ [فاطر: ٤٣]، وقوله ﷻ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سُلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٦].

وأيضًا ما كان نحو الآيات التالية، والتي فيها معنى الاعتبار والاتعاظ واضح:

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل: ٦٦]، ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ٢١]، ﴿يَقْلِبُ اللَّهُ الْكِلَافَ وَالنَّهَارُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

وأيضًا ما كان نحو الآيات التالية، والتي فيها معنى الاعتبار والاتعاظ واضح:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثَ مُوسَى ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْقَدَسِ طُوًى ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزُكَّ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ آيَاتِهِ الْكُبْرَى ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَى ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴿٢٦﴾﴾

﴿٦٦﴾ [النازعات: ١٥-٢٦]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [١١] [الأنعام: ١١]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [٦٩] [النمل: ٦٩]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢]، ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ
إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]، ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].



● ب. المعنى الإجمالي المستفاد من الآيات السابقة

وفي الآيات السابقة ما يبيِّن سنَّة من سنن الله ﷻ في الطُّغاة والظُّلَّمة، بأنَّ مصيرهم الهلاك مهما تحصَّنا، ومهما بلغت قوَّتهم، وتنبَّهًا وتحفيزًا على الاتِّعاض والاعتبار، حيث جاء الخطاب القرآني بنحو كلمة: (فانظر)؛ لتحفُّز المخاطب على الاتِّعاض بتأكيداها على عاقبة الظَّالِّمين، والمجرمين، وهي كلمة عامَّة تشمل كلَّ ظالم من دول وأفراد. ودلَّت كذلك الآيات السابقة على أنَّ الجزاء من جنس العمل، ففرعون -مثلاً- كما كان في الدُّنيا إمامًا من أئمة الظُّلم والطُّغيان سيكون يوم القيامة هو وجنوده من أئمة النَّار. قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكْعُوثَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُصْرُونَ﴾ [القصص: ٤١]. وفي الطَّرَف المقابل قال عن الرُّسل الذين يدعون النَّاس إلى الخير، ويأمرونهم بإقامة الصَّلَاة، وأداء ما وجب عليهم من الحقوق لله ﷻ، ومن حقوق العباد: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]. ودلَّت الآيات على أنَّ التَّاريخ لا يذكر الظَّالِّمين إلا بسوء. قال ﷻ: ﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]. ودلَّت الآيات كذلك على سنَّة من سنن الله ﷻ في إرسال الرُّسل والأنبياء -عليهم الصَّلَاة والسَّلام-، فكلَّما تنقضي فترة من الزَّمن، ويصبح النَّاس بحاجة إلى هداية يبعث الله ﷻ رسولا ليعيد النَّاس إلى عبادة الله ﷻ الواحد الأحد.

فانظر إلى عظيم ما يستفاد من خطاب (الاتعاض والاعتبار)، ومدى أهميته، وأن ما جاء في كتاب الله ﷻ موعظة يتعظ بها العبد. ويتبين مما سبق من بيان معنى الاتعاض أن الإنسان ينبغي أن يجتنب ما فيه المضرّة إلى ما فيه المنفعة. يقال: (وعظته فاتعظ)، أي: انتفع، وترك ما فيه مضرته إلى ما فيه مصلحته.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعَمًا يُعِظُّكُم بِهِ﴾ [النساء: ٥٨].

وتأمل في قول كل رسول لقومه: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْ نذِيرٍ مُّبِينٍ﴾ [الذاريات: ٥٠]، وكذلك ما كان في معناه، وكم كرّر في خطاب الرسل؟ فإن دلّ ذلك فإنما يدلّ على أهمية الموضوع.

ولكن من أعرض فأنى له الذكرى؟ يقول الله ﷻ: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧]، ﴿وَجَاءَهُ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: ٢٣]، أنى يكون له الذكرى في هذا اليوم الذي رأى فيه ما أخبر عنه يقيناً؟! وأنى له الاتعاض وقد فات الأوان؟!

قال ﷻ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِن كُنتَ لِمِنَ السَّخِرِينَ﴾ ٥٦ ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُنْقِذِينَ﴾ ٥٧ ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ٥٨

بَلَىٰ قَدْ جَاءَ نَكَاءُ بَيْنِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾
[الزمر: ٥٦-٥٩].

قال عكرمة: ﴿إِلَّا تَذَكُّرُ لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾ ﴿٣﴾ [طه: ٣]، ﴿تَحْنُ جَعَلْنَهَا
تَذَكُّرًا وَمَتْنًا لِلْمُقَوِّينَ﴾ ﴿٧٣﴾ [الواقعة: ٧٣]، ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَنُفَيْهَا أَذُنٌ
وَعِيَةٌ﴾ ﴿١٢﴾ [الحاقة: ١٢]، ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ انْخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ
سَبِيلًا﴾ ﴿٦٩﴾ [المزمل: ١٩]، ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ ﴿٥٤﴾ [المدثر: ٥٤]،
﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ فَمَنْ شَاءَ انْخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ ﴿١١﴾ [الإنسان: ٢٩]، ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذَكُّرٌ﴾ ﴿١١﴾ [عبس: ١١]، أي: عظة
للخلق يجب الاتعاظ بها، والعمل بموجبها.



• ج. سرد الآيات وبيان وجه الدلالة:

وبعد بيان كل من معنى الاعتبار والاتعاظ، وبيان أهمية الخطاب القرآني الذي يدل على ذلك، واستعراض الآيات التي جاء هذا المعنى فيها واضحاً، فإني أنتقل بعد ذلك إلى تفسير الآيات التي تدل على ذلك، مع بيان أهم أقوال المفسرين التي فيها التصريح بهذا المعنى. ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[البقرة: ٥٧].

ففي (البحر): «في ذلك من الاتعاظ والاعتبار ما يوجب مبادرة الازدجار عن مخالفة الملك القهار. وانظر إلى لطف الله ﷻ بهذه الملة المحمدية؛ إذ جعل توبتها في الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم على عدم المعاودة إليه»^(١). وفي (التحرير والتنوير): «غير الأسلوب في هذه الجملة، إذ انتقل من خطاب بني إسرائيل إلى الحديث عنهم بضمير الغيبة؛ لقصد الاتعاظ بحالهم، وتعريضاً بأنهم متمادون على غيهم»^(٢).

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾

﴿٦٥﴾ [البقرة: ٦٥]^(٣). ومعنى الاتعاظ والاعتبار في ذلك واضح.

(١) البحر المحيط (١/٣٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/٥١٢).

(٣) ونحوه: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مُنَوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَعَنَهُ اللَّهُ وَعَصَيْبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ =

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

قوله ﷻ: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٦]. وزنها: (مفعلة) من الاتِّعَاض والانزجار. و(الوعظ): التَّخْوِيف، و(العظة) الاسم^(١). وقال الخليل في (العين): «(الوعظ) التذكير بالخير فيما يرقُّ له القلب^(٢)». واللفظ يعمُّ كلَّ متَّقٍ من كلِّ أُمَّة^(٣). وقيل قوله ﷻ: ﴿وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: لأُمَّة محمد ﷺ أن يتَّهكوا من حرم الله ﷻ ما نهاهم عنه، فيصيبهم ما أصاب أصحاب السَّبِّ إذ انتهكوا حرم الله ﷻ في سبِّهم^(٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ آذَنٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة: ٢٣٢]، ﴿ذَلِكَ كُمْ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الطلاق: ٢]. خصّه بالذكر؛ لأنّه المسارع إلى الامتثال إجلالاً لله ﷻ، وخوفاً من عقابه، و﴿ذَلِكَ كُمْ﴾، أي: الاتِّعَاض به، والعمل بمقتضاه ﴿آذَنٌ لَكُمْ﴾ أي: أعظم بركة ونفعاً، ﴿وَأَطْهَرُ﴾،

= وَلِالْفَنَائِرِ وَعَبْدَ الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿١٦٦﴾ [المائدة: ٦٠]، ﴿فَلَمَّا عَتَا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٦].

(١) تفسير القرطبي (٤٤٤/١)، ابن عادل (١٥٢/٢).

(٢) وعبارة الخليل في (العين)، مادّة: (وعظ) «(العِظَةُ): الموعظة. وَعَظَّتْ الرَّجُلَ أَعْطَتْهُ عِظَةً وموعظة. و(اتَّعَظَ): تَقَبَّلَ العِظَةَ، وهو تذكيرك إياه الخير ونحوه ممَّا يرقُّ له قلبه».

(٢/٢٢٨). وانظر كذلك: لسان العرب (٤٦٦/٧)، مختار الصحاح (ص: ٧٤٠).

(٣) انظر: المحرّر الوجيز (١/١٦١)، القرطبي (٤٤٤/١)، روح المعاني (١/٢٨٤).

(٤) انظر: معاني القرآن، للزجاج (١/١٤٩)، تفسير القرطبي (٤٤٤/١).

أي: أكثر تطهيرًا من دنس الآثام^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩]، ومعنى الاعتبار والاتعاظ واضح.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْمُنِينَ وَاللَّهُ بِؤَيِّدٍ بَصِيرٍ﴾ [آل عمران: ١٣].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ ، أي: المذكور من النصر. وقيل: من تلك الرؤية، ﴿لَعِبْرَةً﴾ ، أي: اتعاظا ودلالة، وهي (فِعْلَةٌ) من العبور كالركبة والجلسة، وهو: التَّجَاوُز، ومنه: (عبرت النهر)، وسمي (الاتعاظ): عبرة؛ لأنَّ المتَّعِظَ يعبر من الجهل إلى العلم، ومن الهلاك إلى النِّجَاة، والتَّنْوِينُ للتَّعْظِيم، أي: عبرة عظيمة كائنة ﴿لِأَوَّلِي الْأَبْصَرِ﴾ جمع (بصر) بمعنى: بصيرة مجازًا، أو بمعناه المعروف، أي: لذوي

(١) انظر: روح المعاني (٢/ ١٤٥).

العقول والبصائر، أو لمن أبصرهم ورآهم بعيني رأسه^(١).
وحيث إن ذلك الأمر محلُّ اعتبار فلذلك أعقبه بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً﴾ ، ويبيِّن أنَّ من يتنفع بها من يتأمل وينظر فيعتبر ويتعظ، فإنَّ المعبر المتعظ يعبر من الجهل بذلك الأمر إلى العلم به، ومن الهلاك إلى النجاة..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].
«هذا غرض أنف بالنسبة لما تتابع من أغراض السُّورة، انتقل به من المقدمات والمقصد والمتخللات بالمناسبات إلى غرضٍ جديد هو الاعتبار بخلق العوالم وأعراضها، والتَّنويه بالَّذين يعتبرون بما فيها من آياتٍ. ومثل هذا الانتقال يكون إيدانًا بانتهاء الكلام على أغراض السُّورة، على تفنُّنها، فقد كان التنقُّل فيها من الغرض إلى مشاكلة، وقد وقع الانتقال الآن إلى غرض عام، وهو الاعتبار بخلق السَّموات والأرض، وحال المؤمنين في الاتِّعَاط بذلك، وهذا النَّحو في الانتقال يعرض للخطيب ونحوه من أغراضه عقب إيفائها حقَّها إلى غرض آخر، إيدانًا بأنَّه أشرف على الانتهاء. وشأن القرآن أن يختم بالموعظة؛ لأنَّها أهمُّ أغراض الرِّسالة، كما وقع في ختام (سورة

(١) انظر: روح المعاني (٣/٩٨)، تفسير أبي السعود (٢/١٤)، ابن عادل (٥/٦٩).

البقرة»^(١).

ونحوه قوله ﷻ:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ أَكْبَرِ مَظَاهِرِ قُدْرَةِ اللَّهِ ﷻ وَعِلْمِهِ، وَإِتْقَانِ صَنْعِهِ، فَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا الْخَبَرِ لَازِمُهُ، وَهُوَ الْإِعْتِبَارُ بِسَعَةِ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ. وَفِي ذَلِكَ تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَعْظَمُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ، وَمَنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى خَلْقِ الْأَعْظَمِ وَالْأَكْبَرِ كَانَ مِنْ بَابِ أَوْلَى قَادِرًا عَلَى خَلْقِ الْأَقْلَى وَالْأَصْغَرِ.. كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]، وَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧]. فَكَانَ ذَلِكَ دَالًّا عَلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ ﷻ، وَتَفَرُّدِهِ بِالْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ..

وَمِنَ الْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا مَعْنَى الْإِعْتِبَارِ وَالِاتِّعَازِ قَوْلُهُ ﷻ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [٤٢] فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [٤٣] فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ [٤٤] فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [٤٥] [الأنعام: ٤٢-٤٥]. جَاءَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ مِنَ الْبَأْسَاءِ

(١) التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ (٤/١٩٦).

والضَّراء، أي: تركوا الاتِّعَاضَ به ولم يزرَّجهم استدرجناهم بتيسير مطالبهم الدُّنيويَّة، وعبرَ عن ذلك بقوله ﷻ: ﴿فَتَحَنَّا عَلَيْهِمَ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الصَّحَّة والسَّعة وصنوف النِّعمة. ﴿حَتَّى إِذَا فُزِحُوا يِمَّا أُوْتُوا﴾ من الخير والنِّعمة ﴿أَخَذْنَهُمْ بِقَتَّةٍ فَإِذَا هُمْ مُمْلِسُونَ﴾ آيسون متحسِّرون. وأصله: الإطراق حزناً لما أصابه، أو ندماً على ما فاته. معنى هذه الجمل معنى قوله ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [٧٨] آل عمران: ١٧٨^(١). وقال الله ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ [٩٤] ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَهُمْ بِقَتَّةٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ [الأعراف: ٩٤-٩٥].

والحاصل أنهم تركوا الاهتداء بما جاء به الرُّسل -عليهم الصَّلاة والسَّلام- حتى نسوه أو جعلوه كالمنسي في عدم الاعتبار والاتِّعَاضَ به؛ لإصرارهم على كفرهم، وجمودهم على تقليد من قبلهم^(٢).
ومن ذلك ما كان نحو قوله ﷻ:

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنفِقُوا لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ﴾ [٧٩] [الأعراف: ٧٩]. قال الزَّرْكَشِيُّ كقوله ﷻ

(١) انظر: الكشاف (١٩/٢)، وانظر: البحر المحيط (١٣٤/٤)، تفسير النَّسْفِي (١٨/٢)،

البحر المديد (٢٥٦/٢).

(٢) انظر: المنار (٣٤٦/٧).

حاكياً عن صالح عليه السلام لما هلك قومه: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَتَلَقْتُكُمْ رَسُولًا مِّن رَّبِّي فَانصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تَحِبُّونَ الْنَّصِيحَةَ ﴿٧٦﴾﴾ خاطبهم بعد هلاكهم إما لأنهم يسمعون ذلك، كما فعل النبي ﷺ بأهل بدر، وقال: «والله ما أنتم بأسمع منهم»^(١). وإما للاعتبار كقوله ﷺ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [الروم: ٤٢]، وقوله ﷺ: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ [الأنعام: ٩٩]»^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿تِلْكَ الْأَقْرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠١-١٠٢]. وفي ذلك التعريض بالمعرضين عن الاتعاظ بأخبارها^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦]، أي: تفكروا يؤدي بهم إلى الاتعاظ، وإنَّ الاتعاظ

(١) روي الحديث بالفاظٍ مختلفة. انظر: صحيح البخاري، [١٢٨١]، [٣٦٧٩]، [٣٧٢٢]،

ومسلم، [٥١٢٠]، [٥١٢١].

(٢) البرهان (٢/٢٤٥).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٦٦/٢٣).

بالموعظة القرآنية يوصل العبد إلى السعادة الباقية، ويخلصه من الحظوظ النفسانية.. قال ﷺ: ﴿ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّكْرَيْنِ﴾ [هود: ١١٤]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَذْكُرُ أَوْلُوا الْأَلْبَبِ﴾ [الرعد: ١٩]، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

قال أبو جعفر: ﴿وَاذْكُرْ﴾ «أيها المستمع المنصت للقرآن، إذا قرئ في صلاة أو خطبة، ﴿رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ﴾، يقول: اتعظ بما في آي القرآن، واعتبر به، وتذكر معادك إليه عند سماعك، ﴿تَضَرُّعًا﴾، يقول: افعل ذلك تخشعًا لله ﷻ، وتواضعًا له، ﴿وَخِيفَةً﴾، وخوفًا من الله ﷻ أن يعاقبك على تقصير يكون منك في الاتعاظ به والاعتبار، وغفلة عما بين الله ﷻ فيه من حدوده»^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿فَإِمَّا نَنْتَفِقْنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِدَ بِهْمَ مَن خَلَفَهُمُ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٥٧]. فقد آل معنى التذكُّر إلى لازمه وهو الاتعاظ والاعتبار، وقد شاع إطلاق التذكُّر وإرادة معناه الكناثي، وغلب فيه^(٣).

(١) وقد جاء معنى (الاعتبار والاتعاظ) واضحاً في كل من (تفسير البيضاوي) لهذه الآية

(٣/٧٥)، و(البحر المديد) (٢/٤١٥).

(٢) تفسير الطبري (٩/١٦٦).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (١٠/٥١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

ونحوه قوله ﷻ:

﴿وَلَنُصَكِّنَكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ

﴿[إبراهيم: ١٤]. فقوله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الذي نسرده عليك

من قصص الأمم الدارسة، ﴿لَآيَةً﴾، أي: لعلبة ﴿لِمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ فيعتبر به ويتعظ، لعلمه بأن ما حاق بهم أنموذج مما أعد الله ﷻ للمجرمين في الآخرة. وأما من أنكر الآخرة فلا ينفعه هذا الوعظ والتذكير لفساد قلبه، وموت روحه^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

﴿[الإسراء: ١٧]^(٢). ومعنى الاتعاض والاعتبار في هذه الآية

ونظائرها واضح.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا

(١) انظر: البحر المديد (٣/ ٢٤١).

(٢) ونحوه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَتْنَا وَرَبِّيَا﴾ [مريم: ٧٤]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا

قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُخْشِ مِنْهُمْ يَوْمَ آخِرِ أَوْ قَسَمَ لَهُمُ وَكِيلًا﴾ [مريم: ٩٨]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا

مِنْ قَرْنٍ بَطِشْتَ فَمِيشَتَهَا فَمِنْ ذَلِكَ مَسَكْنُهُمْ لَمْ تُشَكِّنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ

﴿[القصص: ٥٨]، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ

مِنْ حَاجِينَ﴾ [ق: ٣٦].

[الإسراء: ٤١]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفَنَّا مِنْهُمْ لِيَذْكُرُوا فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٥٠﴾ [الفرقان: ٥٠]. فقوله: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ قرأ حمزة والكسائي: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ [بالتخفيف]^(١) من الذكر الذي هو بمعنى التذكر، ضد النسيان والغفلة، والتذكر على القراءة الأولى بمعنى: الاتعاظ^(٢). أي: ليتعظوا بالقرآن. ويقال: في القرآن من كل شيء يحتاج إليه الناس. ويقال: بينا في هذا القرآن من كل وعد ووعد ﴿لِيَذْكُرُوا﴾، أي: ليتعظوا بما في القرآن فينتهوا عن مخالفة أمر الله ﷻ، ﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ أي: الوعيد في القرآن. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾، أي: تباعدًا عن الإيمان^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَمَرَ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف: ٩]. «فيه لفت لعقول السائلين عن الاشتغال بعجائب القصص إلى أَنَّ الأولى لهم الاتعاظ بما فيها من العبر والأسباب وآثارها. ولذلك ابتدئ ذكر أحوالهم بقوله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا ءِئِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝١٠﴾ [الكهف: ١٠]، فأعلم الناس بثبات إيمانهم بالله ﷻ، ورجائهم فيه، وبقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ

(١) حجة القراءات (ص: ٤٠٣-٤٠٤)، السبعة في القراءات (ص: ٢٧٣-٣٨٠-٣٨١-٤٦٥-

٤٦٦)، والحة في القراءات السبع (ص: ٢١٨-٢٦٦).

(٢) انظر: روح المعاني (١٥/٨٢)، الكشف (٢/٤٥٠)، تفسير السمرقندي (٢/٢٦٩)، (٢/٤٦٣).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي (٢/٢٦٩)، (٢/٤٦٣).

فَتَبَيَّنَ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿ [الكهف: ١٣]. وتدل الآيات على أنهم أبطلوا الشرك، وسفَّهوا أهله، تعريضاً بأنَّ حقَّ السَّامعين أن يقتلوا بهداهم^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [المؤمنون: ٧٥-٧٧]، فقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾﴾ ، أي: بسابق إصرارهم على الشرك، والإعراض عن الالتجاء إلى الله ﷻ، وعدم الاتِّعَاضَ بأنَّ ما حلَّ بهم من العذاب هو جزاء شركهم^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرٍ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤]. مكان العبرة منها الاتِّعَاضَ بحال هذه الملكة؛ إذ لم يصدَّها علو شأنها، وعظمة سلطانها، مع ما أوتيته من سلامة الفطرة، وذكاء العقل عن أن تنظر في دلائل صدق الدَّاعي إلى التَّوْحِيدِ، وتوقن بفساد الشُّرك، وتعترف بالوحدانية لله ﷻ، فما يكون إصرار المشركين على شركهم بعد أن جاءهم الهدى الإسلامي إلا

(١) بقليل من التَّصَرُّفِ عن (التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ) (٢٥٩/١٥).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٨/١٠٠).

لسخافة أحلامهم، أو لعمائتهم عن الحق، وتمسكهم بالباطل، وتصلبهم فيه^(١).

ومن ذلك الآيات التي تتحدث عن قصّة قارون من قوله ﷻ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [القصص: ٧٦]، إلى قوله ﷻ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص: ٨٣]. فمن مقاصد هذه الآيات ونظائرها: الاعتبار والاعتاظ، وذلك واضح. ومما قيل في قول الله ﷻ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصص: ٨٠]: «إنَّ لفظ (ويل) يستعمل في التعجب المشوب بالزجر، فليس ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ داعين بالويل على الذين يريدون الحياة الدنيا؛ لأنَّ المناسب لمقام الموعظة لين الخطاب ليكون أعون على الاعتاظ، ولكنهم يتعجبون من تعلّق نفوس أولئك بزينه الحياة الدنيا، واعتباطهم بحال قارون، دون اهتمام بثواب الله ﷻ الذي يستطيعون تحصيله بالإقبال على العمل بالدين والعمل النافع، وهم يعلمون أنَّ قارون غير متخلّق بالفضائل الدنيّة»^(٢).

(١) انظر: المصدر السابق (٢٧٧/١٩).

(٢) المصدر السابق (١٨٤/٢٠).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِيلًا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢].
استئناف مسوق؛ لتشديد التوبيخ، وتأكيد التقرير ببيان أن جناياهم ليست بنقض العهد فقط، بل به وعدم الاتعاظ بما شاهدوا من العقوبات النازلة على الأمم الخالية بسبب طاعتهم للشيطان، والخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار (مكة)، خصوا بزيادة التوبيخ والتقرير؛ لتضاعف جناياهم^(١).

ومن ذلك ما قيل^(٢) في قوله ﷻ:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [٧١] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [٧٢] ﴿فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [٧٣] ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [٧٤] [ص: ٧١-٧٤]، المقصود من سوق القصة هنا: الاتعاظ بكبر إبليس.. وسوء العاقبة، وقد دل على ذلك قوله ﷻ: ﴿قَالَ فَامْخُرجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [٧٧] ﴿وَأَن عَليكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [٧٨] [ص: ٧٧-٧٨]، وقوله ﷻ: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ [٨٤] ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٨٥] [ص: ٨٤-٨٥].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ [١٠] ﴿يَغْشى النَّاسُ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [١١] [الدخان: ١٠-١١]. استبعد منهم الاتعاظ بقوله ﷻ: ﴿أَنَّى

(١) انظر: روح المعاني (٢٣/٤١)، أبو السعود (٧/١٧٥).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٣/٣٠١).

لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ [الدخان: ١٣] وقد جاءهم ما هو أعظم وأدخل في باب الأذكار من كشف الدخان، وهو القرآن المعجز وغيره، فلم يتذكروا!!^(١). ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾ يبين لهم الحق، والذكرى والذكر واحد، قاله البخاري^(٢). ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ [الدخان: ١٤]، أي: أعرضوا، فمتى يتعظون؟ والله ﷻ أبعدهم من الاتعاظ والتذكر بعد توليهم عن محمد ﷺ، وتكذيبهم إيَّاه. وقيل: أي: أنى ينفعهم؟^(٣). أي: والحال أنهم شاهدوا من دواعي التذكر، وموجبات الاتعاظ ما هو أعظم من ذلك في إيجابهما حيث جاءهم رسول عظيم الشأن، ظاهر أمر رسالته بالآيات والمعجزات التي تخزُّ لها صمُّ الجبال، أو مظهر لهم مناهج الحق بذلك^(٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْزِلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَرِّئْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ

﴾ [الجاثية: ٨]^(٥).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا

(١) انظر: الكشف (٥٠٢/٣)، البحر المحيط (٣٥/٨)، تفسير التفسير (١٨٦/٤)، غرائب القرآن (١٠٤/٦).

(٢) صحيح البخاري الجزء الخاص في التفسير (١٨٢٤/٤).

(٣) انظر تفسير القرطبي (١٣٢/١٦).

(٤) انظر: تفسير أبي السعود (٦٠/٨)، روح المعاني (١١٩/٢٥)، تفسير القاسمي (٢٠٧/٦).

(٥) انظر: تفسير الماوردي (٢٦٢/٥)، تفسير العز بن عبد السلام (١٧٥/١).

يُوعَذِبُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَمَهْلُ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾
 [الأحقاف: ٣٥]. ونظيره قوله ﷻ: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾
 [إبراهيم: ٥٢]، أي: هذا الذي وعظمت به فيه كفاية في الموعظة، أو
 هذا تبليغ من الرُّسل، فهل يهلك إلا الخارجون عن الاتِّعاض به والعمل
 بموجبه؟ كذلك قال غير واحد من المفسِّرين^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٥]، وقوله ﷻ:
 ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]، وانظر
 الآيات من [سورة القمر: ٢٢-٣٢-٤٠-٥١]. قال العلامة محمد
 الطَّاهر بن عاشور: «(الذكر): مصدر (ذكر) الذي هو التَّذكر العقلي لا
 اللساني، والذي يرادفه (الذكر) -بضمّ الدال- اسمًا للمصدر، فالذكر
 هو تذكُّر ما في تذكُّره نفعٌ ودفع ضرر، وهو الاتِّعاض والاعتبار. فصار
 معنى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ أن القرآن سُهِّلَ دلالته؛ لأجل انتفاع
 الذكر بذلك التيسير، فجعلت سرعة ترتب التَّذكر على سماع القرآن
 بمنزلة منفعة للذكر؛ لأنَّه يشيع ويروج بها كما ينتفع طالب شيء إذا
 يُسِّرَتْ له وسائل تحصيله، وقربت له أباعدها. ففي قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
 الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ استعارة مكنية، ولفظ: ﴿يَسَّرْنَا﴾: تخيل. ويؤول المعنى
 إلى: (يسرنا القرآن للمتذكِّرين). وفرع على هذا المعنى قوله: ﴿فَهَلْ مِن

(١) انظر: الكشاف (٣/٥٣٨)، تفسير أبي السعود (٨/٩٠)، تفسير الرَّايزي (٢٨/٣٢-٣٦)،

تفسير البضاوي (٥/١٨٧)، تفسير السُّفِي (٤/٢١٩).

مُذَكِّرٌ. والقول فيه كالقول في نظيره المتقدم آنفاً^(١)، إلا أنَّ بين الازدكارين فرقاً دقيقاً، فالازدكار السالف: اذكار اعتبار عن مشاهدة آثار الأمة البائدة، والازدكار المذكور هنا: اذكار عن سماع مواضع القرآن البالغة، وفهم معانيه، والاهتداء به^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطًا بِالنُّذُرِ ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۚ نِعْمَةٌ مِنَّا عِنْدَكَ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ۚ﴾ [القمر: ٣٣-٣٥]. «وقد حكي ذلك في (سورة الأعراف)، وفي (سورة هود)، وفي (سورة الحجر)^(٣)؛ ولأنَّ (سورة القمر) بنيت على تهديد المشركين عن إعراضهم عن الاعتاض بآيات الله ﷻ التي شاهدوها، وآثار آياته على الأمم الماضية التي علموا أخبارها، وشهدوا آثارها، فلم يكن ثمّة مقتض لتفصيل أقوال تلك الأمم إلا ما كان منها مشابها لأقوال المشركين في تفصيله، ولم تكن أقوال قوم لوط عليه السلام بتلك المثابة، فلذلك اقتصر فيها على حكاية ما هو مشترك بينهم وبين

(١) يعني ما ذكره من بيان معنى: ﴿مُذَكِّرٌ﴾ وأن أصله: «مُذَكَّرٌ» مفتعل من (الذكر) -بضم الدال-، وهو التّفكر في الدليل فقلبت تاء الافتعال دالا لتقارب مخرجيهما، وأدغم الدال في الدال لذلك. التّحرير والتّنوير (١٨٧/٢٧)، وانظر: البحر المديد (٢٥٤/٧).

(٢) التّحرير والتّنوير (١٩٠/٢٧).

(٣) انظر: سورة [الأعراف من الآية: (٨٠) إلى (٨٤)]، و[هود من (٧٧) إلى (٨٣)]، و[الحجر من (٥٧) إلى (٧٥)]، وانظر: [الأنبياء: ٧٤]، و[الشعراء: ١٦٠ إلى ١٧٤]، و[النمل: ٥٤ إلى ٥٨]، و[العنكبوت: ٢٨ إلى ٣٤]، و[ص: ١٣-١٤].

المشركين، وهو تكذيب رسولهم، وإعراضهم عن نذره»^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَلْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾﴾ [الحشر: ٢]. فقد أمر الله ﷻ بالاعتبار، وهو ردُّ الشيء إلى شبيهه - كما سبق - ومن العلماء^(٢) من يرى أنه عامٌ يشمل كلَّ شيءٍ فيه ردُّ الشيء على المثل سواء في الاتِّعاض، أو الحكم الشرعي فيدخل في ذلك القياس؛ لأنه ردُّ الشيء إلى شبيهه، وتعدية من أصلٍ إلى فرع.. حيث يقول العلامة ابنُ عابدين^(٣) مثلاً: «﴿فَاعْتَبِرُوا﴾»، أي: قيسوا، و(العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السَّبب)، فاللفظ عامٌ يشمل الاتِّعاض، وكلَّ ما هو ردُّ الشيء إلى نظيره، فيدلُّ على الاتِّعاض عبارة، وعلى القياس إشارة؛ لأنَّ الاتِّعاض يكون

(١) التحرير والتنوير (٢٧/٢٠٤).

(٢) ولستُ هنا بصدد التَّرجيح أو مناقشة الاستدلال بهذه الآية على القياس؛ إذ ذاك أمر مبسوط في كتب الأصول، ولكنني أشير إلى ذلك المعنى من حيث ما فهم منه من المشابهة بين معنى الاعتبار ومعنى القياس. وينظر في ذلك: أحكام القرآن، للجصاص (٣١٧/٥)، وأصول السرخسي (٩٣/٢) فما بعد، والمحلى (٣٦٤/٩)، والمستصفي (٢٩٣/١) فما بعد.

(٣) هو محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي، فقيه الديار الشامية، وإمام الحنفية في عصره. مولده ووفاته في (دمشق). [١٢٥٢هـ]. انظر: الأعلام (٤٢/٦)، وانظر: معجم المؤلفين (١١/١٩٣).

ثابتاً بطريق المنطوق مع أنَّ سياق الكلام له، والقياس بطريق المنطوق من غير أن يكون سياق الكلام له. سلمنا أنَّ الاعتبار هو الاتِّعاظ لكن يثبت القياس دلالة^(١). ويقول ابنُ عابدين أيضاً: «فسر الاعتبار بالتأمل، وإن كان المراد منه -والله أعلم-: ردُّ أنفسنا إلى أنفسهم في استحقاق العقوبات عند مباشرة تلك الأسباب؛ لأنَّ هذا الردُّ إنما يتحقَّق بالتأمل في أحوالهم، ولما كان التأمل هو المؤدي إلى هذا الردُّ جعل التأمل نفسه إقامة للسبب لمقام المسبَّب»^(٢).
ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠]. فقوله ﷻ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾، أي: الملك الذي أحاط بكل شيء قدرة وعلمًا، ﴿مَثَلًا﴾ يعلم به من فيه قابلية العلم، ويتَّعظ به من له أهلية الاتِّعاظ ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: غطوا الحق على أنفسهم وعلى غيرهم. وقوله ﷻ: ﴿امْرَأَتَ نُوحٍ﴾ عليه السلام الذي أهلك الله ﷻ من كذَّبه بالغرق، ﴿وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ عليه السلام الذي أهلك الله ﷻ من كذبه بالحصب^(٣)

(١) حاشيةُ نسمات الأسحار على شرح إفاضة الأنوار على متن أصول المنار (ص: ١٤٦-١٤٧).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٤٦-١٤٧).

(٣) قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا نَالَ لُوطٌ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].
و(الحاصب) في هذه الآية قيل: إنها السَّحابة أو الرِّيح، وكلا القولين صحيح؛ لأنَّ كلَّ ريح شديدة ترمي بالحصباء تسمَّى حاصِبًا وحصبة. وكلُّ سحابة ترمي بالبرد تسمَّى حاصِبًا أيضًا.

والخسف، يجوز أن يكون بدلاً من قوله: ﴿مَثَلًا﴾ على تقدير حذف المضاف، أي: ضرب الله ﷻ مثلاً مثل امرأة نوح وامرأة لوط. ويجوز أن يكونا مفعولين، وضرب الله ﷻ هذا المثل تنبيهاً على أنه لا يغني أحد عن قريب، ولا نسيب في الآخرة إذا فرّق بينهما الدين^(١).
ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ [المدر: ٣١]، ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ [المدر: ٤٩]، أي: عن التذكير، وهو العظة، يريد القرآن^(٢) أو غيره من المواعظ^(٣). وقد قيل في إعراضهم عن القرآن: إنه الجحود والإنكار. وقيل: ترك العمل بما فيه. و﴿مُعْرِضِينَ﴾ حال من الضمير في الجارّ الواقع خبراً عن (ما) الاستفهامية، ومثل هذه الحال تسمى حالاً لازمة، و﴿عَنِ التَّذْكَرَةِ﴾ متعلق به، أي: أي شيء حصل لهم في إعراضهم عن الاتّعاظ؟!!!^(٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ [المدر: ٥٥]، أي: اتّعظ به.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدر: ٥٦]، أي: وما يتّعظون إلا

(١) انظر: السراج المنير (٣٦١/٤)، نظم الدرر (٥٧/٨).

(٢) انظر: الدر المنثور (٣٣٩/٨)، وانظر: تفسير الطبري (١٦٧/٢٩).

(٣) انظر: الكشف (١٨٧/٤)، تفسير ابن عادل (٥٣٦/١٩)، السراج المنير (٤٨٨/٤)، السمعاني (٩٩/٦)، الرازي (٧١٧/٣٠).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٨٨/١٩)، السراج المنير (٤٨٨/٤)، تفسير مقاتل (٤٢٠/٣).

أن يشاء الله ﷻ، أي: ليس يقدرّون على الاتّعاظ والتّدكّر إلّا بمشيئة الله ﷻ ذلك لهم^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنْ هَدِيَهُ نَذِرُهُ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩]، أي: «فمن شاء الاتّعاظ اتخذ إلى ربه سبيلا، والمراد: من نوى أن يحصل له الاتّعاظ تقرب إليه ﷻ، لكن ذكر السّبب وأريد مسببه»^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ ﴿١١﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾﴾ [عبس: ١١-١٢]. فقوله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ ﴿١١﴾﴾، أي: موعظة يجب الاتّعاظ، والعمل بموجبها، ففي الآية: الحثّ على الاتّعاظ^(٣). وقوله ﷻ: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٢﴾﴾، أي: فمن شاء أن يذكره ذكره، أو ذكر الضمير؛ لأنّ التّدكّر في معنى الذّكر والوعظ، والمعنى: فمن شاء الذّكر ألهمه الله ﷻ إيّاه^(٤).

ومن آيات السّورة التي فيها الاعتبار والاتّعاظ قوله ﷻ:

﴿فَإِذَا جَاءَتْ الصَّلَاةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنَ آخِرِهِ ﴿٣٤﴾ وَأَمْرُهُ وَأَبُوهُ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبُهُ وَبَنُوهُ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩٠/١٩).

(٢) تفسير الألوسي (١١٠/٢٩).

(٣) الكشف (٢١٨/٤)، تفسير الثّسفي (٤٨٦/٤)، البحر المديد (٢٣٧/٨)، السراج المنير (٥٤٨/٤)، القرطبي (٩٠/١٩)، تفسير القاسمي (٢٦٠/٧).

(٤) انظر: الكشف (٢١٨/٤)، الثّسفي (٤٨٦/٤)، تفسير الثّعالبي (٣٨٧/٤).

مُسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوَجَّهْ يَوْمَئِذٍ عِلَّتَيْهَا غَيْرَهُ ﴿٤٠﴾ تَرَهَّقَهَا قَذَرُهُ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ [عبس: ٣٣-٤٢].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾﴾ [البروج: ١٧-١٨].
 قيل: «فيه تعريض للمشركين بأنهم قد يحلُّ بهم ما حلَّ بأولئك: ﴿وَأَنَّهُمْ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَثَمُودًا ثَمَارًا أَتَى ﴿٥١﴾﴾ [النجم: ٥٠-٥١]، إلى قوله: ﴿فِي آيِ ءَالَآءِ رَبِّكَ نَتَمَارَى ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: ٥٥]. والخطاب لغير معيَّن ممَّن يراد موعظته من المشركين كناية عن التذكير بخبرهم؛ لأنَّ حال المتلبِّسين بمثل صنيعهم -الراكين رؤوسهم في العناد- كحال من لا يعلم خبرهم، فيُسأل هل بلغه خبرهم أو لا؟ أو خطابًا لغير معيَّن، تعجيبًا من حال المشركين في إعراضهم عن الاتِّعاض بذلك فيكون الاستفهام مستعملًا في التَّعجيب»^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنذَكُرُ الْإِنْسَانَ وَاقْنُ لَهُ الذِّكْرُ ﴿٢٣﴾﴾ [الفجر: ٢٣]، أي: ومن أين له الاتِّعاض والتَّوبة وقد فرط فيها في الدنيا؟! ويقال: أي: ومن أين له منفعة الذِّكْر؟^(٢).



(١) التَّحْرِير والتَّنْوِير (٢٥٠/٣٠).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٥٦/٢٠)، تفسير ابن عادل (٣٣٢/٢٠)، تفسير السمعاني (٢٢٢/٦).

• د. خاتمة في إجمال النتائج:

يتبين مما سبق أن كل قصّة ذكرها الله ﷻ في كتابه فيها الموعظة والاعتبار...

كما يتبين أن السعيد من اعتبر بغيره، والشقي من اعتبر به غيره. وفيها وعد الله ﷻ لمن اعتبر بذلك وتبشيره بحسن المثوبة، ووعد من لم يعتبر، وإنذاره بسوء العقوبة، والوعد يشمل ما للأمة وما للأفراد، فيعمّ نعم الدنيا والآخرة وسعادهما، والوعد - كذلك - يشمل نعمهما وشقاءهما..

كما يستفاد من قصص من وقف عند حدود الله ﷻ، وأخذ بأحكام دينه، ومن أخبار الذين تعدّوا حدوده، ونبذوا أحكام دينه ظهرياً: الاعتبار بالعاقبة والمآل، فيكون ذلك دافعاً لاختيار طريق المحسنين، ويكون المؤمن على بينة وحذر.

قال أبو جعفر: «وفي حثّ الله ﷻ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبيّنات بقوله ﷻ لنيّه ﷻ: ﴿كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ الْبَاطِلَ وَيُذَكِّرَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [٢٧] قرءاناً عربياً غير ذي عوج لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧-٢٨]، وما أشبه ذلك من آي القرآن، التي أمر الله ﷻ عباده، وحثهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتّعاظ بمواعظه ما يدلّ على أن عليهم معرفة تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنّه محالّ أن يُقال لمن لا

يفهم ما يُقال له ولا يعقل تأويله: (اعتبر بما لا فهم لك به ولا معرفة من القيل والبيان والكلام) إلا على معنى الأمر بأن يفهمه ويفقهه، ثم يتدبره ويعتبر به. فأما قبل ذلك، فمستحيل أمره بتدبره وهو بمعناه جاهل. كما محال أن يقال لبعض أصناف الأمم الذين لا يعقلون كلام العرب ولا يفهمونه لو أنشد قصيدة شعر من أشعار بعض العرب ذات أمثال ومواعظ وحكم: (اعتبر بما فيها من الأمثال، وادكر بما فيها من المواعظ) إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلام العرب ومعرفته، ثم الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحكم. فأما وهي جاهلة بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق فمحال أمرها بما دلّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعبر. بل سواء أمرها بذلك وأمر بعض البهائم به إلا بعد العلم بمعاني المنطق والبيان الذي فيها. فكذلك ما في أي كتاب الله ﷻ من العبر والحكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: (اعتبر بها) إلا لمن كان بمعاني بيانه عالماً، وبكلام العرب عارفاً، وإلا بمعنى الأمر - لمن كان بذلك منه جاهلاً - أن يعلم معاني كلام العرب، ثم يتدبره بعد، ويتعظ بحكمه وصنوف عبره. فإذا كان ذلك كذلك - وكان الله ﷻ قد أمر عباده بتدبره وحثهم على الاعتبار بأمثاله - كان معلوماً أنه لم يأمر بذلك من كان بما يدلُّ عليه آية جاهلاً. وإذا لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهم بما يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنهم - بتأويل ما لم يُحجَّب عنهم علمه من آية الذي استأثر الله ﷻ بعلمه منه دون خلقه - الذي قد قدّمنا صفته آنفاً - عارفون. وإذا صحَّ ذلك فسَدَّ قول من أنكر

تفسير المفسرين - من كتاب الله ﷻ وتنزيله - ما لم يحجب عن خلقه تأويله»^(١).

ونخلص إلى أن الاعتبار هو المؤدّي إلى استخلاص العبر والحكم... وقد يكون ذلك بمجرد قراءة بعض النصوص، وقد يحتاج في نصوص أخرى إلى النظر في التفسير والاستنباط، وإلى التأمل والتفكير، وإلى استخدام آليات التأويل كاللغة والعلوم المساعدة الأخرى... فيفهم العامي منه المعنى القريب، ويفهم العالم عمق المعنى..

وإنّ موعظة القرآن نافعة لكلّ من تجرّد عن العناد والمكابرة، فمن لم يتعظ بها فلائّه لم يشأ أن يتعظ.



(١) تفسير الطبري (١/٣٦-٣٧).

المطلب الخامس: خطاب التَّهْيِيج

● أ. توطئة في بيان المعنى اللُّغوي لمادة التَّهْيِيج ..

ولا بدَّ في البداية من بيان اللُّغوي لمادَّة (التَّهْيِيج)، ثمَّ بعد ذلك استقصاء أهمِّ ما قاله المفسِّرون والباحثون في علوم القرآن في إبراز هذا اللون من ألوان الخطاب القرآني، وما له من الحكم والمقاصد التي تتعلَّق بغايات الخطاب.

قال الخليل في (العين) في بيان مادَّة: (هيج): «(هاج البَقْلُ): إذا اصفرَّ وطال، فهو هائجٌ، ويُقال: بل (هيجَ البَقْلُ) و(هاجتِ الأرضُ) فهي هائجةٌ. و(هاج الفحلُ هياجًا). و(اهتاج اهتياجًا) إذا ثار وهدر^(١). و(هاج الدَّمُ)، و(هاج الشرُّ بين القومِ)، وكلُّ شيءٍ يثورُ للمشقة والضَّرر. و(الهَيْجاء): الحربُ، تُمدُّ وتُقصر. وتقول: (هَيَّجْتُ الشرَّ بينهم)، و(هَيَّجْتُ النَّاقَةَ فانبعثتُ)، و(هَيَّجْتُ فلانا فانبعث وهاج)^(٢). وفي (المغرب): «(هَاجَهُ فَهَاجَ) أَي: هَيَّجَهُ وَأَثَارَهُ فَثَارَ، وَبَعَثَهُ فَانْبَعَثَ»^(٣).

وأما ما جاء دالا بمادَّته على هذا المعنى من الألفاظ القرآنيَّة فقولُه

(١) وفي (الصُّحاح)، للجوهري: «(هاجَ هائجُهُ)، أَي: ثار غضبه. و(هَدَأَ هائجُهُ) أَي: سكنت فُورته». الصُّحاح، مادَّة: (هيج) (١/٣٥٢).

(٢) العين، مادَّة: (هيج) (٤/٦٧)، وانظر: لسان العرب، مادَّة: (هيج) (٢/٣٩٤).

(٣) المغرب، مادَّة: (هيج) (٢/٣٩٣).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، فَإِنَّ (الْأَزَّ): التَّهْيِيجُ والإِغْرَاءُ، و(أَزَّهُ يَؤْزُهُ أَزًّا): أَغْرَاهُ وَهَيَّجَهُ^(١).

ومن المفسرين من ذكر هذا المعنى^(٢).

وقد ورد هذا اللفظ مرّة واحدة في القرآن الكريم.

يقول الزّمخشرى: «(الْأَزُّ) و(الهِزُّ) و(الاستفزاز) أخوات ومعناها: التَّهْيِيجُ وشِدَّةُ الإِزْعَاجِ، أي: تُغْرِيهُم على المعاصي، وتهيجهم لها بالوساوس والتسويلات، والمعنى: خَلِينَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ، ولم نمنعهم، والمراد: تعجيب الرّسول ﷺ بعد الآيات التي ذكر فيها العتاة والمردة من الكفّار وأقاويلهم وملاحتهم، ومعاندتهم للرّسل، واستهزائهم بالدين، من تماديهم في الغيِّ، وإفراطهم في العناد، وتصميمهم على الكفر، واجتماعهم على دفع الحقّ بعد وضوحه وانتفاء الشكّ عنه»^(٣).
ويلاحظ هنا أَنَّ (الْأَزَّ) يكتسبُ معنى زائداً على إثارة الغضب، بل هو غضبٌ قويٌّ مستمرٌّ لا ينقطع، غضبٌ صار لصاحبه ديدناً، فكُلَّمَا ورد عليه شيءٌ من الحقّ اشتعل رأسه وعقله بالوساوس الشَّيطانيّة،

(١) انظر: مختار الصحاح، مادة: (أَزَز) (ص: ١٥)، تاج العروس، (١٥/١٢-١٣)، لسان العرب (٣٠٧/٥)، الصّحاح، للجوهري (٣/٨٦٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١١/١٥٠)، وتفسير السّفي (٣/٤٤). وفي (البحر): «(الْأَزُّ) و(الهِزُّ) و(الاستفزاز) أخوات، ومعناها: التَّهْيِيجُ وشِدَّةُ الإِزْعَاجِ، أي: تهيجهم وتزعجهم إلى الكفر والمعاصي». البحر المحيط (٦/١٨٧)، تفسير ابن عادل (١٣/١٤٢).

(٣) الكشف (٢/٥٢٤).

والفكر الباطل، فتثور ثائرة العقل عنده، وينطلق لسانه بالفحش والكيد. ومن أسباب ذلك: العجبُ والزَّهو والمراءُ والمجادلةُ بالباطل؛ لنصرة الرَّأي لا للوصول إلى الحقِّ، كالتَّعصب لفكرة أو مذهبٍ أو رأيٍ دونما دليل يبيِّن أو حجة واضحة، وفي جميع ذلك تبدو شهوة الانتقام، ومن لواحقه: النَّدامةُ، وتوقُّع العقابِ عاجلاً أو آجلاً، وهذا باب واسع الانتشار في عالمنا اليوم، فحقاً هي شياطينُ تؤزُّ الكافرين أزا. يقول العلامة محمد الطَّاهر: «شبه اضطرابَ اعتقاداتهم، وتناقض أقوالهم، واختلاق أكاذيبهم بالغليان في صعود وانخفاض، وفرقة وسكون»^(١).

فهذا وصف دقيقٌ لحالهم، ولأجسادهم المضطربة، وعقولهم المتأججة، وتخبُّطهم في غيِّهم، وهو - أي: (الأز) - داخل في معنى (النزغ)، بل ويزيد عليه استمرارية وعمقاً، وهو داخلٌ في معنى التَّهيج الجسديِّ، فإنَّك ترى الواحد من هؤلاء المعاندين المجادلين من أهل الباطل، وهو يهتُّ ويضطرب في حجاجه ولجاجه، وكأنما يحركه شيطانٌ، وهو فعلاً يحركه شيطانٌ ذاك الذي أخبر عنه ربُّ العزة في الآية.

ومن ذلك - أعني ما يدلُّ بمادته على التَّهيج والإغراء - ما قاله البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في قوله ﷺ: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ أَهْذَنًا مِثْلَهُمْ فَسَوْا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ فَاغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى

(١) التَّحْرِير والتَّنْوِير (١٦/١٦٥).

يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿[المائدة: ١٤].

قال أبو عبد الله البخاري: «(أغروا بي) يعني: هيّجوا بي»^(١).
والمعنى أن الإغراء هو التهييج.

وقال أبو عبيدة^(٢) في (المجاز) في قوله ﷻ: ﴿فَأَغْرَبْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾: «(الإغراء): التهييج والإفساد»^(٣).

ومن ذلك - أعني ما يدلُّ بمادته على التهييج والإغراء - ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَأْتِيهَا النَّيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ [الأنفال: ٦٥].

التحريض: الحثُّ على الشيء. قال الزجاج: «هو في اللغة أن يحثَّ الإنسان على شيء حتى يعلم منه أنه حارض، أي: مقاربٌ للهلاك، وعلى هذا فهو للمبالغة في الحث»^(٤). وقال الآلوسي: «وزعم في (الدُّر المصون)^(٥) أن ذلك مستبعدٌ من الزجاج. والحقُّ معه، ويؤيده

(١) صحيح البخاري [٢٥٧٣]، وانظر: فتح الباري (٥/٤١٤).

(٢) هو أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي البصري اللغوي الحافظ، صاحب التّصانيف. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي (١/٢٧٢).

(٣) مجاز القرآن (ص: ١٥٢).

(٤) معاني القرآن، للزجاج (٢/٤٢٣-٤٢٤).

(٥) الدُّر المصون (٧/٤١٨-٤١٩). وصاحب (الدُّر المصون) هو أحمد بن يوسف بن عبد الدَّائم الحلبي السّمين. انظر: طبقات المفسرين، للأدنوي (ص: ٢٨٧).

ما قاله الرَّاعِبُ^(١) من أنَّ (الحرص) يقال لما أشرف على الهلاك .
 و(التَّحْرِضُ): الحثُّ على الشَّيء بكثرة التَّزْيِين، وتسهيل الخطب فيه، كأنَّه في الأصل (إزالة الحرص)، نحو: (قذيته): أزلت عنه القذى . ويقال: أحرصته إذا أفسدته. نحو: (أقذيته) إذا جعلت فيه القذى، فالمعنى هنا: (يا أيُّها النَّبِيُّ بالغْ في حثِّ المؤمنينَ على قتالِ الكفار).
 وجُوِّزَ أن يكون من تحريض الشَّخص، وهو أن يسمَّيه: (حرصاً)، ويقال له: (ما أراك إلا حرصاً في هذا الأمر)، و(محرصاً فيه). ونحوه: (فسَّقته) أي: سمَّيته فاسقاً، فالمعنى: (سمَّهم حرصاً)، وهو من باب التَّهْيِيج والإلهاب، والمعنى الأوَّل هو الظَّاهر^(٢).

● ب. ما يتبيَّن من المعاني اللُّغوية لهذا اللَّون من ألوان الخطاب ..
 وبناءً على ما سبق من المعنى اللُّغوي المرتبط بهذا اللَّون من ألوان الخطاب القرآني يتبيَّن أنَّ التَّهْيِيج هو (الانفعال بحالة نفسية وجدانية تدفع الإنسان إلى الإقدام على فعلٍ أو تركه)، وله أثرٌ إيجابي في الحثِّ على الفعل إن كان خيراً، أو أمراً لا بدَّ منه لصالح النَّفس، أو واجباً قد تغافل عنه المكلف، حيث يرفع عن المكلف غشاوة الغفلة، ويتركز عنده الانتباه على حسب حِدَّة الانفعال، فإن كان في الخير وضمن ضوابط الشَّرْع فإنَّ هذه فائدته.

(١) انظر: المفردات، للرَّاعِب، مادة: (حرص) (ص: ١١٣)، تاج العروس (٢٨٤/١٨).

(٢) روح المعاني (٣١/١٠)، الكشف (١٦٧/٢)، ابن عادل (٥٦٣/٩)، الدَّر المصون

(٤٩٢/٤)، البحر المحيط (٤١٨-٤١٩).

و(الإثارة والتّهيج) من الأساليب التربويّة التي تحمّس المتلقّي للتفاعل مع المطلوب منه إيجاباً وقبولا وامتناعاً...

وفي مقابل التّهيج المحمود الذي يكون من أجل إقامة حقوق الله ﷻ وما أوجبه وشرعه، والوفاء بحقوق العباد لا بدّ من الإشارة إلى التّهيج بشقّه القبيح والذي فيه إثارة الغرائز، وقتل الحياء كقيمة من القيم. ومن ذلك: التّهيج الجنسي، وإبراز مواطن الإثارة الجنسيّة، وإباحة الملاعبة في الأماكن العامّة، ووسائل النقل العامّ، والحديقة، والمعهد والكلية، ونحو ذلك..، وفي ذلك ما فيه من تجريد الاتصال الجنسيّ من قداسه التي هي ضمان استمرار الجنس البشريّ، واعتباره رغبة تُشبع كما يشبع الإنسان نفسه من الطّعام والشراب، وبهذا أصبح الاختلاط الجنسيّ لا يخضع إلّا لأمر واحد هو رضا الطرفين. فكانت الفوضى الجنسيّة التي جرّت على البشريّة الويلات..

وإذا كان بُعد المسلمين عن دينهم قد أضعف هيبتهم وشوكتهم، فإنّ الغزو الفكريّ على هذه الأمة زادها بلبلة وضیعة وتمزّقاً؛ لأنّه هجوم يعمل في دأب وعناء على غمر الأرجاء بصنوف الفساد، وعلى تخريب العقول بالإعلام المضل، الذي يصاحب الناس ويماسيهم..

أمّا المتلقّون والشرائح المستهدفة فهم في معظمهم وسوادهم الأعظم عاكفون أمام الشاشات، وقد أسلموا قياد أنفسهم لأكثر القنوات إسفافاً، فبحسب أكوام اللحوم وكميّة ما يعرض منها تتحقّق الجماهيرية حيث وئدت الفضيلة، وسفك دم الحياء، وقد جعلت تلك

القنوات والشبكات أنواعًا من الطعم والشباك لاصطياد السدج من خلال التهييج الجنسي الفاضح.

وينبغي أن يعلم أن معظم ما تعرضه الفضائيات المختلطة ضرره ماحق، وخطره كبير جدًا في مجالات عدة، ومن ذلك أضرار وأخطار في التصورات والمفاهيم، وفي الآداب والأخلاق والقيم الإنسانية، هذا فضلًا عن هدم الثوابت الإسلامية، وكذلك في الأمن والاستقرار وصحة العقول والأبدان..

وهل أنتجت مشاهد الإثارة ولقطات التهييج وصور العري والتفكك إلا خرق سياج العفة والشرف؟ وشيوع الجريمة الأخلاقية؟ وفقدان الأمن وانتشار الاعتداءات المروعة؟ وهل يحمل الإلحاح الغريزي الجامح، والشعار الجنسي الهائج إلا على السّفه والخفة وركوب الشر؟ وما عساه يُجنّي من أفلام ومجلات وقصص وروايات وأطباق وقنوات جعلت الإثارة إحدى ركائزها، وتأجيج الغرائز أساس قيامها، ومحاربة العفة والطّهارة من أولويات أهدافها؟!

وإن من أعظم مقاصد هذا الدين: إقامة مجتمع طاهر، الخلق سياجه، والعفة طابعه، والحشمة شعاره، والوقار دثاره. ومما ينبغي التّفطن له الحذر من الاغترار بالحمّلات الإعلامية المغرّضة، والقنوات الفضائية المسيفة، أو الانسياق وراء الطعون المجردة، والتّهم الملفقة، أو التّيل من رموز المجتمع، وصالحي الأمّة، والطّعن في النّاجحين، والخط من أقدار الطّامحين، ومحاولة إسقاطهم، والخدش فيهم بغير

وجه حق، أو التحريش بين المسلمين، أو التهيج والإثارة والتشجيع، وإثارة بواعث الفتن، وأسباب الفرقة..
والحاصل أن ما يعنينا هنا هو التهيج بشقه المحمود، ونضرب صفحا عن التهيج بشقه المذموم بعد الإشارة إليه بالتعريف المجمل... وذلك بغرض تحديد المفاهيم، وتمييز بعضها عن البعض الآخر.

• ج. العرض والتحليل لآيات التهيج

أقول: إن النماذج هنا تأتي كسابقتها، أعني أنها تأتي مرتبة باعتبار الترتيب المصحفي لا باعتبار الأظهر في الدلالة على المعنى المراد، حيث يمكن القول -مثلا- بأن نحو قوله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آعِبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]. من هذا القبيل؛ حيث إن الإنعام على المكلفين من سبل التهيج؛ للامتثال، توسعا في هذا اللون من ألوان الخطاب القرآني

ومن الآيات ما يدلُّ مفهومها العام على التهيج نحو: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]. فهذه الآية وما كان نحوها فيها: التهيج على العبادة ببيان عظمة قدرة الصانع. كأنه يقول: أيها الإنسان: إن الذي سخر لك الأرض والسما يستحق أن تعبد.. وكذا إيماء إلى فضيلة بني آدم عليه السلام.. فكأنه يقول: إن الذي أكرمكم بأن هيا لكم الأجرام العلوية والسفلية

بعظمتها، فلا بد أن تقبلوا على عبادته وطاعته، فهو الخالق المنعم..
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]^(١)، فالكلام في هذه الآية خارج مخرج التهيج، وهو واضح.
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَيْنَ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥]، أي:
ولئن فرض وقدّر أنك سايرتهم على أهوائهم، واتّبع ما يهوونه ويحبونه بعد وضوح البرهان الذي جاءك بطريق الوحي ﴿إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: تكون ممن ارتكب أفحش الظلم، والكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير، وإلا فحاشاه ﷻ من اتّباع أهواء الكفرة المجرمين، وهو من باب التهيج؛ للثبات على الحق. فهو خطاب على سبيل التهيج والإلهاب.

(١) ونحوه: قوله عز وجل: ﴿وَكُلُوا مِن مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْشَأَ مِنْكُمْ نَفْسًا وَنُفُوسًا﴾ [المائدة: ٨٨]، ﴿فَكُلُوا مِن مَّا ذُكِّرَ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨]، ﴿فَكُلُوا مِن مَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا لِنِعْمَتِ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

ونحوه قوله ﷺ:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] ^(١). قيل: «الخطابُ للرسول ﷺ خطابٌ لأُمَّته. وقيل: لكل سامع إذا ظهرت الدلالة فلا ينبغي أن يمتري فيه. وقيل: هو من باب التَّهْيِيجِ والإلهاب» ^(٢). وقد بيَّنتُ ما يتعلَّقُ بمعنى الآية في موضعها، وما يعنينا هنا إشارة من أشار من المفسِّرين إلى أنَّ نحو هذه الآيات فيها: التَّهْيِيجُ والإلهاب.

ونحوه قوله ﷺ في (سورة آل عمران):

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [آل عمران: ٦٠] عقب قوله ﷺ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٣) [آل عمران: ٥٩]، فقد قيل: الخطاب كذلك لكل سامع قصَّة عيسى عليه السلام، والأخبار الواردة من الله ﷻ. وقيل: الخطاب له ﷺ والمراد بها أُمَّته. ونهيه عن الامتراء، وجلَّ رسول الله ﷺ أن يكون ممترياً، من

(١) ونحوه: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ ^(٤) [آل عمران: ٦٠]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ﴾ [يونس: ٩٤]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَاثِرَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ^(٥) [يونس: ٩٥]، ﴿وَأَنْ أَمُرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(٦) [يونس: ١٠٥]، ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٧]، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهْرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧].

(٢) الكشف (٢/٢٥٣)، البحر المحيط (٤/٢١٢)، تفسير الرازي (٤/١٣١)، تفسير أبي السعود (١/١٥٣)، فتح القدير (٢/٢٢٥).

باب التَّهْيِيج؛ لزيادة الثَّبات والطَّمَأْنِينَة^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَالْمُطَلَقَاتُ يَرْصَنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، والمعنى واضح .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨]. وهذه الآية من باب التَّهْيِيج والإغراء، والحث على الامتثال، يعني: إن كنتم مؤمنين حقاً فدعوا ما بقي من الربا، وهذه الجملة يقصد بها: الإغراء، وإثارة الهمة؛ فإنه ﷻ وصفهم بالإيمان عند الخطاب، ثم قال: ﴿إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فقصد حثهم على ترك الربا، وأن المؤمنين حقهم أن يفعلوا ذلك. ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]. فيقول الله ﷻ منكرًا عليهم فيما سلَّكوه من موالاته الكافرين: أبيتغون عندهم العزة؟ ثم أخبر أن العزة كلَّها له وحده لا شريك له، والمقصود: التَّهْيِيج على طلب العزة من جانب الله ﷻ، والالتجاء إلى عبوديته،

(١) انظر: الكشاف (١/٤٣٣)، البحر المحيط (٢/٥٠٢)، روح المعاني (١١/١٩٠)، تفسير أبي الشعود (٢/٤٦)، تفسير السَّفي (١/٢٤٢).

والانتظام في جملة عباده المؤمنين الَّذِينَ لهم النُّصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد. ومن الأدلة كذلك قوله ﷻ: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِمَّنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧]^(٢). فالمقصود

(١) انظر: البرهان (٢/ ٢٤٧)، (٤/ ٢١٩)، والإتقان (٢/ ٩٢)، وكتاب الكليات (ص: ٦٦١). ومن ذلك ما كان يقوله النبي ﷺ في الحث على الفعل بطريق التهييج، وفيه أيضًا الاستدلال بالآية المذكورة على هذا اللون من ألوان الخطاب القرآني: «لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر» وهو كثير في الحديث. انظر: صحيح البخاري، [١٠١]، قال الإمام ابن دقيق العيد: «الذي أراه أن هذا الكلام من باب (خطاب التهييج)؛ فإن مقتضاه أن استحلال هذا المنهي عنه لا يليق بمن يؤمن بالله عز وجل واليوم الآخر، بل ينافيه، هذا هو المقتضى لذكر هذا الوصف. ولو قيل: لا يحل لأحد مطلقاً لم يحصل به الغرض. و(خطاب التهييج) معلوم عند علماء البيان، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام (١/ ٣٠٩)، وانظر: فتح الباري (٤/ ٤٣)، وفيض القدير (٦/ ٢١١)، وشرح سنن أبي داود، لبدر الدين العيني (٤/ ١٢٦).

(٢) ونحوه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ دِينِكُمْ لَا يَأْتُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُبَعِّثُوا إِلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ =

التَّهْيِيجَ والإلهاب بسبب الاجتهاد في الدُّعاء بحيث تحصل الإجابة، وتكون هذه العبارة أيضًا للتَّلفظ كما يقول الإنسان لمن يعظمه: (هل تقدر أن تذهب معي إلى كذا؟) وهو يعلم أنَّه قادر، ولكنَّه يكتنى بذلك عن أنَّ السَّائل يحب ذلك، ولا يريد المشقة على المسؤول»^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [١٢] ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢-١٣]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فجعل إلقاء الرُّعب في قلوبهم والأمر بقتلهم لأجل مشاقَّتهم لله ورسوله، فكلُّ من شاقَّ الله ورسوله يستوجب ذلك، والمؤذي للنبي مشاقٌّ لله ﷻ، ورسوله ﷺ فيستحق ذلك»^(٢). ففيها: التَّحريض

= إسناده بالقوي، ورشدين بن سعد والإفريقي يضعفان في الحديث. سنن الترمذي الجزء الخاص في التفسير (١/١٨٦). وفي (المستدرک) . . . عن محمد بن سعيد عن عباد بن نسي عن عبد الرحمن بن غنم الأشعري قال: ثمَّ سألت معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أو ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ فقال: أقرأني رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ تَسْتَطِيعُ﴾ -بالتاء- هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. المستدرک [٢٩٣٥]، ووافقه الذهبي. (٢/٢٦٠). وانظر: المعجم الكبير، للطبراني [١٢٨]. وفي (الثقات) «حسان بن خارق الشَّيباني، وقد قيل: حسان بن أبي المخارق، كنيته: أبو العوام، يروى عن سعيد بن جبیر أنَّه كان يقرأ: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ روى عنه جابر بن يزيد الجعفي. الثقات (٦/٢٢٣)، [٧٤٥٧].

(١) نظم الدرر (٢/٥٧٠)، وانظر: تفسير ابن جزي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١/١٩٣-١٩٤)، والمحرَّر الوجيز (١/٢٦٠).

(٢) الصَّارم المسلول (٢/٦١)، وانظر: (٢/٦٢)، (٢/٥٤)، (٣/٦٣٧)، (٣/٧٣٦).

والتَّهْيِيجَ عَلَى قِتَالٍ مِنْ يَشَاقِقُ اللَّهَ ﷻ، ورسوله ﷺ. ومثله قوله ﷻ: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلََاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ﴾ (٣) [الحشر: ٣]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فجعل سبب استحقاقهم العذاب في الدنيا، ولعذاب النَّارِ في الآخرة، هو مشاقَّةُ الله ﷻ ورسوله ﷺ، والمؤذي لرسول الله ﷺ مُشَاقٌّ لله ﷻ، ورسوله ﷺ - كما تقدم -، والعذاب هنا هو الإهلاك بعذابٍ من عنده أو بأيدينا، وإلا فقد أصابهم ما دون ذلك من ذهاب الأموال وفراق الأوطان»^(١). ففيها: التَّحْرِيزُ والتَّهْيِيجُ عَلَى قِتَالٍ مِنْ يَشَاقِقُ اللَّهَ ﷻ، ورسوله ﷺ كسابقتهما..

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةٌ كَانُوا فِيهَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ فَأَلَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣) [التوبة: ١٣]. قوله ﷻ: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا﴾ هذه الآية مع ما سبقها من قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ (١٤) [التوبة: ١٢] فيها مزيد تهيج للمؤمنين على قتال المشركين. قال

(١) المصدر السابق (٢/ ٦١).

(٢) وقد ذكر معنى التَّهْيِيجِ في هذه الآية غير واحد. انظر: تفسير الرَّاظِي (٢٣/ ٣٢٠)، (٢٣/ ٣٤٧)، فتح القدير (٢/ ٤١١)، الكلبيات (ص: ٤٢١)، نظم الدرر (٢/ ٥٧٠).

الحافظ ابن كثير: «هذا أيضًا تهيجٌ وتحضيضٌ وإغراء على قتال المشركين الناكثين بأيمانهم الذين همُّوا بإخراج الرسول ﷺ من (مكة) كما قال ﷺ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال ﷺ: ﴿يُخْرِجُونَ الرُّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [المتحنة: ١] الآية. وقال ﷺ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦] الآية، وقوله ﷺ: ﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أُولَئِكَ مِرَّةً﴾ [التوبة: ١٣]»^(١). وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فجعل همَّهم بإخراج الرسول ﷺ من المحضضات على قتالهم، وما ذاك إلا لما فيه من الأذى، وسببه أغلظ من الهمِّ بإخراجه، بدليل أنه ﷺ عفا (عام الفتح) عن الذين همُّوا بإخراجه ولم يعفَ عمن سبَّه، فالذمي إذا أظهر سبَّه فقد نكث عهده، وفعل ما هو أعظم من الهمِّ بإخراج الرسول ﷺ، وبدأ بالأذى فيجب قتاله»^(٢).

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ النِّقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال: ٤١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. قال

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤٠).

(٢) الصَّارِمُ الْمَسْلُوكُ (٢/ ٤٣)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٤٧).

الحافظ ابن كثير: «وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَتِّلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ فيحتمل أنه منقطع عما قبله^(١)، وأنه حكم مستأنف، ويكون من باب التَّهْيِيجِ والتَّحْضِيزِ. أي: كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم، فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم إذا حاربتموهم، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون»^(٢). وكذلك قال الشيخ الشنقيطي في (دفع إيهام الاضطراب) في قوله ﷻ: ﴿وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾: «هو من باب التَّهْيِيجِ»^(٣). ونحوه قوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقوله ﷻ: ﴿أَنفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، ففي هذا التَّهْيِيجِ الكبير للقتال، وبيان أهميته للأمة، وبيان أثره عليها قوة وضعفاً وعزة وانتكاساً.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ

(١) وقام الآية: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ آفَسُوا فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَتِّلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَتِّلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٣٥٦-٣٥٧).

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، العدد الأول (ص: ١٠).

مَنْ عَدُوٌّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا
إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَمَا كَانِ
الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَأَفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي
الْدِينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

[التوبة: ١٢٠-١٢٢]. ومعنى ﴿وَلَا يَرْغَبُوا﴾ ولا أن يرغبوا. يقال:
(رغبت بنفسي عن هذا الأمر) أي: أبخل بها عليه ولا أتركها له،
والمراد أنه لا يصحَّ لهم أن يرغبوا عن صحبة رسول الله ﷺ بسبب
صلاح أنفسهم وبقائها، بل عليهم أن يصحبوه على البأساء والضراء،
ويرضوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول ﷺ لنفسه؛ لأنَّ نفسه أعزُّ نفس عند
الله ﷻ، فإذا تعرَّضت مع كرامتها للخوض في شدة وجب على سائر
الأنفس أن لا يرضوا بها على ما سمح بنفسه عليه. وفي هذا النّهي مع
التّهييج توبيخ عظيم^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِنْ كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُواْ بِآيَاتِ اللّٰهِ فَتَكُونُواْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٩٥﴾

[يونس: ٩٥]. قال الألوسي: «فائدة النّهي في الموضعين التّهييج

(١) تفسير التيسابوري (٣/ ٥٤٥)، تفسير الرازي (١٦/ ١٧٠)، ابن عادل (١٠/ ٢٣٦).

(٢) انظر: البرهان (٢/ ٢٤٧).

والإلهاب نظير ما مرَّ^(١). ففيه التَّهْيِيج والتَّثْبِيت وقطع الأطماع. والحاصل أنَّه يحتمل أن يكون الخطاب للنَّبِيِّ ﷺ، ويكون من باب التَّهْيِيج لزيادة الثَّبات، أي: فاثبت ودم على ما أنت عليه من انتفاء المرية عنك؛ لأنَّه ﷺ معصوم من الامتراء^(٢). والتَّحْقِيق أنَّه من العامِّ الَّذي لا يقصد به مخاطب معيَّن، وعلى ذلك يبقى أيضًا معنى التَّهْيِيج ..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْإِلَهِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]. أي: لا ينصرك ناصر، ولا يقيك منه واق، وهذا من باب التَّهْيِيج والبعث للسامعين على الثَّبات في الدِّين^(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَحْذُومًا﴾ [الإسراء: ٢٢]. الخطاب للرَّسُولِ ﷺ، والمراد به أمَّته، وهو من باب التَّهْيِيج والإلهاب، أو كل أحد ممَّن يصلح للخطاب^(٤).

(١) روح المعاني (١١/١٩٠)، وانظر: تفسير الرَّاзи (١٧/١٦٠-١٦١)، (٢٣/١٤٨).

(٢) انظر: الكشف (٢/٢٥٣)، تفسير الرَّاзи (٤/١٣١)، (١٧/١٦٠-١٦١).

(٣) الكشف (٢/٣٦٣)، تفسير النَّسفي (٢/٣٦٢). ونحوه: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْإِلَهِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنْكَ الْإِلَهِ لَئِنْ أَتَيْنَاكَ الْفُلُكَيْنِ﴾ [البقرة: ١٤٥]. انظر: تفسير أبي السُّعود (١/١٥٣).

(٤) انظر: تفسير أبي السُّعود (٥/١٦٥).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ فِصْحَ آيَاتٍ يَبْتَغِ فِصْلًا مِّنْهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ۝﴾ [الإسراء: ١٠١]. قيل: هو من باب التّهيج والإلهاب. وقيل: للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت في كتابهم، وليس المقصود حقيقة السؤال بل كونهم - أعني المسؤولين - من أهل علمه، ولهذا يؤمر مثلك بسؤالهم. وقيل غير ذلك^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ۝﴾ [طه: ١٦]. ﴿فَلَا يَصُدُّكَ﴾ خطاب لموسى ﷺ. وزعم بعضهم أنه لنبينا ﷺ لفظًا، ولأُمَّته معنى، وهو في غاية البعد^(٢). ﴿عَنْهَا﴾، أي: الساعة، والمراد عن ذكرها ومراقبتها. وقيل: عن الإيمان بإتيانها. ورُجِّح الأول بأنه الأليق بشأن موسى ﷺ، وإن كان التّهي بطريق التّهيج والإلهاب^(٣). ونحوه قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ۝﴾ [٨٦] وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٦-٨٧]^(٤).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ

(١) انظر: روح المعاني (١٤٨/١٥).

(٢) انظر: البحر المحيط (٢١٩/٦)، روح المعاني (١٤٨/١٥).

(٣) روح المعاني (١٧٣/١٦).

(٤) انظر: الكشف (٢٥٣/٢)، (٢١/٣)، (١٩٤/٣)، تفسير أبي السعود (٩/٦)، التّسفي

(٢٥٢/٢).

اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴿[النور: ٢]﴾. ومن المعروف أنَّ المخاطبين بهذا القول الكريم قد كانوا مؤمنين بالله ﷻ، واليوم الآخر بالفعل، ولذا فإنَّه ليس القصد بهذا الشرط إلى حقيقة التعليق على فعله -حسبما هو مقتضى الشرط عادة- ولا شكَّ في وقوع مضمون فعل الشرط المعلق عليه -أعني كونهم مؤمنين- حسبما هو مقتضى التعبير ب: (إِنْ) الموضوعة للشك في وقوع فعل الشرط عكس (إذا) الموضوعة للتحقق من وقوعه. ليس القصد إلى هذا ولا ذاك حتَّى يؤخذ منه أنَّ إيمانهم عند خطابهم بالآية الكريمة كان محلاً للرَّيبة أو بمعزل من التَّحقيق^(١). فإنَّ قوله ﷻ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ من باب (التَّهْيِيج والإلهاب) كما يقال: (إِنْ كُنْتَ رجلاً فافعل كذا)، ولا شكَّ في رجوليَّته. وكذا المخاطبون هنا مقطوع بإيمانهم لكن قصد تهيجهم، وتحريك حميتهم ليجدُّوا في طاعة الله ﷻ، ويجتهدوا في إجراء أحكامه على وجهها^(٢)؛ فإنَّ الإيمان يقتضي الجدَّ في طاعة الله ﷻ، والاجتهاد في إقامة حدوده وأحكامه، وهو من باب التَّهْيِيج^(٣). ومثله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، فهو من باب التَّهْيِيج كسابقه.

(١) انظر: تفسير سورة الثَّور، أ.د إبراهيم خليفة (ص: ١٥٣).

(٢) انظر: روح المعاني (٨٣/١٨)، تفسير ابن جزري (١٩٣/١-١٩٤)، البحر المديد (٣/١٨٠).

(٣) الكشاف (٤٧/٣)، وكذلك ذكر هذا المعنى البيضاوي في (تفسيره) (٤/١٧٣)، وأبو

السَّعود (١٥٦/٦)، البحر المديد (٤٨/٥).

ونحوه قوله ﷻ:

﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧].
ففي الآية: التهيج في الاتعاض والانتزاع^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَحِشْتُكَ مِنْ سَيِّئِ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [النمل: ٢٢]. وفي ضمن هذا: أني أتيتك بأمر قد عرفته بحيث أحطت به، وهو خبر عظيم له شأن، فلذلك قال: ﴿وَحِشْتُكَ مِنْ سَيِّئِ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾، و(النبا) هو الخبر الذي له شأن، والنفوس متطلعة إلى معرفته، ثم وصفه بأنه نبي يقين لا شك فيه ولا ريب، فهذه مقدمة بين يدي إخباره لنبي الله ﷻ بذلك النبا استفرغت قلب المخبر لتلقي الخبر، وأوجب له التشوف إلى سماعه ومعرفته، وهذا نوع من براعة الاستهلال، وخطاب التهيج^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]^(٣). وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُطِيعُوا الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعُوا أَرْسُلَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [٥٨].

(١) انظر: تفسير الرازي (٢٣/ ١٨١).

(٢) انظر: شفاء العليل، لابن القيم (ص: ٧٠-٧١).

(٣) ونحوه: ﴿وَلَا تُطِيعُوا مَنْ أَفْغَلْنَا قُلُوبَهُ عَنْ دُرَرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]، ﴿وَلَا تُطِيعُوا كُلَّ حَلَّافٍ مِّنْهُمْ﴾ [القلم: ١٠]، ﴿وَلَا تُطِيعُوا مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

[الأحزاب: ٤٨]. فقد حمل غير واحد النهي على التّهيج والإلهاب من حيث إنه ﷺ لم يطعمهم حتى ينهى، وجعله بعضهم من باب: (إِيَّاكَ أَغْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةٌ)^(١). وقد بينت ذلك مع نسبة المثل في (خطاب عين والمراد غيره). والحاصل أن المراد التّهيج أو الدوام والثبات على ما كان عليه^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿يَسَاءَ الَّذِي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُ فَلَا تَخْضَعَنَّ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]. فمما قيل: المراد به التّهيج بجعل طلب الدنيا، والميل إلى ما تميل إليه النساء لبعده من مقامهنّ بمنزلة الخروج من التقوى^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِفُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]. قال

(١) انظر: الكشف (٢٤٨/٣)، روح المعاني (٤٦/٢٢)، وانظر: أضواء البيان (٣/٢)،

تفسير: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ٢]، (٨٣/٣)، (٣٤٠/٦)، (١٦٦/٧)،

تفسير: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وتفسير: ﴿إِنَّمَا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾

[الإسراء: ٢٣]، وانظر: تفسير الرازي (٣٠٢/١٧)، روح المعاني (١٣٠/٢٠)، (١١٧/٢٩).

(٢) انظر: تفسير الثّسفي (٤٤٤/٣)، تفسير أبي السعود (١٠٨/٧).

(٣) انظر: روح المعاني (٥/٢٢).

الحافظ ابن كثير: «قوله: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم؛ لأنهم أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من بين أظهرهم، كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله ﷻ وحده، ولهذا قال: ﴿أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾، أي: لم يكن لكم عندهم ذنب إلا إيمانكم بالله ﷻ رب العالمين، كقوله: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨]، وكقوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله ﷻ: ﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهْدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾، أي: إن كنتم كذلك فلا تتخذوهم أولياء، إن كنتم خرجتم مجاهدين في سبيلي باغين لمرضاتي عنكم فلا توالوا أعدائي وأعداءكم، وقد أخرجوكم من دياركم وأموالكم حنقاً^(١) عليكم، وسخطاً لدينكم^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنْ يَتَقَرَّبْكُمْ فَيُقَرَّبُوا لَكُمْ أَعْدَاءٌ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]. وكذلك نظائر هذه الآية، فهي أيضاً من (باب التهيج)، فمن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ﴾ [البقرة: ١٩١]، وقوله ﷻ: ﴿فَمَا تَنْفَقْتُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ [الأنفال: ٥٧]؛ فإن نصوص القرآن تدلُّ على أنَّ (الثقافة) بمعنى: الإدراك، وقوله ﷻ:

(١) (الحنق) الغبط، والجمع (حنائق)، كجبل وجبال، وقد (حنق)، أي: اغتاظ. مختار الصحاح، مادة: (حنق) (ص: ١٦٧)، الصحاح، للجوهري (٤/١٤٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٤٨).

﴿إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ، نصَّ على أَنَّ العداوة وبسط اليد واللسان بالسوء يكون بعد أن يتقوهم، مع أَنَّ العداء سابق بإخراجهم إياهم من ديارهم، فيكون هذا من باب التهيج وشدة التحذير^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلَّذِينَ آمَنُوا وَلَٰكِنَّ الْمَتَّقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

[المنافقون: ٨]. يقول الحافظ ابن كثير: «المقصود من هذا التهيج على طلب العِزَّة من جناب الله ﷻ، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد»^(٢). كما سبق في قوله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَن يُجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٤٤].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِن أَعْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ [القلم: ٢٢]. فقد ذكر

الراغب في (المفردات) والفيروزابادي في (البصائر) بيان معنى الحرث، وما يتصور في معناه حيث قال: (الحرث) هو إلقاء البذر في

(١) انظر: أضواء البيان (٨/٨٣)، وقال الحافظ ابن كثير: «هذا مع ما قبله من التهيج على عداوتهم وعدم موالاتهم». تفسير ابن كثير (٤/٣٨٤).

(٢) تفسير ابن كثير (١/٥٦٧). وهو كقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنِئْتُمْ عِندَهُمُ الْعِزَّةُ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]، ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥]، ﴿مَن كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

الأرض وتهيتها للزَّرع، ويسمى المحروث: حَرْثًا، قال عَلَيْكَ: ﴿وَأَنْ
أَعْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ ، وتُصوَّر منه العمارة التي تحصل عنه في قوله عَلَيْكَ:
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ [الشورى: ٢٠] الآية.
والدُّنيا مَحْرَثٌ للنَّاسِ، وهم حُرَّاثٌ فيها. وتُصوَّر من معنى الحرث:
معنى التَّهْيِيجِ، فقليل: حرث النَّارِ، ولما تهيج به النَّارُ محرث، ويقال:
أحرث القرآن، أي: أكثر تلاوته، و(حرث ناقتة) إذا استعملها^(١).

● خاتمة:

ويتبيَّن ممَّا سبق أنَّ التَّهْيِيجَ بشقِّه المحمود هو من أساليب التَّربية
التي لها صلة بالانفعالات النَّفْسِيَّةِ، حيث إنَّ فيها: الحثُّ والحضُّ على
الفعل إن كان خيرًا، والتَّنْفِير والتَّحْذِير منه إن كان شرًّا، وفي ذلك ما
فيه من الخير والمصلحة للمكلَّف.

(١) بتصرف عن (المفردات)، مادَّة: (حرث) (ص: ١١٢)، وبصائر ذوي التَّمييز، الباب
السَّابع، في وجوه الكلمات المفتحة بحرف الحاء (٢/ ٢٨٢).

المطلب السادس: خطاب الإغضاب

● أ. ما دل بمادته على الإغضاب...

أمّا ما يدلُّ بمادته على (الإغضاب) فقوله ﴿...﴾:

﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اِنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

قال الخليل في (العين): ﴿ءَاسَفُونَا﴾ «أي: أغضبونا»^(١). وقولهم: (أسفني المَلِك)، أي: أحزنني، وأسِفَ فلان يَأْسِفُ فهو أَسِيفٌ متأسِّف. و(الأسِيفُ): السَّريعُ البكاء والحُزن، و(الأسِيفُ): العَبْدُ»^(٢).

(١) انظر: تفسير الطُّبري (٨١/١)، (٦٤/٩)، (١٩٦/١٦)، (٨٤/٢٥)، تفسير القرطبي

(١٠١/١٦)، ابن كثير (١٣١/٤)، روح المعاني (٢٠٥/١٥)، الدر المنثور (٣٨٣-٣٨٤).

(٢) العين، مادة: (أسف) (٣١١/٧)، لسان العرب (٥/٩)، وانظر: الكشاف (٤٩٣/٣)،

تفسير أبي السعود (٥٠/٨)، البحر المحيط (٢٤/٨)، مفردات القرآن (ص: ١٧).

أقول: وقد ورد في الاحتراز عن (الإغضاب) حيث يكون مانعاً من الفهم قول الله عز

وجل: ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا سُئِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٢٥]. أضاف

الإجرام إلى النَّفس، وقال في حقهم: ﴿وَلَا سُئِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ذكر بلفظ العمل لثلا

يحصل الإغضاب المانع من الفهم. وقوله: ﴿لَا تُسْأَلُونَ﴾، ﴿وَلَا سُئِلُ﴾ زيادة حث

على النَّظر؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ إذا كان مؤاخذاً مجرمه، فإذا احترز نجا، ولو كان البريء

يؤاخذ بالجرم لما كفى النَّظر. انظر: تفسير الرَّازي (٢٥٧/٢٥)، ابن عادل (١٣/

١٤٩). ومن النَّصائح: (قدَّر في نفسك الصَّبر والحلم، لئلاَّ تستفزَّك الإغضاب).

التَّحبير شرح التَّحرير (٣٧٢١/٧)، شرح الكوكب المنير (٣٨٨/٤). وقد قال شيخُ

الإسلام ابنُ تيمية -رحمه الله-: «النَّاس ثلاثة أقسام، إمَّا أن يعترف بالحقِّ ويتَّبعه،

فهذا صاحب الحكمة، وإمَّا أن يعترف به لكن لا يعمل به، فهذا يوعظ حتَّى يعمل، =

وينبغي التنبه إلى أن غضب الله ﷻ ليس كغضب المخلوقين، والفرق بين غضبه ﷻ وغضبهم كالفرق بين صفات الله ﷻ وصفات المخلوقين. وتنظر الآيات التي جاء فيها ذكر الغضب.. (البقرة: ٩٠، النساء: ٩٣، المائدة: ٦٠، الأعراف: ٧١، الأعراف: ١٥٢، النحل: ١٠٦، طه: ٨٦، النور: ٩، الشورى: ١٦، الفتح: ٦، المجادلة: ١٤، الممتحنة: ١٣). والمعنى في هذه الآيات واضح..

● ب. ما كان القصد منه إغضاب المخاطب..

أما (إغضاب المخاطب) فإنه ذكر أوصافٍ تقتضي ذلك. وقد ذكر هذا اللون من ألوان الخطاب الزرّكشي في (البرهان)^(١).

ولم أجده في أقوال المفسرين مصرّحاً به إلا أن يفهم من ثنانيا المعاني -سوى ما ذكره البقاعي في (نظم الدرر) في تفسير قول الله ﷻ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢]، حيث قال: «دلّ على كذبهم أيضاً بإنكاره

= وإما ألا يعترف به، فهذا يجادل بالتي هي أحسن؛ لأنّ الجدل فيه مظنة الإغضاب، فإذا كان بالتي هي أحسن حصلت منفعتها بغاية الإمكان كدفع الصّائل. مجموع الفتاوى (٢/٤٥)، وانظر: الصّواعق المرسلة (٤/١٢٧٦). ومما سبق يتبيّن أنّ مفهوم (الإغضاب) هنا إنما هو جعل أحد غضباناً بالفعل أو القول قصداً، وهو يختلف عمّا نحن بصدد بيانه، وهو الشقّ الآخر من (الإغضاب). وقد قال أهل اللغة: (الحلم): الأناة والعقل، و(حلم): تأنّي وسكن عند غضب، أو مكروه، مع قدرة، وقوة. و(الحليم): الذي لا تستخفه الأفعال المؤذية، ولا يستفزه (الإغضاب)...

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٤٨).

موبخاً لهم في أسلوب الخطاب زيادة في الإغضاب في قوله: ﴿أَصْطَفَى
الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ [الصافات: ١٥٣-١٥٤]
بهمزة الاستفهام الإنكاري، ومن أسقطها فهي عنده مقدرة مرادة^(١)،
أي: أخبروني هل اختار هذا السيد الذي أنتم مقرؤون بتمام عمله،
وشمول قدرته، وعلو سؤدده ما تسترذلونه؟ ولما كان التعبير بالبنات
أكره إليهم من التعبير بالأنثى، والتعبير بالابن أحب إليهم من التعبير
بالذكور. وأنص على المراد؛ لأن الذكر مشترك بين معان، قال:
البنات اللاتي تستنكفون أنتم من لحوقهن بكم، وتستحيون من نسبتهن
إليكم، حتى أن بعضكم ليصل في إبعادهن إلى الواد على البنين، فكان
حيثُ نظرته لنفسه دون نظر أقلكم فضلاً عن أجلكم، ولذلك عظم
حسناً، وتناهى بلاغة قوله: ﴿مَا لَكُمْ﴾ ، أي: يا معاشر العرب
المدّعين لصحة العقول، وسداد الأنظار والفهوم: أي شيء لكم من
الخير في هذا المقال؟ ثم زاد في التّقرّيع عليه بقوله معجباً منهم: ﴿كَيْفَ
تَحْكُمُونَ﴾ ، أي: في كل سألناكم عنه بمثل هذه الأحكام التي لا تصدر

(١) قال ابن خالويه في (السبعة في القراءات): «قرأ كلهم: ﴿أَصْطَفَى﴾ مهموزاً، واختلف عن
نافع فروى المسيبي وقالون وأبو بكر بن أبي أويس: ﴿لَكَذِبُونَ﴾ (١١) ﴿أَصْطَفَى﴾ مهموزاً.
وروى ابن جاز وإسماعيل عن نافع وأبي جعفر: ﴿لَكَذِبُونَ﴾ (١١) ﴿أَصْطَفَى﴾ غير مهموز ولا
ممدود. ورأيت من أصحاب ورش من يرويه: ﴿لَكَاذِبُونَ﴾، اضطقى غير مهموز ولا
ممدود، مثل رواية إسماعيل. أخبرني بذلك محمد بن عبد الرّحيم الأصبهاني عن أصحابه عن
ورش. وإذا ابتدأت في قراءة نافع في رواية إسماعيل وابن جاز فبالكسر ﴿أَصْطَفَى﴾. وفي
الرواية الأخرى: ﴿أَصْطَفَى﴾ -بالفتح-. السبعة في القراءات (ص: ٥٤٩)، والحجة
(ص: ٦١٢).

عَمَّنْ له أدنى مسكة من عقله، وعَبَّرَ بالحكم لاشتهاره فيما يَبْتَثُ فيأبى النَّقْصَ، فكان التَّعبير به أعظم في تقريبهم حيث أطلقوه على ما لا أوهى منه. ولما كان هذا شديد المنافاة للعقول، عظيم البعد عن الطَّبَاعِ، حسن جداً قوله أيضاً مَبَكَّتًا: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [١٥٥: الصافات]، أي: فَإِنَّ الأمر في غاية الظهور لما في عقولكم وطباعكم من أنكم لا ترضون لأنفسكم أحسن المنازل، فكيف يختاره لنفسه ربُّكم الذي بيده كلُّ شيء؟ وإنَّه لا يكون الولد مطلقاً إلا ممن له جنس، فيكون محتاجاً إلى جنسه، والمحتاج لا يكون إلهاً بوجه^(١). وفي ذلك ما فيه من (الإغضاب) ممَّنْ شأنه كذلك، والإنكار عليه أيما إنكار.

وأما ما جاء صريحاً في (الإغضاب)، من حيث التَّصريح بالوصف الذي هو سبب الإغضاب ممَّنْ هذا شأنه... فمن ذلك قوله ﷻ: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [٨٩: النساء: ٨٩]. ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [٥٠: الكهف: ٥٠].

(١) بتصرف عن (نظم الدرر) (٦/٣٤٨).

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١]،
وقد سبق أن فيه التهييج والإلهاب، وكذلك فإن معنى الإغضاب فيه واضح.

ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿إِنْ يَشَقُّوَكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: ٢].
ومن ذلك قوله ﷺ:

﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَالْأَرْحَامِ مِنْ دِينِكُمْ وَظَنَهُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ قَوْلُهُمْ وَمَنْ يُؤْفَكْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٩].
● ج. النتائج..

ويتبين مما سبق أن الإغضاب يتعلق بحال الإنسان ومشاعره، وهو بشقه الإيجابي محفَّز للمخاطب على الفعل أو الترك، وأن الخطاب القرآني لا يخاطب عقل الإنسان فحسب، وإنما يخاطب فيه أيضاً العاطفة والمشاعر.. ويترك الإغضاب من الأثر في نفس المخاطب ما لا يخفى، فلذلك أمر الله ﷻ المسلم أن يدعو إلى هذا الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن. حيث قال ﷺ: ﴿أَدْعُ

إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥]، وهذا التنوع في أساليب الدَّعوة إنما يختلف باختلاف المدعو.. وأهل الحكمة مثلاً يغلبُ عليهم النَّظر والاستدلال، وأهل الموعظة يغلبُ عليهم التَّأثُّرُ العاطفيُّ بالترغيب والترهيب مثلاً... إلخ. وذلك لا ينال بأحسن من أساليب القرآن وحججه القرآن ومناظراته؛ فَإِنَّهُ كَفِيلٌ بِذَلِكَ عَلَى أَتَمِّ الوجوه لمن تأمَّله وتدبَّره، ورزقَ فهمًا فيه. فقد وضع القرآن منهجًا متكاملًا للدَّعوة إلى الله ﷻ، وفصَّله العلماء ببيان ما يشترط في الدَّاعي والمدعو إليه، ومن مراعاة حال المدعو.



المطلب السابع خطابُ التشجيع والترغيب وخطابُ التنفير والترهيب

● توطئة

إنَّ التشجيع والترغيب المراد هنا هو الحثُّ على الاتِّصاف بالأوصاف الجميلة، ويمكن أن يقال: إنَّ ذلك يفهم من ذكر الصفات الحسنة، والتي ينبغي على المخاطب أن يتَّصف بها حيث أرشده إلى ذلك النصّ..

وقد جمعت بين هذين الخطابين؛ لأنَّهما صنوان، فالترغيبُ في الصفات الحسنة يقتضي التنفير من ضدها، وكذلك التنفير من الصفات السيئة يقتضي الترغيب في ضدها.

فالترغيب بالإيمان - مثلاً -؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو حاله إمَّا أن يكون مؤمنًا أو يكون كافرًا، فإذا ترك الكفر صار مؤمنًا، وإذا لم يؤمن فهو كافر؛ لأنَّ العقلَ البشري لا يخلو من الشيء ونقيضه، فإذا خلا من الإيمان بالله ﷻ، اشتغل بالإيمان بسواه، وإلى هذه الحقيقة أشار النصّ: ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنْتُمْ تُصِرُّونَ﴾ [يونس: ٣٢]، يعني لا فراغ، ولا يمكن أن يرتفع النقيضان، إمَّا إيمان بالله ﷻ، أو إيمان بسواه، ويكفر به. سيؤمن مثلاً بهواه كما قال الله ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾

[الجاثية: ٢٣]، ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَغْيِرْ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. وأحد الأمرين يرفع صاحبه، والآخر يهوي به - كما قال الله ﷻ -: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦]. ومن هنا نجد أنَّ الحثَّ على الإيمان عن طريق التشجيع، والتنفير من الكفر، فمن التشجيع قوله ﷻ على سبيل المثال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّالِحِينَ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٦٢﴾ [البقرة: ٦٢]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨]،
﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ [يونس: ٩]، ففي هذه الآيات:
الحثُّ على الإيمان، والعمل الصَّالح؛ لأنَّ ذكر الثَّواب يستلزم
التَّشجيع والحثُّ والإغراء.

والتنفير من الكفر في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ
اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ [النساء: ١٣٧]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ
فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]، ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
وُرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

أما النَّظَرُ في أساليب التَّرهيب والتَّريع في الخطاب القرآني فلا بدَّ

من بيان المعنى الاصطلاحي الذي يدلُّ على هذا المعنى وتوضيح أهميته، مع ذكر نماذج من القرآن الكريم.
وبيان ذلك على النحو التالي:

أولاً: بيان معنى هذا الاصطلاح وأهميته . . .

إنَّ المقصود بالترغيب: كلُّ ما يشوِّق المدعوَّ إلى الاستجابة، وقبول الحقِّ، والثبات عليه. وإنَّ المقصود بالترهيب كلُّ ما يخيف، ويحذر المدعوَّ من عدم الاستجابة، أو رفض الحقِّ، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله. والملاحظ أنَّ القرآن الكريم مملوءٌ بما يرغِّب النَّاسَ في قبول دعوة الإسلام والتَّحذير من رفضها، ممَّا يدلُّ دلالةً قاطعةً على أهميَّة هذا الأسلوب في الدَّعوة إلى الله ﷻ، وعدم إهماله من قبل الدَّاعي المسلم.

وكذلك ما يرغِّب بالجنَّة والعمل الصَّالح، ويرهِّب من النَّار، ومن مخالفة أمر الله ﷻ.

والأصل في التَّربُّع أن يكون في نيلِ رضوان الله ﷻ، ورحمته وجزيل ثوابه في الآخرة، وأن يكون التَّربُّع بالتَّخويف من غضب الله ﷻ، وعذابه في الآخرة، وهذا هو نهج رسل الله الكرام -عليهم الصَّلَاة والسَّلَام- كما بيَّنه القرآن الكريم.. وجاءت به السُّنة النَّبَوِيَّة المطهَّرة.

فقد جاء الرُّسل بإفادة العقل ما لا يستقلُّ بمعرفته، بل لا بدَّ له أن يطلبه في وحي الله ﷻ، وفي نبأ السَّماء من الغيبيَّات كذات الله ﷻ

وصفاته، والسَّمْعِيَّات كذكر صفة الجنَّة، وصفة النَّار، يرغَّبون بذكر الجنَّة وصفاتها، ويرهَّبون بذكر النَّار وصفاتها..، قال الله ﷻ عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

كما أنَّ التَّرهيب من عاقبة أمر يولد الدَّافعيَّة، لاجتنابه والابتعاد عنه، كما قال الله ﷻ: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى: ١٠]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، كما جاء التَّرهيب من الزُّنا عن طريق خوف العاقبة في قول الله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فالترغيب والترهيب هما الجناحان اللذان يرتقي بهما الدعاة بالمدعويين إلى سُدَّةِ النجاة، ولا ينفع واحد منهما، وإنما هما صنوان، وبمثابة كفتي الميزان. ولكن ينظر في ذلك إلى حال المدعو، فالدعوة كما تكون بالموعظة تكون كذلك بالحكمة وإقامة الحجة والبرهان، والمجادلة بالتي هي أحسن، فالحكيم يعرف كيف يضع بذور دعوته، كما بينت ذلك في غير موضع.



ثانيا: نماذج من أساليب الترغيب والترهيب في الخطاب القرآني . . .

● أ. الترغيب بالجنة والترهيب من النار:

والآيات في وصف الجنة والترغيب بالعمل الذي يوصل إليها كثيرة جداً، وكذلك الترهيب من النار، فمن ذلك على سبيل المثال قوله ﷻ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ

﴿١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ

﴿١٢٢﴾ [إبراهيم: ٢٣]، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٢٢﴾

وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٢٣﴾

تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٢٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ عَلَىٰ عِلَّتِكُمْ فُكُنتُمْ بِهَا

تُكَاذِبُونَ ﴿١٢٥﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٥].

● ب. الترغيب والترهيب بذكر الجزاء:

وكما يكون الترغيب والترهيب بذكر الجزاء في الآخرة، فإنه يجوز

أن يكون بما يصيب المدعويين في الدنيا من خير في حالة استجابتهم،

وما يصيبهم من شرٍّ في حالة رفضهم، ولا ينبغي أن يغفل الداعي أبداً

عن الترغيب والترهيب بالجزاء والعاقبة.

ومن الأدلة على ذلك: قال الله ﷻ حكاية عن قوم هود عليه السلام لقومه:

﴿وَيَقُولُوا اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُؤْوُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا

وَيَنْزِلُكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُرُوبِكُمْ وَلَا تَتْلُوا تَجْرِيمًا ﴿٥٢﴾ [هود: ٥٢]، انظر

الآيات من سورة [هود: من (٥٢) إلى (٦٠)].

وقال الله ﷻ:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ
وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النور: ٥٥].

وقال ﷻ:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ أُمَمَةً
وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٦﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا
مِّنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: ٥ - ٦].

وقال ﷻ حكاية عن قوم نوح عليه السلام لقومه:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١١﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١٢﴾
وَيُمِدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِي بَيْنَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلُ لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

• ج. الترغيب بذكر النعم، والترهيب من النقم:

ومن أساليب الترغيب والترهيب تذكير القوم بما هم عليه من نعم،
وأن من شأن ذلك أن يدعوهم إلى طاعة الله ﷻ الذي أنعم عليهم
بهذه النعم، والتحذير من فقدهم لها إذا امتنعوا من الاستجابة وكفروا
بالله ﷻ، ومع زوال النعم نزول العذاب. ومن الآيات الكريمة المبيّنة
لهذا النوع من أساليب الترغيب قوله ﷻ عن هود عليه السلام:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً

فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٤﴾ [الأعراف: ٦٩].

وعن صالح عليه السلام:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
تَتَّبِعُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ يَوْمًا﴾ فَاذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ وَلَا
تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال ﷺ عن هود عليه السلام أيضًا:

﴿وَاتَّقُوا الَّتِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمِ وَبَيْنَ ﴿١٣٣﴾ وَحَنَّتِ وَعَيْنُ
﴿١٣٤﴾ إِنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾﴾ [الشعراء: ١٣٢-١٣٥].

وقال ﷺ عن قريش:

﴿لَا يَلَيْفُ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ لَأَلْفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ
هَذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّتِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١-٤].

ولمَّا كَانَ الْإِنْسَانُ يَعْيشُ فِي الدُّنْيَا وَيَشَاهِدُهَا، وَيَحْسُ بِهَا، وَيَتَعَرَّضُ
لِإِغْرَاءِهَا مِمَّا قَدْ يَجْرُهُ إِلَى الرُّكُونِ إِلَيْهَا وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَنَسْيَانِ الْآخِرَةِ، فَلَا
بَدَّ إِذْنٍ مِنْ تَنْفِيرِ الْمَدْعُوِينَ مِنْ إِثَارِهَا عَلَى الْآخِرَةِ، لَا مِنْ الْفِرَارِ مِنْهَا جَمَلَةً
وَاحِدَةً، مَعَ بَيَانِ حَقِيقَتِهَا وَقِيَمَتِهَا وَقَدَرِهَا بِالنَّسْبَةِ إِلَى الْآخِرَةِ وَنَعِيمِهَا. وَقَدْ
بَيَّنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ خَيْرَ بَيَانٍ مِمَّا يَجْعَلُ أَيَّ مُسْلِمٍ عَاقِلٍ يُوَثِّرُ الْآخِرَةَ
عَلَى الدُّنْيَا، بَلْ وَيَجْعَلُ الْمَدْعُو - غَيْرَ الْمُسْلِمِ - مُنْجَذِبًا إِلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ فِي
مَوَازَنَةِ الدُّنْيَا مَعَ الْآخِرَةِ، وَقَدْ يَجْرُهُ ذَلِكَ إِلَى الْإِيمَانِ، لَمَّا يَحْسُهُ مِنْ صَدَقِ
هَذَا الْبَيَانِ وَالتَّصْوِيرِ لِقِيَمَةِ الدُّنْيَا.

يقول ﷻ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَيْنَاهَا أَمْرًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٤].

ويقول الله ﷻ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].

د. سرد النماذج التي تدل على التشجيع:

وأستعرض هنا أيضاً الآيات التي فيها التشجيع والحث من حيث بيان أن الله ﷻ يحب من اتصف بالصفات المذكورة كما في الآيات التالية:

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [آل عمران: ٧٦]، ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٤]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل

عمران: ١٥٩، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]، ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، ﴿وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه:

﴿أَوْعَيْتُمْ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

ومن ذلك:

﴿فَاتَّبِعُوا إِلَاتِهِمْ عَهْدَهُ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]،
 ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]،
 ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَّخِذِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، ﴿لَا يَنْهَكُكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَيْنَ مَرْصُوسٍ﴾ [الصف: ٤].



ثالثاً: تفسير الآيات

وبعد هذا الاستعراض آتي على تفسير الآيات ذات الصلة.. فمن ذلك قول الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]^(١). قوله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ خطابٌ للمؤمنين على وجه التشجيع لهم، والأمر بالصبر على الشدائد. ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾، أي: لا تدخلوا الجنة حتى يصيبكم مثل ما أصاب من كان قبلكم. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾، أي: حالهم، وعُبر عنه بالمثل؛ لأنه في شدته يضرب به المثل. وزلزلوا بالتخويف والشدائد^(٢). فحق المؤمنين التشجيع والصبر تأسيًا بمن قبلهم.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]، ففي الآية: تشجيع المؤمنين على القتال بإعلامهم بأن الفرار من الموت لا ينجي، فإذا علم الإنسان أن فراره من الموت أو القتل لا ينجيه هانت عليه مبارزة الأقران، والتقدم في الميدان. وقد أشار ﷻ أن هذا هو مراده بالآية حيث

(١) ومثله قوله عز وجل: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

(٢) انظر: تفسير ابن جزى (١/١٤٥)، روح المعاني (٢/١٠٣).

أتبعها بقوله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٤] ^(١). وصرح بما أشار إليه هنا في قوله ﷻ: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦]. فهذه أعظم آية في التشجيع على القتال؛ لأنها تُبين أن الفرار من القتل لا ينجي منه، ولو فرض نجاته منه فهو ميّت عن قريب ^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]. مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة ^(٣)، وذلك أنه لما أمر المؤمنين بالقتال في سبيل الله ﷻ، وكان قد قدم قبل ذلك قصّة الذين خرجوا من ديارهم حذر

(١) ونحوه: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِمَّنْ ذَكَرَ أَنَّيُّ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنِ هَاجِرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتِلُوا وَقَاتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]، ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا أُولَئِكَ أَطْعَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتِلُوا وَكَلَّا وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ [الحديد: ١٠].

(٢) انظر: أضواء البيان (١/١٥٣).

(٣) يعني قوله عز وجل: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعَدُّوا إِلَيْكَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

الموت، إمّا بالقتال أو بالطّاعون، على سبيل التشجيع والتّثبيت للمؤمنين، والإعلام بأنّه: لا ينجي حذرٌ من قدر..^(١). ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمِ مِّنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَهُ كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]. قوله ﷻ: ﴿قَالَ﴾ ، أي: على سبيل التشجيع لذلك البعض، وهو استثناءٌ بيانيٌّ، ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ ، أي: يتيقنون ﴿أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ﴾ بالبعث والرجوع إلى ما عنده، وهم الخُلص من أولئك، والأعلون إيمانًا، فلا ينافي وصفهم بذلك إيمان الباقيين؛ فإنّ درجات المؤمنين في ذلك متفاوتة. ويحتمل إبقاء الظنّ على معناه، والمراد: يظنون أنّهم يستشهدون عمّا قريب، ويلقون الله ﷻ. وقيل: الموصول عبارة عن المؤمنين كافّة^(٢). وقوله ﷻ: ﴿يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ ، «أي: بحكمه وتيسيره؛ فإنّ دوران كافّة الأمور على مشيئته ﷻ، فلا يذلّ من نصره وإن قلّ عدده، ولا يعزّز من خذله وإن كثرت أسبابه وعدده. وقد روعي في الجواب نكتهً بديعة حيث لم يقل: (أطاعت بفئة كثيرة)..مبالغة في ردّ مقاتلهم وتسكين قلوبهم...، وإذا حمل التّنين في ﴿فَأَتَتْ﴾ الأولى للتحقير، وفي ﴿فِتْنَةً﴾ الثّانية للتّعظيم كان أبلغ في التشجيع»^(٣).

(١) البحر المحيط (٢/٢٦٢)، روح المعاني (٢/١٧٥).

(٢) انظر: تفسير أبي السّعود (١/٢٤٣)، روح المعاني (٢/١٧١)، وقد ذكر معنى التّرجيب أيضا

الرّازي في (تفسيره) (٦/٥٠٥)، وكذلك الثّيسابوري في (تفسيره) (١/٦٧١).

(٣) روح المعاني (٢/١٧١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧]. يبلغ التشجيع في هذه الآية أن يجعل الله ﷻ قبول توبتهم - متى أخلصوا فيها - حقاً عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم، وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]^(٢). فهذه الآية خبر يقتضي الحث على فعل الخير، فالله ﷻ يخبر أنه لا يظلم مثقال ذرة. والمراد من هذا الخبر التشجيع على فعل الخير، فإذا كان الله ﷻ لا يظلم مثقال ذرة فبادروا بالصدقات، وفعل المعروف.. ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]. قيل: معنى نفي الظلم

(١) انظر: الظلال (٤/٦٠٣).

(٢) ونحوه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

هنا أنهم لا يظلمون بنقص ثواب جهادهم، فيكون موقعه موقع التشجيع لإزالة الخوف^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٩٦﴾ [النساء: ٩٥-٩٦]. ففي الآية التشجيع على الجهاد في سبيل الله ﷻ في وجه الآلام والمتاعب التي تصيب المجاهدين. وذلك في تصوير ناصع لحال المؤمنين المجاهدين، وحال أعدائهم المحاربين.. كما قال: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٠٤﴾ [النساء: ١٠٤]^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَنْبَغُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١﴾ [الأعراف: ٢]. «من باب التشجيع، والإخبار في معنى النهي أبلغ من صريح النهي، كقوله ﷻ: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢] لما فيه من إيهام أن المنهي مسارع إلى

(١) انظر: التحرير والتنوير (١٢٧/٥).

(٢) انظر: الظلال (٧٣٨-٧٣٩/٥)، وانظر: تفسير الثعالبي (٤١٠/٤)، المحرر الوجيز

(٩٨/٢)، المنار (٢٢٦/١١).

الانتهاء. وكذا الإخبار في معنى الأمر كقولك: (تذهب إلى فلان تقول: كذا وكذا) تريد الأمر. وقولهم: (ناهيك به) من النهي، وهو صيغة مدح مع تأكيد طلب كأنه ينهاك عن طلب دليل سواه، يقال: (زيد ناهيك من رجل)، أي: هو ينهاك بجده وغناؤه عن تطلب غيره^(١).
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ۖ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٩ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝١٠ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَالِقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١١﴾ [الأنفال: ٩-١٢]. وفي ذلك التشجيع والاطمئنان والصبر على اللقاء^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوهُمْ وَأَقْعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [التوبة: ٥]. فقوله ﷻ:
﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ أمر بقتال المشركين، فخرج الأمر بذلك بلفظ:

(١) الكلبيات (ص: ١٤٦٠).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/ ٤٦٣).

(اقتلوا) على جهة التشجيع، وتقوية النفس، وأنهم لا منعة عندهم من أن يقتلوا^(١).

ونحوه قوله ﷻ:

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا يَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] كذلك جاء الأمر هنا بالقتال على سبيل التشجيع وتقوية النفس... ولكن ذلك القتال له شروط وضوابط ليس هنا محل ذكرها..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]. فقد قيل: كانت الرحمة غالبة على النبي ﷺ، والشفقة على الأمة من خلاله، فلما أُنذر المكذبون بهذا الوعيد تحركت الشفقة في نفس الرسول ﷺ، فربط الله ﷻ على قلبه بهذا التشجيع أن لا يحزن عليهم إذا أصابهم ما أُنذروا به^(٢). وكان من رحمته ﷺ حرصه على إقلاعهم عما هم عليه من تكذيبه والمكر به، فألقى الله ﷻ في روعه رباطة جأش بقوله: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾^(٣).

(١) المحرر الوجيز (٨/٣)، وانظر: البحر المحيط (١١/٥)، تفسير الرازي (١٤٠/١٠).

(٢) ونحوه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضَ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨]، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠].

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/٢٦).

● خطاب التنفير:

أما (خطاب التنفير)، فإني أستعرض أول ما أستعرض ما كان هذا اللون من الخطاب القرآني واضحاً فيه التنفير..

وقد سبق بيان أن الكثير من الآيات في هذا المطلب فيها المقابلة بين الترغيب والترهيب - كما في الآية الآتفة الذكر -.

ومن الآيات التي جاء فيها معنى التنفير واضحاً.. قوله ﷻ:

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ

أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل

عمران: ٥٧]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُحْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ

كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

[المائدة: ٦٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧]،

﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ

لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، ﴿يَبْنِي مَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ

مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [٣١]

[الأعراف: ٣١]، ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ

﴿٥٥﴾ [الأعراف: ٥٥]، ﴿وَمَا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْزِلْ إِلَيْهِمْ عَلَى

سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾ [٥٨] [الأنفال: ٥٨]، ﴿لَا جَرَمَ عَلَى اللَّهِ

يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [٣٣]

[النحل: ٢٣]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [٣٨: الحج]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، ﴿وَأَتَّبِعْ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الذَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِينَ﴾ [٧٧: القصص]، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [٤٥: الروم]، ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمَسْ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠]، ﴿فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] .

وبعد هذه المقدمة والتي فيها بيان أن الله ﷻ لا يحب من اتصف بالصفات المذكورة، فإني أستعرض الآيات التي فيها التفسير مع بيان وجه الدلالة.

فمن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمِنَ النَّكَاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. تضمَّن هذا الذمُّ التفسير عن التشبه بمن هو كذلك^(١).

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/٢٤٤).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤]. وفي تسميتها بهذا الاسم فائدتان: إحداهما: أنه جعل الأعيان التي ذكرها شهوات مبالغة في كونها مشتهاة محروصاً على الاستمتاع بها. والثانية: أنَّ الشهوة صفةٌ مسترذلةٌ عند الحكماء مذمومة، من اتَّبَعَهَا شاهد على نفسه بالبهيمية، فكان المقصود من ذكر هذا اللفظ التَّنْفِير عنها^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١]. فيه التحذير والتَّنْفِير من النار وما يوقع فيها، ومقابل هذا التَّنْفِير: التَّغْيِيبُ الآتي في قوله ﷻ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]^(٢). وقد أشرت في غير موضع إلى ما بينهما من التَّلَازُم، وأنَّهما صنوان..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُم عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [آل عمران: ١٤٩]. فإنَّ التعبير عنهم

(١) انظر: الكشاف (٤١٦/١)، ابن عادل (٧٢/٥)، تفسير النَّسْفِي (٢٢٣/١)، تفسير الرَّازِي (١٩٥/٧)، تفسير النَّيسَابُورِي (١٢٢/٣).

(٢) انظر: التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِير (٨٨/٤).

بذلك قصدًا إلى مزيد التنفير عنهم، والتحذير عن طاعتهم^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف: ١١٠]،

فقوله ﷻ: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ﴾، أي: قسرًا، ﴿مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ التي نشأتم فيها وتوطنتموها.. وفي هذا غاية التنفير عنه ﷻ، وابتغاء الغوائل له؛ إذ من أصعب الأشياء على النفوس: مفارقة الوطن، ولا سيما إذا كان ذلك قسرًا، وهو السر في نسبة الإخراج والأرض إليهم^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ

وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠]. أمَّا (الحق) -يعني المقصود

من قوله ﷻ في هذه الآية: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ - فهو إشارة إلى

البراهين الدالة على التوحيد والعدل والنبوة. وأمَّا (الذكرى) فهي إشارة

إلى الإرشاد إلى الأعمال الباقية الصالحة. وأمَّا (الموعظة) فهي إشارة

إلى التنفير من الدنيا، وتقبيح أحوالها في الدار الآخرة، والمذكرة لما

هنالك من السعادة والشقاوة^(٣).

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٩٧/٢)، روح المعاني (٨٧/٤).

(٢) انظر: روح المعاني (٧٦/١٩)، البحر المحيط (١٥/٧)، تفسير الرازي (٥٠٢/٢٤)، ابن عادل (٣٠٣/١٣).

(٣) انظر: تفسير الرازي (٨٠/١٨)، وانظر: البحر المحيط (٢٧٤/٥)، السراج المنير (٩٦/٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارِهُبُونَ﴾

[النحل: ٥١].

إنَّ الشَّيْءَ إذا كان مستنكراً مستقبحاً، فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبَّر عنه بعبارات كثيرة؛ ليصير توالي تلك العبارات سبباً لوقوف العقل على ما فيه من القبح. وإذا عرف هذا فالقول بوجود الإلهين قولٌ مستقبحٌ في العقول، ولهذا المعنى فإنَّ أحداً من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال. فقلوه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ المقصود من تكريره: تأكيد التنفير عنه، وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح^(١).

وقد قيل في تفسير قول الله ﷻ:

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾

﴿٣٥﴾ [الإسراء: ٣٥]: إنه بخلاف التطفيف فتعيَّن التنفير عنه^(٢). وقد

قال الله ﷻ أيضاً: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ﴾ ﴿١﴾ [المطففين: ١]، انظر

الآيات من (١) إلى (٦) .

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُمْ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ ﴿٣٨﴾ [الإسراء: ٣٨] انظر

الآيات من (٢٩) إلى (٣٨)، وانظر (٢٦-٢٧). «فيه إشعار بكون ما

(١) انظر: تفسير الرازي (٤٧/٢٠-٤٨)، غرائب القرآن (٤/٢٦٨)، فتح القدير (٣/٢٤٠)،

السراج المنير (٢/٢٦٢).

(٢) روح المعاني (١٥/٢٧).

عداه مرضياً عنده ﷻ، وإنما لم يصرّح بذلك إيداناً بالغني عنه، وقيل: اهتماماً بشأن التّنفير عن التّواهي لما قالوا من أنّ (التّخلية أولى من التّحلية)، و(درء المفاسد أهم من جلب المصالح)»^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَتَأْتٍ لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤].
إنّ «إظهار اسم الشّيطان في مقام الإضمار - حيث لم يقل: إنّّه كان للرّحمن عصياً - لإيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التّنفير من الشّيطان؛ لأنّ في ذكر صريح اسمه تنبيهاً إلى النّفرة منه، ولتكون الجملة موعظة قائمة بنفسها»^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَقُلْنَا يَتَادُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٧]. ولا يخفى ما في التّعبير بزواجك دون حواء من مزيد التّنفير والتّحذير منه^(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]. إيقاع الاجتناب على الذات دون العبادة ما لا يخفى من المبالغة في التّنفير عن عبادتها^(٤). وفيه التّنفير من شهادة الزور..

(١) روح المعاني (١٥/٧٦).

(٢) التّحرير والتّنوير (١٦/١١٧).

(٣) روح المعاني (١٦/٢٧٠)، الكشف (٢/٥٥٥-٥٥٦)، تفسير الرّازي (٢٢/١٠٧)، الحازن (٤/٢٨٢).

(٤) انظر: روح المعاني (١٧/١٤٨).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]. المراد بالإخبار التفسير عما كانوا عليه من الإنكار؛ ليثبت المؤمن ويرتدع الكافر^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِّنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]. المقصود من الجمع المبالغة في التفسير؛ فإنَّ الصَّوت إذا توافقت عليه الحمير كان أنكر؛ لأنه أقبحها في النَّفس، وأنكرها عند السَّمع، وهو عند العرب مضروب به المثل. وفي تشبيه الرَّافعين أصواتهم بالحمير تنبيه على أنَّ رفع الصَّوت في غاية البشاعة^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَا يَغْرَبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُوبُ﴾ [لقمان: ٣٣]^(٣). «و(الغُرور) - بفتح الغين - من يكثر منه التَّغِير، والمراد به الشَّيْطان بوسوسته. وإذا أريد بالغُرور الشَّيْطان أو ما يشمله فذلك أشدُّ في التَّحذير لما تقرر من عداوة الشَّيْطان للإنسان، كما قال ﷻ: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ لَا يَفْنِيَنَّكُمْ﴾

(١) انظر: روح المعاني (٢٠/٢٤).

(٢) انظر: روح المعاني (٢١-٩٢)، البحر المديد (٥/٣٧١)، الثَّكْتُ والعيون (٤/٢٤١)، تفسير السَّمَرْقَنْدِي (٣/٢٣)، البحر المحيط (٧/١٨٤)، تفسير البيضاوي (٤/٣٤٩).... إلخ.

(٣) ونحوه قول الله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُوبُ﴾ [فاطر: ٥].

الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴿[الأعراف: ٢٧]﴾، وقال: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، ففي التحذير شوب من التنفير^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]. انتصب ﴿تَبَرَّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ على المفعول المطلق، وهو في معنى الوصف الكاشف أريد به التنفير من التبرُّج^(٢). ومن أكثر الآيات دلالة على هذا المعنى قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾:

﴿وَلَا يَغْتَبَ بَEْعُضُكُم بَEْعًا أَيُّبُ أَحَدُكُم أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢]، أي: كما تكرهون هذا طبعًا، فاكروهوا ذاك شرعًا؛ فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها -أي: الغيبة- والتحذير منها^(٣). ففيه إشعار بأنه لا أحد يحب ذلك، ومنها: تقييد المكروه بأكل لحم الإنسان، ومنها تقييد الإنسان بالأخ، ومنها: جعل الأخ أو اللحم ميتًا ففيه مزيد تنفير للطبع. وإنما مثل بالأكل؛ لأن العرب تقول لمن ذكر بالسوء: (إِنَّ النَّاسَ يَأْكُلُونَ فَلَانًا وَيَمَضْغُونَهُ)، و(فلانٌ مضغٌ للماضغ). شبَّهوا إدارة ذكره في الفم بالأكل والميت؛ لمزيد التنفير -كما قلنا-؛ أو لأن الغائب كالميت من حيث لا يشعر

(١) التحرير والتنوير (٢١/١٩٥).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢٢/١٢).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٢١٥)، تفسير الطبري (٢٦/١٣٧)، القرطبي (١٦/٣٤٠).

بما يقال فيه^(١) .

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا يُعَذِّبُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا يُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

[التحریم: ٧]. «هو من قول الملائكة الذين على النار. وذكر هذه المقالة استطراد يُفيد التَّنْفِير من جهنم بأنها دار أهل الكفر كما قال ﷻ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾»^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم: ٩]^(٣) أنه تعليل للتهي أو

للانتهاء، وإنما عبر عنها بالطاعة للمبالغة في التَّنْفِير، أي: أحبوا لو تلاينهم وتسامحهم في بعض الأمور. وقوله ﷻ: ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: فهم يدهنون حيثُذ، أو فهم الآن يدهنون طمعاً في إدهانك^(٤).

● رابعا: النتائج

الحقيقة أنَّ الآيات في هذا الباب كثيرة جداً، ومن الممكن أن تؤلَّف في ذلك الكتب التي تستقلُّ بهذا المعنى، وقد استعرضتُ ما جاء من بيانٍ لأكثر الآيات دلالةً على هذا المعنى من الخطاب القرآني مع

(١) انظر: غرائب القرآن الكريم (٦/١٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/٣٦٦).

(٣) وانظر الآيات التي فيها معنى التَّنْفِير من (٨) إلى (١٥).

(٤) انظر: الكشاف (٤/١٤٢)، تفسير أبي السُّعود (٩/١٣)، روح المعاني (٢٩/٢٦)، إلخ .

الإشارة إلى أهم ما جاء في تفسير الآيات ذات الصلة. وقد أشرتُ في غير موضع إلى ما بين التَّغْيِب والتَّهْيِب من التَّلازم، وأنَّهما صنوان..وحيث إنَّ المنطوق الَّذي يفيد التَّغْيِب في أمرٍ فإنَّه يقتضي في مفهومه التَّهْيِب والتَّنْفِير من آخر..والعكسُ صحيح..كذلك قد يأتي المعنى المقابل منطوقاً به في الآية نفسها أو ما يعقبها كما جاء ذلك واضحاً في التَّماذج والأمثلة.

ويقال فيه ما قيل في سابقه من كونه من أساليب التَّربية والدَّعوة الَّتِي تحرك القلب والعاطفة، وتولّد الدَّافعية للإقبال على أمرٍ أو اجتنابه..



المطلب الثامن خطاب التَّحْنُن والاستعطاف والتَّحْبِب

• أ. ما دلَّ بمادَّته على معنى التَّحْنُن والاستعطاف:

أما ما دلَّ على معنى التَّحْنُن بمادَّته وأسلوبه فقوله ﷻ: ﴿وَحَنَّاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾ [مريم: ١٣]، فإنَّ تنوينه للتفخيم، وفيه التَّحْنُن والتَّعَطُّف..
يقال: حَنَّ، أي: ارتاح أو اشتاق. ثم استعمل في العطف والرَّأفة،
أي: وآتيناه رحمةً عظيمةً وتحنُّناً عظيماً واقعاً من جنابنا، أو رحمةً في قلبه وشفقةً على أبويه وغيرهما^(١).

قال الخليل: «(الْحَنَانُ): الرَّحْمَةُ، والفعل: التَّحْنُن. والله ﷻ الْحَنَّانُ الْمَنَّانُ الرَّحِيمُ بعباده. ﴿وَحَنَّاكَ مِنْ لَدُنَّا﴾، أي: رحمةً من عندنا»^(٢).

• ب. ومن خطابِ التَّحْنُن والاستعطاف والتَّحْبِب الآياتُ التالية:

﴿... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلاً سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مِنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٥/٢٥٩)، روح المعاني (١٦/٧٢)، فتح القدير (٣/٤٦٥).

(٢) العين، مادة: (حَنَّ) (٣/٢٩).

الْقِيَمَةُ إِنَّكَ لَا تُخَلِّفُ الْوَعْدَ ﴿١٩٤﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤]. حيث إنَّ تصدير الدعاء بـ (رَبَّنَا) فيه من الاستعطاف ما لا يخفى؛ ولذا كثر تصدير الدعاء به^(١). «وتكرر لفظ (رَبَّنَا) خمس مرات، كلُّ ذلك على سبيل الاستعطاف وتطلب رحمة الله ﷻ بنداؤه بهذا الاسم الشريف الدالُّ على التربية والمُلك والإصلاح. وكذلك تكرر هذا الاسم في قصة آدم عليه السلام، ونوح عليه السلام وغيرهما. وفي تكرار (رَبَّنَا) دلالة على جواز الإلحاح في المسألة، واعتماد كثرة الطلب من الله ﷻ»^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[المائدة: ١١٨]. اختلف في تأويل هذه الآية، فمما قيل: قاله على وجه الاستعطاف لهم والرفقة بهم، كما يستعطف السيد لعبده، ولهذا لم يقل: (فإنهم عصوك). وقد ذكر ذلك غير واحد^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلّٰهِ كُنَّ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ

(١) انظر: روح المعاني (٤٧/٢٤).

(٢) البحر المحيط (١٤٩/٣-١٥٠)، وانظر: روح المعاني (٤٧/٢٤). ونحوه قوله عز وجل:

﴿... رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [غافر: ٧-٨]. إلى قوله: ﴿رَبَّنَا أَسْنَا اثْنَتَيْنِ وَأَمِيَّتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْرِفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]. انظر: روح المعاني (٤٧/٢٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣٧٨/٦)، البحر المحيط (٦٦/٤)، تفسير الماوردي (٨٩/٢).

لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ [الأنعام: ١٢]. ومعنى الكلام الاستعطاف منه ﷺ للمتولين عنه إلى الإقبال إليه، وإخبار منه ﷺ بأنه رحيمٌ بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة^(١).
ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسْعَوْ وَلَا يَرْضَ بِأْسُكُمْ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٧]^(٢).
وكذلك النداء بنحو قوله ﷺ:

﴿يَنْبَغِي آدَمَ لَا يَفْنَنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَهُمَا إِنَّهُ يَرَئِكُمْ هُوَ وَقِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٧﴾ [الأعراف: ٢٧]. وأذكر هنا على سبيل المثال ما قاله البقاعي في (نظم الدرر): «لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ ذِكْرِ الْقِصَصِ -وَلَا سِيَّمَا قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ- الْإِعْتِبَارُ بِهَا، فَكَانَ بَيَانُ مَا وَقَعَ بَيْنَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَيْنَ الشَّيْطَانِ مِنْ شَدِيدِ الْعَدَاوَةِ مُقْتَضِيًا لِلتَّحْذِيرِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَكَانَ الْمَقَامُ خَطَرًا، وَالتَّخْلُصُ عَسْرًا، أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِالتَّأَكِيدِ، وَبَيَانُ مَا سَلَطَ الشَّيْطَانُ بِهِ مِنَ الْمَكَايِدِ الْخَفِيَّةِ، وَالْأَسْبَابِ الدَّقِيقَةِ، لِيَعْلَمَ النَّاجِي أَنَّهُ إِنَّمَا نَجَا بِمَحْضِ التَّوْفِيقِ، وَمَجْرَدِ

(١) انظر: تفسير القرطبي (٦/٣٩٥)، الكشف والبيان (٤/١٣٧)، الخازن (٢/١٢١)، فتح القدير (٢/١٥٠).

(٢) انظر: نظم الدرر (٢/٧٣٧).

اللطف، فيقبل على الشكر متبرئاً من الحول والقوة، فقال منادياً لهم بما يفهم الاستعطاف والتراؤف والتحنن والترفق والاستضعاف: ﴿يَبْنَى مَادَمَ﴾، أي: الذي خلقته بيدي وأسكنته جنتي...»^(١).

ومن ذلك قول موسى عليه السلام كما قال سبحانه: ﴿قَالَ سُبْحَنكَ بُتْ لِيكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. ليس المراد منه ابتداء الإيمان في تلك الحالة، بل المراد به إضافة الأوليّة إليه لا إلى الإيمان، ولعلّ المراد من ذلك الإخبار: الاستعطاف؛ لقبول توبته ﷺ عمّا هو ذنب عنده، وأراد بالمؤمنين قومه...»^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١]. ذكر وصف الأخوة زيادة في الاستعطاف عسى الله ﷻ أن يكرم رسوله -عليه الصلاة والسلام- بالمغفرة لأخيه [هود: ٤٥]^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ: ﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا وَإِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

(١) نظم الدرر (٣/ ٢١).

(٢) روح المعاني (٩/ ٥٠).

(٣) انظر: التحرير والتنوير (٩/ ١١٨)، المنار (٩/ ١٨٠).

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيمَانِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ [الأعراف: ١٥٦] ^(١).
ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَهُوَ يَجْرِي فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ
يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [هود: ٤٢]. ومعلوم أنَّ
نداء الوالد ولده من باب التَّحْنُنِ والرَّأْفَةِ ^(٢). يقطر منه الاستعطاف ^(٣)،
وكذلك نداء إبراهيم عليه السلام لأبيه - كما سيأتي -.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ
أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: ٤٥]. فهذا النداء منه عليه السلام يقطر منه
الاستعطاف، وجميل التَّوَسُّلِ إلى من عهده منعماً مفضلاً في شأنه أولاً
وآخرًا، وهو على طريقة دعاء أيوب عليه السلام: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي
مَسْنِي الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ^(٤). وقد سبق أن ذكر
وصف الأخوة هناك فيه زيادة في الاستعطاف عسى الله ﷻ أن يكرم
رسوله - عليه الصَّلاة والسَّلام - بالمغفرة، فكَذلك ذكر البِنُوَّةِ هنا في
قول نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي﴾ .

(١) انظر: نظم الدرر (٣/ ١٢٠).

(٢) انظر: روح المعاني (١٢/ ٥٩).

(٣) انظر: المصدر نفسه (١٢/ ٧٠).

(٤) انظر: روح المعاني (١٢/ ٦٨)، وانظر: التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ (٩/ ١١٨)، المنار (٩/ ١٨٠).

ونحوه قول موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالَ يَنْقُومِ آرْهَطِيْٓ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا إِنَّ رَبِّيْ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٩٢﴾ وَيَنْقُومِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَعِلُّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ٩٣﴾ [هود: ٩٢-٩٣]. خاطبهم خطاب الاستعطاف والتلطّف^(١).

ومن ذلك نداء إبراهيم عليه السلام لأبيه في قوله ﷻ:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيْمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ٤٢﴾ يَتَابَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ٤٣﴾ يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ٤٤﴾ [مريم: ٤١-٤٥]^(٢).

ومن ذلك تلطف صالح عليه السلام بقومه، ورفقه بهم في الخطاب

حيث قال منادياً لهم على جهة التّحنن عليهم:

﴿قَالَ يَنْقُومِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٤٦﴾ [النمل: ٤٦]، أي: بوقوع ما يسوؤكم قبل الحالة الحسنة، وهي رحمة الله ﷻ^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ

(١) انظر: البحر المحيط (٢٥٦/٥).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢٥٠/٢).

(٣) انظر: البحر المحيط (٩٧/٧)، السراج المنير (١٠٩/٣)، نظم الدرر (٤٣١/٥).

فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ [الأحزاب: ٥]. «قيل: فيما سبق إليه اللسان، إمّا على سبيل الغلط إن كان سبق ذلك إليهم قبل النهي، فجرى ذلك على ألسنتهم غلطًا، أو على سبيل التّحنن والشفقة، إذ كثيرًا ما يقول الإنسان للصّغير: (يا بني)، كما يقول للكبير: (يا أبي)، على سبيل التّوقير والتّعظيم»^(١). وقد سبق نظير ذلك في ذكر لفظ (الأخوة) وكذلك (البنة) الدّاء على الاستعطاف .

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]^(٢).

وقد يكون الاستعطاف في الأمر والنهي كما قوله ﷻ:

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾﴾ [ص: ٢٢]. فإنّ المقصود من الأمر والنهي الاستعطاف، وهو واضح..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿... رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [غافر: ٧-٨]. وقد سبق أن

(١) البحر المحيط (٧/٢٠٨).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٢/٤٣).

تصدير الدعاء بـ (ربنا) فيه من الاستعطاف ما لا يخفى.
وقد يستخدم الاستعطاف كمنهج من مناهج الدعوة إلى الله ﷻ،
ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ
مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]. فإن فيه من الاستعطاف ما فيه. قيل: إنَّ
الاستعطاف بما ذكر لما فيه من التعظيم، وقد كانوا يفتخرون بنسبتهم
إلى إسرائيل عليه السلام^(١).

• ج. وما يدخل في هذا الباب:

ودخل في هذا الباب ما قيل في قوله ﷻ:
﴿كَيْفَ نَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْوَنًا فَأَخْيَكُمُ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]. ففيه بيان أنَّ الاستعطاف
يكون بتعداد النعم ودفع النقم^(٢).

وقد يكون التَّحِبُّ والاستعطاف بذكر وصفٍ من الأوصاف الحسنة
في الخطاب كما في قوله ﷻ:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]، فقد زاد في التَّحِبُّ بقوله:
﴿أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾، أي: البليغ في الصِّدْق والتَّصْدِيق^(٣).

(١) انظر: روح المعاني (٢٨/٨٥-٨٦).

(٢) انظر: نظم الدرر (٣/١٠٤).

(٣) انظر: تفسير السراج المنير (٢/١٢٥)، وانظر: نظم الدرر (٤/٥١).

وكما في قوله ﷻ:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾ [القلم: ٤].

ويدخل في هذا الباب المعاني الدالة على التودد والتحبب.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَن يَخْلُقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ

بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝﴾ [الروم: ٢١]

إشارة إلى ما أوقع بينهم من الألفة المذكورة في قوله ﷻ: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ

أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝﴾ [الأنفال: ٦٣]. ومن المودة التي هي

المحبة المجردة قوله ﷻ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۝﴾

[الشورى: ٢٣].

وقال الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ ۝﴾ [البروج: ١٤]. ومعنى

(الودود) يتضمّن ما دخل في قوله ﷻ: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

وَيُحِبُّونَهُمْ ۝﴾ [المائدة: ٥٤]. ويصحّ أن يكون معنى قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِي

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝﴾ [مريم: ٩٦] معنى

قوله ﷻ: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ ۝﴾.

و(الود): محبة الشيء، وتمني كونه، ويستعمل في كل واحد من

المعنيين على أن التمني يتضمّن معنى (الود)؛ لأن التمني هو تشهّي

حصول ما توده.

ومن المودة التي تقتضى معنى التمني قوله ﷻ: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ

أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ ﴿٦٩﴾ [آل عمران: ٦٩]، وقوله ﷺ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] نهى عن موالاته الكفار ومظاهرتهم كقوله ﷺ: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [المتحنة: ١]، أي: بأسباب المحبة من النصيحة ونحوها..^(١).

● خاتمة في إبراز أهم النتائج:

ويعلم ممَّا سبق أنَّ الخطاب إذا كان من المخاطب -بفتح الطاء المهملة- إلى الله ﷻ، أو لرسوله ﷺ، أو للمؤمنين فإنه ينبغي أن يكون عن محبة لله ﷻ، ولرسوله ﷺ، وللمؤمنين، وأنَّ نقيض ذلك خلاف ما شرعه الله ﷻ وبينه. فذلك هو (خطاب التَّحِبِّ).
وأشير أخيراً إلى أنَّ التَّحِبِّ هو الباعث الأقوى للتَّابِعِ، أو يقال: ينبغي أن يكون أساس الاتباع عن محبة، كما قال الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (ودد): (ص: ٥١٦-٥١٧)، النهاية في غريب الحديث، مادة: (منا) (٨٠٤/٤)، وكذلك في (تاج العروس) (٥٦٢/٣٩)، و(لسان العرب)، مادة: (مني) (٢٩٢/١٥)، وكذلك في (تاج العروس) (٥٦٢/٣٩)، بصائر ذوي التَّمييز، مادة: (ودَّ) (٢١٠/٦)، وانظر: الخازن (٥٥/٤)، المنار (٤٩/٥)، وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر (٤٠٨/١٣).

مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴿١٦٥﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالآية تدلُّ على أنَّ مَنْ كَانَ حُبَّهُ لغيرِ اللَّهِ ﷻ كَحُبِّهِ لِلَّهِ ﷻ فَكَأَنَّهُ قَدْ جَعَلَ لَهُ نَدًّا، وَإِنْ كَانَ يَحِبُّ اللَّهُ ﷻ، وَلِذَلِكَ سَيَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَقُولُ: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَوَّيْكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨].

ولذلك جعلَ النَّبِيُّ ﷺ مِقْيَاسَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ﷻ اِمْتِلَاءُ الْقَلْبِ بِمَحَبَّتِهِ، بِحَيْثُ تَغْدُو مَحَبَّتُهُ مَتَغَلِّبَةً عَلَى مَحَبَّةِ الْوَلَدِ وَالْوَالِدِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ..

فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»^(١).



(١) أخرجه البخاري [١٣]، [١٤]، ومسلم [٦٢]، [٦٣].

المطلب التاسع: خطاب التَّحَسُّر والتَّلهُف

● توطئة

أقول: لا بدَّ في البداية من بيان لمادَّة: (حسر)، وبيان ما دلَّ بمادَّته على التَّحَسُّر، ثمَّ استعراض الآيات وبيان المعنى الدَّال على التَّحَسُّر.. وينبغي الإشارة إلى أنني هنا أحيل ما ورد بصيغة النداء من (نداء الحسرة) أو ما يدلُّ على التَّحَسُّر إلى مبحث (النداء)، إلَّا في ألفاظ قليلة قد استفيد التَّحَسُّر أيضًا (ممَّا وليَّ المنادي)، وينبغي الإشارة أيضًا إلى أنني أهتمُّ هنا ببيان (الخبر الَّذي يستعمل في إنشاء التَّحَسُّر)، وذلك استكمالًا لأطراف البحث، فيما يخدم محوره.

وبيان ذلك على النحو التَّالي:

● أ. بيان مادَّة: (حسر) . . .

يقال: (حَسَرَ كُفَّهُ عن ذِراعِهِ): كَشَفَهُ، وبابه: ضرب، و(الانحسار): الانكشاف، و(حَسَرَ البعير): أَعْيَا، وَحَسَرَهُ غَيْرُهُ، و(اسْتَحَسَرَ) أيضًا: أَعْيَا، ومنه قوله ﷻ: ﴿مَلُومًا تَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]، و(حَسَرَ بَصَرُهُ يَحْسِرُ حُسُورًا)، أي: كَلَّ وانْقَطَعَ نَظْرُهُ مِنْ طُولِ مَدًى، وما أشبه ذلك، فهو (حَسِيرٌ) و(مَحْسُورٌ) أيضًا. وبابه: (جلس). و(الحسرة): أشدُّ التَّلهُف على الشيء الفاتت. تقول منه: (حَسِرَ على

الشيء) بالكسر - من باب طرب- يَحْسُرُ حَسْرًا وَحَسْرَةً، فهو (حَسِيرٌ).
(حَسَرْتُ غَيْرِي تَحْسِيرًا)، و(التَّحَسَّرَ) أيضًا: التَّلَهَّفُ..^(١).

أما ورود مادة: (حَسَرَ) في القرآن الكريم فهو على النحو التالي:
قال الله ﷻ: ﴿قَدْ حَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْصِرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

وقد قال الله ﷻ فيمن ينفق أمواله ليصُدَّ عن سبيل الله ﷻ:
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال الله ﷻ عن (يوم القيامة) الذي يكثر فيه التَّحَسُّرُ:
﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].
[مريم: ٣٩]. وأما (يوم الحسرة) فلا شبهة في أنه يوم القيامة من حيث يكثر التَّحَسُّرُ من أهل النَّار.

وقيل: يتحَسَّرُ أيضًا في الجَنَّةِ إذا لم يكن من السَّابِقِينَ الوَاصِلِينَ إِلَى الدَّرَجَاتِ الْعَالِيَةِ. والأوَّل هو الصَّحِيح؛ لأنَّ الحسرة غمٌّ، وذلك لا

(١) انظر: مادة: (حسر) في (مختار الصحاح)، (ص: ١٦٧)، لسان العرب (٤/ ١٨٧)، العين (٣/ ١٣٣).

يليق بأهل الثواب^(١).

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾
[الأنبياء: ١٩].

وقال الله ﷻ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾
[الزمر: ٥٦].

وقال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ [فاطر: ٨].
﴿ثُمَّ أَرْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤].
ومن الألفاظ التي تدلُّ على التَّحَسُّر ما قيل في قوله ﷻ:
﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ
يَتَوَلَّى أَعِجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ
النَّدِيمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

قيل: الندم: التَّحَسُّر^(٢). وقيل: (الندم) و(الندامة): التَّحَسُّر من تغير
رأي في أمر فائت، قال ﷻ: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّدِيمِينَ﴾، وقال: ﴿قَالَ
عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِيمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]، وأصله من منادمة
الْحَزَن له^(٣).

(١) انظر: تفسير الرُّازي (٢٢١/٢١)، ابن عادل (٧٠/١٣)، البحر المديد (٢٢١/٤).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤٧٥/٣)، المفردات في غريب القرآن (ص: ٤٨٦)...

(٣) انظر: غريب القرآن الكريم، للأصفهاني (٤٨٦/١)، وانظر: روح المعاني (٢٨٣/١٥)،
التعاريف، فصل الدال (ص: ٦٩٤)، وتاج العروس، مادة: (ندم) (٤٨٤-٤٨٥).

● ب. الخطاب الذي يدلُّ على تحسيرِ المخاطب...

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧].

● ج. بيان الخبر الذي يراد منه: (إنشاء التحسر)....

من المعلوم أنَّ الشَّأن في المبتدأ والخبر أن يكون المبتدأ معلوماً للمخاطب، وأن يكون الخبر مجهولاً، فكلُّ خبر إنَّما يقصد منه إمَّا إفادة المخاطب بحكم يجهله، وهو ما يسمى: (فائدة الخبر)، وإمَّا إفادة المخاطب أنَّ المتكلِّم عالم بالحكم، وهو ما يسمى: (لازم الفائدة)، وقد يخرج على خلاف الأصل؛ لأغراض أخرى^(١)، ومنها: (التَّحْسُر) كما في قوله ﷻ:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]. فهي لا تريد أن تفيد الله ﷻ أنَّ التي وضعتها أنثى، كما أنَّها لا تريد أن تعلم الله ﷻ أنَّها عالمة بكون الموضوع أنثى، وهذا أمر بديهي. وإنَّما غرضها من الخبر إنشاء (التَّحْسُر)، فهي كانت

(١) ينظر: روح المعاني (٣/ ١٣٤-١٣٦)، تفسير سورة النور، للأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة (ص: ٢٤-٢٥)، جواهر البلاغة، للهاشمي (ص: ٣٩).

تريد المولود ذكراً لكي تهبه (لييت المقدس)، وقد كانوا لا يحررون (لييت المقدس) إلا الذكور، فخاطبت ربها ﷻ على سبيل التَّحَسُّر على ما فاتها من رجائها، وخلاف ما قدَّرت؛ لأنها كانت ترجو أن تلد ذكراً يصلح للخدمة^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْرًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّنا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الأعراف: ٥]. وفي الآية بيان أنَّ التَّحَسُّر لم يفدهم شيئاً^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَتَنَوَّلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأعراف: ٧٩]، ﴿فَتَنَوَّلُوا عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمُ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: ٩٣]. قيل: خاطبهم به بعد هلاكهم، وذكر ذلك على سبيل التَّحَسُّر عليهم^(٣).

ومن ذلك قوله ﷻ حكاية عن إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنِّهِنَّ أَضَلَّلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٦]. فهو أيضاً لإنشاء التَّحَسُّر على ذلك^(٤).

(١) انظر: روح المعاني (٣/١٣٤-١٣٦)، الكشاف (١/٤٢٥)، البحر المحيط (٢/٤٥٦-٤٥٧).

(٢) انظر: نظم الدرر (٣/٢٣٣)، (٢٣٣/٢٥٦)، ونظم الدرر (٢/٧١).

(٣) انظر: نظم الدرر (٣/٨)، المفردات (ص: ٥٣٥) ..

(٤) انظر: البحر المديد (٢/٣٦٩)، تفسير البضاوي (٣/٣٧)، التحرير والتنوير (٨/٢٢٨).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير (١٣/٢٣٩).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلِبُ كَفَنَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَصْرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ (٤٣) [الكهف: ٤٢-٤٣]. و(تقليب الكفين): حركة يفعلها المتحسر، وذلك أن يقلبهما إلى أعلى، ثم إلى قبالة تحسرا على ما صرفه من المال في إحداث تلك الجنة. فهو كناية عن التَّحْسَرِ، ومثله قولهم: (قرع السن من ندم)^(١). وقوله ﷻ: ﴿عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩]^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ (١٥) [الأنبياء: ١٤-١٥]، أي: فما زالوا يقولون ويرددون: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، واستمرارها يدل على استمرار التَّحْسَرِ والتَّوَجُّعِ والشُّعُورِ بالهلاك، ولكن ذلك لم يفدهم ذلك شيئاً غير شدة التَّحْسَرِ؛ لأنه ندم لم يقترن بتوبة^(٣).

(١) انظر: البيان والتبيين (ص: ١٠٩)، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٣/٣٣٧).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/٣٢٧).

(٣) ونحوه قوله عز وجل: ﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٣١]. وينظر في بيان معنى (التَّحْسَرِ): روح المعاني (٩٣/١٧)، التحرير والتنوير (٨٧/٢٩)، زهرة التفاسير (ص: ٤٨٣٩). وفي (المفردات): «(ويل) قد يستعمل على في الدلالة على (التَّحْسَرِ)... ومن قال: (ويل) وإد في جهنم فإنه لم يرد أن (ويلا) في اللغة هو موضوع لهذا، وإنما أراد من قال الله عز وجل ذلك فيه فقد استحقَّ مقراً من النار، وثبت ذلك له: ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، ﴿وَوَيْلٌ =

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَوَّلْنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [١٣-١٤]، وقوله **أَلْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا** [١٤] [الفرقان: ١٣-١٤]، وقوله ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ [١١] [الانشقاق: ١١] هو يأس يقتضي تكرير التَّمني أو التَّحسر^(١). نسأل الله ﷻ العافية. «والمراد بالدُّعاء في قوله: ﴿يَدْعُوا ثُبُورًا﴾: النداء، أي: ينادي الثبور بأن يقول: (يا ثبوري)، أو (يا ثبورًا)، كما يقال: (يا ويلى) و(يا ويلتنا). و(الثبور): الهلاك وسوء الحال، وهي كلمة يقولها من وقع في شقاء وتعس. والنداء في مثل هذه الكلمات مستعمل في التَّحسر والتَّوجع»^(٢).

= لِّلْكَافِرِينَ [إبراهيم: ٢]، ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧]، ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [مريم: ٣٧]، ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الزخرف: ٦٥]، ﴿وَيَلِّ لِلْمُطْفِفِينَ﴾ [المطففين: ١]، ﴿وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، ﴿يُنَوَّلْنَا مَنْ بَعَثْنَا﴾ [يس: ٥٢]، ﴿قَالُوا يُونُسَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤]، ﴿قَالُوا يُونُسَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [القلم: ٣١]. بتصرف عن (المفردات في غريب القرآن)، مادة: (ويل) (ص: ٥٣٥).

(١) انظر: التحرير والتنوير (٣٣٤/١٨).

(٢) المصدر نفسه (٢٢٤/٣٠).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ ٩٦ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صِدِّيقٍ جَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ [الشعراء: ٩٦-١٠٢]؛ فَإِنَّ الخطاب في قولهم: ﴿قَالُوا﴾ للمبالغة في التَّحَسُّر والنَّدَامَة، والمعنى: أنهم مع تخاصمهم في مبدأ ضلالهم معترفون بانهماكهم في الضَّلالة متحسِّرون عليها^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ [الشعراء: ١١٧].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]. المراد بإخبارها إياهم بذلك التَّحَسُّر على ما فاتهم من الإيقان بما قرب وقوعه، وظهور بطلان ما اعتقدوه فيه، ومؤاخذتهم على التَّكْذِيب به أشدَّ مؤاخذه..^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿يَحْزَنُونَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠]. فجملة: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ﴾ بيان لوجه التَّحَسُّر عليهم^(٣).

(١) انظر: روح المعاني (١٩/١٠٤)، تفسير البضاوي (٤/٢٤٥).

(٢) انظر: روح المعاني (٢٠/٢٤).

(٣) انظر: التَّحْزِير والتَّنْوِير (٧/١٩٠)، (٨/٢٢٨)، ابن عادل (١٦/٢٠٢)، وبيان وجه التَّحَسُّر

انظر أيضا: تفسير ابن عادل (١٦/٢٠٣)، البحر المحيط (٧/٣١٨)، الثَّعَالِبِي (٤/٦).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قَالُوا يَوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ

﴿٥٢﴾ [يس: ٥٢] ^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَعْوَيْنَكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾﴾

[الصافات: ٣١-٣٢]. «قالوا لما دهمهم من التَّحَسُّر مريدين بالتَّأَكِيد قطع أطماع الأتباع عما أفهمه كلامهم من أن الرؤساء لا يغنون عنهم شيئاً. ﴿إِنَّا﴾ ، أي: جميعاً ﴿لَذَائِقُونَ﴾ ، أي: ما وقع لنا به الوعيد من سوء العذاب. ولما قضوا عُلَّالَةً ^(٢) التَّحَسُّر والتَّأَسُّف والتَّضَجُّر، رجعوا إلى إتمام ذلك الكلام فقالوا: ﴿فَأَعْوَيْنَكُمْ﴾ ، أي: أضللناهم وأوقعناكم في الغيِّ بسبب حقوق ذلك القول علينا، ثم عللوا ذلك بقولهم مؤكدين أيضاً لردِّ ما ادَّعاه الأتباع من أنه ما كان سبب إغوائهم إلا الرؤساء ﴿إِنَّا﴾ ، أي: جميعاً ﴿كُنَّا غَاوِينَ﴾ ، أي: في طبعنا الغواية، وهي العدول عن الطَّريق المثلى إلى المهالك» ^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٣﴾ رُدُّوهُمَا

عَلَىٰ فُطُوقٍ مَّرْصُومًا يَأْسُوفٍ وَالْأَعْيُنُ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: ٣٢-٣٣]. وكلامه هذا خبرٌ

(١) ينظر: التحرير والتنوير (٨/٢٣).

(٢) عُلَّالَةٌ كُلُّ شَيْءٍ: بَقِيَّتُهُ. انظر: الكليات (ص: ٥٩٩)، أساس البلاغة، مادة: (علل)

(ص: ٣١٢)، وكذلك في (لسان العرب) (١١/٤٦٧)، وتاج العروس (٣٠/٤٥) .

(٣) نظم الدرر (٦/٣٠٦).

مستعمل في التَّحَسُّر^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥٨) [الزمر: ٥٦-٥٨]. وهو التَّحَسُّر على التَّفْرِيط في الطَّاعَةِ^(٢). وسيأتي ما يتعلق (بنداء الحسرة) في (النِّداء).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَقِيلِهِ يَرْبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٨٨) [الزخرف: ٨٨]. قيل: وهذا من استعمال الخبر في التَّحَسُّر والتَّحْزَن والتَّشَكُّ من عدم إيمان أولئك القوم، وهو خبر بمعنى الإنشاء مثل قوله ﷻ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ (٣٠) [الفرقان: ٣٠]^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (٨) قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ (٩) [الملك: ٨-٩]، فقولهم: ﴿بَلَى﴾ هو جواب المتحسّر المتندّم في وقت لا ينفع التَّاسُّف ولا التَّحَسُّر^(٤). نسأل الله ﷻ العافية.

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٣/٢٥٦).

(٢) انظر: الكشاف (٣/٤٠٤-٤٠٥).

(٣) انظر: روح المعاني (٢٥/١٠٨)، ونظم الدرر (٧/٦٠)، التحرير والتنوير (٢٥/٢٧٢).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٢٩/٢٦)، البحر المديد (٦/٢٧٥).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَبْتَغِ الْيَهُودُ وَإِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

[القلم: ٣٠-٣١].

فقوله ﷻ: ﴿يَتْلُونَ﴾، أي: يلوم بعضهم بعضًا بهذا الكلام، فتكون خبرًا مستعملًا في التّقرّيع مع التّحسر والتّندم بما أفاده ﴿يَبْتَغِ﴾^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَّزَّ بَزْدَهُ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾

[نوح: ٢١]. قيل: تأكيد الخبر بـ (إِنَّ) للاهتمام بما استعمل فيه من التّحسر والاستنصار^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قَالُوا لَوْ نَكُنْ مِنَ الْمُصْلِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُنْ نَطْعُمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ

الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَقٌّ أَتَيْنَا إِلَيْهِمْ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٣-٤٧].

«وهذا كناية عن عدم إيمانهم، سلكوا بها طريق الإطناب المناسب لمقام التّحسر والتّلهف على ما فات، فكأنّهم قالوا: لأنّا لم نكن من المؤمنين؛ لأنّ أهل الإيمان اشتهروا بأنّهم أهل الصّلاة، وبأنّ لهم في أموالهم حقّ معلوم للسّائل والمحروم، وبأنّهم يؤمنون بالآخرة، ويوم الدّين، ويصدّقون الرّسل -عليهم الصّلاة والسّلام-»^(٣).

(١) انظر: التّحرير والتّنوير (٨٧/٢٩).

(٢) انظر: المصدر السابق (٣٣٩/٣٠).

(٣) بقليل من التّصريف عن (التّحرير والتّنوير) (٣٢٧/٤).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَجَاءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَنْذِكُرُ الْإِنْسَانَ وَاقْنُ لَهُ الذِّكْرُ ۝٢٣﴾ يَقُولُ
يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَاكِي ۝٢٤﴾ [الفجر: ٢٣-٢٤] ^(١).

• د. الخطاب الدال على التحسر بصيغة مباشرة...

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿حَقَّ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا
تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٠٠﴾
[المؤمنون: ٩٩-١٠٠]. قيل: يتحسر ويندم ^(٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾
[فاطر: ٣٧] ^(٣).

• هـ. ورود الاستفهام في معنى النفي الدال على التحسر...

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ
جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي
كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝٥٣﴾
[الأعراف: ٥٣]. «الاستفهام يجوز أن يكون حقيقياً يقوله بعضهم
لبعض، لعلَّ أحدهم يرشدهم إلى مخلص لهم من تلك الورطة، وهذا

(١) ينظر: الكشف (٢٥٣/٤).

(٢) انظر: روح المعاني (٦٤/١٨)، البحر المحيط (٣٨٨/٦).

(٣) انظر: الكشف (٣١٠/٣)، البحر المحيط (٣٠١/٧)، تفسير ابن عادل (١٤٧/١٦).

القول يقولونه في ابتداء رؤية ما يهددهم قبل أن يوقنوا بانتفاء الشُّفعاء المحكي عنهم في قوله ﷻ: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]. ويجوز أن يكون الاستفهام مستعملاً في التَّمني، ويجوز أن يكون مستعملاً في النَّفي على معنى التَّحسر والتَّندم. و﴿مِنْ﴾ زائدة للتوكيد. وعلى جميع التقادير تفيد توكيد العموم في المستفهم عنه؛ ليفيد أنهم لا يسألون عَمَّن توهموهم شفعاء من أصنامهم؛ إذ قد يتسوا منهم. كما قال ﷻ: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ [الأنعام: ٩٤]، بل هم يتساءلون عن أيِّ شفيع يشفع لهم. ولو يكون الرَّسول ﷺ الذي ناصبوه العداء في الحياة الدُّنيا. ونظيره قوله ﷻ في (سورة المؤمن): ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]»^(١). والشَّاهد ما قيل في قوله ﷻ -حكاية عنهم-: ﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ﴾؛ فإنه استفهام منهم، ومعناه: التَّمني، وكذلك ما أتى في سياق الكلام من النَّظائر.

ومن ذلك:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]^(٢).
وسياطي ما يتعلَّق بالاستفهام مفصَّلاً في (الاستفهام في القرآن الكريم) ..

(١) التَّحرير والتَّنوير (١٥٦/٨)، وانظر: فتح القدير (٣٠٦/٢).

(٢) انظر: تفسير ابن جزي (١٥٣/٢).

● و. ورود التَّمني في معنى التَّحسر... .

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]. قيل: يجوز أن تكون ﴿لَوْ﴾ للتَّمني المستعمل في التَّحسر عليهم^(١).

● ز. بيان مَادَّة: (الويل)... .

قال الخليل: «(الويلُ): حلول الشر، و(الويلَةُ): الفضيحة والبليَّة، وإذا قال: (واويلتاه)، فإِثْمًا معناه: وافضيحتاه. ويُفسَّر عليه هذه الآية: ﴿يَوَيْلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ﴾ [الكهف: ٤٩]، ويُجمَع على الوَيْلَاتِ»^(٢). وفي (مختار الصَّحاح): «(وَيْلٌ) كلمة مثل: (وَيْح) إلا أنها كلمة عذاب»^(٣).

قال ﷻ: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

● ح. وقد يوضع (الويل) موضع التَّحسر والتَّفجع... .

﴿يَوَيْلُنَا﴾ ، ﴿يَوَيْلَتِي أَعْجَزْتُ﴾ [المائدة: ٣١]^(٤).

(١) انظر: التَّحْريْر والتَّنْويْر (١٦١/٢٠).

(٢) العين، مَادَّة: (ويل) (٣٦٦/٨)، القاموس المحيط، مَادَّة: (ويل) (ص: ١٣٨٢)، وكذلك في (لسان العرب) (٧٣٧/١١)، وفي المحكم والمحيط الأعظم (٤٦٠/١٠)، وانظر: البحر المحيط (٤٣٧/١).

(٣) مختار الصَّحاح، مَادَّة: (ويل) (ص: ٧٤٠).

(٤) البرهان (٤/٤٤٤)، الإتقان (١/٥٢٦-٥٢٧)، وانظر: نداء (الويل) في (روح المعاني) (٩٣/١٧)، وسيأتي بيان ذلك في (مبحث النداء).

وما كان بصيغة النداء يأتي بيانه في (النداء).

ط. خاتمة في إبراز أهم النتائج ...

والحاصل أنني قد أتيت في هذا المطلب على ذكر صور كثيرة للتَّحَسُّر؛ لأنَّ في ذكر تحسُّر المتحسِّرين، وسرد قصصهم الدَّالَّة على التَّفْرِيط في طاعة الله ﷻ، أو فعل محظور قد نهى الشَّارع عنه كإِنْفَاق المال في معصية، أو قتل النَّفْس الَّتِي حَرَّمَ الله ﷻ بغير حقٍّ... إلخ. فيه ما فيه من العبرة والعظة لأولي البصائر - ولا سيَّما أنَّ ذلك التَّحَسُّر لم يقتَرَن بتوبة - وكذلك ما جاء في التَّحْذِير من (يوم الحسرة) محفَّزٌ يحمل المخاطب على فعل الصَّالحات؛ استعدادًا لذلك اليوم حتَّى لا يكون فيه من المتحسِّرين...

وقد أتيت أيضًا على بيان أنَّ التَّحَسُّر يكون في أمور يقدرها الإنسان ثمَّ لا تقع على وفق ما قدَّر، وهذه مسألة أخرى..
كما أنَّ التَّحَسُّر قد يكون على الغير بسبب ما حاق به من سوء العاقبة حيث لم ينفعه النَّصْح...



المبحث السادس

خطاب المدح والذم

ويتضمن:

المطلب الأول: خطاب المدح.

المطلب الثاني: خطاب الذم.

المطلب الأول: خطاب المدح

ويتضمن:

- أ. توطئة في تحديد المصطلحات.
 - ب. (نِعَم) من الخطاب القرآني بمعناه الأعم.
 - ج. فاعل (نِعَم) المقرون بـ (أَل) في الخطاب القرآني.
 - د. فاعل (نِعَم) مضاف إلى ما فيه (أَل) في الخطاب القرآني.
 - هـ. ما جرى مجرى (نِعَم).
 - و. صلة خطاب المدح بموضوع البحث.
- وبيان ذلك على النحو التالي:

• أ. توطئة في تحديد المصطلحات..

جاء في (العين): «(المدح): نقيض الهجاء، وهو: حسن الثناء، و(المدحة): اسم المديح، وجمعه (مدائح) و(مدح)، يقال: (مدحته) و(امتدحته)»^(١).

ويقال: مدحته مدحاً من باب (نفع): أثبت عليه بما فيه من الصفات الجميلة خلقية كانت أو اختيارية، ولهذا كان المدح أعم من الحمد. وقيل: (المدح) من قولهم: (انمدحت الأرض) إذا اتسعت، فكأن معنى (مدحته) وسعت شكره..^(٢)

أمّا أفعال المدح فهي ما وضع لإنشاء مدح نحو: (نعم) و(وحبذا)^(٣). وما يعيننا هنا ما له ذكر في الخطاب القرآني.

(١) العين، مادة: (مدح)، (١٨٨/٣)، وانظر: لسان العرب، (٥٨٩/٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٢٦٨/٣).

(٢) انظر: المصباح المنير، مادة: (مدح)، (٥٦٦/٢)، وانظر: تاج العروس (١١١/٧).

(٣) انظر: التعريفات (التعريف بالأفعال) (٤٩/١)، وكذلك التوقيف على مهمات التعاريف (التعريف بالأفعال) (٨٠/١). و(حبذا) من المركبات المزجية، وهي سبائك تولدت عن مزج فعل واسم، منه (حبذا)، وقد ذكر غير واحد -ومنهم الأزهري- «أنه (حب ذاً)، فإذا وصلت رفعت به فقلت: حبذا زيد». تهذيب اللغة، للأزهري، مادة (حب) (٨/٤)، وكذلك في (لسان العرب) (٢٨٩/١). وذكر ابن منظور في تأليف هذه الكلمة فقال: «(حبذا) كلمتان جعلتا شيئاً واحداً، ولم تُغيّر في تثنية ولا جمع ولا تأنيث، ورفع بها الاسم. تقول: حبذا زيد، وحبذا الزيدان، وحبذا الزيدون، وحبذا أنت، وأنتما. و(حبذا) يبتدأ بها؛ لأن كلمة مدح يبتدأ بها؛ لأنها جواب، وإنما لم تُثن ولم تُجمع ولم تُؤنث؛ لأنك إنما أجريتها على ذكر شيء سمعته فكأنك قلت: (حبذا الذكور ذكور زيد)، فصار (زيد) موضع ذكره، وصار (ذا) مشاراً إلى الذكورية والذكور مذكّر». وإن الغاية من سبك الفعل =

وأفعال المدح أو الذم جملها إنشائية غير طلبية^(١).
أقول: ومما يوضح كونها للإنشاء ما أخرجه البخاري عن عبد الرحمن بن عبد القاري^(٢) أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة في

= (حَبَّ) مع الاسم (ذا) تكمن في توليد محمول اسمي من صنف المشتقات، يجوز إثباته وصفًا على جهة المدح للموضوع المرفوع بعده، كما في قولنا: حبًا الإخلاص. والحاصل: أنه يستعمل الفعل (حَبَّ) استعمال (نعم) و(بش). فإن كان مثبتًا كان مدح، وإن كان مسبقًا بحرف النفي (لا) كان للذم.. وله شروط تذكر في مظانها من كتب النحو.

(١) أما بيان وجه إفادة (نعم) و(بش) للإنشاء فقد بين ذلك رضي الدين الأسترابادي في شرحه على (الكافية) حيث قال: «فإنك إذا قلت: (نعم الرجل زيد)، فإنما تنشئ المدح وتحذث بهذا اللفظ، وليس المدح موجودًا في الخارج في أحد الأزمنة مقصودًا مطابقة هذا الكلام إيَّاه حتى يكون خبرًا، بل تقصّد بهذا الكلام مدحه على جودته الموجودة خارجًا، ولو كان إخبارًا صرفًا عن جودته خارجًا لدخله التصديق والتكذيب، فقول الأعرابي لمن بشره بمولودة وقال: (نعم المولودة)، (والله ما هي بنعم الولد)، ليس تكديماً له في المدح؛ إذ لا يمكن تكذيبه فيه، بل هو إخبار بأن الجودة التي حكمت بحصولها في الخارج ليست بحاصلة، فهو إنشاء جزؤه الخبر، وكذا (الإنشاء التعجبي)، والإنشاء الذي في (كم) الخبرية، وفي (رب)، هذا غاية ما يمكن ذكره في تمشية ما قالوا، من كون هذه الأشياء للإنشاء، ومع هذا كله فلي فيه نظر، إذ يطرد ذلك في جميع الأخبار؛ لأنك إذا قلت: (زيد أفضل من عمرو)، ولا ريب في كونه خبرًا، لم يمكن أن تكذب في التفضيل، ويقال لك: إنك لم تفضل، بل التكذيب إنما يتعلّق بأفضلية زيد، وكذا إذا قلت: (زيد قائم) وهو خبر بلا شك، لا يدخله التصديق والتكذيب من حيث الإخبار، إذ لا يقال: إنك أخبرت أو لم تخبر، لأنك أوجدت بهذا اللفظ: الإخبار، بل يدخلانه من حيث القيام فيقال: إن القيام حاصل أو ليس بحاصل، فكذا قوله: (ليس بنعم المولودة)، بيان أن النعمة، أي: الجودة المحكوم بثبوتها خارجًا، ليست بثابتة، وكذا في التعجب، وفي كم، ورب. شرح الرضي على كافية ابن الحاجب (٢٣٨/٤)، وانظر: الأساليب الإنشائية في النحو (ص ١٠٠-١٠١).

(٢) هو عبد الرحمن بن عبد، القاري، من ولد القارة بن الديش، من جلة تابعي أهل (المدينة) =

رمضان إلى المسجد فإذا النَّاسُ أوزاع^(١) متفرِّقون يصلي الرَّجُلُ لنفسه،
ويصلي الرَّجُلُ فيصلِّي بصلاته الرَّهْط^(٢)، فقال عمر رضي الله عنه: إني أرى لو
جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثمَّ عزم فجمعهم على أبي بن
كعب رضي الله عنه، ثمَّ خرجت معه ليلة أخرى، والنَّاسُ يصلون بصلاة قارئهم،
قال عمر رضي الله عنه: «نعم البدعة هذه والتي ينامون عنها أفضل من التي
يقومون»، يريد آخر اللَّيل، وكان النَّاسُ يقومون أوَّلَه^(٣). والشَّاهد قوله:
«نعم البدعة هذه» فهو لا يخبرُ عن شيءٍ يفعلونه أو فعلوه، ولكنَّه مدح
لحالهم الَّذي هم عليه.

ولا بُدَّ لهذه الأفعال من مخصوصٍ بالمدح أو الذَّم. فإذا قلت: (نعم
الرَّجُلُ خالد)، و(بشَّ الرَّجُلُ زيد). فالمخصوص بالمدح هو (خالد)،
والمخصوص بالذَّم هو (زيد). وهي غير محتاجة إلى التَّصرف، للزومها
أسلوبًا واحدًا في التَّعبير؛ لأنها لا تدلُّ على الحدث المتطلَّب للزَّمان
حتى تحتاج إلى التَّصرف بحسب الأزمنة. فمعنى المدح والذَّم لا
يختلف باختلاف الزَّمان.

= وعلمائهم. كان على بيت المال في زمن عمر رضي الله عنه. وتوفي في (المدينة). [٨٨هـ]. انظر:
الأعلام (٣/٣٠٩)، الإصابة (٥/٤٣)، التَّاريخ الكبير (٥/٣١٨)، الثَّقَات، لابن حِبَّان
(٥/٧٩)، الثَّقَات، للعجلي (٢/٨٢)، الطَّبَقَات الكبيرى، لابن سعد (٥/٥٧).

(١) (أوزاع)، أي: جماعات متفرقة.

(٢) (الرَّهْط): الجماعة من الرُّجال ما دون العشرة.

(٣) أخرجه البخاري [١٨٧١].

فَنِعَمَ منقول من قولك: (نِعَمَ فلان) إذا أصاب نِعْمَةً^(١).
و(نِعَم) و(بِشَس) فعلان ماضيان لا يتصرفان؛ لأنَّهما استعملتا للحال
بمعنى الماضي، ف(نعم) مدح، و(بشس) ذم. وفيها لغات، الأصل:
(نِعَم) بفتح أوله وكسر ثانيه. ثمَّ تقول: (نعم) فَتُشِعَ الكسرة الكسرة. ثمَّ
تطرح الكسرة الثانية، فتقول: (نِعَم) بكسر النون. وإن شئت قلت:
(نِعَم) بفتح النون. وتقول: نِعَمَ الرَّجُلُ زيدٌ، ونعم المرأة هند. وإن
شئت قلت: نِعَمَتِ المرأةُ هِنْدٌ. فالرَّجُلُ فاعلٌ نِعَمَ، وزيد يرتفع من
وجهين:

أحدهما: أن يكون مُبتدأ قُدِّم عليه خبرُه.
والثاني: أن يكون خبر مُبتدأ محذوف تقديره: (هو زيد) جواب
لسائل سأل من هو؟ لَمَّا قلت: نعم الرَّجُل. و(النَّعم) بالضَّم خلاف
البؤس. يقال: (يَوْمٌ نِعَمٌ)، و(يَوْمٌ بُؤْسٌ)، والجمع: (أَنْعَمُ)
و(أَبْؤُسُ)^(٢). ولا بدَّ لهذه الأفعال من شيئين: فاعل ومخصوصٍ
بالمدح أو الذَّم نحو: (نعم الرَّجُلُ خالد). فالرَّجُلُ هو الفاعلُ،
والمخصوصُ بالمدح هو خالد.

(١) انظر: لسان العرب، مادة: (بأس) (٢٠/٦)، تاج العروس (٤٣٣/١٥)، وفي (الصُّحاح)،
للجوهري، مادة: (أوس) (٩٠٧/٣)، وفي (مقاييس اللغة)، مادة: (نعم) (٤٤٦/٥).
(٢) مختار الصُّحاح، مادة: (نعم) (ص: ٦٨٨). وقد يطلق (اليوم) ونحوه على مطلق الزَّمان، وهو
كثير في كلام العرب كقولهم: (الدهرُ يومان، يوم نِعَم ويوم بُؤْس). انظر: التَّحْريْر
والتَّنْوير (٢٥٥/٢٧)، زاد المسير (٥٠٠/٤)، وكذلك انظر: تاج العروس، مادة: (نعم)
(٥٢٣/٣٣)، لسان العرب (٥٧٩/١٢)، (٦٤٩/١٢).

• ب. (نِعَمْ) من الخطاب القرآني بمعناه الأعم ..

أَمَّا (نِعَمْ) فقد جاء في القرآن الكريم على (خمسة) أحرف، وهي على النحو التالي:

﴿نِعَمْ الْمَوْلَى﴾ [الأنفال: ٤٠]، ﴿نِعَمْ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١]، ﴿نِعَمْ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [العنكبوت: ٥٨]، ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ﴿وَحَذَّ يَدِكَ ضِعْفًا فَأَضْرِبْ يَهُ وَيَا لَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] (١).
أَمَّا قوله ﷻ: ﴿وَنِعَمْ﴾ فقد جاء في القرآن على (أربعة) أحرف، وهي على النحو التالي:

﴿وَنِعَمْ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦].
﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعَمْ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].
﴿نِعَمْ الْمَوْلَى وَنِعَمْ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].
وفي (خاتمة الحج) أيضًا: ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] (٢).
أَمَّا قوله ﷻ: ﴿فَنِعَمْ﴾ فقد جاء على (خمسة) أحرف، وهي على النحو التالي:

﴿فَنِعَمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

(١) وذلك موافق لما ذكره ابنُ الجوزي في (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص: ٤٠٠)، وقد ذكر ابنُ الجوزي في كتابه (عجائب علوم القرآن) أنها (سنة). انظر: عجائب علوم القرآن (١٨٣-١٨٤)، والصواب أنها خمسة كما أوردتها، وكما في (فنون الأفنان) ..

(٢) وذلك موافق لما ذكره ابنُ الجوزي في (فنون الأفنان في عيون علوم القرآن) (ص: ٤٠٠)، وفي كتابه (عجائب علوم القرآن) (ص: ١٨٤).

﴿فَنِعَمَ الْمَوْلَى﴾ [الحج: ٧٨].

﴿فَنِعَمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعَمَ الْقَدِيرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]^(١).

وهما - أي: نعم وبئس - فعلان جامدان لا يتصرفان، فلا يستعمل منهما غير الماضي، ولا بدّ لهما من مرفوع، وهو الفاعل، ويستعملان في المدح والذم على سبيل المبالغة^(٢). وفاعل (نعم) يكون أحد الأشياء التالية^(٣):

١ - اسم ظاهر معرّف (بأل الجنسية) نحو: ﴿نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فالعبد فاعل (نعم)، والمخصوص بالمدح محذوف لدلالة ما قبله عليه^(٤). يعني أن يكون محلّى بالالف واللام، نحو: (نعم الرجل زيد)، ومنه قوله ﷺ: ﴿نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾. واختلف في هذه

(١) وذلك موافق لما ذكره ابن الجوزي في (فنون الألفان في عيون علوم القرآن) (ص: ٤٠١)،

وفي كتابه (عجائب علوم القرآن) (ص: ١٨٤).

(٢) انظر: الفريد في إعراب القرآن المجيد (١/ ٣٣٦).

(٣) سيأتي بيان ما يتعلّق (بخطاب الذم).

(٤) إذا تقدّم ما يدلّ على المخصوص بالمدح أو الذم أغنى عن ذكره آخرًا كقوله عز وجل في أيوب عليه السلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، أي: نعم العبد أيوب عليه السلام، فحذف المخصوص بالمدح وهو أيوب عليه السلام لدلالة ما قبله عليه. شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/ ١٦٧).

اللام، فقال قوم: هي للجنس حقيقة^(١)، فمدحت الجنس كله من أجل زيد، ثم خصصت زيدًا بالذكر، فتكون قد مدحت زيدًا مرّتين. وقيل^(٢): هي للجنس مجازًا، وكأنّك قد جعلت زيدًا الجنس كله مبالغة. وقيل: هي للعهد^(٣).

والمخصوص بالمدح في الآية محذوف، أي: (نعم المولى الله ﷻ)، و(المولى) هنا: الناصر والمعين^(٤).

٢ - أن يكون مضافًا إلى ما فيه (أل)، قال الله ﷻ: ﴿وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

٣ - «أن يكون مضمراً مفسّراً بنكرة منصوبة على التّمييز، نحو: (نعم قومًا معشره) ففي (نعم) ضمير مستتر يفسّره قومًا و(معشره) مبتدأ. وزعم بعضهم أنّ (معشره) مرفوع بنعم وهو الفاعل، ولا ضمير فيها. وقال بعض هؤلاء: إنّ (قومًا) حال. وبعضهم: إنّ تمييز. ومثل: (نعم قومًا معشره) قوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُ الظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]^(٥). - وسيأتي في الذّم.

(١) انظر: شرح ابن عقيل (١٦١/٣).

(٢) انظر: المصدر نفسه (١٦١/٣).

(٣) انظر: المصدر نفسه (١٦١/٣).

(٤) انظر: الفريد: (٤٢١/٢). والحاصل أنّ ﴿نِعَمَ﴾ فعل ماض جامد لإنشاء المدح،

و﴿الْمَوْلَى﴾ فاعل، والمخصوص بالمدح محذوف، أي: هو، ومثله: ﴿وَنِعَمَ النَّصِيرُ﴾ ..

(٥) شرح ابن عقيل (١٦٢/٣). فقوله عز وجل: ﴿بَدَلًا﴾ منصوب على التّفسير، مفسّره فاعل =

٤ - تقع (ما) بعد (نعم وبئس)، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنْ تُبَدُّوا أَلْبَدَقَتِ فَنِعْمًا﴾ [البقرة: ٢٧١]^(١)، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعْظُمُ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨]^(٢).

- ج. فاعل (نعم) المقرون (بأل) في الخطاب القرآني ...
- ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].
- ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ [الأنفال: ٤٠].
- ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].
- ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ [الكهف: ٣١].

= (بئس) المضمر، والمقصود بالذم محذوف، والتقدير: (بئس البديل بدلا من الله عز وجل) هو وذريته لمن استبدله فأطاعه بدل طاعته. وقيل: (بئس البديل بدلا.. الثار من الجنة). انظر: الفريد (٣/ ٣٤٧). والحاصل أن ﴿بئس﴾ فعل ماض جامد لإنشاء الذم، وفاعله مضمر مفسر بنكرة، و﴿بدلاً﴾ تمييز، ويجوز أن يتعلق ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ بمحذوف حال، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: (بئس البديل إبليس وذريته) ..

- (١) وقد اختلف في (ما) هذه، فقال قوم: هي نكرة منصوبة على التمييز، وفاعل (نعم) مستتر. وقيل: هي الفاعل، وهي اسم معرفة. انظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك (٣/ ١٦٦).
- (٢) تقع (ما) بعد (نعم وبئس)، كذلك تقع بعد (ساء) وستأتي.. وللحاجة في معنى (ما) هذه أقوال شتى، وأقربها وأقلها تكلفاً أن تكون (ما) موصولة، والجملة بعدها صلة، وهي مع صلتها فاعل لفعل المدح والذم استغني بها ووصلتها عن المخصوص لتمام المعنى به. ويرى صاحب (الأساليب الإنشائية في النحو) أن هذا الوجه هو أقوى الوجوه. ويليه في القوة أن تكون (ما) معرفة تامة هي فاعل (نعم وبئس)، والفعل بعدها صفة لمخصوص محذوف، والتقدير: نعم الشيء شيء صنعت. في الثاني: بئس الشيء شيء فعله، وفي الثالث: ساء الشيء شيء كانوا يعملونه. انظر: الأساليب الإنشائية في النحو (ص: ١٠٤).

﴿فَنِعَمَ الْمَوْلَى﴾ [الحج: ٧٨].

﴿وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿فَلَنِعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ [الصافات: ٧٥].

﴿نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

﴿فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿فَنِعَمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣].

● د. فاعل (نِعَم) مضاف إلى ما فيه (أَل) في الخطاب القرآني..

﴿وَنِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣٦].

﴿فَنِعَمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

﴿نِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلَيْنِ﴾ [العنكبوت: ٥٨].

﴿فَنِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلَيْنِ﴾ [الزمر: ٧٤].

● هـ. ما جرى مجرى (نِعَم)....

يستعمل وزن (فَعْلَ) استعمال (نعم وبئس)، وهو كلُّ فعلٍ ثلاثي صالح للتعجب منه، أي: (يستوفي شروطه المذكورة في التعجب) يجوز استعماله على (فَعْلَ) -بضم العين-، إمَّا بالأصالة: ك: (ظَرُفَ) و(شَرُفَ) أو بالتحويل ك: (فَهْمَ) و(ضَرْبَ) لإفادة المدح أو الذم، فيجري حينئذٍ مجرى (نعم وبئس) في حكم الفاعل والمخصوص، تقول في المدح: (فَهْمَ الرَّجُلِ علي)، وفي الذم: (خَبِثَ الرَّجُلُ عمرو).

ومن ذلك في الخطاب القرآني (حَسُنَ) قال الله ﷻ: ﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

• و. صلة خطاب المدح بموضوع البحث...

أقول: إنَّ مما يلاحظ أنَّ كلا من الزَّرْكَشِيِّ في (البرهان)^(١)، والشَّيْطَوِيِّ في (الإِتْقَان)^(٢)، ومن تبعهم لم يذكروا ما كان صريحًا من فعل المدح (نعم)، والسَّبَب في ذلك أنَّه الخطاب القرآني بمعناه الأعم، يعني أنَّه لا توجد فيه صيغة خطاب مباشرة فيها مواجهة بين المخاطب - بكسر الطاء المهملة - والمخاطب - بفتح الطاء المهملة - أو طلب. مع أنَّ منهم من يدرج بعض النماذج من الخطاب القرآني بمعناه الأعم ضمن المباحث المتعلقة بالخطاب من حيث معناه الأخص، من غير تبيين للمصطلحات كما أدرج الزَّرْكَشِيُّ قوله ﷻ: ﴿وَوَيْلٌ مِّن يَّحْمُودٍ﴾ [٤٣] لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ [٤٤] [الواقعة: ٤٣-٤٤] تحت عنوان (خطاب التَّهْكُم) - وقد سبق بيان ذلك مفصلاً -... فكان يلزمهم ذكر ما هو أظهر في المدح، وإن كان من الأعم الذي جرى ذكره في مظلة الأخص، فما جوابهم عن ذكرهم الخبر في مظلة الأخص في غير موضع - كما نَبَّهْتُ إلى ذلك مرارًا - فهو جوابنا هنا، وهو (سؤال مشترك الإلزام).

كما يلاحظ أنَّ مثل هذا الخطاب القرآني بمعناه الأعم أعني بـ:

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٢٨-٢٣٠).

(٢) انظر: الإِتْقَان (٢/٨٩).

﴿نَعَمْ﴾ المقصود من إنشاء المدح منه الإعلام والإخبار من المخاطب -بكسر الطاء المهملة- إلى المخاطب -بفتح الطاء المهملة- إمّا لبيان صفة المخاطب -بكسر الطاء المهملة- أو المخاطب -بفتح الطاء المهملة- ليكون المخاطب -بفتح الطاء المهملة- على دارية بتلك الصّفة؛ ليعرف مكانة المخاطب -بكسر الطاء المهملة- فيكون لذلك ما له من الأثر في كيفية التّعامل مع المخاطب، والاستجابة للأمر والنّهي، وإمّا لبيان وصف من الأوصاف المرعّب في تحصيلها، وذلك من خلال المنهج والاعتقاد والعمل..، وهي تخلو من صيغ الخطاب المباشرة بين المخاطب والمخاطب، والمقصود الأساس منها لا يتعلّق بمدح المخاطب فحسب، وإنما بحثه على صحة الاعتقاد والعمل لكي يصل إلى النّعيم الموصوف..، أو بحث غيره على الاقتداء به. وقد جاء ذلك مصرّحاً به في قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدِ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وذلك عقب الآيات التي قد اشتملت على أوصاف المدح الحقيقيّة للرّسل -عليهم الصّلاة والسّلام-^(١).

وقد جاء تخصيص مدح الرّسل بعد عموم مدح المؤمنين الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم..^(٢)، ثمّ قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْهُمْ أَقْتَدِ﴾، فكان ذلك هو المقصد الأسمى.

(١) انظر: الآيات من (سورة الأنعام) من (٨٣) إلى (٨٩).

(٢) انظر: الآية: (٨٢) من (سورة الأنعام).

وبعد هذه المقدمة أنتقل إلى (خطاب المدح) .. والذي أعنى ببيانه هو خطاب المدح من حيث معناه الأخص مع عدم إغفال الأعم - كما أسلفت - فقد ذكر الزركشي أن نحو: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤].. قد وقع خطاباً لأهل (المدينة) الذين آمنوا وهاجروا تمييزاً لهم عن أهل (مكة)، وقد سبق أن كل آية فيها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] لأهل (مكة). وحكمة ذلك أنه يأتي بعد: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ الأمر بأصل الإيمان، ويأتي بعد: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الأمر بتفاصيل الشريعة، وإن جاء بعدها الأمر بالإيمان كان من قبيل الأمر بالاستصحاب^(١).

وأخرج ابن أبي حاتم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أتاه، فقال: اعهد إلي. فقال: إذا سمعت الله ﷻ يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرعهما سمعك؛ فإنه خيرٌ يأمر به أو شرٌّ ينهى عنه^(٢).

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٢٨-٢٢٩). و(الاستصحاب) المقصود هنا هو: «عبارة عن إبقاء ما كان على ما كان عليه لانعدام المغير، وهو الحكم الذي يثبت في الزمان الثاني بناء على الزمان الأول». التعريفات، (الاستصحاب) (١/ ٥٧)، أو يقال: «الاستصحاب التمسك بما كان سائداً إبقاء لما كان على ما كان لفقد المغير، أو مع ظن انتفائه عند بذل المجهود في البحث والطلب، وهو أربعة: استصحاب حال الفعل، واستصحاب حال العموم إلى ورود مخصص، واستصحاب حكم الإجماع، واستصحاب أمر دل الشريعة على ثبوته في دوامه». التوقيف على مهمات التعاريف، مادة: (الاستصحاب) (١/ ٥٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) عن مسعر قال: حدثنا معن وعون، أو أحدهما.. (١/ ١٩٦)، (٣/ ٧١٨)، (٣/ ٩٠٢)، (٥/ ١٦٦٩)، والحديث أخرجه أيضاً سعيد بن منصور في (سننه) (١/ ٢١١).

وعن خيشمة^(١)، قال: ما تقرأون في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه في التّوراة: (يا أيها المساكين)^(٢).

وقد خاطب الله ﷻ المؤمنين بقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في (ثمانية وثمانين) موضعاً من القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان يخاطب في التّوراة بقوله: (يا أيها المساكين) فكأنه ﷻ لما خاطبهم أولاً بالمساكين أثبت المسكنة لهم آخرًا حيث قال: ﴿وَمُثِرْتُ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١]، وهذا يدلُّ على أنه ﷻ لما خاطب هذه الأمّة بالإيمان أولاً فإنه ﷻ يعطيهم الأمان من العذاب في النيران يوم القيامة، وأيضاً فاسم المؤمن أشرف الأسماء والصفات، فإذا كان يخاطبنا في الدُّنيا بأشرف الأسماء والصفات فنرجو من فضله أن يعاملنا في الآخرة بأحسن المعاملات^(٣).

وزاد النيسابوري^(٤): «فإنه ﷻ يعطيهم الأمان من العذاب آخرًا،

(١) هو خيشمة بن سليمان بن حيدرة القرشي الطرابلسي، أبو الحسن، من حفاظ الحديث، رحّالة، كان محدث (الشّام) في عصره. له كتاب كبير في (فضائل الصّحابة) منه الجزء السادس في (فضائل الصّديق) مخطوط، بضع ورقات في المجموع في الظّاهرية (بدمشق)، و(الرّقائيق والحكايات) قطعة منه في (شستربتي) [٣٤٩٥]، وهو من أهل (طرابلس الشّام) مسكناً ووفاء. [٣٤٣هـ]. الأعلام (٣٢٦/٢)، تذكرة الحفاظ (٥١/٣).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١٦٧/٧)، وابن أبي حاتم (١٩٦/١)، (٧١٨/٣)، (٩٠٢/٣)، (١٦٦٩/٥)، وأبو نعيم في (الحلية) (١١٦/٤)، وأخرجه عبد الرزاق (تفسيره) (٣٨٢/٥).

(٣) تفسير الرّازي (٢٢٣/٣)، ابن عادل (٣٥٩/٢)، تفسير النيسابوري (غرائب القرآن) (٣٥٣/١).

(٤) هو الحسن بن محمد بن الحسين القمي النيسابوري، نظام الدّين، ويقال له: الأعرج، مفسّر، =

﴿وَنَشِرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [١٧] ﴿[الأحزاب: ٤٧] - ولا سيما وأن (المؤمن) اسم من أسمائه العظام، ففيه دليل على أنه ﷺ يقربهم منه في (دار السلام)﴾^(١).

ومن هذا النوع الخطاب بـ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، و﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]؛ ولهذا تجد الخطاب بالنبي في محل لا يليق به الرسول، وكذا عكسه، كقوله ﷺ في مقام الأمر بالتشريع العام: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وفي مقام الخاص: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، ومثله: ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وتأمل قوله ﷺ: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] في مقام الاقتداء بالكتاب والسنة، ثم قال ﷺ: ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]، فكأنه جمع له المقامين معنى النبوة والرئاسة تعديدا للنعم في الحالين.

وقريب منه في المضاف إلى الخاص: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنْ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ولم يقل: (يا نساء الرسول) لما قصد اختصاصهن عن بقية الأمة، وقد يعبر بالنبي في مقام التشريع العام لكن

= له اشتغال بالحكمة والرياضيات. أصله من بلدة (قُم)، ومنشأه وسكنه في (نيسابور). له كتب، منها (غرائب القرآن ورجائب الفرقان) في ثلاثة مجلدات، يعرف بتفسير النيسابوري، ألفه سنة [٨٢٨هـ] توفي [بعد ٨٥٠هـ]. الأعلام (٢/٢١٦)، نظم العقيان في أعيان الأعيان، للشبوطي (ص: ١٢٧)، معجم المؤلفين (٢/٢٨٢).

(١) غرائب القرآن (١/٣٥٤).

مع قرينة أرادة التعميم، كقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: ١]، ولم يقل: (طَلَّقْتُ)^(١).

وهنا قاعدة مهمة في (خطاب المدح) ذكرها السيوطي رحمه الله في (الإتقان) حيث قال: «القاعدة في المدح تشبيه الأدنى بالأعلى، وفي الذم تشبيه الأعلى بالأدنى؛ لأنَّ الذم مقام الأدنى، والأعلى طارئ عليه، فيقال في المدح: (الحصى كالياقوت)، وفي الذم: (ياقوت كالزجاج)، وكذا في السلب، ومنه: ﴿يَنسَاءُ النَّبِيِّ لَسْتُ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾، أي: في النزول لا في العلو، ﴿أَمْ يَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، أي: في سوء الحال: أي: لا نجعلهم كذلك. نعم أورد على ذلك: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ [النور: ٣٥]، فإنه شبه في الأعلى بالأدنى لا في مقام السلب. وأجيب بأنه للتقريب إلى أذهان المخاطبين؛ إذ لا أعلى من نوره فيشبه به»^(٢).

وفي هذا المقام لا بد من التنويه إلى أن مدح الله ﷻ هو المدح على سبيل الحقيقة، وأنَّ ذمه هو الذم على سبيل الحقيقة، ومثال مدح الله ﷻ نفسه قوله ﷻ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فهو إخبار من الخطاب القرآني بمعناه الأعم، ويذكر

(١) البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٣٠)، وانظر: الإتقان (٢/ ٣٣)، وانظر: تفسير القرطبي (١٨/ ١٤٨)، وانظر: أضواء البيان (١/ ١٥١)، أحكام القرآن، للجصاص (٤/ ٩٨)، الكليات (ص: ٤٢٠).

(٢) الإتقان (٢/ ١١٨).

في هذا المقام قول الله ﷻ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) اللَّهُ الصَّكَمُ ﴿٢﴾ [الإخلاص: ١-٢]، وفيه صيغة من صيغ الخطاب المباشرة، وهي فعل الأمر: (قل) فهو من الخطاب القرآني بمعناه الأخص.. ومدح الله ﷻ للنبي ﷺ والمؤمنين في آيات كثيرة، مثل قول الله ﷻ في مدح النبي ﷺ: ﴿... إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿[الأحزاب: ٤٥-٤٦]، وهو من الخطاب القرآني بمعناه الأخص؛ لأنه جاء مسبوقاً بقوله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾ ، وفيه أيضاً (كاف الخطاب) في قوله ﷻ: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ .

ومدح النبي ﷺ والمؤمنين في قول الله ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَعِبُهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقوله ﷻ: ﴿الْمُتَّقِينَ الْمُؤْمِنِينَ الْفَائِزِينَ الْمُحْسِنِينَ الرَّكَّاعِينَ السَّاجِدِينَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]، وقد علم من أي قسم من أقسام الخطاب القرآني هو...



المطلب الثاني: خطاب الدَّم

ويتضمَّن:

- أ. تعريف الدَّم.
- ب. أفعال الدَّم.
- ج. ما يُلْحَقُ بأفعال الدَّم.
- د. صلة خطاب الدَّم بموضوع البحث.
- هـ. خطاب الدَّم من حيث معناه الأخص.

وبيان ذلك على النحو التالي:

● أ. تعريف الذَّم ...

جاء في (المغرب) أنَّ «الذَّم»: اللُّوم، وهو خلاف المدح أو الحمد يقال: (ذممته) وهو (ذميم) غير حميد، ومنه (الذَّمة) -بالفتح-: البئر القليلة الماء؛ لأنها مذمومةٌ بذلك...»^(١).

والحاصل أنه يقال فيه عكس ما قيل في (خطاب المدح) من حيث المعنى.. ويقال فيه ما قيل في (خطاب المدح) من حيث تحديد المصطلحات..

● ب. أفعال الذَّم ...

أمَّا أفعال الذَّم فإنها ما وضع؛ لإنشاء الذَّم نحو: (بُس) ^(٢). وأفعالُ الذَّم هي: (بُس)، و(ساء) و(لا حَبْذا) والأفعال المحوَّلة إلى (فَعْل) ك: (حَبْتُ).

وهي أفعالٌ لإنشاءِ الذَّم، فجُمِلها إنشائيَّة غير طلبية، لا خبرية، ولا بُدَّ لها من مخصوصٍ بالذَّم.

فإذا قيل: (بُس الرجل زيد) فالمخصوص بالذَّم هو (زيد). وهي غير محتاجة إلى التَّصرف، للزومها أسلوبًا واحدًا في التَّعبير؛ لأنها تدلُّ على الحدث المتطلَّب للزمان، حتَّى لا تحتاج إلى التَّصرف بحسب

(١) المغرب، الدَّال مع الميم، مادة: (ذمم) (٣٠٧/١)، لسان العرب (٢٢٠/١٢)، تاج العروس، مادة: (ذام) (٢٠٥/٣٢)، تهذيب اللغة، مادة: (ذم) (٢٩٩/١٤)، مقاييس اللغة (٣٤٥/٢).

(٢) انظر: التعريفات، التعريف بالأفعال (٤٩/١)، التوقيف على مهمات التعاريف، التعريف بالأفعال (٨٠/١).

الأزمة. فمعنى المدح والذم لا يختلف باختلاف الزمان^(١).
 و«بِئْسَ» كلمة ذم، وهي ضد (نعم)، تقول: (بِئْسَ الرجل زيد)،
 و(بِئْسَتِ المرأة هند). وهما فعلان ماضيان لا يتصرفان؛ لأنهما أزيلا
 عن موضعهما، (فِنِعْمَ) منقول من قولك: (نِعِمَ فلان) إذا أصاب نعمة.
 و(بِئْسَ) منقول من: (بِئْسَ فلان) إذا أصاب بُؤساً، فنُقلا إلى المدح
 والذم فشابهها الحروف فلم يتصرفا... وقوله **عَلَيْكَ**: **﴿فَلَا بُتَيْسَ﴾**
 [هود: ٣٦]، أي: لا تحزن ولا تشتك، و(المبتيس): الكاره والحزين،
 و(البأساء): الشدة والبؤسى ضد النعمى^(٢).

أما ورود (بِئْسَ) في الخطاب القرآني فهو على النحو التالي:
 قوله **عَلَيْكَ**: **﴿بِئْسَ﴾** جاء على (ثمانية) أحرف:
﴿بِئْسَمَا أَشْتَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠].
﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٩٣].
﴿بِئْسَمَا خَلَقْتُوْنِي مِنْ بَدِيءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٠].
﴿بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩].
﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].
﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].
﴿بِئْسَ الْإِمَامُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

(١) انظر: جامع الدروس العربية (١/ من ٧٧ إلى ٨٥).

(٢) مختار الصحاح، مادة: (بأس) (ص: ٧٣)، وانظر مادة: (بأس) في كلي من: (الصحاح)،
 للجوهري (٣/ ٩٠٧)، و(لسان العرب) (٦/ ٢٠)، الفريد (١/ ٣٣٦-٣٣٧).

﴿يَسْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥]^(١).
أما قوله ﷻ: ﴿وَيَسْ﴾ ففي (خمسة عشر) موضعًا:
منها (تسعة):

﴿وَيَسُ الْمَصِيرُ﴾ ، وهي [البقرة: ١٢٦] ، [آل عمران: ١٦٢] ،
[الأنفال: ١٦] ، [التوبة: ٧٣] ، [الحج: ٧٢] ، [الحديد: ١٥] ،
[التغابن: ١٠] ، [التحریم: ٩] ، [الملك: ٦].
و(ثلاثة): ﴿وَيَسُ الْمَهَادُ﴾ ، وهي [آل عمران: ١٢] ، [آل
عمران: ١٩٧] ، [الرعد: ١٨].

و(موضع): ﴿وَيَسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١].
و(موضع): ﴿وَيَسُ الْوَرْدُ الْمَوْزُودُ﴾ [هود: ٩٨].
و(موضع): ﴿وَيَسُ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٩]^(٢).
أما قوله ﷻ: ﴿فَيَسُ﴾ (فيسبعة) أحرف:

﴿فَيَسُ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، ﴿فَيَسُ الْمَهَادُ﴾ [ص: ٥٦] ،
﴿فَيَسُ الْقَرَارُ﴾ [ص: ٦٠] ، ﴿فَيَسُ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٧٢] ،

(١) وذلك موافق لما ذكره ابن الجوزي في (فنون الألفان) (ص: ٤٠٠-٤٠١)، وفي (عجائب علوم القرآن) (ص: ١٨٤).

(٢) وما تجدر الإشارة إليه هنا أن ابن الجوزي في كتابه (فنون الألفان في عيون علوم القرآن) (ص: ٤٠٢-٤٠٣) قد فاته أن يذكر قول الله عز وجل: ﴿وَيَسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١] ، ولم ينتبه المحقق إلى ذلك، كما فات ابن الجوزي أيضًا ذلك في كتابه (عجائب علوم القرآن)، ويذكر قوله عز وجل: ﴿وَيَسُ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ تكون المواضع (خمس عشرة) موضعًا كما ذكر.

﴿فَيُسْ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦]، ﴿فَيُسْ أَلْقَرِينَ﴾ [الزخرف: ٣٨]،
﴿فَيُسْ الْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٨]^(١).

أما قوله ﷻ: ﴿لِيَأْسُ﴾ (فخمسة) أحرف:

﴿لِيَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]، ﴿لِيَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾
[المائدة: ٦٣]، ﴿لِيَسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، ﴿لِيَسَ
مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ [المائدة: ٨٠]، ﴿لِيَسَ الْمَوْلَى﴾
[الحج: ١٣]^(٢).

أما قوله ﷻ: ﴿وَلِيَسَ﴾ (فأربعة) أحرف:

﴿وَلِيَسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ﴿وَلِيَسَ
الْمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، ﴿وَلِيَسَ الْعَشِيرُ﴾ [الحج: ١٣]، ﴿وَلِيَسَ
الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٥٧]^(٣).

أما قوله ﷻ: ﴿يُسْكَمَا﴾ (فتسعة) مواضع:

﴿يُسْكَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩٠]، ﴿قُلْ يَسْكَمَا يَا أُمَّرُكُمُ
بِهِ إِيْمَانُكُمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، ﴿فَيُسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل
عمران: ١٨٧]، ﴿لِيَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٢]، ﴿لِيَسَ مَا

(١) وذلك موافق لما ذكره ابن الجوزي في (فنون الأفنان) (ص: ٤٠٢)، وفي (عجائب علوم القرآن) (ص: ١٨٦-١٨٧).

(٢) وذلك موافق لما ذكره ابن الجوزي في (فنون الأفنان) (ص: ٤٠٣)، وفي (عجائب علوم القرآن) (ص: ١٨٨).

(٣) وذلك موافق لما ذكره ابن الجوزي في (فنون الأفنان) (ص: ٤٠٣)، وفي (عجائب علوم القرآن) (ص: ١٨٨).

كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ [المائدة: ٦٢]، ﴿لَيْتَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣]،
﴿لَيْتَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]، ﴿لَيْتَ مَا قَدَّمْتَ لَهُمْ
أَنْفُسَهُمْ﴾ [المائدة: ٨٠]، ﴿يَسْمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾
[الأعراف: ١٥٠] .

وقد سبق أنهما -أي: (نعم وبئس) - فعلان جامدان لا يتصرفان فلا
يستعمل منهما غير الماضي، ولا بدّ لهما من مرفوع، وهو الفاعل،
ويستعملان في المدح على سبيل المبالغة، وفاعله يكون أحد الأشياء
التالية:

١ - اسم ظاهر معرّف بأل الجنسية نحو: ﴿لَيْتَ الْمَوَالِي وَلَيْتَ الْعَشِيرُ﴾
[الحج: ١٣] .

٢ - أن يكون مضافاً إلى ما فيه (أل)، قال الله ﷻ: ﴿وَبِئْسَ مَثْوًى
لِلظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥١] .

٣ - أن يكون مضمراً مفسّراً بنكرة منصوبة على التّمييز، نحو: ﴿بِئْسَ
لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] .

٤ - تقع (ما) بعد (بئس) - كما سبق - .



● ج. ما يلحق بأفعال الذم...

١- ما يلحق ببش:

- (سَاءَ):

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١]،
﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾
[الأعراف: ١٧٧]، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩]، ﴿أَلَا سَاءَ مَا
يَزُرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]، ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩]، ﴿سَاءَ مَا
يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ﴿إِنَّهُمْ
سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٥]، ﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
[المنافقون: ٢].

- (وساء):

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَجِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿إِنَّهُمْ
كَانُوا فَجِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾
[طه: ١٠١].

- (فساء):

﴿فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨]، ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]،
﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾
[الصفات: ١٧٧].

أما (سَاءَت) ففي المواضع التالية:

﴿فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، ﴿وَنُصْلِهِ جَهَنَّمُ

وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿ [النساء: ١١٥] ، ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾
[الفتح: ٦] ، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ ﴿٦٦﴾ [الفرقان: ٦٦].
- (وَسَاءَتْ):

﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧] ، ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] ،
﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] ، ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].
- وأما (سيئت) ففي قول الله ﷻ:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الملك: ٢٧].
أما (ساء) فتستعمل استعمال (بئس)، فلا يكون فاعلها إلا ما يكون
فاعلاً لبئس، وهو:

أ. المحلّى بالألف واللام، نحو: (ساء الرجل زيد).
ب. المضاف إلى ما فيه الألف واللام، نحو: (ساء غلام القوم زيد).

ج. المضمّر المفسّر بنكرة بعده، نحو: (ساء رجلاً زيد)، ومنه قوله
ﷻ: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ ، ويذكر بعدها المخصوص
بالذم كما يذكر بعد (بئس)^(١).

ومن حقّ المخصوص أن يجانس الفاعل، وقوله ﷻ: ﴿سَاءَ مَثَلًا
الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ على حذف المضاف، أي: (ساء مثلاً مثل
القوم)، ونحوه قوله ﷻ: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا﴾ ، أي: (مثل

(١) انظر: شرح ابن عقيل (٢/١٦٨)، وانظر: المفصل في صنعة الإعراب (١/٣٦٢)، الجمل في
النحو (١/٩٧)، مغني اللبيب (ص: ٦٣٥)، اللباب في علل الإعراب والبناء (١/١٨٦).

الذين كَذَّبُوا)..^(١)..

وفي (الألفيّة):

(وَاجْعَلْ كِبَيْشَ سَاءَ وَاجْعَلْ فَعْلًا مِنْ ذِي ثَلَاثَةِ كَنْعَمَ مُسَجَلًا)^(٢).

وقد جاء في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾

[طه: ١٠١]..

(ساء) في حكم (بش). والضمير الذي فيه يجب أن يكون مبهمًا يفسره: ﴿حِمْلًا﴾، والمخصوص بالذم محذوف لدلالة الوزر السابق عليه، تقديره: (ساء حملاً وزرهم)، كما حذف في قوله ﷻ: ﴿نَعَمْ أَلْعَبَدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وأيوب عليه السلام هو المخصوص بالمدح.

ومنه قوله ﷻ: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧]، أي: (وساءت

مصيرًا جهنم)^(٣).

وفي (التحرير والتنوير) تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ

حِمْلًا﴾ [طه: ١٠١]: «(ساء) هنا هو أحد أفعال الذم مثل: (بش).

وفاعل (ساء) ضمير مستتر مبهم يفسره التمييز الذي بعده وهو (حِمْلًا).

و(الحمل): -بكسر الحاء- اسم بمعنى (المحمول)، كالذبح بمعنى

(١) انظر: المفصل في صنعة الإعراب (٣٦٤/١).

(٢) ألفية ابن مالك، (نعم وبش وما جرى مجراها) (ص: ٣٩).

(٣) انظر: الكشف (٥٥٢/٢)، تفسير أبي السعود (٤١/٦)، تفسير التيسابوري (٥٧٠/٤)،

تفسير البيضاوي (٤ / ٦٩)، البحر المديد (٣٠٤/٤).

المذبوح. والمخصوص بالذم محذوف لدلالة لفظ (وزراً) عليه. والتقدير: (وساء لهم حملاً وزرهم)، وحذف المخصوص في أفعال المدح والذم شائع كقوله ﷻ: ﴿وَوَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَنَ نِّعَمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، أي: سليمان عليه السلام هو الأواب. واللام في قوله ﷻ: ﴿وَسَاءَ هُمُ﴾: (لام التبيين)، وهي مبينة للمفعول في المعنى؛ لأن أصل الكلام: (ساءهم الحمل)، فجاء باللام لزيادة تبين تعلق الذم بحمله، فاللام لبيان الذين تعلق بهم سوء الحمل^(١).

وقد جاء في تفسير قوله ﷻ: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]، أي: (بئس مطر من أنذر فلم يؤمن)، ولم يرد بالمنذرين قوماً بأعيانهم، فإن شرط أفعال المدح والذم أن يكون فاعلها معرفاً بلام الجنس أو يكون مضافاً إلى المعرف به أو مضمراً مميّزاً بنكرة، والمخصوص بالذم محذوف، وهو مطرهم^(٢).

وفي تفسير قوله ﷻ: ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الصفات: ١٧٧]، أي: (فبئس صباح المنذرين صباحهم)، أي: صباح من أنذر بالعذاب وكذبه فلم يؤمن. واللام للجنس، فإن أفعال المدح والذم تقتضي الشُّيوع والإبهام والتفصيل، فلا يجوز أن تكون للعهد^(٣).

(١) التحرير والتنوير (٣٠٣/١٦)، وانظر: روح المعاني (٢٥٩/١٦).

(٢) انظر: الكشاف (١٢٦/٣)، وانظر: تفسير أبي السعود (٢٦١/٦)، روح المعاني

(١١٧/١٩)، السراج المنير (٧٠/٣)، النسفي (١٨٥/٣).

(٣) انظر: تفسير السمرقندي (١٢٦/٣).

٢ - ما جرى مجرى (بئس) في الخطاب القرآني - (خُبْتُ) و(كَبُرَ) - :
سبق بيان أن كلَّ فعل ثلاثي يجوز أن يبنى منه فِعْلٌ على (فَعَلَ) ؛
لقصد المدح أو الذم، ويعامل معاملة (نعم وبئس) في جميع ما تقدم كـ
(خُبْتُ) و(كَبُرَ).

أما (خُبْتُ) ففي موضع واحد :
﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ وَيَادِّنُ رَبِّهٖ وَلَٰذِي خُبْتُ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾
[الأعراف: ٥٨].

وفي (روح المعاني) «والتعبير أولاً بالطيب، وثانياً بالذي خُبْتُ دون
الخبث؛ للإيدان بأن أصل الأرض أن تكون طيبة منبته، وخلافه طارئ
عارض»^(١).

أقول: وهذا من المعاني الدقيقة التي تنبه إليها الألوسي - رحمه
الله - في تفسيره وثبه إليها؛ لأنَّ (خُبْتُ) من الأفعال المحوَّلة إلى
(فَعَلَ) ...، والتحويل لغة ومعنى .

وأما (كَبُرَ) ففي خمسة مواضع :
﴿وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ [الأنعام: ٣٥] ، ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذِكْرِي إِيَّائِي اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ
تَوَكَّلْتُ﴾ [يونس: ٧١] ، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾
[غافر: ٣٥] ، ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣] ،
﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

(١) روح المعاني (١٤٧/٨) .

أَمَّا (كَبُرَتْ) ففي موضع واحد:
﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥].

• د. صلة خطابِ الذَّمِّ بموضوعِ البحث...
أَمَّا صلة (خطابِ الذَّمِّ) بموضوعِ البحث فيقال فيه ما قيل في
(خطابِ المدح)..

• هـ. خطابُ الذَّمِّ من حيثُ معناه الأخص...
وأنتقل بعد ذلك إلى الخطاب القرآني فيما يتعلق بالذَّمِّ بصيغة من
صيغ الخطاب المباشر..، أعني: الخطاب من حيث معناه الأخص..
يقول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْزِرُوا الْيَوْمَ﴾ [التحریم: ٧]،
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] -وسياأتي في (النِّداء) بيان
المعنى مفصلاً، وبيان أنه نداء تنبيه وذم- وما يعيننا هنا أن وجه الذَّمِّ
ظاهر من وصفهم بأقبح صفة، وهي صفة الكفر التي فيها معنى
الإهانة، والتي تدلُّ على الجحود والنكران؛ فإنَّ (الكُفْر) ضد الإيمان،
وقد كفر بالله ﷻ من باب (نَصَرَ)، وجمعُ (الكافر): كُفَّار، وكُفْرَةٌ،
وكُفَّار -بالكسر مُحَقَّقًا- كجائع وجِياع، ونائم ونيام. وجمعُ (الكافرة):
كَوَافِرُ. و(الكُفْر) أيضاً: جُحُود النُّعْمَةِ، وهو ضدُّ الشُّكْرِ. و(رجل
كافر): جاحِدٌ لَأَنْعَمَ اللهُ ﷻ^(١).

(١) انظر: الصَّحاح، للجوهري، مادة: (كفر) (٨٠٧/٢)، مختار الصَّحاح (ص: ٥٨٦)،
القرطبي (١٨٣/١).

«ولتضمُّنه الإهانة لم يقع في القرآن في غير هذين الموضعين، وكثر الخطاب بـ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] على المواجهة، وفي جانب الكفار على الغيبة إعراضاً عنهم كقوله ﷺ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨]. ثم قال: ﴿وَفَلْيُلْهِمُ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ [الأنفال: ٣٩]، فواجه بالخطاب المؤمنين، وأعرض بالخطاب عن الكافرين؛ ولهذا كان ﷺ إذا عتب على قوم قال: «ما بال رجال يفعلون كذا»^(١)، فكُنِيَ عنه تكرماً، وعبر عنهم بلفظ الغيبة»^(٢). وقد كان خلق النبي ﷺ القرآن^(٣).

• و. خاتمة في إبراز النتائج...

ويَتَبَيَّنُ ممَّا سبق..

أنَّ مدح المخاطب -بكسر الطاء المهملة- والمعني هنا الله ﷻ سواء كان من المخاطب -بكسر الطاء المهملة- نفسه أم كان من المخاطب -بفتح الطاء المهملة- فإنه يدلُّ على مكانة المخاطب -بكسر الطاء المهملة- وصفاته الدالة على عظمته.. وتقع من المخاطب -بفتح الطاء المهملة- بقصد الثناء ووصف المخاطب -بكسر الطاء المهملة- بما هو أهله بقصد التقرب إليه بعباداتٍ مشروعة: هي ذكره بهذه

(١) انظر على سبيل المثال: صحيح البخاري [٤٣٦].

(٢) البرهان في علوم القرآن (٢/٢٣٠)، وانظر: الإتيان (٢/٨٩).

(٣) أخرجه مسلم [١٢٣٣].

الصفات التي تدلُّ على الكمال، وتنزُّهه عن النقائص..
ويقع المدح على المكانة أو العاقبة كقوله ﷻ: ﴿نَعَمْ الثَّوَابُ﴾
[الكهف: ٣١]، وهو في الحقيقة مدحٌ للفعلِ الموصولِ إلى ذلك
الثَّوَابِ.

أمَّا من المخاطب -بكسر الطاء المهملة- للإنسان فهو المدح على
الحقيقة الذي يدلُّ على حسن العاقبة، والأمان من العذاب..
وقد يكون للدلالة على التَّميِّز واختصاص الممدوح بصفاتٍ تؤهِّله؛
ليكون قدوةً وأسوةً لغيره كمدح رسول من الرُّسل-عليهم الصَّلاة
والسَّلام-، أو كمدح نساء النبي ﷺ، رضي الله عنهنَّ.
أمَّا مدح الفعل فهو من أساليب التَّغْيِيب والتَّحْفِيز للاستقامة
والتَّمَسُّك بما كان سبباً لذلك المدح، وأن لا يكون كالتِّي نقضت غزلها
من بعد قوَّة...أو محفِّزاً لغيره حتَّى يسيرَ على النَّهْج نفسه، فيستحق
ذلك المدح..

وفي مقابل ذلك كلُّه الذَّم حيث يقالُ فيه عكس ما قيل في خطاب
المدح...وفيه الموعظة والاعتبار لأولي الألباب...



المبحث السابع

ما يتعلق ببيان عجز المخاطب عن الإتيان بمثل ما خوطب به، ودحض تكذيبه

وفيه مطلبان:

الأول: خطاب التحدي والتعجيز:

ويتضمن:

- أ. التعريف بالتعجيز والتحدي.
- ب. بيان ما يتحقق به الإعجاز.
- ج. الآيات التي تدلُّ على التعجيز.
- د. التحضيض الذي يكون بمعنى التعجيز.
- هـ. التعجيز في بعض ما يخاطب به المرسلون من أقوامهم.
- و. ما يدلُّ بمادته على التعجيز.
- ز. النتائج..

المطلب الثاني: خطاب التكذيب:

ويتضمن:

- أ. بيان مادة: (كذب).
- ب. ثانيا: خطاب من كذب.

ج. ما كان من الخطاب القرآني وصفًا لحال المكذِّبين،
وبيانًا لعاقبتهم.

د. ما كان من خطاب المكذِّبين أنفسهم.
وبيان ذلك على النحو التالي:

المطلب الأول: خطاب التحدي والتعجيز

ويتضمن:

• أ. التعريف بالتعجيز والتحدي

ولا بدّ في بداية البحث أن أرجع إلى أصل كلمة (التعجيز)، وذلك ليعلم القصد من هذا اللون من ألوان الخطاب، وهل ثمة فرق بين أن تطلق على هذا اللون: (خطاب التعجيز)، وبين أن تطلق عليه: (خطاب التحدي)؟ يتبيّن ذلك بالرجوع إلى أصل كلمة (التعجيز)، وإلى أقوال المفسّرين، والباحثين في علوم القرآن.

فإنّ (الإعجاز) في اللغة العربيّة هو: نسبة العجز إلى الغير^(١)، قال **عَلَّامٌ**: ﴿أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغَرَابِ فَأُورَى سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١]. وتسمّى المعجزة بهذا الاسم؛ لأنّ البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها؛ لأنّها أمرٌ خارقٌ للعادة، خارجٌ عن حدود الأسباب المعروفة، وإعجاز القرآن معناه: إثبات عجز البشر متفرّقين ومجتمعين عن الإتيان بمثله، وليس المقصود من (إعجاز القرآن): تعجيز البشر لذات التعجيز، أي: تعريفهم بعجزهم عن الإتيان بمثل

(١) انظر: لسان العرب، مادة: (عجز) (٣٦٩/٥)، وكذلك في (الصّحاح)، للجوهريّ

القرآن؛ فإنَّ ذلك معلومٌ لدى كلِّ عاقل، وإنَّما الغرض: إظهار أنَّ هذا الكتاب حقٌّ، وأنَّ الرِّسولَ الَّذي جاء به رسول صادق، وإثبات أنَّ ما جاء به الرِّسل -عليهم الصَّلَاة والسَّلَام- إنما هو بوحى من الله ﷻ، فالمعجزات براهين من الله ﷻ إلى عباده بصدق رسله وأنبيائه -عليهم الصَّلَاة والسَّلَام-^(١).

يقال: (أعجزه الشَّيء): عجز عنه. وقوله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١]، معناه: ظانِّين أنَّهم يعجزوننا؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّهم لا يبعثون، ولا جنَّة ولا نار. وقيل في التفسير: معاجزين: معاندين. وفي التَّنزيل: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢] وانظر: [الشورى: ٣١]. قيل معناه: ما أنتم بمعجزين في الأرض، ولا أهل السَّماء بمعجزين. وقيل: معناه: وما أنتم بمُعجزين في الأرض، ولا لو كنتم في السَّماء، وليس يُعْجز الله ﷻ خلق في السَّماء ولا في الأرض، ولا ملجأ منه إلا إليه^(٢).^(٣)

(١) انظر: التبيان في علوم القرآن، للشيخ الصَّابوني (ص: ٩٣)، وانظر: إجابة السائل شرح بغية الآمل (١/ ٦٣)، و(البحر المحيط في أصول الفقه) في كلام مطوَّل (١/ ٣٥٧).

(٢) لسان العرب، مادة: (عجز) (٥/ ٣٦٩). وينظر: معاني القرآن، للقرطبي (٢/ ٣١٥)، معاني القرآن، للأخفش (ص: ٥٥٦)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/ ١٦٥).

(٣) ونحو ما سبق قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْصِيَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩]، ﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رَجْزٍ أَلِيمٍ﴾ [سبا: ٥]، ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ =

قال الطبري في تفسير قول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ يُخَيِّمُ اللَّهُ عَلَيْتِهِ وَآلَهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢]: «وذلك أنَّ من عجز عن آيات الله ﷻ، فقد عاجز الله ﷻ، ومن معاجزة الله ﷻ: التَّعْجِيزُ عن آيات الله ﷻ، والعمل بمعاصيه وخلاف أمره، وكان من صفة القوم الَّذِينَ أُنْزِلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَبْطِئُونَ النَّاسَ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ﷻ، وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ ﷺ، وَيُغَالِبُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يَعْجِزُونَهُ وَيُغْلِبُونَهُ، وَقَدْ ضَمَّنَ اللَّهُ ﷻ لَهُ نَصْرَهُ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ ذَلِكَ مُعَاجِزَتَهُمُ اللَّهُ ﷻ. وَأَمَّا (المعاجزة) فَإِنَّهَا الْمَفَاعَلَةُ مِنَ الْعَجْزِ، وَمَعْنَاهُ: مُغَالَبَةُ اثْنَيْنِ، أَحَدُهُمَا صَاحِبُهُ أَيُّهُمَا يَعْجِزُهُ فَيُغْلِبُهُ الْآخَرُ وَيَقْهَرُهُ. وَأَمَّا (التَّعْجِيزُ): فَإِنَّهُ التَّضْعِيفُ، وَهُوَ التَّفْعِيلُ مِنَ الْعَجْزِ» اهـ^(١).

والحاصلُ أَنَّ معنى (إعجاز القرآن): عجز الإنس والجنَّ عن الإتيان بمثله، فكلمة (إعجاز) مصدر، وإضافتها إلى القرآن من إضافة المصدر إلى فاعله، فكأنَّ التَّقْدِيرُ: أَعْجَزَ الْقُرْآنُ النَّاسَ عَنِ الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ. وَالتَّعْجِيزُ مُشْتَقٌّ مِنْ مَادَّةٍ: (عَجَزَ)، وَهُوَ مِنَ النِّسْبَةِ إِلَى الْعَجْزِ. يُقَالُ: عَجَزَ فُلَانٌ رَأْيَ فُلَانٍ، إِذَا نَسَبَهُ إِلَى الْعَجْزِ. فَهُوَ التَّفْعِيلُ مِنَ الْعَجْزِ. وَمُعْجِزَةُ الْقُرْآنِ مَا أَعْجَزَ بِهِ الْخَصَمَ عِنْدَ التَّحْدِي. وَلَكِنْ يَبْقَى النَّظَرُ هَلْ

= ﴿٣٨﴾ [سبأ: ٣٨]، ﴿وَلَا يَحْصِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبِقُوا إِيَّتِهِمْ لَا يَعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩].

أما قوله عز وجل: ﴿يُمْتَعِزِينَ﴾ انظر: [الأنعام: ١٣٤]، [يونس: ٥٣]، [هود: ٣٣]،

[النحل: ٤٦]، [العنكبوت: ٢٢]، [الزمر: ٥١]، [الشورى: ٣١].

(١) تفسير الطبري (١٧/١٨٦)، وانظر: تفسير القاسمي (٥/٢٠٣).

التعجيز مقصود لذاته، أم أنه لبيان أن القرآن حق، وأن ما جاء به الرسول صدق؟ والجواب: لا شك أن التعجيز المذكور ليس مقصوداً لذاته، بل المقصود لازمه، وهو إظهار أن هذا الكتاب حق، وأن ما جاء به الرسول صدق..

● ب. ما يتحقق به الإعجاز

ويتحقق الإعجاز إذا تحققت أمور ثلاثة:

«١ - التحدي، أي: (طلب المبارزة والمعارضة)^(١).

٢ - أن يكون الدافع إلى رد التحدي قائماً.

٣ - أن يكون المانع متفياً. وتوضيح ذلك أن هذا القرآن هو المعجزة الكبرى التي تحدى الله ﷻ بها الناس أجمعين، يأتي به نبي أمي لا يعرف القراءة والكتابة.. ولم يتصل بأحد من علماء أهل الكتاب حتى يطلع على أنباء الأمم وأخبار السابقين، متحدياً أئمة الفصاحة، وفرسان البلاغة، وطلب منهم معارضة القرآن الكريم بعبارات قوية، ولهجات واخزة تستفز العزيمة، وتدفع إلى المبارزة. «وأما أسلوب القرآن الكريم في التحدي فقد تنزل معهم من التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله، ثم إلى التحدي بسورة

(١) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: (حدا) (٣٥/٢)، والعين، مادة: (حدو)

(٢٧٩/٣)، وينظر (خطاب التحدي) في (تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل)، للباقلاني

(ص: ١٧١-١٧٢)، وتنظر المعارضة والإعجاز من المصدر نفسه (ص: ١٧٢) فما بعد.

واحدة من مثله، وهم واجمون^(١) لا ينسون بينت شفة، وهم رغم هذا التحدي ينتقلون من عجز إلى عجز..»^(٢).

أقول: ومن الملاحظ أنَّ من العلماء من فرَّق من حيث التَّمثيل بين (خطاب التحدي) و(خطاب التعجيز)، ومنهم من لم يفرِّق -كما سيأتي في استعراض أقوال المفسِّرين-. ولعلَّ الفرق بينهما أنَّ (خطاب التحدي) في الخطاب القرآني إنما يكون في الأمر الذي يظنُّ المخاطب أنَّه ممكن، وذلك إذا كان المخاطب -بكسر الطاء المهملة- هو الله ﷻ، فإنَّ المخاطب -بفتح الطاء المهملة- قد يظنُّ لأوَّل وهلة أنَّه ممكن؛ لغفلته وذهوله عن الحقائق، والحقيقة عكس ما يظنُّ، فيتبيَّن بعد ذلك أنَّه لا يدخل في حيِّز الإمكان، فال الأمر في ذلك إلى

(١) (وَجَمَ) من الأمر (يَجْمُ) (وُجُومًا) أمسك عنه و هو كارهة. انظر: المصباح المنير، مادة: (وَجَمَ) (٢/٦٤٩).

(٢) بتصرفٍ عن (التبيان في علوم القرآن) (ص: ٩٣-٩٤). أمَّا آيات التحدي فهي على النحو التالي: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الفصص: ٤٩]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]. وينظر في ذلك ما كتبه الشيخ الصابوني في (التبيان) من (ص: ٨٩) فما بعد. والخاص أن قوله عز وجل: ﴿فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِّثْلِهِ﴾ ونحوه أمر معناه التعجيز؛ لأنَّه عز وجل علم عجزهم عنه. انظر: تفسير القرطبي (١/٢٣٢).

التَّعْجِيز؛ فَإِنَّ التَّعْجِيزَ يَكُونُ فِي غَيْرِ الْمُمْكِنِ. وَمِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ يَطْلُقُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ عَلَى الْآخَرِ - كَمَا سَيَأْتِي - وَهُوَ إِطْلَاقُ صَحِيحٍ فِي الْخُطَابِ الْقُرْآنِيِّ إِذَا كَانَ الْمَخَاطَبُ - بِكسْرِ الطاء المهملة - اللَّهُ ﷻ، فَهُوَ عَالَمٌ أَنَّ الْمُتَحَدِّىَ بِهِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يِعَارِضَهُ الْمَخَاطَبُ - بفتح الطاء المهملة - أَوْ الْمُتَحَدِّىَ.

وَلَمْ أَجِدْ مِنَ الْبَاحِثِينَ مَنْ فَرَّقَ مِثْلَ هَذَا التَّفْرِيقِ إِلَّا مِنْ حَيْثُ التَّمْثِيلُ.. مَعَ أَنَّ ذَلِكَ لَهُ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ مَا لَا يَخْفَى.. وَبِذَلِكَ أَكُونُ قَدْ أَجَبْتُ عَنْ سَوَالٍ مُهِمٍّ، وَلَهُ مِنَ الصَّلَةِ الْقَوِيَّةِ بِمَا نَحْنُ بِصَدَدِ بَيَانِهِ، وَهُوَ: لِمَاذَا هَذَا التَّفْرِيقُ فِي التَّمْثِيلِ مِنَ الْبَعْضِ بَيْنَ (خُطَابِ التَّحْدِي) وَ(خُطَابِ التَّعْجِيز)، بَيْنَمَا لَا نَجِدُ تَعْلِيلَ ذَلِكَ وَاضِحًا فِي كَلَامِ الْمَفْسِّرِينَ وَالْبَاحِثِينَ؟؟؟

وَقَدْ مَثَّلُوا لِلَامِ التَّحْدِيِّ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [٢٤: الطور: ٣٤]، وَلِلَامِ التَّعْجِيزِ بِقَوْلِهِ ﷻ: ﴿أَمْرٌ لَهُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [١٠: ص: ١٠] ^(١). وَقَدْ يَطْلُقُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ كَمَا فِي نَحْوِ قَوْلِهِ ﷻ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]. وَالنَّظَرُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ حَيْثُ مَا فِيهِ التَّعْجِيزُ، بَأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ طَلَبَ إِتْيَانِهِمْ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، لَكُونِهِ مُحَالًا، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ: إِظْهَارَ عَجْزِهِمْ.. ^(٢).

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣/٦). ينظر (تفسير الرّازي) في

التَّعْجِيزِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [٢٤: ٢٥٨-٢٥٧/٢٨].

(٢) ينظر: شروح تلخيص المفتاح (٢/٣١٤-٣١٥).

• ج. الآيات التي تدلُّ على التعجيز

وأنتقل هنا على بيان الآيات التي تدلُّ على التعجيز. فمن ذلك ما قيل في حروف التَّهْجِي المَقْطَّعة في القرآن الكريم.
وذلك كقوله ﷻ:

﴿أَلَمْ﴾ [البقرة: ١]. قال في (التَّحْرِير والتَّنْوِير) في تفسيره لأوَّل آية من (سورة العنكبوت): «واعلم أنَّ التَّهْجِي المقصود به التَّعْجِيز يأتي في كثيرٍ من سور القرآن، وليس يلزم أن يقع ذكرُ القرآن أو الكتاب بعد تلك الحروف، وإن كان ذلك هو الغالب في سور القرآن ما عدا ثلاث سور، وهي فاتحة (سورة مريم)، وفاتحة هذه السُّورة، وفاتحة (سورة الرُّوم). على أنَّ هذه السُّورة لم تخلُ من إشارة إلى التَّحْدِي بِاعْجَاز القرآن لقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]»^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣١]. فَإِنَّ الأمر في قوله ﷻ: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ «أمر تعجيز بقرينة كون المأمور يعلم أنَّ الأمر عالم بذلك، فليس هذا من التَّكْلِيف بالمحال كما ظنَّه بعض المفسِّرين^(٢). واستعمال

(١) التَّحْرِير والتَّنْوِير (٢/٢٠٢).

(٢) «خطاب التعجيز جائز، وهو الأمر بإتيان الشيء ولم يكن إتيانه مراداً، ليظهر عجز المخاطب، وإن كان ذلك محالاً كالأمر بإحياء الصُّورة التي يفعلها المصوِّرون يوم القيامة؛ ليظهر عجزهم، ويحصل لهم التَّدَم ولا ينفعهم التَّدَم». روح البيان (١/٩٢)

صيغة الأمر في التعجيز مجاز، ثمَّ إِنَّ ذلك المعنى المجازي يستلزم علم الأمر بعجز المأمور، وذلك يستلزم علم الأمر بالمأمور به^(١). ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]، ونحوه قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لَازِيك هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، فقوله ﷻ: ﴿فَتَمَنَّوْا﴾ مستعمل في التعجيز كناية عن التكذيب مثل قوله ﷻ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ [البقرة: ١٣٧]. من باب التعجيز والتبكي، كقوله ﷻ: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]؛ إذ لا مثل لما آمن به المسلمون، ولا دين كدين الإسلام^(٣). وقد علم أنه لا حيلة لهم في رفع البلاء عن أنفسهم يومئذٍ كما كانوا يحتالون في الدنيا يؤذون بذلك أنبياء الله ﷻ وأوليائه، وهذا التعجيز والتخجيل من جنس العذاب^(٤).

(١) التحرير والتنوير (٤١٢/١)، وينظر: تفسير ابن جزي (٤٤/١).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٢١٦/٢٨)، المحرر الوجيز (٣٠٨/٥)، تفسير الثعالبي (٢٩٩/٤).

(٣) انظر: تفسير البيضاوي (٤١١/١)، روح المعاني (٣٩٦/١).

(٤) انظر: غرائب القرآن (٤/١)، تفسير أبي السعود (٦٤/١)، (١٦٧/١)، السراج المنير

(١٠٩/١)، تفسير القرطبي (٢٣٢/١)، فتح القدير (٨٣/١)، التحرير والتنوير (٢٠٣/١)،

(٣٣٨/١)، (٧٣/٢٧).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قُلْ هَلَمْ شُهِدَافُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٠]، أي: أحضروا شهداءكم وقربوهم، وإضافة الشُّهداء إليهم تدلُّ على أنهم غيرهم، وهذا أمر على سبيل التَّعْجِيز، أي: لا يوجد من يشهد بذلك شهادة حق؛ لأنها دعوى كاذبة ^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤] هي أيضًا هنا (لام التَّعْجِيز)، أي: فاخبروهم بدعائكم هل يقع منهم إجابة أو لا يقع؟ والأمر بالاستجابة هو على سبيل التَّعْجِيز، أي: لا يمكن أن يجيبوا ^(٣).

(١) انظر: تفسير السراج المنير (٤/١١١)، تفسير الرَّاَزي (٢٨/١٩٨)، تفسير ابن عادل (١٤/٤٢٧)، التحرير والتنوير (٢٧/٦٧).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٢٤٩)، وانظر: البرهان في علوم القرآن (٢/٢٥١)، المنار (٨/١٦٠).

(٣) انظر: البحر المحيط (٤/٤٤١)، تفسير الرَّاَزي (١٥/٩٢) التحرير والتنوير (٩/٢٢١)، تفسير ابن عادل (٩/٤٢٧)، وانظر: زهرة التفاسير (ص: ١٣٠٣٥).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿الَهُمْ أَتَجُلُّ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ ﴿١٩٥﴾﴾ [الأعراف: ١٩٥]. «تأكيد لما تضمنته الجملة قبلها من أمر التعجيز وثبوت العجز؛ لأنه إذا انتفت عن الأصنام أسباب الاستجابة تحقق عجزها عن الإجابة، وتؤكد معنى أمر التعجيز المكنى به عن عجز الأصنام، وعجز عبادتها»^(١).

ومن ذلك ما كان نحو قوله ﷻ:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]^(٢).

(١) التحرير والتنوير (٢٢٢/٩)، وانظر: تفسير الرازي (٩٢/١٥-٩٣)، تفسير ابن جزي (٥٨/٢).

(٢) وأما النظائر في ذلك فهي على النحو التالي: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١]، ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ قُلُوبَ كَثِيرٍ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يونس: ٣٥]، ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَرْسَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتَنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَادًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْذَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦١]، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا =

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ [يونس: ٧١]. فقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُنظِرُون﴾ ، أي: لا تؤخّرون، وهذا على طريق التعجيز، أخبر الله ﷻ عن نوح عليه السلام أنه كان واثقاً بنصر الله ﷻ غير خائف من كيد قومه، علماً منه بأنهم وآلهتهم ليس إليهم نفع ولا ضرر إلا أن يشاء الله ﷻ^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿مَنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُون﴾ ٥٥ إني قَوَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَقِي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٥-٥٦]. فإن الأمر بـ ﴿فَكِيدُونِي﴾ مستعمل في الإباحة كناية عن التعجيز بالنسبة للأصنام وبالنسبة لقومه، كقوله ﷻ: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ ٣٩ [المرسلات: ٣٩]، و﴿تَوَّء﴾ للتراخي الرتبي، تحدّاهم بأن يكيدوه، ثم ارتقى في رتبة التعجيز والاحتقار، فنهاهم عن التأخير بكيدهم إيّاه،

= بَرَكَ بَدَى رَحْمَتُهُ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ٦٣﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ مَا تَوْفَعْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٦٤﴾ [النمل: ٦٤]، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصَرُّكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضُرٍّ ٦٥﴾ ٦٥﴾ [النمل: ٦٥]، ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ٦٦﴾ ٦٦﴾ [النمل: ٦٦]، ﴿أَمَّنْ يَنْشِئُ مِثْبَاتًا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمُوتُ سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٦٧﴾ ٦٧﴾ [الملك: ٢٠-٢٢]. وينظر من أقوال المفسرين في ذلك. وينظر في ذلك: (التحرير والتنوير) (٢٠ / ١٨)، (٢٢ / ١٩٦)، (٢٩ / ٤١)، (٢٩ / ٤٤)، أضواء البيان (٣ / ٤١٩)، (٧ / ٢١٣)..
(١) انظر: تفسير البغوي (٢ / ٣٦٢)، تفسير الخازن (٣ / ٢٠١)، تفسير السمعاني (٢ / ٣٩٦).

وذلك نهاية الاستخفاف بأصنامهم وبهم، وكناية عن كونهم لا يصلون إلى ذلك. وجملة: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ﴾ تعليل لمضمون ﴿فَكِيدُونِي﴾، وهو التعجيز والاحتقار. يعني أنه واثق بعجزهم عن كيده؛ لأنه متوكل على الله ﷻ، فهذا معنى ديني قديم^(١).

ومما قيل في قوله ﷻ:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۖ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُوا مَتَى هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ۖ ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء: ٥٠-٥١]، أي: قل لهم يا محمد: كونوا على جهة التعجيز حجارة أو حديدًا في الشدة والقوة^(٢)، أي: إن عجبتم من إنشاء الله ﷻ لكم عظامًا ولحمًا فكونوا أنتم حجارة أو حديدًا إن قدرتم^(٣).

وقد ردَّ ابنُ عطية بأنَّ التعجيز يكون حيث يقتضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطب، وإنما معنى الآية: كونوا بالتَّوَهُّم والتَّقدير^(٤).

(١) بقليل من التصرف عن (التحرير والتنوير) (١٢/١٠٠)، وانظر: تفسير ابن جزي (١٠٧/٢).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (١٠/٢٧٤)، وانظر أيضًا: تفسير القرطبي (١/٤٢٩)، روح المعاني (٩٠/٢٠).

(٣) تفسير الطبري (١٥/٩٨)، الثكت والعيون (٣/٢٤٧)، القرطبي (١٠/٢٧٤)، فتح القدير (٣/٣٣٦).

(٤) المحرر الوجيز (٣/٤٦٢). وانظر: البرهان في أصول الفقه (٢/٢٥١)، البحر المحيط في أصول الفقه (٢/٩٥). ويكون المعنى -كما سيأتي- قدَّروا أو هبوا أو استشعروا أنفسكم حجارة أو حديدًا أو ما شئتم، فإنَّ الَّذِي فَطَرَكُمْ كذلك قادر على أن يعيدكم، بل هو أسهل =

وفي (البحر) «هو الذي يسمّيه المتكلّمون التّعجيز من أنواع (أفعل)، وبهذه الآية مثلاً بعضهم. وفي هذا عندي نظر؛ وإنما التّعجيز حيث يقتضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطب كقوله ﷻ: ﴿فَادْرُؤْا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٦٨] ونحوه. وأمّا هذه الآية فمعناها: كونوا بالتّوهم والتّقدير كذا وكذا. [فإنّ] ﴿الَّذِي فَطَرَكُمْ﴾ [الإسراء: ٥١] كذلك هو يعيدكم^(١). وقال مجاهد: المعنى: ﴿كُونُوا﴾ ما شئتم فستعادون^(٢). وقال النّحاس: هذا قول حسن؛ لأنّهم لا يستطيعون أن يكونوا حجارة، وإنّما المعنى أنّهم قد أقرّوا بخالقهم، وأنكروا البعث فقبل لهم: استشعروا أن تكونوا ما شئتم، فلو كنتم حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا لبعثتم كما خلقتهم أوّل مرّة^(٣). وقد بيّن ذلك ابن جزي في (تفسيره) المعنى بيانًا واضحًا حيث قال: قوله ﷻ: ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾. «المعنى: لو كنتم حجارة أو حديدًا لقدرنا على بعثكم وإحيائكم، مع أنّ الحجارة والحديد أصلب الأشياء وأبعدها عن الرّطوبة التي في الحياة، فأولى وأحرى أن يبعث أجسادكم ويحيي

= عليه في مقاييسكم البشريّة.. نظرًا إلى أنّ الإعادة أسهل من البداية. ولكن الأمور كلها متساوية عند الله عز وجل؛ فإنّ كلّ شيءٍ على الله عز وجل يسير، وقد قال عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿أَفَعَبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]. في كلام ابن جزي -الذي سيأتي- بيان وتوضيح أيّما توضيح.

(١) البحر المحيط (٤٤/٦).

(٢) انظر: تفسير مجاهد (٣٦٣/١)، القرطبي (٢٧٤/١٠)، البحر المحيط (٣١/٦)، (٤٤/٦).

(٣) معاني القرآن، للنّحاس (١٦٣/٤).

عظامكم البالية، فذكر الحجارة والحديد، تنبيهاً بهما على ما هو أسهل في الحياة منهما، ومعنى قوله: ﴿كُونُوا﴾ ، أي: كونوا في الوهم والتقدير، وليس المراد به التعجيز كما قال بعضهم في ذلك. ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥١]. قيل: يعني السموات والأرض والجبال، وقيل: بل أحال على فكرتهم عموماً في كل ما هو كبير عندهم، أي: لو كنتم حجارة أو حديدًا أو شيئاً أكبر عندكم من ذلك وأبعد عن الحياة لقدرنا على بعثكم ﴿فَيَنْفُضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ ، أي: يحركونها تحريك المستبعد للشيء والمستهزئ، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ ، أي: متى يكون البعث؟^(١).

ومن ذلك ما قيل^(٢) في قوله ﴿كَلَّا﴾:

﴿كُونُوا فِرْدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وانظر: [الأعراف: ١٦٦]، ولكن قيل: إن الأولى أن يراد بها: التسخير والتكوين كما ذكر ذلك غير واحد^(٣). وحاصل ما قيل في (الفرق بين التعجيز والتسخير): أن

(١) تفسير ابن جزي (٢/١٧٣).

(٢) انظر: البرهان في أصول الفقه، للزركشي (١/١٧٥)، (١/٢١٧).

(٣) انظر: المختصر (ص: ٩٨)، المدخل (ص: ٢٢٤)، قواطع الأدلة (١/٤٩)، الإبهاج (٢/١٥)، (٢/١٩)، التبصرة، للشيرازي (ص: ٢٠)، المحصول (٢/٥٩). والمراد بالتسخير هنا: «جعل الشيء مسخراً منقاداً لما أمر الله عز وجل به، يعني أن صيغة الأمر تستعمل للتسخير، وذلك في مقام يكون المأمور به منقاداً للأمر، والعلاقة بين الطلب وبينه السببية؛ لأنه إيجاب شيء لا قدرة للمخاطب عليه بحيث يحصل بسرعة من غير توقف يتسبب عنه تسخيره لذلك، أي: جعله مسخراً منقاداً لما أمر به.. والفرق بينه وبين التكوين أن التسخير تبديل من حالة إلى حالة أخرى أحسن من الأولى، والتكوين الإنشاء من العدم =

التَّسْخِيرِ نوع من (التَّكْوِين) فمعنى: ﴿كُونُوا فِرْدَةً﴾: انقلبوا إليها. وأمَّا التَّعْجِيز: فالزامهم أن ينقلبوا، وهم لا يقدرُونَ أن ينقلبوا. وقد قال ابن عطية في (تفسيره): في التَّمَسُّك بهذا نظر. وإنما التَّعْجِيز حيث يقتضي الأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطب نحو قوله ﷻ: ﴿فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]^(١). ويتبيّن ممّا سبق أنّ البعض قد قال: إنّ الآية التي نحن بصدد بيانها فيها ما يدلُّ على التَّعْجِيز، ثمَّ عرضت قول المخالفين، ورأيتُ ترجيح قول ابن عطية -رحمه الله- ومن لفَّ لفَّه؛ لوضوح ما استدلُّوا به.

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. والجنُّ تفعل أفعالاً مستغربةً كما حكى الله ﷻ عنهم في قصّة سليمان عليه السلام، وقد أدرجوا مع الإنس في التَّعْجِيز ليكون ذلك أبلغ في العجز^(٢).

= إلى الوجود، ويوجد استعمال الأمر فيه، كقوله عز وجل: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، والتَّعبير عن الإيجاد (بكن) إيماء إلى أنّه يكون في أسرع لحظة، وأنّه طائع لما يراد، فكأنّه إذا أمر ائتمر، ويحتمل بأن يكون التَّكْوِين أعم بأن يراد به مطلق التَّبدِيل من حالة لم تكن، ويрад بالتَّسْخِير ما تقدم». بتصرف عن (شروح تلخيص المفتاح) (٣١٧/٢).

(١) المحرّر الوجيز (٤٦٢/٣)، وانظر: البحر المحيط (٤٤/٦)، شرح الكوكب المنير (٢٦/٣)، التَّحْيِير (٢١٩١/٥). وسيأتي التَّفريق بين التَّسْخِير والتَّكْوِين.

(٢) انظر: البحر المحيط (٧٥/٦)، وينظر: تفسير الثيسابوري (٤/١)، والتَّحْزِير والتَّنْوِير (٣٣٨/١)، والبرهان في علوم القرآن (١١٠/٢).

ومن أظهر الآيات كذلك قوله ﷻ:

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُٓ إِنَّكَ الْذَّيْبُ تَدْعُوكَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُٓ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﷻ﴾ [الحج: ٧٣] ^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﷻ﴾ [النمل: ٦٤] ^(٢). وإذا قد كانوا منكرين للبعث ذُيِّلَتِ الآية بأمر التعجيز بالإتيان ببرهان على عدم البعث ^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا يَكْتَبَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﷻ﴾ [القصص: ٤٩] ^(٤). فالأمر في قوله ﷻ: ﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا﴾ خرج عن حقيقته إلى معنى التعجيز، وهذا من أساليب القرآن الكريم البليغة أن يأمر الله ﷻ بشيء وهو يعلم أنهم لا يستطيعون ذلك، أي: إن تأتوا به أتبعه، وهو مبالغة في التعجيز ^(٥).

(١) ينظر في ذلك: البحر المحيط (٦/٣٦٠)، وينظر: التحرير والتنوير (١٧/٣٤١).

(٢) ونحوه: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَسْجُدُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتَ تُؤَفِّكُونَ ﷻ﴾ [يونس: ٣٤].

(٣) التحرير والتنوير (٢٠/١٨).

(٤) ونحوه قوله عز وجل: ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْفِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﷻ﴾ [الأحقاف: ٤].

(٥) ينظر روح المعاني: (٢٠/٩٠)، وينظر: التحرير والتنوير (٢٧/٦٧)، (٢٨/٢١٦)، تفسير =

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْقَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [القصص: ٧٤-٧٥]^(١). الأمر مستعمل في التعجيز، فهو يقتضي أنهم على الباطل فيما زعموه من الشركاء، ولما علموا عجزهم من إظهار برهان لهم في جعل الشركاء لله ﷻ.. أيقنوا أن الحق مستحق لله ﷻ^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١١﴾﴾ [لقمان: ١١]. «فقوله ﷻ: ﴿فَأَرُونِي﴾ تهكمًا؛ لأنهم لا يمكن لهم أن يكافحوا الله ﷻ زيادة على كون الأمر مستعملًا في التعجيز، لكن التهكم أسبق للقطع بأنهم لا يتمكنون من مكافحة الله ﷻ قبل أن يقطعوا بعجزهم عن تعيين مخلوق خلقه من دون الله ﷻ قطعًا نظريًا. وصوغ أمر التعجيز من مادة الرؤية البصرية أشد في التعجيز؛ لاقتضاها

= التيسابوري (٤/١)، البحر المحيط (٢٠٨/٥)، البرهان في علوم القرآن (١١٠/٢)، (٢٥١/٢).

(١) ونحوه: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِمَّنْ قَبْلُ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنبياء: ٢٤]، ﴿أَمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ ثَر يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْزُقُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَوَلَمْ يَكُنْ اللَّهُ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٤].

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١٧٣/٢٠)، أضواء البيان (٤٠٦/٧).

الاقتناع منهم بأن يحضروا شيئاً يدعون أن آلهتهم خلقتهم»^(١). ويتبين أن هذه الآية فيها ما يدل على التَّهْكُم والتَّعْجِيز. ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبأ: ٢٧]^(٢).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٦٦]. وهذا على سبيل التَّعْجِيز؛ إذ لا يمكنهم الاستباق مع طمس الأعين^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [٢٥] ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [٢٦] [الصافات: ٢٥-٢٦]. مستعمل في التَّعْجِيز مع التَّنْبِيه على الخطأ الذي كانوا فيه في الحياة الدنيا^(٤).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ﴾ [١٥٦] ﴿فَأَنذَرْنَا بِكَتِّكُؤٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [١٥٧] [الصافات: ١٥٦-١٥٧]^(٥).

-
- (١) التَّحْرِير والتَّنْوِير (١٤٧/٢١)، وينظر: فتح القدير (٣٣٥/٤)، أضواء البيان (٢١٣/٧).
 (٢) انظر: أضواء البيان (٢١٦/٣)، (٢١٣/٧)، التَّحْرِير والتَّنْوِير (١٩٦/٢٢)، (٩/٢٦)، تفسير ابن جزي (١٥٠/٣).
 (٣) انظر: البحر المحيط (٣٢٩/٧)، روح المعاني (٤٥/٢٣).
 (٤) انظر: التَّحْرِير والتَّنْوِير (١٠٣/٢٣).
 (٥) انظر: السَّراج المنير (١٠٩/١)، التَّحْرِير والتَّنْوِير (١٨٤/٢٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَمْرٌ لَهُم مَّلَكُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ [ص: ١٠]، «الاستفهام المقدّر بعد ﴿أَمْرٌ﴾ المنقطعة تهكّمي، وليس إنكارياً؛ لأنّ تفريع أمر التعجيز عليه يُعيّن أنّه تهكّمي. فالمعنى: إن كان لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فكان لهم شيء من ذلك فليصعدوا إن استطاعوا في أسباب السموات؛ ليخبروا حقائق الأشياء، فيتكلّموا عن علم في كُنْه الإله وصفاته، وفي إمكان البعث وعدمه، وفي صدق الرسول ﷺ أو ضده، وليفتحوا خزائن الرحمة فيفيضوا منها على من يعجبهم، ويحرموا من لا يرمقونه بعين استحسان»^(١). ويتبيّن أنّ هذه الآية فيها ما يدلّ على التّهم والتّعجيز.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣]. والكلام تمثيل لحالة غروب الشّمس بتواري المرأة وراء الحجاب، أي: هل تستطيعون أن تردّوا الشّمس بعد غروبها؟^(٢).

ومن ذلك قول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَتَقُولُونَ بِكُتُبٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُكْفَرُونَ مِنِّي عَلِيمٌ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤]^(٣).

(١) التّحرير والتّنوير (٢٣ / ٢١٧)، وينظر: أضواء البيان (٢ / ٢٥٨).

(٢) انظر: التّحرير والتّنوير (٢٣ / ٢٥٦).

(٣) وينظر في ذلك: أضواء البيان (٣ / ٢١٦)، (٧ / ٢١٣)، تفسير ابن جزّي (٤ / ٤١)، التّحرير والتّنوير (٩ / ٢٦).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٣) ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٣٤) [الطور: ٣٣-٣٤] (١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ (٣٨) [الطور: ٣٨] (٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿يَمْعَسِرَ الْإِنِّ وَالْإِنِّسَ إِنْ أَسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (٣٣) [الرحمن: ٣٣] (٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ (١٦) [الملك: ١٦]، إلى قوله: ﴿أَمْ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ إِنْ أَمْسَكَ رَفَقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ (٢١) [الملك: ٢١]. فَإِنَّ الاسْتِفْهَامَ مُسْتَعْمَلٌ فِي التَّعْجِيزِ (٤).

ويقال ذلك في قوله ﷻ:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (٤١) [القلم: ٤١]، أي: فلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ أَمَكْنَهُمْ، فهو أمرٌ معناه التَّعْجِيزُ (٥).

(١) ينظر: تفسير القرطبي (٢٨٤/١٨)، تفسير ابن عادل (١٣٨/١٨)، البحر المحيط (٢٠٨/٥).

(٢) وينظر في ذلك: أضواء البيان (٢٥٨/٢)، التحرير والتنوير (٧٣/٢٧)، نظم الدرر (٣٠٤/٧).

(٣) وينظر في ذلك: المحرر الوجيز (٢٣٠/٥)، تفسير الثعالبي (٢٤٥/٤).

(٤) انظر: التحرير والتنوير (٤١/٢٩).

(٥) وينظر في ذلك: تفسير ابن عادل (١٣٨/١٨)، البحر المحيط (٢٠٨/٥).

من ذلك قوله ﷻ:

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧]^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَإِنَّ تَذَهُّبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]. «يجوز أن يكون الاستفهام

مستعملًا في التعجيز عن طلب طريق يسلكونه إلى مقصدهم من الطعن في القرآن، والمعنى: أنه قد سُدت عليكم طرق بهتانكم؛ إذ اتضح بالحجة الدامغة بطلان ادّعاءكم أن القرآن كلام مجنون أو كلام كاهن، فماذا تدعون بعد ذلك؟»^(٢).

● د. التحضيض الذي يكون بمعنى التعجيز

فمن ذلك ما قيل في بيان قوله ﷻ:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨]. فَإِنَّ «لَوْلَا» هنا: حرف تحضيض قصد منه التعجيز والاعتذار عن عدم الإصغاء للرسول ﷺ استكبارًا بأن عدّوا أنفسهم أحرىاء بالرسالة، وسماع كلام الله ﷻ، وهذا مبالغة في الجهالة»^(٣). ولكن ينبغي التنبيه إلى أن من قال بالتحضيض في نحو هذه الآية فَإِنَّ التحضيض فيها مستعمل في التعجيز على حسب اعتقادهم، وقصور فهمهم، وليس في

(١) وينظر في ذلك: التحرير والتنوير (٢٧٤/٢٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٦٤/٣٠).

(٣) المصدر السابق (٦٨٩/١).

بَيِّنَ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ [الكهف: ١٥]، فقلوه
﴿لَوْلَا﴾ ، أي: هلاً. ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ ، أي: بحجة
على عبادتهم الصنم. قيل: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ راجع إلى الآلهة، أي: هلاً أقاموا بينة
على الأصنام في كونها آلهة. فقولهم: ﴿لَوْلَا﴾ تحضيضٌ بمعنى التعجيز،
وإذا لم يمكنهم ذلك فإنه لا يلتفت إلى دعواهم^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﴿لَوْلَا﴾:

﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ
إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الفرقان: ٧]، فقلوه: ﴿لَوْلَا﴾
حرفٌ تحضيضٌ مستعملٌ في التعجيز أيضاً، أي: لو أنزل إليه ملك
لأتبعناه^(٢). وهو من التحضيض المستعمل في التعجيز على حسب
اعتقادهم، وليس في حقيقته بتعجيز..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﴿لَوْلَا﴾:

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾﴾
[الواقعة: ٨٦-٨٧]. «﴿لَوْلَا﴾ حرف تحضيض مستعمل هنا في التعجيز؛
لأنَّ المحضوض إذا لم يفعل ما حُضَّ على فعله فقد أظهر عجزه،

(١) انظر: المحرر الوجيز (٣/٥٠١)، تفسير القرطبي (١٠/٣٦٦)، وانظر: تفسير ابن جزي (٢/١٨٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٧/١٤٣)، (٧/١٤٦-١٤٧)، (١٨/٣٢٧)، (١٩/٥)، المحرر
الوجيز (٤/٣٢٢)، روح المعاني (١٢/١٩). ونحو ذلك قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا
يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وقوله عز وجل:
﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِلَّةٌ مَّعَهُ الْمَلَكُ مَقَرِّينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الزخرف: ٥٣].

والفعل المحضوض عليه هو ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ ، أي: تحاولون رجوعها^(١).
وسياتي بيان التحضيض مفصلاً في موضعه.

• هـ. ما يخاطب به المرسلون من أقوامهم ليس في حقيقته بتعجيز
سبق بيان بعض النماذج في (التحضيض الذي يكون بمعنى
التعجيز)، وأن منه ما لا يكون في حقيقته تعجيزاً، فمن ذلك ما
يخاطب -بفتح الطاء المهملة- به المرسلون من أقوامهم.
نحو قوله ﷻ:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ
﴿٨﴾ [الأنعام: ٨]. وتفيد الآية أنهم ما أرادوا بكلامهم إلا التعجيز
والاستهزاء؛ ولذلك أعقبه بقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾
[الأنعام: ١٠] الآية^(٢). وقد سبق بيان كون التحضيض مستعمل هنا في
التعجيز على حسب اعتقادهم، وليس في حقيقته بتعجيز..
ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ أَثْنَانَا بِمَا نَعُدُّنَا
إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]. قالوا مخاطبين له ﷻ
بطريق التعجيز والإفحام على زعمهم الفاسد: ﴿أَفَنُنَا بِمَا نَعُدُّنَا﴾ من
العذاب، وأطلق للعلم به. ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فَإِنَّ كَوْنَكَ مِنْهُمْ

(١) التحرير والتنوير (٢٧/٣٤٣).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (٧/١٤٣)، (٧/١٤٦)، (٧/١٤٧)، وانظر: البحر المحيط

(٧/١٥٢)، روح المعاني (١٢/١٩).

يقتضي صدق ما تقول من الوعد والوعيد^(١). والتعجيز هنا على حسب اعتقادهم وزعمهم، وليس في حقيقته بتعجيز..

ونحو ذلك قول فرعون لموسى عليه السلام:

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ۝١٠٦﴾

[الأعراف: ١٠٦]. يحتمل أن يكون على سبيل التعجيز لما تقرر في ذهن فرعون أن موسى - عليه السلام - لا يقدر على الإتيان ببينة. والمعنى: إن كنت جئت بآية من ربك فاحضرها عندي، لتصح دعواك، ويثبت صدقك^(٢). ويقال فيه ما قيل في سابقه..

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿وَإِذْ قَالُوا اٱللّٰهُمَّ إِنْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْحَقُّ مِنۡ عِنْدِكَ فَٱمْطُرْ عَلَيْنَا

ججَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢﴾ [الأنفال: ٣٢] فهو

استعجال على جهة التعجيز والتكذيب والاستهزاء بالعذاب الذي كان يتوعدهم به الرسول ﷺ^(٣).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ يُدۡهِىٰ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا

أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ۖ وَٱللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ

۝١٢﴾ [هود: ١٢]، أي: مال كثير. وعبروا بالإنزال دون الإعطاء؛ لأنَّ

(١) انظر: روح المعاني (٨/١٦٥)، المحرر الوجيز (٤/٣٢٣)، تفسير أبي السعود (٣/٢٤٣).

(٢) انظر: البحر المحيط (٤/٣٥٧)، وانظر: الكشف (٢/١٠١)، ابن عادل (٩/٢٤٩).

(٣) انظر: البحر المحيط (٧/١٥٢).

مرادهم التّعجيز بكون ذلك على خلاف العادة؛ لأنّ الكنوز إنما تكون في الأرض ولا تنزل من السماء...^(١). وقولهم: ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ ، أي: يصدقه لنصده؛ لأنّ مرادهم التّعجيز، وأنّهم التمسوا أن ينزل عليه من السماء كنز على خلاف العادة، فإنّ الكنوز إنما تكون في الأرض. وطلبهم آية تضطر إلى الإيمان، والله ﷻ لم يبعث الأنبياء -عليهم الصّلاة والسّلام- بآيات اضطرار، إنما بعثهم بآيات النّظر والاستدلال، ولم يجعل آية الاضطرار إلا للآمة التي أراد تعذيبها لكفرها بعد آية الاستدلال، كالنّاقة لثمود^(٢). ويقال في هذه الآية ما قيل في الآية السّابقة من كون التّعجيز هنا على حسب اعتقادهم وزعمهم، وليس في حقيقته بتعجيز..

وكما في قولهم للرّسل:

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [إبراهيم: ١٠].

ف قيل: إنّهم استعبدوا إرسال البشر فأرادوا حجّة عليه، وقيل: بل إنّهم اعتقدوا محاليته، وذهبوا مذهب البراهمة^(٣)، وطلبوا الحجّة على جهة التّعجيز، أي: بعثكم محال، وإلا فأتوا بسلطان مبين، أي: إنّكم

(١) انظر: روح المعاني (١٩/١٢).

(٢) البحر المحيط (٢٠٨/٥)، روح المعاني (١٩/١٢).

(٣) البراهمة: هم المنتسبون إلى رجل مهم يقال له: (براهم)، أو (برهام) من ملوك (الفرس)، يقرّون بالله عز وجل، ويحدّون الرّسل.. وهم فرق مختلفة. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني (٥٧/٢)، (٢٤٩/٢)، وانظر: التّبصير في الدّين، للإسفراني (ص: ٧٢).

لا تفعلون ذلك أبداً. وهو خلاف الظاهر، وهذا الطلب كان بعد إتيانه ﷺ لهم من الآيات الظاهرة والبيّنات الباهرة ما تخرّ له الجبال الصمّ، أقدمهم عليه العناد والمكابرة^(١).

ومن ذلك الآيات من (سورة الإسراء) من قوله ﷺ:

﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾ ﴿٩٠﴾

[الإسراء: ٩٠]، إلى قوله ﷺ: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿٩٤﴾ [الإسراء: ٩٤]. ويقال في هذه الآيات ما قيل في الآيات السابقة.

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷺ:

﴿بَلْ قَالُوا أَضَلَّكُمْ أَهْلُكُمْ بَلْ أَفْتَرْتُمْ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْزِنَا بِنَافِقَةٍ كَمَا

أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٥﴾ [الأنبياء: ٥]، وقوله ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا

رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧﴾

[الأنبياء: ٧]^(٢). «جواب لما زعموه من أنّ الرسول لا يكون إلا ملكاً

المشار إليه بقولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣] الذي

بنوا عليه ما بنوا، فهو متعلّق بذلك، وقدم عليه جواب قولهم:

﴿شَاعِرٌ فَلْيَأْزِنَا﴾ ؛ لأنهم قالوا ذلك بطريق التعجيز^(٣).

(١) المحرّر الوجيز (٣/٣٢٨)، وروح المعاني (١٣/١٩٨)، أضواء البيان (٢/٢٥٨).

(٢) ونحوه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ

﴿النحل: ٤٣﴾.

(٣) روح المعاني (١٧/١٢).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقَالُوا مَا لَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُنْفَخَ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧-٨]^(١). ويقال في هاتين الآيتين ما قيل في الآيات السابقة.

● و. ما يدلُّ بمادَّته على التعجيز

ومما يدلُّ بمادَّته على التعجيز قوله ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ [الحج: ٥١]^(٢). فقوله ﷻ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ حال معناه: سعوا فيها وهم يريدون التعجيز، وبالسَّعي في التَّقرير والتَّبليغ لا يكون السَّاعي معاجزًا؛ لأنَّ القرآن وآيات الله ﷻ معجزة في نفسها لا حاجة لها إلى أحد، وأمَّا المكذِّب فهو آت بإخفاء آيات بيِّنات، فيحتاج إلى السَّعي العظيم، والجدُّ البليغ ليروج كذبه لعلَّه يعجز المتمسك به. وقيل: بأنَّ المراد من قوله ﷻ: ﴿مُعْجِزِينَ﴾، أي: ظانِّين أنهم يفوتون الله ﷻ، وعلى هذا يكون كون السَّاعي ساعيًا بالباطل في غاية الظهور^(٣).

(١) وينظر في ذلك: التَّحرير والتَّنوير (١٤٣/٧)، (١٤٦/٧)، (١٤٧/٧).

(٢) ونحوه قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٥١﴾﴾ [سبأ: ٥١]، ﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٣٨].

(٣) انظر: تفسير الرَّاзи (٤٧/٢٣)، تفسير السَّمْعاني (٤٤٦/٣)، الهداية إلى بلوغ الثَّهية (٥٩٣٢/٩).

وقد يقصد من التعجيز تضعيف الرأي، فممّا يدلُّ على ذلك بمادّته قوله ﷺ:

﴿وَلَمَّا فَصَلَ آلُ الْعِزِّ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤] وهو راجع إلى التعجيز وتضعيف الرأي، يقال: (فَنَدَه تَفْنِيدًا) إذا أعجزه^(١).

• ز. خاتمة في إبراز أهم النتائج

يتبيّن ممّا سبق أنّ أسلوب التعجيز: في حقيقته يدلُّ على صدق مبلغ الخطاب، وإثبات أنّ ما جاء به الرُّسل حقٌّ وصدقٌ ووحىٌّ من عند الله ﷻ. ففي التعجيز ما يدلُّ على إحكام آيات القرآن الكريم حيثُ أعجزَ الإنسَ والجنَّ عن الإتيانِ بمثله.. وتحدّاهم مع قيام الدّافع، وانتفاء المانع..

ويتبيّن من تحديد المصطلحات حقيقة التعجيز، حيث ميّزت الآيات القرآنيّة بين هذه الحقيقة وبين من لم يفهم حقيقة (خطاب التعجيز).. فإنّ بعض ما خوطب به المرسلون -عليهم الصّلاة والسّلام- فيه الخروج عن هذه الحقيقة مكابرةً وعنادًا، أو بسبب الاعتقاد الفاسد..



(١) انظر التفصيل في (تفسير القرطبي) (٩/٢٦٠)، معاني القرآن للنحاس (٣/٤٥٧)، فتح القدير (٣/٥٣).

المطلب الثاني: خطاب التَّكْذِيب

وهو المطلبُ الَّذِي يعزِّزُ ثقةَ المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- بالخطاب كالمطلب الَّذِي يتعلَّق بتعجيز المخاطَب -بفتح الطاء المهملة-، وقد سبق بيان ذلك، إلا أنَّ النَّظَرَ هنا ينصبُّ على دحض تكذيب المخاطَب -بفتح الطاء المهملة- للخطاب، وإقامة الحُجَّة عليه.

● أ. بيان مادَّة: (كذب)

قال ابن فارس: «(كذب) الكاف والذَّال والباء أصلٌ صحيح يدلُّ على خلاف الصُّدق. وتلخيصه أنَّه لا يبلغُ نهايةَ الكلامِ في الصُّدق. من ذلك (الكُذِب) خلاف الصُّدق. كَذَبَ كَذِبًا. و(كَذَبْتُ فلانًا): نسبته إلى الكذب، و(أكذبتُهُ): وجدته كاذبًا. و(رجل كَذَابٌ وكُذْبَةٌ). ثم يقال: (حَمَلَ فلانٌ ثم كَذَبَ وكَذَّب)، أي: لم يصدُق في الحَمْلَة»^(١). وقال الخليل: «مستعمل فقط (كذب الكِذابُ) لغة في الكُذِب. ويقرأ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذْبًا﴾ [النبا: ٣٥] بالتَّخْفِيف»^(٢)، و(الكِذابُ)، بالتَّشْدِيد لغة. تقول: (كُذِّبَكَ كَذِبًا)، أي: لم يصدقك، فهو كاذب، وكذوب، أي: كثير الكُذِب. و(كُذِّبته): جعلته كاذبًا. و(الكُذَّابَةُ):

(١) مقاييسُ اللغة، باب الكاف والذَّال وما يثلثهما، مادَّة: (كذب) (١٦٧/٥).

(٢) قرأ الكسائي بفتح الذَّال خفيفة، وقرأ الباقون ﴿كُذَّابًا﴾ مشددة. انظر: السُّبعة في القراءات

(ص: ٦٦٩)، وانظر: الحُجَّة (ص: ٣٦١)، إبراز المعاني (٧١٨/٢).

وجدته كاذبًا. وقوله ﷻ: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا﴾ ٢٥ ، أي: تكذيبًا...»^(١).

وحقيقة (خطاب التّكذيب) أنّه لإقامة الحجّة على الخصم، حيث يكون المخاطب -بكسر الطاء المهملة- هو الله ﷻ، أو أحد الرّسل -عليهم الصّلاة والسّلام- أو من سار على دربهم، واقتدى بهم، واقتفى أثرهم في الدّعوة إلى الله ﷻ. ولا بدّ من بيان أنّ تكذيب ما جاء به الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام لا يقوم على حجّة، وإنما لاعتبارات كثيرة منها: العناد والتّكبر والاستعلاء أو الخوف على فقد الرّعاية والجاه ونحو ذلك... إلخ.

● ب. خطاب من كذب وهو أقسام، فمن ذلك:

١ - ما يكون الغرض منه تكذيب المخاطب -بفتح الطاء المهملة-: فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].
وقوله ﷻ:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ

(١) العين، مائة: (كذب) (٥/٣٤٧).

أَسْتَطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ [هود: ١٣].
 ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].
 ﴿قُلْ هَلْ هُمْ شُهَدَاءُكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

٢ - ما يفهم من دلالة الكلام:

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ
 لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وإنما قدّم وصف النذير على وصف البشير هنا؛ لأنّ المقام خطاب
 المكذّبين المشركين، فالنذارة أعلق بهم من البشارة^(١).

٣ - ما يدلُّ بصريح مادّته:

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿أَلَمْ تَكُنْ مِّنْ آيَاتِي تُنَلِّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥].
 وقوله ﷻ: ﴿قُلْ مَا يَعْجَبُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ
 يَكُونُ لِرَأْمَا﴾ [الفرقان: ٧٧]. وفي (البحر): «خطاب لكفار قريش
 القائلين نسجد لما تأمرنا، أي: لا يحفل بكم ربي لولا تضرّعكم إليه
 واستغاثتكم إياه في الشدائد». ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ بما جاء به الرّسول ﷺ
 فتستحقّون العقاب^(٢).

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢٠٩/٩).

(٢) البحر المحيط (٤٧٤/٦).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ [العنكبوت: ١٨].

﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ [سبا: ٤٢].

﴿قالوا ما أنتم إلا بشر مثلكم وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون﴾ [يس: ١٥].

﴿هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون﴾ [الصافات: ٢١].

﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ [الطور: ١٤].

﴿فياي آلاء ربك نسماري﴾ [النجم: ٥٥]. أي: فباي نعم ربك تشك، والمخاطبة للإنسان المكذب، و(الآلاء): النعم^(١).

ونحو ذلك من الآيات، وهي واضحة الدلالة على المراد.

و(مادة كذب) في القرآن الكريم) على النحو التالي:

﴿يكذبون﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿كذبتم﴾ [البقرة: ٨٧]، ﴿فكذبت﴾

[يوسف: ٢٧]، ﴿كذبوا﴾ [آل عمران: ١١]، ﴿الكذب﴾ [آل

عمران: ٧٥]، ﴿المكذبين﴾ [آل عمران: ١٣٧]، ﴿كذب﴾ [آل

عمران: ١٨٤]، ﴿كذبوك﴾ [آل عمران: ١٨٤]، ﴿كذب﴾

[الأنعام: ٢١]، ﴿كذبا﴾ [الأنعام: ٢١]، ﴿تكذب﴾ [الأنعام: ٢٧]،

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٧/١٢١)، الثكت والعيون (٥/٤٠٦)، تفسير ابن جزي

(٤/٧٩)، ابن عادل (١٨/٢٢٢).

﴿يَكْذِبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، ﴿كَذَّبَتْ﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿كَذَّبُوا﴾ [الأنعام: ٣٤]، ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ [الأعراف: ٦٤]، ﴿كَذَّيْبَتِ﴾ [هود: ٢٧]، ﴿مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥]، ﴿كَذِبٌ﴾ [هود: ٩٣]، ﴿كَذَّبُوا﴾ [يوسف: ١١٠]، ﴿يُكْذِّبُوكَ﴾ [الحج: ٤٢]، ﴿كَذَّبَتْ﴾ [الحج: ٤٢]، ﴿كَذَّبُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٦]، ﴿كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤]، ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ [المؤمنون: ٤٨]، ﴿تُكْذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]، ﴿كَذَّبُوكُمْ﴾ [الفرقان: ١٩]، ﴿كَذِّبُوتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]، ﴿يُكْذِّبُ﴾ [النمل: ٨٣]، ﴿تُكْذِّبُوا﴾ [العنكبوت: ١٨]، ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿كَذَّبَ﴾ [الزمر: ٣٢]، ﴿فَكَذَّبَتْ﴾ [الزمر: ٥٩]، ﴿كَذَّبَا﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿كَذِّبُهُ﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿تُكْذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣]، ﴿كَاذِبَةٌ﴾ [الواقعة: ٢]، ﴿الْمُكْذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١]، ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ [الملك: ٩]، ﴿كَذَّابًا﴾ [التبأ: ٢٨]، ﴿تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩]، ﴿يُكْذِّبُكَ﴾ [التين: ٧].

٤ - ما كان من الخطاب القرآني وصفًا لحال المكذبين، وبيانًا لعاقبتهم:

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ

عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦١﴾ [آل عمران: ٦١].

﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ

الْمُكَذِّبِينَ﴾ ﴿١٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٧].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ ﴿١﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا
بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا
مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ
مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا
آخَرِينَ ﴿٣﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ
هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَلَكٌ لَوَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ
ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴿٥﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا
يَلْبَسُونَ ﴿٦﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ
مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ [الأنعام: ٤-١١]. فقوله ﷻ: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾

مردود على كلام محذوف، كأنه قيل: إن كانوا معرضين عن الآيات.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ بما هو أعظم آية وأكبرها، وهو الحق لما جاءهم،

يعني: القرآن الذي تحدّثوا به على تبالغهم في الفصاحة فعجزوا عنه ^(١).

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا

(١) انظر: الكشف (٥/٢)، البحر المحیط (٧٩/٤)، ابن عادل (٢٧/٨)، التفسير (٥/٢).

وَلَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ
إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ أُسْتِطْعِتْ أَنْ تَبْنِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ
بِتَابِيرٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾
[الأنعام: ٣٤-٣٥].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُدُّوا بِكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام: ٣٩].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ٦٦].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ
فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقَالُوا آءِذَا كُنَّا عِظْمًا زَرْقًا أَنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً
أَوْ حديدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْتُمُونَ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي
فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ
يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١]. فقوله ﷻ: ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ

رُءُوسَهُمْ ﴿٤٤﴾ ، يعني: يحرّكونها على سبيل التّكذيب والاستبعاد^(١).
 ﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْنَا لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ
 كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾ [الحج: ٤٤].
 ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾
 [الفرقان: ١١].

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم
 مِنكُم نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان: ١٩].
 ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة: ٢٠].
 ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ
 كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾ [سبأ: ٤٥].
 ﴿فَمَن أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ؕ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر: ٣٢].

ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُمُ فَاظْطَرَّ كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٢٥].
 ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا ؕ إِلَهْتُنَا أَخِيرُ
 أَمْرٍ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ
 وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٧-٥٩]. أي: مرأى.. قال

(١) انظر: تفسير الرّازي (٢٢٦/٢٠)، البحر المحيط (٤٥/٦)، تفسير ابن جزي (١٧٣/٢)،
 زاد المسير (٤٥/٥)، الوجيز، للواحدي (ص: ٦٣٧) .

وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ **وَعَلَيْكَ**:

ومن ذلك قوله **وَعَجَبٌ**:

[الانشقاق : ٢٠-٢٤].

نَادِيَهُ ۝ سَدَّ الزَّيْنَةَ ۝ ﴿١٨﴾ [العلق: ١٣-١٨].

(۱) تفسیر ابن کثیر (۴/۱۳۳).

[٧٤-٩٥]، [هود: ٨١]، [الأنبياء: ٧٧]، [الفرقان: ١١-٣٦-٣٧]،
[الشعراء: ٦]، [الرُّوم: ١٠]، [الزُّمر: ٦٠]، [غافر: ٧٠]، [ق: ٥]،
[القمر: ٤٢]، [الجمعة: ٥].

٥ - ما كان من خطاب المكذبين أنفسهم:
وهو كثيرٌ جدًّا، وأكتفي بالإحالة إلى الأمثلة السابقة التي تدلُّ على
ذلك في (خطاب التَّكْذِيب) وفي (خطاب التَّعْجِيز).

• ج. خاتمة في إبراز أهم النتائج

يقال فيه ما قيل في (خطاب التَّعْجِيز) من الدِّلالة على صدق مبلِّغ
الخطاب، وإثبات أنَّ ما جاء به الرُّسل -عليهم الصَّلَاة والسَّلَام- حقٌّ
وصدقٌ ووحىٌّ من عند الله ﷻ. والدِّلالة على إحكام آيات القرآن
الكريم. كما أنَّه يُعَزَّزُ ثَقَّةُ المخاطب -بفتح الطاء المهملة- بالخطاب
من خلال إقامة الحُجَّة، ودحضِ شُبُه المَكْذُوبين، مع بيان أنَّ تكذيب ما
جاء به الرُّسلُ لا يقومُ على حُجَّةٍ، وإنَّما له اعتباراتٌ أخرى... وأنَّ
الباحث عن الحقيقة بموضوعية وتحرر لا بد أن يبصر الحق.



المبحث الثامن خطاب التكليف

● أ. مكانة العقل في الخطاب...

وقد جعلتُ هذا المبحث متأخراً عن سابقه؛ لأنَّ فيه من المقاصد والنتائج والأثر ما يجعله حريّاً بأن يكون متأخراً؛ ولأنَّ التكليف فرعُ الاعتقاد..

ولا بدَّ أولاً من الإشارة إلى أنَّه لا يكاد يخلو كتابٌ من كُتبِ الأصول من بيان ما يتعلَّق بخطاب التكليف؛ ولذلك فإنِّي هنا لا أعرض ما نقله الأصوليون في كتبهم بالتفصيل المذكور في كتبهم، ولكنِّي أهتمُّ بإيجاز بعض المسائل المهمَّة في هذا الباب من حيث صلتُها بموضوع البحث؛ لأنَّ الخطاب موجَّه إلى المخاطبين المكلفين الذين يعقلونه.

وقد سبق تعريف المخاطب المكلف في (التمهيد)، كما سبق بيانُ معنى: تعلُّق الخطاب بفعل المكلف.

ولقد جعلَ الإسلامُ العقلَ مناطَ التكليف، وجعلَ المنزلَ من الخطاب لقوم يعقلونه، فقد قال الحقُّ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْوَانِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ

وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ
 دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
 يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ [البقرة: ١٦٤]، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
 تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ [البقرة: ٢٤٢]، ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾
 [آل عمران: ١١٨]، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾
 [يوسف: ٢]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ [الرعد: ٤]،
 و[النحل: ١٢]، و[الروم: ٢٤]، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾
 [النحل: ٦٧]، ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَادَانٌ
 يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾
 [الحج: ٤٦]، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا ءَايَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾
 [العنكبوت: ٣٥]، ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾
 [الروم: ٢٨] إلى غير ذلك من الآيات.

ولقد جاء الخطاب القرآني موجَّهاً إلى العقل، ونهَجَ في ذلك منهجاً
 أساسه وقوامه النظرُ العقليُّ والتفكير، وذلك أنَّ طبيعة الإسلام كانت
 أوَّلُ العواملِ الدَّاعيةِ إلى إعمال العقل؛ فهو عامٌّ وشاملٌ لكلِّ زمانٍ
 ومكان، وقد خَتَمَ الرِّسَالَاتِ السَّمَاوِيَّةَ، وَنَسَخَ الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ، ولا
 يخفى على متأمِّلٍ في نصوصِ الخطاب القرآني أنَّ هذه النُّصوصَ يتنوَّعُ
 أسلوب عرضها؛ ليتلاءمَ مع العقولِ البشريَّةِ المتفاوتة.

وقد كانت الشَّرَائِعُ السَّمَاوِيَّةُ قبل الإسلام محلِّيَّةً ومرحليَّةً، فعندما
 يتطوَّرُ الواقعُ فتُنسَخُ شريعةٌ يأتي رسولٌ جديدٌ بشريعةٍ جديدة، لكنَّ أَمَّا

وَقَدْ بَلَغَتْ الْإِنْسَانِيَّةُ سَنَ الرُّشْدِ، وَشَاءَ اللَّهُ ﷻ خَتَمَ رِسَالَاتِ السَّمَاءِ
جَاءَتِ الشَّرِيعَةُ الْمَحْمُودِيَّةُ لَتَقْفَ عِنْدَ الثَّوَابِتِ وَالْأُطْرَ، وَتَتْرَكَ التَّجْدِيدَ
وَمَوَاكِبَ الْعُصُورِ:

- ١- للفقهاء الإسلامي الذي هو (علم الفروع)، فلذلك جاءت النصوص
مَرِنَةً بما يتلاءم مع المستجد من الوقائع والأحداث.
- ٢- وللإعجاز بألوانه وجوانبه المتعددة والمتجددة.

● ب. نصيب الفرد من الخطاب التكليفي

يتحدد نصيب الفرد من الخطاب التكليفي على ضوء إمكانياته
ووسعه، ولا يؤاخذ إلا إذا كان اقترف الإثم مختاراً مكلفاً..

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾
[البقرة: ٢٨٦]، ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾
[المائدة: ٦]، ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل: ١٠٦]، ﴿هُوَ أَجْتَبَلَكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا
أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾
[الأحزاب: ٥]، ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي
الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨]،
﴿فَأَطِيعُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا﴾ [التغابن: ١٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ

نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَنْهَأُ ﴿ [الطلاق: ٧].

قال في (المراقي):

(ولا يكلف بغير الفعل باعث الاثبياً ورب الفضل)^(١).
والمعنى أن الله ﷻ لا يكلف أحداً إلا بالفعل الذي يطيقه بناءً على
امتناع التكليف بالمحال؛ ولأن غير الفعل غير مقدور للمكلف -وقد
سبق بيان الآيات التي تدل على ذلك-.

«وأما التكليف بإذعان النفس وانقيادها وتصديقها بالعقائد والتكليف
بالندم على الذنب فهو في الحقيقة تكليف بالأسباب المؤدية إلى ذلك،
لا بمجرد الانفعال من إذعان في الأول، وندم في الثاني.
والفعل يشمل أربعة أشياء: الفعل، والقول، والعزم المصمم؛ لأنه
فعل القلب، والترك.

أما الفعل الظاهر كالسرقة والزنا فلا إشكال في تسميته فعلاً، وأما
القصد المصمم فالدليل فعلاً قوله ﷻ: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ
تَفْسَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ [آل عمران: ١٢٢].

وقوله ﷻ: ﴿إِذَا اتَّعَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ.
قِيلَ: فَهَذَا الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ؟ قَالَ: إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا^(٢) عَلَى قَتْلِ

(١) مراقي السُّعُود، رقم [١٠٦]، (ص: ١٩)، نثر الورود (٧٧/١)، نشر البنود (٦٨/١).

(٢) قوله ﷻ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا» أي: عازماً على قتل صاحبه، وهذا يدل على أَنَّ العزم يؤاخذ
به، وهو لا ينافي قوله ﷻ فيما رواه أبو هريرة ؓ: «وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ
وَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ». أخرجه مسلم [١٨٦]؛ لأنَّ الهمَّ دون العزم، ويدل على ذلك العزم حمله
لآلة القتل لا لشيء إلا لقتل صاحبه.

صَاحِبِهِ»^(١).

وَأَمَّا التَّركُ فَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهُ فَعَلٌ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ
وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّحْتَ لَإِثْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٢)
[المائدة: ٦٣]، فَسَمَّى تَرْكَهُمُ لِلْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ: صَنْعًا.
وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْكَفَّ فِعْلٌ، وَعَلَى أَنَّ التَّركَ عَمَلٌ قَوْلُ الرَّاجِزِ:
لَشَنَّ قَعْدَنَا وَالتَّنبِيَّ يَفْعَلُ لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمَضْلِلُ^(٣).
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْثَلَةِ^(٤).

أَمَّا التَّكْلِيفُ بِالْمَحَالِّ - وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُرُ عَنْهُ بِالتَّكْلِيفِ بِمَا لَيْسَ
بِمَقْدُورٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُرُ بِالتَّكْلِيفِ بِمَا لَا يَطَاقُ - فَإِنَّ مَحَلَّ النِّزَاعِ فِيهِ
إِنَّمَا يَرْجِعُ إِلَى الْجَوَازِ الْعَقْلِيِّ، بِمَعْنَى هَلْ يَجِيزُ الْعَقْلُ ذَلِكَ أَوْ لَا
يَجِيزُهُ؟ أَمَّا وَقُوعُهُ بِالْفِعْلِ فَإِنَّهُمْ مَجْمَعُونَ عَلَى عَدَمِهِ^(٥).

(١) الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، [٣٠]، وَمُسْلِمٌ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
أَيْضًا، [٥١٣٩].

(٢) يَنْسَبُ ذَلِكَ إِلَى قَاتِلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَثْنَاءَ بِنَاءِ مَسْجِدِ (الْمَدِينَةِ) حَيْثُ عَمِلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛
لِيَرْغَبَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْعَمَلِ فِيهِ، فَعَمِلَ فِيهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ وَدَأَبُوا فِيهِ فَقَالَ قَاتِلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ:
لَشَنَّ قَعْدَنَا وَالتَّنبِيَّ يَعْمَلُ لَذَاكَ مِنَّا الْعَمَلُ الْمَضْلِلُ.

انظر: الْاِكْتِفَاءُ بِمَا تَضَمَّنَهُ مِنْ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ وَالثَّلَاثَةُ الْخُلَفَاءُ (١/٢٧٣)، الرُّوضُ
الْأَنْفَ (٢/٣٣٦)، السِّيَرَةُ الْحَلِيبَةُ (٢/٢٦١)، السِّيَرَةُ النَّبَوِيَّةُ، لابن كثير (٢/٣٠٦).
(٣) انظر: نثر الورود (١/٧٧-٧٩)، نشر البنود (١/٦٨-٦٩).

(٤) وَقَدْ بَسَطَ الْعُلَمَاءُ ذَلِكَ فِي كُتُبِهِمْ. انظر: عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ: أَضْوَاءُ الْبَيَانِ (٥/٥٢٢-٥٢٥)،
التَّحْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ (١/٢٥٢)، (١/٥٦٧)، (٣/١٣٥). وانظر من كتب الأصول على سَبِيلِ الْمَثَالِ:
التَّحْيِيرُ شَرْحُ التَّحْرِيرِ (٣/١١٣١)، التَّقْرِيرُ وَالتَّحْرِيرُ (٢/١١١-١١٢)، (٢/١٨٦)، التَّمْهِيدُ فِي
تَفْرِيجِ الْفُرُوعِ عَلَى الْأَصُولِ، لِلْإِسْنَوِيِّ (ص: ١١٢، ١١٨)، شَرْحُ التَّلْوِيحِ عَلَى التَّوْضِيحِ (١/٣٦٧) =

• ج. خطاب التكليف وخطاب الوضع

ينقسم خطاب الشرع إلى قسمين: (خطاب التكليف)، و(خطاب الوضع)^(١).

فـ(خطاب التكليف) هو: الذي فيه الأمر والنهي بالتشريع أو التحريم.

و(خطاب الوضع) هو: العلامة أو الشرط أو المانع المتعلق بهذا العمل الذي كُلف به المسلم.

فقوله ﷻ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، فهذا خطاب تكليف، كُلف فيه المسلم أن يقيم الصلاة، وأن يؤتي الزكاة، وقوله ﷻ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣] خطاب تكليف، كُلف فيه المسلم بالصوم.

ولكن تحديد متى نصوم؟ ومتى نصلي؟ يجيء بيانه بـخطاب الوضع، فقال ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فعين لنا زمن الصوم الذي فرض علينا، وكذلك قال: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، فهذا خطاب وضع من جهة بيان وقت الصلاة، فنصلي لدلوك الشمس، وهو

(١) انظر على سبيل المثال: البحر المحيط في أصول الفقه (١/١٠٠)، وانظر: تعريف (خطاب التكليف) في (البحر المحيط في أصول الفقه) (١/١٣٩)، و(خطاب الوضع) (١/٢٤٥)، وانظر: (خطاب الوضع) (٣/١٠٤٧)، وانظر: الفرق بينهما (٣/١٠٤٩)، وانظر: التقرير والتحرير في علم الأصول (٢/٢١٤)، وانظر: القواعد والفوائد الأصولية، للبعلي (ص: ١٥).

تحركها بعد الاستواء عن كبد السماء إلى جهة الغرب، ﴿إِلَى عَسَقِ
الَّيْلِ﴾ ، أي: ظلمة الليل. فدلوك الشمس شمل الوقت المشترك
لصلاتي: الظهر والعصر، وغسق الليل شمل الصلاتين المشتركتين في
ذلك الوقت وهما: (المغرب والعشاء)، ثم قال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ ،
وهو: مشتمل على صلاة الصُّبح، فهذا الخطاب الذي بين أوقات
الصلوات يسمّى: (خطاب وضع). والخطاب الذي جاء بتكليف
المكلف بالواجب عليه في العبادات هو (خطاب تكليف)^(١).

كذلك الحجّ، قال الله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ
إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، فهذا خطاب تكليف، فعلى كلّ مستطيع
أن يحجّ، ولكن متى نحج؟ جاء (خطاب الوضع) في قوله: ﴿الْحَجُّ
أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]، فبيّن لنا وقت الحجّ، والسنة بيّنت
أنّه من أوّل شوال، فيجوز الإحرام في شوال، وذو القعدة، وجزء من
ذي الحجة، وهذا بيان النبي ﷺ^(٢).

(١) انظر ذلك مفصلاً في (التحجير) (٣/١٠٥٠).

(٢) جاء في (صحيح البخاري)، باب قول الله عز وجل: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ
فِيهِمْ الْأَمْعُ فَلَا رَفْعَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وقوله عز وجل:
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقال ابن عمر رضي الله عنهما:
أشهر الحج شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما من السنة أن لا
يحرم بالحجّ إلا في أشهر الحج. وكره عثمان رضي الله عنه أن يحرم من (خراسان) أو (كرمان).
صحيح البخاري بتحقيق: د. البغا (٢/٥٦٤).

● د. النتائج

ويتبين ممّا سبق:

- أ. مكانة العقل في الخطاب المنزّل..
- ب. نصيب الفرد من الخطاب. .
- ج. التعرف على (خطاب الوضع) و(خطاب التكليف). ولم أغفل بيان موقع ذلك من البحث.



المبحث التاسع

خطاب المعدوم ومن ليس منتظماً في سلك التكليف وقت الوحي والإناث والعبيد والأمم الماضية، وبيان المقصود من الخطاب الشفاهي

إذا كانت المباحث السابقة ينظر إليها من حيث كون الخطاب فيها موجَّهًا لغير المعدوم، فما شأن (خطاب المعدوم)؟ وما المقصود من (المعدوم) هنا؟

هذا ما أتصدَّى لبيانه في هذا المبحث.

أمَّا (خطاب المعدوم) فيصحُّ ذلك تبعاً لموجود، كقوله ﷻ: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فإنَّه خطاب لأهل ذلك الزَّمان، ولكلٍّ من بعدهم، وهو على نحو ما يجري من الوصايا في خطاب الإنسان لولده وولد ولده ما تناسلوا، بتقوى الله ﷻ، وإتيان طاعته^(١).

فمن ذلك قوله ﷻ:

﴿وَقُلْنَا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

[البقرة: ٣٦].

(١) انظر: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٢٥١-٢٥٢)، الإتيان (٢/ ٩٣). وقد فصل الأصوليون الخلاف فيما يتعلَّق (بخطاب المعدوم)، وأحيل هنا على كلٍّ من (البحر المحيط في أصول الفقه) (١/ ٣٠٥) فما بعد، والتَّحْيِير شرح التَّحْرِير (٦/ ٢٨٢٨).

﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾ [البقرة: ١١٧].

﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَّعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٤]. اختار الفراء أنَّ المخاطب: هما وذريتهما، وفيه (خطاب المعدوم)^(١).

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]. قيل: هذا بناء على (خطاب المعدوم)، وهل يصح أم لا؟^(٢). قال ابن عرفة^(٣): «وهنا إضمارٌ، أي:».

(١) انظر: معاني القرآن، للفراء (٣١/١)، وروح المعاني (٢٣٦/١)، (١٠٢/٨)، وينظر: البحر المحيط (٣٠٧/١).

(٢) ينظر ما قيل في ذلك في (روح المعاني) (١٤٣/١٤)، تفسير أبي السعود (١١٥/٥).

(٣) هو محمد بن محمد بن عرفة الوردغمي التونسي المالكي أبو عبد الله. قال أبو حامد بن ظهيرة في (معجمه)، إمامٌ علامةٌ، ولد (بتونس) سنة (ست عشرة وسبعمائة)، وقرأ بالروايات على أبي عبد الله محمد بن حسن بن سلمة وغيره، وبرع في الأصول، والفروع، والعربية، والمعاني، والبيان، والقراءات، والفرائض، والحساب. وسمع من ابن عبد السلام الهواري (الموطأ)، وأخذ عنه الفقه والأصول، ومن (الوادي آشي) الصّحّاحين، وكان رأساً في العبادة والزهد والورع، ملازماً للشغل بالعلم. رحل إليه الناس وانتفعوا به، ولم يكن بالغرب من يجري مجراه في التحقيق، ولا من اجتمع له من العلوم ما اجتمع له. وكانت الفتوى تأتي إليه من مسافة شهر، وله مؤلفات مفيدة. [٨٠٣هـ]. بغية الوعاة (٢٢٩/١)، لحظّ الألفاظ (ص: ١٢٧)، معجم المؤلفين (٢٨٥/١١).

فماتوا ثمَّ أحياهم»^(١). وقيل: عبَّرَ ﷻ عن المراد قبل وقوعه باسم الشيء؛ لأنَّ تحقق وقوعه كالوقوع بالفعل، فلا تنافي. وإطلاق الشيء على خصوص الموجود دون المعدوم؛ لأنَّه لما سبق في علم الله ﷻ أنَّه يوجد ذلك الشيء، وأنَّه يقول له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ كان تحقُّق وقوعه بمنزلة وقوعه؛ أو لأنَّه أطلق عليه اسم الشيء باعتبار وجوده المتوقع، كتسمية العصير: خمرًا في قوله: ﴿إِنِّي أَرِنِّي أَغَصِرُ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] نظرًا إلى ما يؤول إليه في ثاني حال^(٢).

وفي (التحرير والتنوير): «وشبه الشيء الممكن حصوله بشخص مأمور، وشبهه انفعال الممكن لأمر التكوين بامثال المأمور لأمر الأمر. وكلُّ ذلك تقريب للناس بما يعقلون، وليس هو خطابًا للمعدوم، ولا أنَّ للمعدوم سمعًا يعقل به الكلام فيمثل للأمر»^(٣).

وقد اتَّفَق العلماء على دخول المنتظمين في سلك التَّكليف وقت الوحي بالخطاب الشَّفاهي، نحو: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١] في جميع موارده على سبيل الحقيقة.

وقد اختلفوا فيمن لم يكن منتظمًا في سلك التَّكليف وقت الوحي بأن كان قاصرًا عن درجة التَّكليف؛ لصغره مثلاً، أو لم يكن موجودًا بالمرَّة بأن ولد بعد الوحي. كما اختلفوا في الإناث والعبيد والأمم

(١) تفسير ابن عرفة (٦٩٣/٢).

(٢) انظر: أضواء البيان (٣٧٧/٢)، (٣٧٠/٣)، (٣٠٠/٦)، وانظر: التحرير والتنوير (١٥٦/١٤).

(٣) التحرير والتنوير (١٥٦/١٤)، وينظر: تفسير ابن عادل (٥٨/١٢)، البحر المحيط (٥٣٦/١).

الماضية قبل رسالة الإسلام^(١).

وقد بدأ الآلوسي في (تفسيره)^(٢) بتحقيق هذه المسألة حيث بدأ يؤسس لعموم لفظ (النَّاس)، فلا بدَّ من إثبات أنَّه في أصله عامٌّ، ولكن عند الخطاب هل يبقى على عمومه أو يخرج عن هذا العموم؟ يقول الآلوسي: «والنَّاس اسم جمع على ما حَقَّقه جمع^(٣)، والجموع وأسمائها المحلَّاة -بأل- للعموم حيث لا عهد خارجي^(٤)، كما يدلُّ عليه وقوع الاستثناء^(٥)،»

(١) وقد نظرتُ في بيان ذلك أقوال المفسرين من المتقدمين والمتأخرين، فقد ذكر ذلك أبو السعود في (تفسيره) (١٣٧/٢)، وقد حَقَّق ذلك واستوفاه في كلام مطوَّل كلُّ من الآلوسي في (تفسيره) (١٨٣/١) فما بعد، والأستاذ الدكتور العلامة إبراهيم عبد الرَّحمن خليفة في (تفسير سورة النَّساء) من ص (١١٧) إلى (١٣٠). وقد أوجزت الأقوال في ذلك هنا... مع البيان والتَّخريج والتَّحقيق، كما أضفت فوائد استفدتها وسمعتها من العلامة أ.د إبراهيم خليفة أستاذ ورئيس قسم التفسير في جامعة الأزهر في القاهرة.

(٢) روح المعاني (١٨٣/١).

(٣) انظر: القواعد والفوائد الأصولية، للبعلي (١٩٤/١)، التَّحبير شرح التَّحرير (٢٣٦٢/٥).

(٤) ينظر: البحر المحيط في أصول الفقه (٢٥٢/٢).

(٥) ومَّا استدلَّ به الآلوسي أيضًا صحَّة الاستثناء، والأصل فيه الاتِّصال، فعندما أقول مثلاً: (الطُّلاب أو الطَّلَبَة إلا فلاناً، أو إلا كَلِيَّة كذا مثلاً يأتونني)...، فلولاً أنَّ كلمة: (الطُّلاب) تفيد العموم ما صحَّ الاستثناء، أو يقال: لولا أنَّها شملت الطَّلَبَة المستثنى ما صحَّ الاستثناء، فلو كانت الطُّلاب موضوعة للخصوص لكان ذكر (طلبة كذا) عبثاً... ولذلك اشتهر بين العلماء أنَّ (الاستثناء معيار العموم)، فكلُّ ما جاز الاستثناء منه كان عامًّا، وما لا يجوز الاستثناء منه فليس بعامٍّ، ومثال ذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِيرٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ۝﴾ [العصر: ٢-٣]، فإنَّ الاستثناء في الآية دلُّ على أنَّ كلمة (الإنسان) عامَّة، ولفظ: (الإنسان) اسم جنس على =

والأصل فيه الاتِّصال^(١)، وهو يقتضي الدُّخول يقينًا، ولا يتصوَّر إلا بالعموم، ونحو: (ضربتُ زيدًا إلا رأسه)، و(صمْتُ رمضانَ إلا عشره الأخير) عامٌّ تأويلًا^(٢)، وكذا التَّأكيد بما يفيد العموم؛ إذ لو لم يكن هناك عموم كان التَّأكيد تأسيسًا^(٣)، والاتفاق على خلافه، وشيوع

= بالألف واللام يفيد العموم، ولولا الاستثناء لكان كلُّ إنسان في خسرٍ سواء كان مؤمنًا أو كافرًا.. فمن قال: إن المفرد المعرف (بأل) لا يعم. يرد عليه بقوله عز وجل: ﴿وَالْقَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خَسِيرٌ ۝﴾؛ إذ لو لم يعم كل إنسان لما استثنى منه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية. (١) قوله: (الأصلُ في الاستثناء الاتِّصال)، فإنَّ (المُتَّصل) ما كان من جنس المستثنى منه، و(المنقطع) خارج عن جنس المستثنى منه. مثال ذلك: (جاء الطُّلاب إلا المقاول فلان، أو إلا العمال..)، فهذا استثناء منقطع، فالأصل في الاستثناء الاتِّصال بحيث لا يُصار إلى الانقطاع إلا إذا قامت قرينة بيّنة تدلُّ على أننا نتحدَّث عن غير هذا الجنس، وأنا ذكرناه لفائدة معينة، كما يقال: (جاء القومُ إلا حمارًا) وكأني أقول: (حمارًا) ليس من جنس القوم، وأنا أذكره الآن لفائدة أخرى، كأني أقول: لا يصح أن يغيب عن المخاطب أن حديثي قاصر على هذا الجنس، فلا تحاول أن تلحق بهذا الجنس آخر.

(٢) أورد الألوسيُّ اعتراضًا، وهو: كيف يقال: الاستثناء يفيد العموم؟ فكأنه يقول: سأتى لكم بخاصٍّ وقع فيه الاستثناء، كما يقال: (ضربتُ زيدًا إلا رأسه)، و(صمْتُ رمضانَ إلا يومًا). ف (زيد) خاصٌّ، وصحَّ منه الاستثناء، و(رمضان) شهرٌ مخصوص، وقد وقع الاستثناء منه. والجوابُ أنَّه عامٌّ تأويلًا، فهو خاصٌّ من ناحية عدم شموله لغيره، لكنَّه عامٌّ باعتبارِه كلاً له أجزاء، فالكلُّ أعمُّ من جزئه.

(٣) استدلَّ الألوسيُّ أيضًا بالتَّأكيد بما يفيد العموم، كالتَّأكيد بـ: (كلّ) و(جميع)، وهما من ألفاظ العموم، فعندما يقول الله عز وجل: ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]، فلو لم يكن لفظُ: (الملائكة) شاملاً لكافة أفراد الملائكة، بل كان مخصوصاً ببعض دون البعض، لكانت هذه الألفاظ تأسيسًا لا تأكيدًا، والاتفاق على خلاف ذلك، حيث إنَّ هذه الألفاظ عند العرب هي للتَّأكيد، بمعنى أنها تؤكِّد ما عُلِمَ سابقًا مع رفع احتمال التَّخصيص، فعندما أقول: (جاء الطُّلابُ) يحتمل في عقل البعض أنَّ (محمَّدًا) لم يأت، =

استدلال الصحابة رضي الله عنهم بالعموم كما في حديث السقيفة^(١)، وهم أئمة الهدى.

ثم هذا الخطاب في نحو: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ يسمّى بـ: (الخطاب الشفاهي) عند الأصوليين. قالوا: وليس عامًّا لمن بعد الموجودين في زمن الوحي، أو لمن بعد الحاضرين مهبط الوحي. والأوّل هو الوجه، وإنما يثبت حكمه لهم بدليل آخر من نصّ أو قياس أو إجماع، وأمّا بمجرد الصيغة فلا. وقالت الحنابلة: بل هو عامٌّ لمن بعدهم إلى يوم

= فعندما أقول: (كلّهم) أو (أجمعون) أكون قد رفعت احتمال التخصيص. وعندما أقول: (جاء محمد نفسه) أكون قد رفعت احتمال المجاز؛ لأنّه يحتمل في عقل البعض أنّ الذي أتى رسوله مثلاً... فلو كان لفظ: (النّاس) خاصّاً لكانت هذه الألفاظ تأسيساً، مع أنّها تأكيد باتفاق. وتنظر ألفاظ العموم على سبيل المثال.. إرشاد الفحول (ص: ٢١٣)، البحر المحيط في أصول الفقه (٢/ ٢٨٨-٢٩٦)، التلخيص، للجويني (٢/ ١٤) فما بعد.

(١) وذلك عندما احتجّ المهاجرون به على الأنصار يوم (ثقيفة بني ساعدة) من أنّ الإمامة في قریش، فعندما انتقل الرسول صلّى الله عليه وآله إلى الرّفيق الأعلى ذهب الأنصار قبل المهاجرين إلى (ثقيفة بني ساعدة) ثمّ تبعهم المهاجرون، ثمّ اختلفوا من الإمام بعد النّبي صلّى الله عليه وآله؟ فالأنصار يقولون: نحن أولى، والمهاجرون يقولون: نحن أولى، فجاء أبو بكر الصّديق رضي الله عنه فذكر قول النّبي صلّى الله عليه وآله: «الأئمة من قریش»، و(الأئمة) جمع (إمام)، وقد دخلت عليها الألف واللام، فلو كانت (أل) إذا دخلت على الجمع لا تفيد العموم لكانت كلمة أبي بكر رضي الله عنه غير مفيدة، وقد سمع ذلك جمع من أصحاب النّبي صلّى الله عليه وآله، ولم تكن القضية لتنتهي لولا دخول (أل) التي تفيد العموم. وقوله صلّى الله عليه وآله: «الأئمة من قریش». انظر: مسند الإمام أحمد في باقي مسند المكثرين، مسند أنس بن مالك رضي الله عنه، رقم [١١٨٥٩]، [١٢٤٣٣]، وفي أوّل مسند البصريين. وهو عند الحاكم بلفظ: «الأمرء من قریش» قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (٤/ ٥٤٦)، وانظر: البدر المنير (٨/ ٥٣٠).

القيامة^(١).

واستدلَّ الأولون بأننا نعلم أنه لا يقال للمعدومين نحو: ﴿يَكْأُثُّهَا النَّاسُ﴾. قال العضد^(٢): وإنكاره مكابرة، وبأنه امتنع خطاب الصَّبيِّ والمجنون بنحوه، وإذا لم نوجِّهه نحوهم مع وجودهم لقصورهم عن الخطاب، فالمعدوم أجدر أن يمنع؛ لأنَّ تناوله أبعد^(٣). واستدلَّ الآخرون بأنه لو لم يكن الرسول ﷺ مخاطبًا به لمن بعدهم لم يكن مرسلًا إليهم، واللَّازم منتفٍ، وبأنه لم يزل العلماء يحتجُّون على أهل الأعصار ممن بعد الصَّحابة بمثل ذلك، وهو إجماع على العموم لهم. وأجيب...

أما عن الأوَّل: فبأن الرِّسالة إنَّما تستدعي التَّبليغ في الجملة، وهو لا يتوقَّفُ على المشافهة، بل يكفي فيه حصوله للبعض شفاهاً، ولللبعض بنصب الدلائل والأمارات على أنَّ حكمهم حكم الذين شافهم.

(١) انظر: التَّقرير والتَّحجير (٢٨٩/١)، التَّحجير شرح التَّحرير (٢٤٩٥/٥)، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (٣٢٢/٢).

(٢) هو (عضد الدِّين الإيجي) عبد الرَّحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدِّين الإيجي، عالم بالأصول والمعاني والعربيَّة. من أهل (إيج) بفارس، وليَّ القضاء، وأنجب تلاميذ عظاماً. وجرت له محنة مع صاحب (كرمان)، فحبسه بالقلعة، فمات مسجوناً [٧٥٦هـ]. الأعلام (٢٥٩/٣)، بغية الوعاة (٧٥/٢).

(٣) انظر: حاشية العلامة سعد الدِّين التَّفتازاني، وحاشية السَّيد الشريف الجرجاني على شرح القاضي عضد الملة والدِّين لمختصر المنتهى للإمام ابن الحاجب المالكي مع حاشية المحقق الشَّيخ حسن الهروي على حاشية السَّيد الجرجاني (١٦-١٥/٢).

وأما عن الثاني: فبأنه لا يتعين أن يكون ذلك لتناوله لهم، بل قد يكون؛ لأنهم علموا أن حكمه ثابت عليهم بدليل آخر قاله غير واحد. وفي شرح العلامة الثاني للشرح العضدي^(١) أن القول بعموم الشفاهي وإن نسب إلى الحنابلة ليس ببعيد. وقال بعض أجلة المحققين: إنه المشهور حتى قالوا: إن الحق أن العموم معلوم بالضرورة من الدين المحمدي، وهو الأقرب، وقول العضد: إن إنكاره مكابرة حق لو كان الخطاب للمعدومين خاصة، أما إذا كان للموجودين والمعدومين على طريق التغليب فلا، ومثله فصيح شائع، وكل ما استدلل به على خلافه ضعيف. انتهى.

وإلى العموم ذهب كثير من الشافعية^(٢) على أنه عندهم عام بحق لفظه ومنطوقه من غير احتياج إلى دليل آخر. وقد قيل: إنه من قبيل الخطاب العام الذي أجرى على غير ظاهره كما في قوله:

(١) يعني: سعد الدين التفتازاني، ويعني من (الشرح العضدي) شرح العلامة عضد الدين الإيجي على مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وكلها مطبوعة في كتاب واحد (١٥/٢-١٦). والسعد التفتازاني هو مسعود بن عمر بن عبد الله التفتازاني، سعد الدين، من أئمة العربية والبيان والمنطق. فهو عالم بالنحو والتصريف والمعاني والبيان والأصليين والمنطق وغيرها. شافعي، وأخذ عن القطب والعضد، وتقدم في الفنون، واشتهر ذكره، وطار صيته، وانتفع الناس بتصانيفه. ولد (بتفتازان) -من بلاد (خراسان)- وأقام (بسرخس)، وأبعده (تيمورلنك) إلى (سمرقند)، فتوفي فيها، ودفن في (سرخس). كانت في لسانه لكنة. [٧٩٣هـ]. الأعلام (٧/٢١٩)، وانظر: الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية، لطاش كبرى زادة (ص: ٣٧)، بغية الوعاة (٢/٢٨٥).

(٢) انظر: الشذا الفياح من علوم ابن الصلاح (٢/٤٧٦)، التقرير والتحبير (١/٢٨٩).

(إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا)^(١). وقد حقق الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة القول في ذلك مبينا أن قول الجمهور هو الصواب والمتعين من كون الخطابات الشفاهية تشملهم حقيقة، ولا تشمل غيرهم إلا على سبيل المجاز... وسأتي على بيان أهم ما ذكره الدكتور إبراهيم خليفة من التعقيب على كلام الألوسي في كلامه الآنف الذكر.. بإيجاز؛ وذلك لأهميته، وحيث لم أجد نظيرا لما ذكره، مع الإحالة إلى (تفسير سورة النساء)...^(٢).

يقول أستاذنا العلامة إبراهيم خليفة: «أما حديث التغليب فإنه جارٍ على وفق دعوى الجمهور، فمن المتقرر لدى علماء البيان أن (دلالة التغليب) مجاز لا حقيقة؛ فإنه ليس إلا (التجريد البياني)، وهو إما راجع لعلاقة التقييد حسبما هو الصحيح المتجه^(٣)، كما يقال: (قمران) عن الشمس والقمر^(٤)، فنكون قد جردنا القمر عن قيوده المشخصة له، والمميّزة له عن كوكب الشمس بإطلاقه على مطلق

(١) روح المعاني (١/ ١٨٣-١٨٤). ينظر: الكليات (ص: ٦٦١-٦٦٢). والبيت للمتنبي. انظر: خزانة الأدب (١/ ٢٠٠)، قرى الضيف (١/ ٢٥١)، المستطرف (٢/ ١٧١)، تهذيب الرئاسة (ص: ١٢٤).

(٢) تفسير سورة النساء، من ص (١١٧) إلى (١٣٠).

(٣) أي: بالنظر إلى المعنى المنتقل عنه.

(٤) انظر: شروح تلخيص الفتاح (٤/ ٣٤٨-٣٤٩)، جواهر البلاغة (ص: ٢٢٧)، ومغني اللبيب عن كتب الأعاريب (١/ ٩٠٠)، وانظر: صبح الأعشى (١٤/ ٤٠٦)، مفردات غريب القرآن الكريم، للأصفهاني، مادة: (بحر) (١/ ٧٠)، ولسان العرب، مادة: (بحر)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢/ ١٣٠).

(الكوكب المنير) الشَّامِل لليلي والنَّهاري، وتثنيته بهذا المعنى حتى جاز أن يشمل الشَّمْس.

وإمَّا أن يكون (التَّجريد البياني) علاقة مستقلة من علاقات المجاز المرسل؛ فإنَّ الأمر مجاز لا حقيقة. وكذلك فيما حكاه الآلوسي في قوله: إِنَّه من قبيل العامِّ الَّذي أجري على غير ظاهره.. إلخ؛ فإنَّ الخروج عن الظَّاهر هو الآخر من قبيل دلالة المجاز سواء أكان من باب التَّغليب كما في البيت المذكور، بأن يغلب المشافه على غيره من مطلق من تحقق فيه الأهلِيَّة للخطاب، أم كان من غير هذا الباب^(١) ثمَّ قال الآلوسي: «وفي تناول نحو هذه الصَّيغة للعبيد شرعًا حتَّى يعمَّهم الحكم خلافًا، فذهب الأكثرون إلى التَّنَاول؛ لأنَّ العبد من النَّاس مثلاً فيدخل في الخطاب العامُّ له قطعًا، وكونه عبدًا لا يصلح مانعًا لذلك. وذهب البعض إلى عدم التَّنَاول. قالوا: لأنَّه قد ثبت بالإجماع صرفُ منافع العبد إلى سيِّده، فلو كُلف بالخطاب لكان صرفًا لمنافعه إلى غير سيِّده، وذلك تناقض، فيتبع الإجماع، ويترك الظَّاهر. وأيضًا خرج العبد عن الخطاب بالجهاد والجمعة والعمرة والحجَّ.. والتَّبرعات والأقارير ونحوها، ولو كان الخطاب متناولًا له للعموم لزم التَّخصيص، والأصل عدمه.

والجواب عن الأوَّل: أَنَّا لا نُسلم صرف منفعه إلى سيِّده عمومًا، بل قد يستثنى من ذلك وقت تضايق العبادات حتَّى لو أمره السيِّد في

(١) بتصرف عن (تفسير سورة النساء) (ص: ١٢٣-١٢٤).

آخر وقت الظهر، ولو أطاعه لفاتته الصلاة، وجبت عليه الصلاة، وعدم صرف منفعته في ذلك الوقت إلى السيد. وإذا ثبت هذا فالتعبد بالعبادة ليس مناقضا لقولهم: بصرف المنافع للسيد.

وعن الثاني: بأن خروجه بدليل اقتضى خروجه، وذلك كخروج المريض والمسافر والحائض عن العمومات الدالة على وجوب الصوم والصلاة والجهاد، وذلك لا يدل على عدم تناولها اتفاقاً. غايته أنه خلاف الأصل ارتكب لدليل وهو جائز. ثم الصحيح أن الأمم الدارجة قبل نزول هذا الخطاب لا حظ لها فيه؛ لاختصاص الأوامر والنواهي بمن يتصور منه الامتثال، وأنى لهم به؟ وهم تحت أطباق الثرى لا يقومون حتى ينفخ في الصور.

وجوز بعضهم كون الخطاب عاماً بحيث يندرجون فيه. ثم قال: ولا يبعد أن يكون الأمر الآتي عاماً لهم أيضاً بالنسبة إلى الكلام القديم القائم بذاته ﷺ، وإن كان كونه عربياً عارضاً بالنسبة إلى هذه الأمة، وفيه نظر؛ لأن المنظور إليه إنما هو أحكام القرآن بعد النزول، وإلا لكان النداء وجميع ما فيه من خطاب المشافهة مجازات، ولا قائل به، فتأمل. وعلى العلات لفظ: (الناس) يشمل الذكور والإناث بلا نزاع. وفي شمول نحو قوله ﷺ: ﴿أَتَقُوا رَبَّكُمْ﴾ [النساء: ١] خلاف. والأكثر على أن الإناث لا يدخلن في مثل هذه الصيغة ظاهراً خلافاً للحنابلة^(١).

(١) انظر: المسودة في أصول الفقه (ص: ٤١)، روضة الناظر (ص: ٢٣٦)، وينظر: التفسير والتجوير (١/ ٢٧١)، المحصول، لابن العربي (ص: ٧٨)، قواطع الأدلة (١/ ١١٥).

استدلَّ الأولون بأنه قد روى عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله: إِنَّ النِّسَاءَ قُلْنَ: ما نرى الله ﷻ ذكر إلا الرِّجَالُ فَأَنْزَلَ ذَكَرَهُنَّ^(١)، فنفت ذكرهنَّ مطلقاً، ولو كنَّ داخلات لما صدق نفيهنَّ، ولم يجز تقريره -عليه الصَّلَاة والسلام- للنَّفي، وبأنَّه قد أجمع أرباب العربيَّة على أنَّ نحو هذه الصِّيغة جمع مذكَّر، وأنَّه لتضعيف المفرد، والمفرد مذكَّر، وبأنَّ نظير هذه الصِّيغة: (المسلمون)، ولو كان مدلول (المسلمات) داخلاً فيه لما حسن العطف في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] إلا باعتبار التَّأكيد، والتَّأسيس خير من التَّأكيد..

وقال الآخرون: المعروف من أهل اللِّسان تغليبهم المذكر على المؤنث عند اجتماعهما باتِّفاق، وأيضاً لو لم تدخل الإناث في ذلك لما شاركن في الأحكام لثبوت أكثرها بمثل هذه الصِّيغة، واللَّازم متف بالاتفاق، كما في أحكام الصَّلَاة والصَّيَام والزَّكَاة. وأيضاً لو أوصى لرجال ونساء بمائة درهم، ثمَّ قال: (أوصيت لهم بكذا) دخلت النِّساء بغير قرينة، وهو معنى الحقيقة، فيكون حقيقة في الرِّجال والنِّساء، ظاهراً فيهما، وهو المطلوب. وأجيب: أمَّا عن الأوَّل فبأنَّه إنما يدلُّ

(١) أخرجه الإمام أحمد عن أم سلمة رضي الله عنها بلفظ: ... قالت: قلت: يا رسول الله ما لنا لا نذكر في القرآن كما يذكر الرِّجال؟ إلخ. أخرجه أحمد [٢٥٣٦٣]، [٢٥٣٨٩]، وأخرجه الترمذي وحسنه عن أمِّ عمارة الأنصاريَّة أنها أتت النَّبيَّ ﷺ فقالت: ما أرى كلَّ شيءٍ إلا للرِّجال وما أرى النِّساء يذكرن بشيء؟ فنزلت... الترمذي [٣١٣٥].

على أن الإطلاق صحيح إذا قصد الجميع، والجمهور يقولون به، لكنه يكون مجازاً، ولا يلزم أن يكون ظاهراً، وفيه النزاع. وأمّا عن الثاني فبمنع الملازمة. نعم يلزم أن لا يشاركهن في الأحكام بمثل هذه الصيغة، وما المانع أن يشاركنَ بدليل خارج؟ والأمر كذلك؛ ولذلك لم يدخلنَ في الجهاد والجمعة مثلاً، لعدم الدليل الخارجي هناك. وأمّا عن الثالث فبمنع المبادرة ثمة بلا قرينة، فإنّ الوصية المتقدمة قرينة دالة على الإرادة، فالحقّ عدم دخول الإناث ظاهراً. نعم الأولى هنا القول بدخولهن باعتبار التغليب، وزعم بعضهم أن لا تغليب، بل الأمر للرجال فقط كما يقتضيه ظاهر الصيغة، ودخول الإناث في الأمر بالتقوى للدليل الخارجي، ولا يخفى أنّ هذا يستدعي تخصيص لفظ: (الناس) ببعض أفرادهِ؛ لأنّ إيقاؤه حينئذ على عمومهِ مما يأباه الذوق السليم^(١).

والحاصل أنّ الخطابات الشرعية سواء في ذلك خطابات الكتاب والسنة تسمّى في عرف الأصوليين (الخطابات الشفاهية) يقصدون الخطابات التي شافه بها الله ﷻ، أو النبي ﷺ المكلفين. أمّا بالنسبة للمتظمين في سلك التكليف وقت هذه الخطابات من الذكور الأحرار فإنّ الخطاب يشملهُ قطعاً على سبيل الحقيقة..

(١) روح المعاني (٤/١٧٩-١٨٠). ينظر ما أورده الأستاذ الدكتور إبراهيم خليفة في (تفسير سورة النساء) من (ص: ١٢٨)، إلى (١٣٠)، وتفسير أبي السعود (١/٥٨)، وينظر: تفسير أبي السعود أيضاً (٢/١٣٨).

أمّا غير المكلفين يومئذٍ كالصّغار فضلاً عن الذين لم يوجدوا بعد، فهل هذه الخطابات تشملهم أو لا تشملهم؟
 فأوّل ما يتقرّر في ذلك أنّ خلاف المختلفين ليس في المطالبة بمضمون هذه الخطابات، وإنّما الخلاف في الدّلالة على الحكم، فمثلاً قول الله ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ فمن يقول: الخطابات تشمل المكلفين ومن سيكلف، أي: من سيتنظم في سلك التّكليف على سبيل الحقيقة، سيقولون: الخطاب للكلّ..، وهؤلاء هم الحنابلة -كما سبق- حيث يقولون: (الخطابات الشّفاهيّة) تشمل من هو مكلف ومن ليس مكلفاً إلى يوم القيامة.

والجمهور قالوا: لا تشمل من لم يكن يومئذٍ مكلفاً على سبيل الحقيقة؛ وذلك لأنّ معظم غير المكلفين يومئذٍ كانوا معدومين.. فهل يصلح (خطاب المعدوم)؟

ولتوضيح ذلك يقال: لتتصوّر أنّ إنساناً لم يتزوج مثلاً، فيقول -وهو يتصوّر أنّه سينجب ولداً، ويسمّيه محمّداً، ويدخله المدرسة- فوقف وقال: (يا محمّد أقم الصّلاة)، فلا شكّ أنّ ذلك عبث. فإذا تزوج فعلاً وأنجب طفلاً، ولا زال مثلاً في الأيام الأولى من ولادته، فقال له: (أقم الصّلاة)، أو قال له: (يا محمّد اذهب إلى فلان وقل له كذا وكذا)، طبعاً هذا عبث أيضاً.

فإذا كان خطاب الموجودين القاصرين عن أهليّة التّخاطب عبثاً، فما بالكم بالمعدوم؟ ولا ينكر ذلك إلا مكابر كما ذكر العضد..

ولكن الحنابلة يقولون: هل النبي ﷺ مرسلٌ إلى طائفةٍ مخصوصةٍ، أم إلى جميع الناس إلى يوم القيامة؟ أليس النبي ﷺ قد أرسل للعالمين، والقرآن أنزل للناس كافة؟

وقد ردَّ الجمهور على ذلك بأنَّ مسلمونَ بأنَّ النبي ﷺ مرسلٌ للجميع، ولكن لا نُسلم أنَّ الإرسال متوقَّف على (الخطابات الشفاهية)، فإذا خاطَبَ النبي ﷺ المكلفين، يأتي بعد ذلك المخاطبون فيقولون لمن بعدهم: النبي ﷺ مرسل إلى الجميع، وقد لزمنا الخطاب لكوننا مكلفين، فإذا صرتم مكلفين، أو تحقَّقت فيكم شروط التكليف لزمكم الحكم كما لزمنا بالقياس، ويذكر في ذلك التُّصوص الدَّالة على عموم الرِّسالة.

ثمَّ اعترض الحنابلة بعد ذلك بأنَّه قد شاع الاستدلال بالعمومات^(١)، فيقولون: عندما يأتي ابن عباس -رضي الله عنهما- فيقول: السَّارق تقطع يده^(٢)، فيقال له: ما الدَّلِيل؟ فيقول: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، فلولا شمول الآية لما صحَّ الاستدلال بها.

(١) انظر: إرشاد الفحول (ص: ٢٣٧).

(٢) أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن نجدة الحنفي قال سألت ابن عباس -رضي الله عنهما- عن قوله عز وجل: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ [المائدة: ٣٨]، أخاص أم عام؟ فقال: بل عام. تفسير الطبري (٦/٢٢٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢/٥٦)، والدر المنثور (٣/٧٣)، تفسير القاسمي (٣/١١٧).

وأجيب بأنَّهم ذكروا ذلك، ولكن من أين لكم أنَّهم ذكروها على
سبيل الاستدلال لا على سبيل بيان الحكم الَّذي تتضمَّنه؟ فالَّذي ألجأنا
إلى ذلك الضَّرورة الَّتِي لا دافع لها..



المبحث العاشر

خطاب الجمادات

الإشارة هنا إلى موضعه، فحيث لم يأتِ خطاب الجمادات إلا بصيغة النداء، فإني أحيل إلى (الفصل الثالث)، حيث يأتي بيانه في (النداء) ..

